مُحمّد مُواعدة

مُحمّد الخضر حسين

حياته وآثاره

(1873م - 1958م)

تقديم

المنجي الشملي
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية - الجامعة التونسية

الدار التونسية للنشر

جميع الحقوق محفوظة للدار التونسية للنشر 1974

الشيخ محمد الخضر حسين

تقديم

بقلم المنجي الشملي
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية
(الجامعة التونسية)

هذا بحث أنجزه السيد محمد مواعده في كلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة التونسية ، وتقدم به لنيل درجة « شهادة الكفاءة في البحث » ، فنوقش في الخامس عشر من شهر ديسمبر سنة 1972 ، وكان نجحه فيه بتفوق قدرته اللجنة بملاحظة استحسان ٠

لقد أشرفت على هذا البحث منذ أن كان فكرة مجردة عرضها على صاحبها الى أن استوى أثرا مرقونا فمطبوعا ٠ وكان السيد محمد مواعده يلقاني حسب مواقيت مضروبة ، فنجلس للعمل في كلية الآداب ، وكثيرا ما نطيل الجلوس وقد نسي صاحب البحث أنه يتهيأ لامتحان ، وتجاوزت أنا مهمتي مشرفا على البحث وموجها لصاحبه ٠ فقد كان في كل مرة يطالعني بوثائق مفيدة وتحليل لها مستقيم ويعرض علي في كل جلسة تمييزا للآثار حصيفا وتصحيحا للأخبار رصينا ، متأنيا فيما يطالعني به ، متحفظا فيما يعرضه علي ، جادا في أمانة ، مستقصيا في صدق ، بطيئا حيث البطء له حالاته الموجبة له ، متمهلا حيث التمهيل له حالاته الموجبة له ، غير متهيب من الشك في المشكوك فيه ، حريصا على الاستنتاج كلما كانت الحجة بالغة أو كان الخبر قاهرا ٠ وكان في كل ذلك مثابرا لم يثنه عن التوغل في مباحثه ما أطالبه به من تعمق الفكرة وتدقيق الحكم ، وإرساء قواعد ثابتة للموضوع ، وتخطيط عناصر موافقه له واضحة٠

وما هي إلا أن سيطر المؤلف على بحثه ولم يسيطر البحث عليه ، فاذا هو يمارس النصوص والوثائق في مطاولة لا يخالطها ملل وفي ممارسة لا يمازجها كلال ٠

* * *

نذكر جميعا محمد الخضر حسين فنكاد لا نتصوره إلا رمزا غامضا : يعرف الواحد من أمره ما لا يعرفه الآخر ، هذا يكبره ولا دليل ، وذاك يستنقصه ولا حجة ، والرجل الرشيد يقتصد في الحكم فيتوقف ٠

أما الآن فقد تجلت لنا عن حياة الرجل وأفعاله ومواقفه وآثاره صورة إلا تكن واضحة وضوحا فهي غير غامضة على كل حال ، وإلا تكن مقنعة إقناعا فهي سبيل الى اليقين • هى الصورة التى بلغها البحث الآن والعلم •

وعلى الرغم من قصر الفاصل الزمني بيننا وبين مترجمنا ، فان المؤلف ذاد المبالغة فالتزم الموضوعية المضمنة بالعقل ، أو بالدليل ، أو بشاهد عيان •

* * *

تجلت لنا صورة « محمد الخضر حسين » ـ من خلال هذا البحث ـ في ثلاث مراحل هى : المرحلة التونسية ، والمرحلة السورية ، والمرحلة المصرية •

مدة المرحلة التونسية 40 سنة (1873 ـ 1912) :

وهى فترة التعلم والتثقف • ولد محمد الخضر فى بلدة « نفطة » بالجنوب التونسي ، وتعلم فى جامع الزيتونة حيث اشتغل على أعلام الشيوخ ، وعاشر جلة العلماء ، وولع بمخاطبة الناس مدرسا ومحاضرا • وقد انتمى الى كتلة الشيوخ المحافظين المعارضين للاصلاح الاجتماعى والدينى ، فأسس مجلة « السعادة العظمى » •

مدة المرحلة السورية 8 سنوات (1912 ـ 1920) :

وهى فترة ترحال ومعاشرة للرجال • غادر الشيخ محمد الخضر حسين موطنه تونس فى طريقه الى « الشرق » فزار مصر حيث التقى بالشيخ رشيد رضا ، والحجاز ، وألبانيا ، وبلاد البلقان ، والآستانة ، ثم انتهى به المطاف الى دمشق حيث التحق باخوته زين العابدين والمكى والعروسي ؛ فدرس بالمدرسة السلطانية وحاضر فى الجامع الأموى ونشر فى الصحف مقالات عديدة داعيا الى توثيق عرى الألفة بين العرب والترك ومؤيدا الخلافة العثمانية ، وسفر لتركيا فى المانيا •••

مدة المرحلة المصرية 38 سنة (1920 ـ 1958) :

وهى فترة الاستقرار والشهرة العلمية وبلوغ أعلى المراتب • غادر الشيخ سوريا سنة 1920 اثر سقوطها تحت النفوذ الفرنسى ؛ ويهبط مصر ، وقد ناهز الخمسين واستكمل العلم ورسخت قدمه فى ممارسة المجتمع ومعرفة الرجال ، فلا غرابة فى أن نجده يشارك فى المعركة السياسية الدينية اثر صدور كتاب على عبد الرازق « الاسلام وأصول الحكم » سنة 1925 ، فيؤلف للرد عليه كتابه « نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم » ، فينال به حظوة لدى

الملك فؤاد وبه يطير صيته لدى علماء الاسلام فى كل بلاد • ولا غرابة فى أن نجده يشارك فى الضجة الكبرى إثر صدور كتاب طه حسين « فى الشعر الجاهلى » سنة 1926 ، فيؤلف للرد عليه كتابه « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » ، فينال به حظوة لدى شيوخ الأزهر وبه يلمع اسمه لدى المحافظين فى الادب والسياسة جميعا • وما هى إلا أن تدعمت شهرة الرجل العلمية ، فاعترف له القوم بسعة الثقافة وشهدوا له بأنه من كبار علماء الأزهر ، فاذا هو رئيس جمعية الهداية الاسلامية (1928) ، واذا هو فى مجمع اللغة القاهرى (1933) ، واذا هو فى منصب شيخ الأزهر (1952) •

* * *

هذه شخصية الشيخ محمد الخضر حسين بين الأضواء والظلال ؛ هى شخصية قوية لا شك ، عنيدة صلبة آسرة ! لها ملامح مضيئة ولها ملامح غامضة أيضا ••• فلئن نحن جلونا ، بفضل هذا البحث الذى بين أيدينا ، صورة العالم فى الشريعة ، وصورة المدرس المحاضر ، وصورة اللغوى المحقق ، وصورة الرحالة ، فان صورة الرجل السياسى تكاد لا تستبين ، متلاشية خلال الظلال •

ألم نجده متجنبا للسياسة فى تونس ؟ ألم يزر البلاد الجزائرية فلم يذكر فى حكايته عنها شيئا من أثر الاستعمار الفرنسى ؟ ولئن هو كان يدعو إلى الألفة بين العرب والترك ــ وهو مقيم فى دمشق ــ فقد كان يقول : « أعمل للقضية الاسلامية بقدر ما أستطيع » ، ثم هو يسجن من قبل الحاكم التركى جمال باشا ويقبل مع ذلك خطة « منشئى عربى » فى وزارة الحربية بالباب العالى ، وهو « مركز حساس » كما يقول ••• وكيف نعلل سفارته للباب العالى فى ألمانيا وقد كانت حليفة لتركيا وفى حرب ضد فرنسا ؟ ألهذه السفارة صلة « بشمال افريقيا » ؟ هذه أسئلة لا نريد بها استنقاصا للرجل ولا تنويها به ، إنما نطرحها الآن ••• وهى تستوجب الرجوع الى وثائق تركية وسورية وفرنسية ••• والاستعانة بمن كان شاهد عيان •••

* * *

وصفوة القول فان هذا البحث زاخر بالمعلومات ، واضح الأسلوب ، فاتح لموضوع خطير فى تاريخ فكرنا ومجتمعنا ؛ وهذا البحث بداية حافزة لمواصلة البحث ، دال على قيمة الرسائل المقدمة لنيل الدرجات العلمية فى كلية الآداب والعلوم الانسانية •

(نوفمبر 1973)
ــ تونس ــ

المنجى الشملى

إلى القارئ

هذا الكتاب رسالة قدمتها الى كلية الآداب والعلوم الانسانية بالجامعة التونسية لنيل شهادة الكفاءة فى البحث • وقد أعددتها باشراف الاستاذ المنجى الشملي ونوقشت يوم 15 ديسمبر 1972 أمام لجنة تألفت من الاستاذين عبد القادر المهيرى والمنجى الشملي وقبلت بملاحظة حسن • واغتنم مناسبة نشر هذا العمل على الناس لأشكر الاستاذ الشملي على ما وجدته لديه من مساعدة مدة إعداد البحث ، وحث على المزيد من التعمق فى الموضوع ، والدقة فى ضبط إطار منهجي يمكن من جعل البحث أكثر شمولا ووضوحا • كما أشكر الدكتور المهيرى على ما قدمه لى من ملاحظات مفيدة أثناء المناقشة ، وما أجده منه من تشجيع وإفادة دائمين • وأشكر جميع الذين ساعدونى على أن يكون الكتاب على الصورة التى هو عليها سواء من حيث المضمون ، أو من حيث الشكل وخاصة :

1 ـ الشيخ المرحوم محمد الطاهر ابن عاشور الذى وافاه الأجل المحتوم والكتاب تحت الطبع • فقد وجدت منه ـ رحمه الله ـ المساعدة الكاملة سواء بتمكينى من المراجع والمصادر النادرة ، أو بمدى بكل المعلومات التى تتعلق بشخصية وآثار الشيخ محمد الخضر حسين الذى كان من أعز أصدقائه وأخلصهم • وكان الشيخ ابن عاشور بهذا العمل وفيا لروح صديقه القديم وللعلم وأهله •

2 ـ السادة : الاستاذ محمد العروسى المطوى والدكتور على الشابى والاستاذ أبو القاسم كرو والاستاذ على رضا التونسى (ابن أخى الشيخ محمد الخضر) والاديب الحبيب شيبوب ، الذين مكنوني من وثائق هامة ومفيدة تتعلق ببعض الجوانب من حياة الشيخ محمد الخضر حسين •

3 ـ السيد عزوز الرباعى الرئيس المدير العام للدار التونسية للنشر الذى أبدى اهتماما خاصا بهذا الكتاب ، كما وجدت لديه تقديرا وعونا فائقين •

4 ـ كافة العاملين بالدار التونسية للنشر الذين ساهموا فى إصدار هذا الكتاب على صورته الحالية •

وأرجو ـ فى خاتمة هذه الكلمة ـ أن يكون هذا البحث « التعريفى » مفيدا للقارىء الكريم من حيث تمكينه من الاطلاع على جوانب من شخصية هذا العلامة التونسى الشهير فى العالم الاسلامى ••• وأرجو أن أوفق فى ذلك فان قصرت فالمعذرة ، والكمال غاية الانسان التى لا تدرك •

ـ المؤلف ـ

مقدمة

اهتممت بدراسة شخصية الشيخ محمد الخضر حسين لانه علم بارز من اعلام الاسلام فى العصر الحديث شارك مشاركة فعالة فى الحركة الفكرية سواء فى المغرب او فى المشرق العربيين وارتبط اسمه باسماء عدد كبير من رجالات الدين الذين قاموا بدور هام فى ميادين مختلفة دينية ولغوية وادبية وسياسية.

وموضوع بحثنا هو « محمد الخضر حسين : حياته وآثاره » لانه ليس بين ايدينا الى حد الآن دراسة شاملة تعرف بالرجل وتبين مراحل حياته المختلفة وما كان لهذه المراحل من تأثير فى تكوين شخصيته الثقافية المتكاملة ، كما انه ليس بين ايدينا ايضا تعريف بآثاره ـ وهى آثار متنوعة المحتوى غزيرة المضمون ـ يمكننا من احصاء مؤلفاته حتى نقدمها تقديما يساعد على معرفة تفكير الرجل بطريقة علمية ويعطى صورة واضحة عن اتجاهاته ونظرياته .

ولذلك يمكن اعتبار هذه الدراسة تمهيدا يساعد على معرفة الرجل والتعمق فى آثاره ومواقفه ووضعه في اطاره ضمن الحركة الفكرية الاسلامية .

وقد اعتمدت لاعداد هذه الدراسة على جميع المصادر والمراجع التى امكن الحصول عليها من كتب ومجلات وصحف واتصلت بعدد من العلماء الذين عاصروه وخاصة من كانت تربطه بهم صلات متينة كثيرا ما لاحظنا اشارات عنها فى آثاره النثرية او الشعرية . كما اتصلت كذلك ببعض من كانوا طلبة فى عهده وتتبعوا دروسه او كانوا على اتصال مستمر به وخاصة فى السنوات الاخيرة من حياته بالبلاد المصرية ، واشرت الى كل ذلك فى الابان.

ويتألف هذا البحث من ثلاثة اقسام يتفرع كل منها الى ابواب وفصول :

1 ـ فالقسم الاول خاص بحياة الرجل فى مختلف مراحلها من طفولته الى تعلمه بجامع الزيتونة وتعليمه به ، ثم سفره الى المشرق العربى وبعض البلدان الاوروبية ثم استقراره اخيرا فى مصر الى نهاية حياته •

وتجدر الاشارة الى اننى لم استطع التوصل الى معرفة جميع جوانب حياة الشيخ محمد الخضر حسين بكل التفصيل والدقة اللازمين فى بحث علمى ، فبقيت عدة عناصر غامضة تحوم حولها نقط استفهام عديدة وتخضع لتأويل عديدة ايضا لم استطع البت فيها والاجابة عنها ، ولذلك فقد تعرضت الى هذه الجوانب واشرت الى مختلف الاحتمالات وارجأت البت فيها حتى يساعدنا المزيد من البحث والاستقصاء سواء بتونس او بالبلدان التى اقام بها هذا العلامة فى فترات هامة من حياته على الوصول الى اجابات مقنعة تسد الفراغ الموجود • ولا غرابة ان يبقى هذا الفراغ وقد عاش الرجل فتـرات مليئـة بالاحداث خاصة فى الربع الاول من القرن العشرين ، وتنقل عبر بلدان كثيرة وتقلد مهام كانت ـ فى رأينا ـ تدعوه الى كثير من الاحتياط والحذر •

هذا ولم استعرض مراحل حياته لمجرد معرفتها بل لمساعدتنا على فهم آثاره لانها حياة عالم يتفاعل فيها الحدث مع الفكر فيخلق عصارة ثرية تساهم فى تكوين الانسان ودعم الحضارة •

2 ـ اما القسم الثانى فيشتمل على آثاره التى رجعت اليها ودرستها سواء منها الكتب التى ألفها والتى تمثل ـ كما سنلاحظ ذلك خلال البحث ـ مواقف رفض معينة فى الدين والادب والسياسة او الكتب التى هى مجموعة مقالات ومحاضرات صدرت فى عدد من المجلات بتونس أو ببعض بلـدان المشـرق العربى ، كما رجعت الى المقالات التى لم تجمع الى الآن فى كتب ـ وهى كثيرة العدد متنوعة الموضوع ـ والتى ما زالت متناثرة فى عدد من المجلات والصحف كما درست آثاره الشعرية التى منها ما هو مجموع فى ديوان ومنها ما هـو منشور فى بعض المجلات ينتظر الجمع والتبويب والنشر •

وقد قمت باحصاء جل ما كتبه الرجل وتحديد الاتجاهات البارزة فى كل أثر نثرى أو شعرى تمهيدا للتعريف بتفكيره وضبط مكانته فى ميادين الادب واللغة والدين والسياسة •

ومن الملاحظ اننى لم استطع التوصل الى ضبط كل ما كتبه الشيخ محمد الخضر حسين لانه كان كثير الكتابة فى الصحف والمجلات خاصة بعد استقراره بمصر كما انه كان يكتب احيانا بدون امضاء الا ان ما امكن الحصول عليه من الآثار يساعد الى حد كبير ـ فى رأينا ـ على فهم شخصية الرجل الثقافية •

3 ـ والقسم الثالث خاص بضبط اتجاهاته الفكرية فى مختلف الميادين وذلك بالاعتماد على آثاره عامة ، وخاصة على بعض النصوص الهامة التى تبين مواقفه ونظرياته ضمن الحركة الفكرية الاسلامية •

وقد حاولنا فى هذا القسم الاخير من البحث ان نبين مكانة الشيخ محمد الخضر حسين والدور الذى قام به فى الحركة الاصلاحية مما جعل حياته غنية المضمون ثرية الانتاج غزيرة النفع •

وقد رأيت من المفيد إثر الفراغ من هذه الدراسة ان اضيف ملحقا يشمل مقالات كتبها هذا الرجل عن الرحلات التى قام بها فى حياته ، ونشرها فى بعض المجلات والصحف مما يبرز جانبا طريفا فى شخصيته الثقافية ويوضح كثيرا من آرائه ونظرياته فى ميادين اصلاحية ودينية وادبية ، وفى ذلك تكميل لما جاء فى الدراسة من تحاليل وافكار •

وفى ختام هذه المقدمة لا يسعنى الا التأكيد على ان ما قمت بـه من عمـل لاعداد هذا البحث وما توصلت اليه من نتائج ليس دراسة مستوفاة عن الرجل وآثاره بل هو محاولة لتقديمه والتعريف به تعريفا يساعد على فهم شخصيته وزيادة التعمق فى تحديد معالمها لدى المهتمين بالحركة الفكرية فى بلادنا وفى العالم الاسلامى •

الرموز

- السعادة العظمى = س. ع.
- جزء = ج.
- مجلد = م.
- صفحة = ص.

القسم الأول

حياته

تمهيد

ان حياة الشيخ محمد الخضر حسين هي حياة رجل كرسها صاحبها في طلب العلم والتعمق فيه اولا ثم في تعليمه ونشره والسعي لرفع راية الاسلام وتوحيد كلمة المسلمين ثانيا • فلم تكن حياة رجل عادي متشابهة في ايامها وسنواتها بل كانت مليئة بالاحداث اللينة احيانا والصعبة احيانا اخرى ، ذلك لان صاحبنا كان كثير التنقل ، محبا للترحال والتعرف ، واسع الطموح ، زد على ذلك ما صادفه من احداث وظروف وطنية وعالمية لم تمر عليه كما مرت على كثيرين من الناس ولم يتقبلها كما تقبلها كثير غيره بل حاول ان يعيش ويتفاعل معها ويساهم في تكييفها بقسط هو قسط العالم الذي يعتمد اسلوب التوجيه والاشارة والتنبيه حينا او هو قسط الرجل السياسي الذي يعتمد اسلوب الحركة والعمل حينا آخر •

وقد حاولت التعرف على اهم عناصر حياة الشيخ محمد الخضر حسين وما مرت بها من مراحل مختلفة والتوصل الى اهم جوانبها حتى نفهم شخصيته الثقافية وما قامت به من اعمال لفائدة الدين والادب والسياسة ، الا ان عددا من الجوانب بقي غامضا سنشير اليه في ابانه وسنتركه الى ان يساعدنا البحث في المستقبل على التوصل الى كشفه او كشف البعض منه • ويمكن تقسيم حياة الشيخ محمد الخضر حسين الى ثلاث مراحل :

1 ـ المرحلة الاولى : حياته بالبلاد التونسية

وتخص هذه المرحلة سنوات حياته التي قضاها في تونس منذ ولادته

وطفولته الى تعلمه ثم تعليمه وهى فترة يمكن تسميتها بفترة « التعلم والتكوين » وتمتد من سنة 1873 م· سنة ولادته الى سنة 1912 م· وهى السنة التى غادر فيها البلاد التونسية نهائيا الى الشرق ·

2 ـ المرحلة الثانية : حياته بالبلاد السورية

وتخص هذه المرحلة كامل الفترة التى قضاها من حياته فى دمشق وانتقل اثناءها الى الاستانة وبرلين ، وتمتد من سنة 1912 م· الى 1920 م· وهى السنة التى غادر فيها سوريا للاستقرار فى البلاد المصرية ويمكن ان تسمى هذه المرحلة بمرحلة « التنقل والترحال » ·

3 ـ المرحلة الثالثة : حياته بالبلاد المصرية

وتشمل سنوات حياته التى قضاها فى مصر واستقر بها نهائيا وتمتد من سنة 1920 م· الى وفاته سنة 1958 م· ويمكن ان تسمى بمرحلة « المجد الثقافى » لانها الفترة التى اظهر فيها قيمته الثقافية ، وبرزت فيها مكانته ، وتقلد اثناءها مناصب علمية عالية ، اكدت غزارة علمه وعمق شخصيته ·

وتجدر الاشارة الى ان هذا التقسيم الذى اعتمد الاطار التاريخى والجغرافى قد اتبعه كل الذين كتبوا عن حياة الشيخ محمد الخضر حسين (1) كما درج عليه هو نفسه عند حديثه عن اطوار حياته بمناسبة حفل التكريم الذى اقامه له احد تلاميذه الدكتور عبد الوهاب المالكى عند زيارته دمشق سنة 1937م· (2) ويعتبر هذا التقسيم عملا تنظيميا يساعدنا فقط على فهم مراحل حياة الرجل وتدرجها ، ذلك لان حياة الانسان حلقات متواصلة ومتداخلة فى نفس الوقت من الصعب تقسيمها ومعرفة حدود كل مرحلة من مراحلها المتعاقبة ·

---

(1) وخاصة منهم الشيخ م . ف ابن عاشور والاستاذ . أ م . كرو

(2) الهداية الاسلامية : 10 ـ ج 5 ص 257 ، انظر الملحق : حديث عن رحلتى الى دمشق ص 336

الباب الأول

حياته بالبلاد التونسية

لقد قضى الشيخ محمد الخضر حسين الجزء الاول من حياته بالبلاد التونسية وهو يمثل الفترة التى تكونت فيها شخصيته العلمية ، وينقسم هذا الجزء الى قسمين :

1 ـ حياته بنفطة ·

2 ـ حياته بتونس العاصمة حتى سفره الى المشرق العربى ·

الفصـــل الأول

* * *

حيـاتـه بنفطـــة

◆ **اسمــــه :**

اشتهر اسمه بـ « محمد الخضر حسين » وهو المعروف فى الاوساط العلمية والثقافية ، واسمه الاصلى هو : محمد الاخضـر بن الحسين ابـدلت كلمـة « الاخضر » بـ « الخضر » منذ طفولته ، واظن ان سبب ذلك رغبة فى اختصار الاسم ، وفى نفس الوقت تيمن بأحد أولياء المسلمين الذى كان يسمى بهـذا الاسم « الخضر » وقد رفعه القرآن الى درجة الانبيـاء كمـا كان يحظى عنـد الصوفيين بمكانة ممتازة وكثيرا ما كانوا يدعون الاتصال به ، كما حذفت كلمة « ابن » بعد سفره الى المشرق العربى مسايرة للطريقة الشرقية فى التسمية مثل « عباس محمود العقاد » ، « طه حسين » الخ ...

◆ **ولادتــــه :**

ولد الشيخ محمد الخضر حسين فى بلدة نفطة يوم 26 رجب سنة 1293 هـ. / 21 جويلية سنة 1873 م . وقد ذكر السيد على رضـا التـونسى ابن اخى الشيخ محمد الخضر حسين والمحامى حاليا بالعاصمة السورية انه ولد سنة 1874 م. وذلك عند اعادة نشره بعض مؤلفات عمه سنة 1971 م. الا ان المرجح فى نظرى هو التاريخ الاول لانه المذكـور فى اغلب المراجـع التى كتبت عن الشيخ محمد الخضر ، وخاصة منها ما كتبت عنه فى حياته . وقد عثر السيد خليل ثابت رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية بمصر بين آثار العلامة أحمد تيمور (1) على ترجمة الشيخ محمد الخضر حسين نشرها الاستـاذ محمـد

---

(1) المتوفى سنة 1356 هـ 1938 م .

عبد المنعم خفاجي في كتابه « الازهر في الف عام » (1) تثبت التاريخ الاول مع تحديد يوم 27 رجب عوض يوم 26 المذكور في بقية المراجع . واذا اشرنا الى الصداقة المتينة التي تربط الشيخ محمد الخضر بالعلامة أحمد تيمور باشا كما سنبين ذلك في الفصول القادمة مما جعله يدفن في المقبرة التيمورية بمصر ، بوصية منه ، تأكدنا من اهمية هذه الوثيقة وقيمتها التاريخية .

• نسبه :

هو محمد الاخضر بن الحسين بن علي بن عمر الشريف من عائلة علم ودين وورع ، اما أبوه الحسين فقد كان من مريدي الشيخ مصطفى بن عزوز صاحب الطريقة الرحمانية وتجدر الاشارة الى ان الشيخ محمد الخضر لم يتعرض الى أبيه في كتاباته واشعاره مثلما فعل مع والدته التي رثاها عند وفاتها 1335 هـ. 1917 م. بقصيدته « بكاء على قبر » (2) وكذلك مع خاله (3) ويبدو ان تأثير جده للأم الشيخ مصطفى بن عزوز وخاله الشيخ محمد المكي ابن عزوز قد تجاوز تأثير الأب خاصة وانه كان مريدا للشيخ مصطفى و « المريد » لا كلمة له ولا قول امام « شيخه » حسب تقاليد « الطرق الصوفية » .

وجده للأب الشيخ علي بن عمر هو من العلماء واصله من عائلة العمري من قرية (طولقة) (4) وهي واحة من واحات الجنوب الجزائري توجد بالقرب منها الزاوية الرحمانية .

اما جده للأم فهو الشيخ مصطفى ابن محمد بن عزوز ، اصله من قرية تسمى ـ البرج ـ من قرى وادي سوف بواحات الجنوب الجزائري اشتهر أبوه « محمد » بالعلم والورع والصلاح والقدم الراسخة في السلوك الشرعي

---

(1) ج 1 ـ ص 195 .

(2) ديوان « خواطر الحياة » الطبعة الثانية : ص 157 .

(3) نفس المصدر ـ ص 180 .

(4) جريدة المشير عدد 8 بتاريخ 17 / 2 / 1958 .

تتلمذ على الصوفى الشهير الشيخ محمد بن عبد الرحمان الازهرى ناشر الطريقة الرحمانية (1) ٠

استقر الشيخ مصطفى بن عزوز ببلدة نفطة سنة 1257 هـ٠ 1837 م٠ وبنى زاويته الشهيرة والموجودة الى الآن وقد اشار الى ذلك الشيخ ابراهيم خريف (2) المتوفى سنة 1356 هـ٠ 1937 م ٠ فى كتابه « المنهج السديد فى التعريف بقطر الجريد » (3) ما نصه :

« وفى خلال سنة 1257 هـ٠ ورد على بلد نفطة من بلاد الزاب مهاجر القدوة المرشد صفوة البررة وخلاصة الصالحين الخيرة صاحب المآثر العديدة والاخلاق الحميدة الشيخ السيد مصطفى ابن عزوز البرجى فاستوطن مع عائلته وعدد كبير من اتباعه واشياعه فاقبلت عليه البلاد وهرعت اليه العباد يلتمسون بركته ويستمدون فيوضاته ثم احدث زاويته المشهورة المشتملة على عدد كبير من المساكن لايواء الواردين عليه من كل صقع ٠٠٠ واحدث بها مدرسته الحافلة وانشأ بها بيوتا لسكنى المنقطعين لقراءة القرآن وتعلم العلم وحشر لها العلماء والاعلام من كل جهة ليدرسوا بها فنون العلم على اختلاف مشاربها ٠٠٠ (4) ٠

وقد كانت شهرة الشيخ مصطفى ابن عزوز تملأ الاصقاع ومناطق نفوذه الدينى متصلة غير محدودة بما كون حوله من عصبية متينة من الاتباع قائمة على الزوايا المنسوبة الى الطريقة الرحمانية والمتفرعة فى المملكتين الجزائرية والتونسية (5) ٠

---

(1) محمد الفاضل بن عاشور ـ تراجم الاعلام ص 187 .

(2) هو أبو المرحوم الشاعر مصطفى خريف المتوفى سنة 1967 والاديب القصاص بشير خريف ، وقد كان الشيخ ابراهيم عالما بارزا فى عهده .

(3) مخطوط تحدث فيه عن منطقة الجريد من الناحية الثقافية والاجتماعية والسياسية لعهده توجد نسخة وحيدة منه لدى ابنه الاديب البشير خريف وتحتوى على 282 ص .

(4) ص : 131 (المنهج السديد) .

(5) (تراجم الاعلام) ص 190 .

وبالاضافة الى شهرة الشيخ مصطفى بن عزوز الدينية والعلمية كانت له مكانة ممتازة لدى السلطة الحاكمة فى عهده وخاصة لدى الباى محمد الصادق الذى كانت مدة ولايته بين سنتى (1859 م. ــ 1882 م.) وتبرز هذه المكانة فى الدور الهام الذى قام به الشيخ مصطفى بن عزوز لتهدئة ثورة على بن غذاهم سنة 1864 م. والتوسط بينه وبين الباى ، ولم يكن نجاح هذه الوساطة ممكنا لولا ما كان يتمتع به شيخ الطريقة الرحمانية من تقدير واكبار من قبل الجانبين المتنازعين .

فقد وجه على بن غذاهم رسالة الى العلامة المفتى المالكى ابن العباس الشيخ أحمد بن حسين الكافى يوم السبت 18 صفر سنة 1281 هـ. / 23 جويلية 1864 م. جاء فيها :

« ... وها نحن اتفق رأينا بالامكاث ومترقبين لقدوم شيخ الطريقة ومعدن السلوك والحقيقة سيدى مصطفى بن عزوز ... » (1) .

ويقول ابن أبى الضياف متحدثا عن الدور الذى قام به الشيخ مصطفى بن عزوز فى نفس المناسبة :

« ... ولم يزل الحال فى اضطراب وشدة الى ان قدم من الجريد بركة القطر المشار اليه بالبنان المتدرج فى مقامات العرفان الولى السالك المحبب لعباد الله شيخ الطريقة الرحمانية أبو النخبة الشيخ مصطفى بن عزوز واجتمع بعلى ابن غذاهم ووجوه جموعه وقد مسهم نصب الملل بعد ان اخذ لهم الامان من الباى واستوثق منه بالعهود والايمان وقرأ للباى قوله تعالى : « **ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلكم الله عليهم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون** » ثم قال لهم ولا جواب لكم عند الله تعالى فى اراقة دماء المسلمين وقد اعطاكم الباى الامان على يد امير المحلة وخفف خشية اراقة الدماء . وقال لعلى ابن غذاهم : « انت لست بقائم تطلب ملكا وزعمت انك جامع عصابة

---

(1) « اتحاف أهل الزمان » ج 5 ص 162 .

شناكية لكف عادية جهالها ، وقد زال السبب فلا بد ان يزول المسبب ، وقد عطلتم الناس عن السعي في ابتغاء رزقهم » (1) ٠

كما اشار الى ما قام به لتهدئة القبائل في مناطق اخرى من البلاد وخاصة مناطق جلاص والهمامة واعيان القلعة الكبرى واعادة ولائها الى الباى (2) ٠

وكل من يتحدث مع عدد من الشيوخ الموجودين الآن ببلدة نفطة يشعر بالمكانة التي يتمتع بها شيخ الطريقة الرحمانية والتي اصبحت محاطة بنظرة روحية اسطورية ٠

• خـــالــه :

اما خال الشيخ محمد الخضر حسين فهو الشيخ العلامة محمد المكي ابن عزوز ذو الشهرة الواسعة في تونس والجزائر وفي الاستانة ، انتخب في عهد الوزير خير الدين باشا لخطة الافتاء ببلدة نفطة ، وهو في عهد الشباب ، فأقام بها الى سنة 1223 هـ٠/1876م٠ ثم ارتحل الى تونس للتدريس بجامع الزيتونة ، حيث كان معدودا من ابرز العلماء رغم انه لم يتقلد مهمة التدريس بصورة رسمية ، ثم انتقل الى دار الخلافة بتركيا واستقر بالاستانة الى نهاية حياته (3) حيث نال شهرة علمية عالية ابرزها الشيخ محمد الخضر في حديثه عن رحلته الشرقية التي سنتحدث عنها في الابان ٠

وقد كان الشيخ محمد المكي ابن عزوز مدرسا للحديث بمدرسة دار الفنون بالاستانة (4) الى ان توفي ودفن بها سنة 1916 م٠ (1334 هـ٠) تاركا مجموعة من الرسائل والتآليف تبين سعة علمه ومعارفه واطلاعه ٠ وقد رثاه الشيخ محمد الخضر بقصيدة : « هاهنا شمس علوم » (5) مطلعها :

---

(1) نفس المصدر السابق ــ ص 168 .

(2) نفس المصدر ــ ص 177 .

(3) م . ف . ابن عاشور تراجم الاعلام ص 193 .

(4) كان يدرس في نفس المدرسة الاديب والشاعر العراقي معروف الرصافي : المتوفى سنة 1945 م .

(5) ديوان « خواطر الحياة » الطبعة الثانية ص 180 .

رب شمـــس طلعــت فــى مغــرب
وتوارى فى ثرى الشرق سناها (1)

هــاهنــا شمــس علــوم غــربــت
بعد ان ابلت بترشيش (2) ضحاها

• تــربيتــه وتعلمــه :

نشأ الشيخ محمد الخضر حسين فى تلك العائلة التى تعرضنا الى تاريخ اهم عناصرها بايجاز والتى هى عائلة علم وثقافة وأدب .

وكانت بلدة نفطة ذات واحات النخيل الجميلة الفيحاء والميــاه المتــدفقة الصافية فى ذلك العهد ، مقرا للعلم والعلماء ، فكانت تلقب ـ ومنــذ أمــد بعيد ـ بالكوفة الصغرى (3) ، تشبيها بمدينة الكوفة المركز العلمى الشهير بالعراق لما كانت تعج به من فرق مختلفة ومن حلقات العلم والدرس والمناظرة فى شتى فنون الادب واللغة والفقه والحديث ، وبها قبر العلامة الشيخ أبى على السنى (4) الذى عاش فى القرن 7 هـ . ، وقاوم الحركـة الاباضية بالسيــف واللسان وانتصر عليها مدعما بذلك المذهب السنى ، كما يوجد بها ايضا قبر العلامة الشيخ أبى العباس الدرجينى صاحب كتاب « طبقات الاباضية » والذى عاش فى القرن السابع الهجرى (5) .

ويوجد بهذه البلدة ايضا عدد كبير من الجوامع والمساجد يتجاوز الاربعين كانت اغلبها مواطن علم يتلى فيها كتاب الله ، وتلقى فيها دروس الفقه والحديث واللغة والادب ، ويجتمع فيها العلماء للتباحث والمناظرة ، وكان يسكــن فى البيوت التى تحيط بالمساجد طلاب العلم الذين كانوا يتوافدون من الجزائر

---

(1) البحر : الرمل
(2) يقصد تونس .
(3) « المسالك والممالك » للبكرى .
(4) هو المعروف « بسيدى بوعلى » الولى الصالح المشهور فى كل الاصقاع والذى يوجد ضريحه فى واحة نفطة .
(5) يوجد ضريحه فى منطقة تسمى « خيط الطين » بنفطة .

خاصة ومن عدد من انحاء البلاد التونسية للتحصيل والدرس ، ولا يخشى الطالب الحاجة المادية اذ كان يتكفل بمساعدته عائلة من العائلات المجاورة للجامع اذا لم يكن لهذا الجامع احباس ينفق دخلها على الطلاب ، وكل ذلك حبا فى العلم وتشجيعا على التعلم .

وكانت برامج الدراسة تتمثل فى حفظ القرآن الكريم ومتون اللغة والفقه ، وفى حضور حلقات الدرس التى كانت تنظم فى الفقه والتوحيد والنحو والصرف والحديث .

وكانت بلدة نفطة منطقة واحات يعيش اهلها حياة فلاحية لكن صاحب الجاه والحظوة والتقدير لم يكن الفلاح الذى يملك اراضى شاسعة بل ان رجل العلم هو الذى يحتل هذه المكانة ، فقد كان النموذج الاجتماعى البارز فى ذلك العهد ، صاحب الكلمة المسموعة والرأى الراجح .

لقد تربى محمد الخضر حسين فى هذه البيئة التى يسيطر عليها العلم وتغمرها الثقافة ويحيط بها الورع الدينى من كل جانب،فحفظ القرآن الكريم على مؤدبه الخاص الشيخ عبد الحفيظ (اللموشى) (1) ودرس بعض العلوم الدينية واللغوية على عدد من العلماء وخاصة منهم خاله الشيخ محمد المكى ابن عزوز الذى كان مهتما به اهتماما خاصا ويرعاه رعاية كاملة .

وقد اشار الشيخ محمد الخضر الى الاطار العلمى الادبى الذى كان موجودا بنفطة مدة طفولته فقال فى مقدمة ديوانه الشعرى : « خواطر الحياة » :

« نشأت فى بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسى يقال لها نفطة ، وكان للادب المنظوم والمنثور فى هذه البلدة نفحات تهب فى مجالس علمائها . وكان حولى من اقاربى وغيرهم من يقول الشعر ، فتذوقت طعم الادب من اول نشأتى وحاولت وانا فى سن الثانية عشرة نظم الشعر » (2) .

---

(1) جريدة المشير — عدد 8 فى 17 فيفرى سنة 1958 .
(2) ديوان « خواطر الحياة » الطبعة الثانية سنة 1373 هـ — ص : 6 .

اما اهتمام الشيخ محمد المكى ابن عزوز بابن أخته وتعليمه ورعايته فتتجلى فيما قاله عند تقريض مجلة « السعادة العظمى » التى سنتحدث عنها فى الفصول القادمة . وقد قدم الشيخ محمد الخضر حسين هذا التقريظ بقوله :

« من أعزها (1) ما تشرفت به من قلم استاذى الذى شبت فى طوق تعليمه فكرتى وتغذيت بلبان معارفه فى اول نشأتى العلامة الهمام القدوة خالنا الشيخ سيدى محمد المكى ابن عزوز » (2) .

وبعد ان تعرض الخال الى ابتهاجه بهذه المجلة التى انشأها ابن أخته قال :

« ... وانبئكم انه لما اشرقت غرتها وانبلجت ديباجتها تصفحت درر عقودها وتعمدت سبر عودها لنعلم كيف نتيجة تربيتنا والى اى طور بلغ فرع دوحتنا وبأى ثمرة تفتر اكمامه وعلى الوطن بأى صفة تهب انسامه .. » (3) .

وتحدث الشيخ محمد الخضر عن خاله فى « خلاصة الرحلة الشرقية » التى نشرها فى جريدة « الزهرة » سنة 1913 م. فكان يلقبه « بخالنا الاستاذ » و « شيخ الشيوخ » ومما قاله عنه :

« ... فقد كنت كلفا بأساليب تعليمه ومعظم ما ادركت فى التعلم تلقيته من دروسه » (4) .

♦ انتقاله الى تونس :

قضى محمد الخضر حسين سنوات طفولته الاولى ببلدة نفطة الى ان بلغ السنة الثالثة عشرة من عمره ، فانتقلت عائلته الى تونس العاصمة فى اواخر سنة 1306 هـ. / 1886 م.

---

(1) يقصد التقاريظ التى اتصلت بها مجلة « س . ع . »

(2) مجله س . ع . عدد 13 ص 207 .

(3) نفس المصدر .

(4) الزهرة ــ 22 أفريل سنة 1913 م انظر الملحق ــ خلاصة الرحلة الشرقية ــ ص : 315

ويبدو ان سبب هذا الانتقال ، هو حرص العائلة على تمكين محمد الخضر حسين من مواصلة الدرس والتعلم بجامع الزيتونة المعمور ، وكذلك اخوته الآخرين : محمد الجنيدى ، ومحمد العروسى ، ومحمد المكى الذى اصبح فيما بعد عالما بارزا ولغويا شهيرا له مؤلفات فى ميادين اللغة والادب (I) ، واخيرا زين العابدين المستقر الآن فى دمشق ، وهو من كبار العلماء والمدرسين بالجامع الأموى فى العاصمة السورية ٠

وقد كان جامع الزيتونة قبلة الانظار لطلاب العلم والمعرفة من جميع الامصار الذين يريدون مزيدا من التعمق والتبحر فى مختلف العلوم الدينية واللغوية ٠ وقد سبق للشيخ محمد المكى ابن عزوز خال الشيخ محمد الخضر حسين ان درس بجامع الزيتونة وتلقى العلم على كبار شيوخه وعلمائه ولا غرابة ان يواصل ابن الاخت نفس السبيل التى بدأها مع خاله ببلدة نفطة ٠

الفصل الثانى

* * *

حياته بتونس

عندما استقرت عائلة الشيخ الحسين بن على الشريف بتونس العاصمة واصل محمد الخضر تعلمه الابتدائى الذى شرع فيه عندما كان ببلدة نفطة ثم التحق فى السنة الموالية (1307 هـ٠ 1887 م٠) بجامع الزيتونة للمزيد من التعمق فى العلم والتبحر فيه،وهو صاحب الطموح الكبير والرغبة فى التعلم٠

جامع الزيتونة فى ذلك العهد :

ان الحديث عن جامع الزيتونة وحال التعليم فيه اثناء المدة التى كان بها

(I) توفى فى 20 شعبان سنة 1382 الموافق 26 جانفى 1963 م بتونس .

محمد الخضر حسين تلميذا بذلك المعهد العلمي الكبير حديث عن عنصر من العناصر التي كونت شخصية الخضر العلمية والدينية والثقافية ، وعن جزء من البيئة العلمية التي تربى فيها ونهل من مصادرها وتغذى بما فيها من معارف وقيم روحية ·

كان التعليم بجامع الزيتونة يتبع طريقة شبيهة بالاختيارية ذلك ان المدرس هو الذي يختار الكتب والفنون والرتب وعدد الدروس والاوقات ، ويختـار التلميذ المدرس والدروس على حسب ما يحتاجه وما اهله له الاختبار العمومي·

وقد نتج عن ذلك نقص في فنون كثيرة وتفاوت في مستوى تلامذة الدرجة الواحدة ، فقد كانت توجد طرائق اربع لتنظيم الدروس بجامع الزيتونة (1) ·

الاولى : طلب التلامذة من الشيخ تدريس كتاب يعينونه وهو اكثر الطرق استعمـالا ·

الثانية : طريقة الانتقال التدريجي وهي ان يقوم الشيخ بتـدريس كتـاب ارقى من الكتاب الذي درسه في العام السابق فيحضر دروسه التلامذة الذين ارتقوا الى تلك الدرجة ·

الثالثة : اختيار الشيخ كتابا فيحضر دروسه التلامذة فيجيبون لقراءته ·

الرابعة : اقتراح المشايخ النظار زيادة دروس معينة لمصلحة يرتؤونها ·

واما اوقات الدروس فغير محددة ، اذ من الدروس ما ينتظم اثـر صـلاة الصبح او قبل طلوع الشمس ، ومنها ما يكون اثر صلاة المغرب والعشاء ، كما لا يوجد توازن في توزيع الساعات بالنهار ، فتتكاثر الدروس بين السـاعة السابعة صباحا والساعة العاشرة ثم تعود الى الانتظام بعد الظهر ·

وكانت الدروس متداخلة بالنسبة الى الدرجة الواحدة مما يجعل التلميذ لا يتمكن من حضور جميع الدروس التي تعنيه ، وكان لكل تلميذ دفتر يشتمل على 100 صفحة ، في كل ورقة ثلاثة جداول هي لذكر اسم الكتاب واسم الشيخ

(1) الشيخ م . ط . ابن عاشور « اليس الصبح بقريب » : ص 152 .

المدرس بخطه وشهادة الشيخ للتلميذ صاحب الدفتر بما حضره من الدروس الى تاريخ تسجيل تلك الشهادة ومواظبته ودرجته فى الفهم ٠

وكان التلامذة لا يحصلون على دفاترهم الا عند تسجيلهم بجامع الزيتونة بصورة رسمية ويستظهرون بهذه الدفاتر عند الامتحانات ٠

اما العلوم والفنون التى كانت تدرس بجامع الزيتـونة فهى : التفسير والحديث والسير والتوحيد والقراءات والفقه والاصـول وآداب الشـريعة والنحو والبيان واللغة والادب وعلم العروض والمنطق والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والهيئة والمساحة (وكانت هذه الفنون الخمسة الاخيرة تدرس فى معهد الخلدونية) ٠

المـــدرســـون :

كان المدرسون بجامع الزيتونة ينقسمـون الى ثـلاثة اصنـاف تسمـى « الطبقـات » :

1 ـ مدرسون من الطبقة الاولى وهم ثلاثون مدرسا ٠
2 ـ مدرسون من الطبقة الثانية وهم اثنا عشر مدرسا ٠
3 ـ مدرسون من الطبقة الثالثة وهم خمسون مدرسا ٠

وبالاضافة الى هؤلاء المدرسين الرسميين هناك مدرسون متطوعون كانوا يلقون دروسهم بصورة مجانية ويعتبر ذلك تدريبا لهم على التعليم وتهيئـة للدخول فى الاطار الرسمى للتدريس ٠ ويتحصل التلميذ المتخرج من جامع الزيتونة على شهادة « التطويع » بعد قضاء سبع سنوات متتالية من التعلم والدرس ، وهى تماثل شهادة « العالمية » فى جامع الازهر ، وتمكن صاحبها من نيل بعض المناصب بالاضافة الى الاستعداد الى مباشرة خطة التدريس بالجامع الاعظـم ٠

محمد الخضر حسين وجامع الزيتونة :

درس الشيخ محمد الخضر حسين بجامع الزيتـونة منذ سنـة 1307 هـ٠

1887 م٠ فى السنة الموالية لسنة انتقال عائلته الى تونس العاصمة / واستقرارها نهائيا بها ٠

وقد تابع التلميذ محمد الخضر دروسه بجد وتلقى العلم على جهابذته فى ذلك العهد من الشيوخ المدرسين ، وكانت جميع فنون الدراسة تكتسى طابعا دينيا ولغويا كما بينا ذلك عند الحديث عن التعليم بجامع الزيتونة ، ولا شك ان هذا النوع من الثقافة قد غذى ما كان تلقاه فى سنى طفولته،ودعم شخصيته الثقافية وحدد اتجاهها الذى سيبرز فى بقية سنوات حياته ٠

ويبدو ان محمد الخضر كان مهتما بالفنون الادبية واللغوية فى اول عهده بجامع الزيتونة اهتماما خاصا كما كان ينظم الشعر فى بعض الاحيان ، وقد قال فى مقدمة ديوانه : « خواطر الحياة » :

« انتقلت اسرتى الى مدينة تونس والتحقت بطلاب العلم بجامع الزيتونة ، وكان من اساتذة الجامع ومن هم فى الطبقة العالية من طلاب العلم من اولعوا بالادب والتنافس فى صناعة القريض الى شأو غير قريب فاقتفيت اثرهم وكنت انظم قصائد تهنئة لبعض اساتذتى عند اتمام دراسة بعض الكتب »(1) ٠

وقد لاحظ اثناء دراسته بجامع الزيتونة عدم وجود مادة الانشاء ضمن البرامج فوجه الى المشائخ النظار خطابا مفتوحا طلب فيه العناية بدرس الانشاء على طريقة علمية ، وآثر ان يكون الخطاب نظما ، ومما جاء فى هذا الخطاب ٠

بذلتم فى نفاق العلم وسعا
وذللتم طرائقه الصعابا (2)

فاصبح معهد العرفان صرحا
رفيعا لا نظير له غرابا

ولكن الخصاصة فى فنون
تساورنى المخافة ان تعابا

---

(1) ديوان « خواطر الحياة » ص 6 .

(2) البحر : الوافر .

اصاب صناعة الانشا محل
وغاض معينها الا سرابا
انرمى نحو وادينا بقشر
ويحرز غيرنا منها اللبابا

ويقول فى هذا الخطاب ايضا :

أفى علم البيان نغوص فهما
ونملا من جواهره الوطابا
وان ركبت انامـلنا يراعا
تعاصى ان يشق بها عبابا

ويتحدث عن اهمية الكتابة فيقول :

ولا ترقى شؤون الشعب الا
باقلام تناقشه الحسابا
وتكشف عن شموس الجو لبسا
تراكم تحت غرتها سحابا (1)

شيوخه :

تابع المترجم له دروسه باهتمام ، وكان يحضر بعض حلقات الدرس الاخرى زيادة عن البرنامج الاصلى حبا فى التعمق والاطلاع ، ولا شك انه كان محل رعاية خاصة من طرف جل الشيوخ المدرسين وخاصة البارزين منهم ، نظرا الى مكانة خاله الشيخ محمد المكى ابن عزوز الذى كان يلقى دروسا بجامع الزيتونة تطوعا كانت من اكثر الدروس شهرة ، يحضرها بعض الشيوخ وعدد كبير من الطلاب ، كما كان معروفا بمكتبته الخاصة الغنية بالكتب الفريدة والمصادر النادرة .

ولا شك ان وجود خاله بجامع الزيتونة وهو مدرسه الاول الحريص على تعلمه قد زاد التلميذ مثابرة على متابعة الدروس والاهتمام بها الاهتمام الخاص من حيث البحث والاستقصاء .

---

(1) م . خ . حسين كتاب « تونس وجامع الزيتونة » ص 26 ــ 27 : جمعه ونشره السيد على رضا التونسى .

وقد تأثر محمد الخضر حسين بعدد من شيوخه العلماء الذين كان حريصا لا على متابعة دروسهم فقط بل كذلك على حضور مجالسهم والاستماع الى احاديثهم ومناظراتهم فى شتى فنون الادب واللغة والدين وابرز هؤلاء الشيوخ ثلاثة هم : الشيخ سالم بوحاجب ، والشيخ عمر بن الشيخ ، والشيخ محمد النجار • اما الشيخ سالم بوحاجب المتوفى سنة (1343 هـ• / 1925 م•) فقد قال عنه :

« حضرت دروسه عندما اخذت فى قراءة الكتب العالية فشعرت بانى دخلت فى مجال افسح للنظر وادعى لنشاط الفكر ، اذ لم يكن الاستاذ ممن يقصر مناقشته على عبارات المؤلفين بل كان يتجاوزها الى نقد الآراء نفسها ويتجاوز النقد الى الغوص على اسرار المباحث دينية كانت أم عربية ، ولا يترك فى درس الكتب الشرعية ان يعقد الصلة بين اصول الاسلام ومقتضيات المدنية الحاضرة » (1) •

وقد كان هذا الشيخ الاستاذ علما بارزا فى الاوساط الثقافية لغزارة معارفه وسعة اطلاعه وبالخصوص لرأيه الحصيف وعقله النير الذى يناقش ويستقصى ويقارن ويستنتج • فكان بذلك استاذ الاساتذة (2) ومنار النبوغ فى العلم والادب • وتجدر الاشارة الى ان هذه الصفات العلمية لم تكن متوفرة لدى كثير من شيوخ جامع الزيتونة الذين كان يغلب عليهم الاسلوب النقلى الذى يعتمد الحفظ لا العقلى الذى يعتمد المقارنة والنقاش والاستنتاج •

وقد اثر الشيخ سالم بوحاجب فى كثير من تلامذته ودفعهم الى اعمال الفكر فى بحث جميع القضايا والمواضيع • وبالاضافة الى القيمة العلمية الممتازة كان الشيخ بوحاجب من ابرز عناصر الحركة الاصلاحية بتونس (3) إذ التف حوله عدد من الطلبة الزيتونيين ومريدى الاصلاح من المثقفين كما ساهم تلاميذه فى تأسيس « جمعية الخلدونية » سنة 1896 م• والقى الشيخ

---

(1) م . خ . حسن « تونس وجامع الزيتونة » ص : 30 .
(2) م . ف . ابن عاشور ـ الحركة الادبية والفكرية ص : 41 .
(3) نفس المصدر ص : 63 .

المحاضرة الاولى التى نظمتها هذه الجمعية ، وكانت درسا علميا فى تفسير قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » وبيان قيمة العلم واثره فى حياة الشعوب والامم ، كما كان يكتب « مقالات فى انتقـاد افكـار وافهـام بعض العلمـاء الذين كان الناس يرفعونهم الى مقام التقديس وما كان يبديه من اعتدال فـى غلو كثير من الناس فى التصديق بخوارق العادات والاعتقاد بصلاح افراد كان يعرض بالتهكم بهم وبمعتقديهم »(1)٠كل ذلك بالاضافة الى صداقته المتينة بالشيخ الاستاذ محمد عبده واتصاله المستمر به عن طريق الرسائل المتبادلة بينهمـا ٠

هذه هى شخصية الشيخ سالم بوحاجب الثقافية استـاذ محمـد الخضـر حسين الذى كان معجبا به شديد الاعجاب ، ولا شك ان ذلك يؤكد تأثر التلميذ باستاذه فى بعض الجوانب ، وقد قال فى رثائه عندما توفى سنة 1343 هـ٠ / 1925 م٠ ــ وكان الشيخ محمد الخضر مستقرا يومئذ بالقاهرة ــ قصيدة : « رثاء أبى حاجب » (2) التى مطلعها :

فقدت سماء المجد بدرا عز أن
تحظى برؤية مثله الالحاظ (3)
بدر سناه هـداية وتعـارف
وشعـاعـه الاقـلام والالفـاظ
اودى الحمام «بسالم» فبكاه من
فرط الاسى العلماء والوعـاظ

اما الاستـاذ عمـر بن الشيـخ (المتـوفى سنـة 1329 هـ٠ / 1911 م٠) فقد وصفه محمد الخضر حسين فى مقال كتبه عنه بمجلة الهداية الاسلامية بقوله : « انه من اعاظم اساتذتى بجامع الزيتونة بتونس » (4) فقد كان هذا الشيخ نافذ الفكر فى المباحث الغامضة ، قديرا على حل المسائل العويصة،ولكنه لا يكثر من مناقشة المؤلفين وذوى الآراء » (5) ، وكان اشهر دروسه وادلها على

(1) نفس المصدر ص : 73 .
(2) ديوان « خواطر الحياة » ص 101 .
(3) البحر : الكامل .
(4) الهداية م 8 ج 12 ص 737 .
(5) م . خ . حسين ــ تونس وجامع الزيتونة ــ ص : 30 .

مقدرته الفائقة فى العلم درسه لكتاب « المواقف فى علم الكلام » لعضد الدين الايجى (1) الذى ابتداه خلال سنة 1285 هـ٠ / 1865 م٠ واستمر فى القائه سنوات عديدة ، وقد كان يحضره ابرز طلاب جامع الزيتونة وعدد من الشيوخ المدرسين ، لان الكتاب المذكور لم يكن من الكتب المدرجة فى البرنامج لذلك العهد ، ومما يذكر ان الشيخ الامام محمد عبده المتوفى سنة 1905 م٠ قد حضر درسا من دروس الاستاذ عمر بن الشيخ لهذا الكتاب الشهير عند زيارته الاولى الى تونس (شهر صفر سنة 1302 هـ ٠ / نوفمبر 1884 م٠) واعجب به ايما اعجاب ، وكان اليوم الذى اختتم فيه هذا الكتاب يوما مشهودا بجامع الزيتونة ، اذ حضر الدرس الاخير جمع من الاساتذة ورجال العلم وعدد من الطلاب منهم محمد الخضر حسين وقيلت فيه كلمات التقدير والتنويه بقيمة الاستاذ عمر بن الشيخ العلمية وتبحره فى فنون المعرفة ، كما القيت فيه القصائد الشعرية ، وكان من بين الذين شاركوا بقصائد بليغة الشيخ العلامة محمد المكى ابن عزوز ومما قاله :

اذا عمر بن الشيخ وافى لدرسه
تعال التقط درا بملء جفان (2)

واما استاذه الثالث الشيخ محمد النجار (المتوفى سنة 1329 هـ٠ / 1911 م٠) فقد كان واسع الاطلاع غزير العلم محبا للبحث والمناقشة،قال عنه تلميذه(3):

« كنت ممن حضر درسه لكتاب المواقف ودرسه لتفسير القاضى البيضاوى ودرسه لشرح عبد الباقى الزرقانى على المختصر الخليلى ولشدة استقصاء الاستاذ لما يقرره الكاتبون وعنايته بنقد ما يوردونه من الآراء مكثنا بضع سنين فى ابواب من هذه الكتب معدودة ٠ وكنت استفيد من مجالسه ما لا

(1) ولد فى ايج بفارس ولى القضاء والتدريس بفارس له عدة رسائل اشهرها كتابه «المواقف» توفى سنة 755 هـ / 1355 م .
(2) البحر : الطويل .
(3) م . خ . حسين « تونس وجامع الزيتونة » ص : 98

يقل عما استفيده من دروسه • اذ كان رحمه الله ذا ذاكرة لا تخـونه فيمـا يستودعها من علم • ولم نر له فى سعة الاطلاع والمحاضرة بالعلوم على اختلاف فنونها من نظير » • وكان الاستاذ النجار كريـم الاخلاق شديد التواضـع وخاصة مع تلاميذه • وكانت علاقة تلميذه محمد الخضر حسين به تتجـاوز الدروس المنظمة الى المجالس التى يحضرها اهل العلم والادب ، ويسودهـا الحوار والمناظرة •

وسنلاحظ فى الفصول القادمة العلاقة المتينة التى تدعمت بين الاستاذ وتلميذه عند صدور مجلة « السعادة العظمى » التى كان الاول المشرف العلمى عليها والثانى مديرها ورئيس تحريرها • وتجدر الاشـارة الى انـه اذا كان الشيخ سالم بوحاجب محور الحركة الاصلاحية واحد موجهيها بالنسبة لطلاب جامع الزيتونة وعناصر الحركة الفكرية فى تونس فى ذلك العهد ، فان الشيخ محمد النجار يمثل الطرف المقابل ، اذ اعتمد عليه المحافظون ، وكان موجههم والمدافع عن نظرياتهم وآرائهم والناقد لآراء الاصلاحيين ونظرياتهم سواء فى مجالسه او فى دروسه ومقالاته فى مجلة « السعادة العظمى » كما سنلاحظ ذلك عند حديثنا عن هذه المجلة واتجاهها وفحواها •

وقد تبين من التعريف بابرز شيوخ محمد الخضر حسين ان المترجم له قد درس وتعلم على اساتذة وان تشابهوا فى القيمة العلمية والثقافية فقد اختلفوا فى اسلوب التفكير ومعالجة القضايا العلمية وخاصة الاسـلامية منهـا ، كما اختلفوا فى نظرتهم الى الحركة الاصلاحية التى كانت محل حوار ونقاش وجدال لدى الاوساط الفكرية والثقافية فى تونس فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين •

فهل تأثر محمد الخضر بالاستاذ بوحاجب اكثر من بقية الاساتذة واتجه اتجاها اصلاحيا ؟ أم تأثر بالاستاذ محمد النجار واتجه اتجاها محافظا ؟ أم تأثر بالاثنين معا فكان مزيجا من النوعين وشخصية ثقافية مستقلة تأخذ من كل مصدر من مصادر المعرفة والتفكير بطرف ؟ هذا ما سنراه فى الفصول

القادمة وخاصة عند الحديث عن شخصية الرجل الثقافية • الا ان الجدير بالملاحظة ان التلميذ ظل يذكر هؤلاء الشيوخ بالثناء والتقدير الى آخر حياته دون تفضيل احدهم على الآخر •

• تخرجه من الزيتونة :

واصل محمد الخضر دراسته بجد واهتمام ، وتحصل على شهادة التطويع سنة 1316 هـ• / 1898 م• وهى الشهادة التى تمكن حاملها من التطوع لالقاء دروس فى جامع الزيتونة كما تؤهله للظفر بمناصب علمية او دينية عديدة خاصة اذا صحبها نبوغ وجد وسعة معرفة •

ولم ينقطع الشيخ محمد الخضر عن حضور الدروس وخاصة دروس اساتذته البارزين : سالم بوحاجب وعمر بن الشيخ ومحمد النجار الذين لازمهم فى مجالسهم الى ان سافر الى الشرق وبارح البلاد التونسية نهائيا • ويبدو ان صاحبنا لم يكن مهتما بالوظائف الحكومية قدر اهتمامه وانشغاله بخطة التدريس لما فيها من افادة واستفادة ولعل ذلك يرجع الى البيئة الثقافية التى عاش فيها منذ طفولته والتى كانت بيئة تدريس وتعلم شعارها الحديث النبوى الشريف « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ولذلك فبالاضافة الى مواصلة حضور حلقات دروس ابرز مشائخ جامع الزيتونة فى ذلك العهد تطوع الشيخ محمد الخضر حسين لالقاء دروس على طلاب هذا المعهد العلمى فى فنون مختلفة دينية ولغوية •

وقد ألح عليه طموحه فى سنة 1317 هـ• / 1899 م• اى بعد سنة من حصوله على شهادة التطويع ، كما ألحت عليه رغبته فى الاطلاع والمعرفة فى السفر الى المشرق العربى الذى كان محط انظار العلماء وطلاب العلم من جميع الاصقاع وخاصة من بلدان شمال افريقيا ، فحاول القيام برحلة الى الشرق عن طريق ليبيا ولكنه لم يتجاوز مدينة طرابلس ثم رجع الى تونس• اما عن اسباب عودته من منتصف الطريق رغم تحمله الاتعاب والمشاق لقطع تلك المسافة فلم نتمكن من التعرف عليها ، وسيبقى هذا الجانب مجهولا من حياة

الشيخ محمد الخضر الى ان يساعدنا المزيد من الاستقصاء والبحث على توضيحه وكشف ما فيه من غموض ، وواصل اثر عودته الى تونس التدريس تطوعا بجامع الزيتونة وحضور المجالس العلمية والادبية والمشاركة فيها مما ممكنه من ان ينال شهرة كبيرة في اوساط الطلاب الزيتونيين ولدى العلماء والمثقفين .

ان هذا النشاط العلمي الكبير الذى بذله الشيخ محمد الخضر اثر تخرجه من جامع الزيتونة يدل على ان هذا الرجل صاحب طموح كبير فلم يقنع بالعمل فى الادارة والاستقرار فيها بتحمل خطة كتابة او اى خطة ادارية تشابهها خاصة وان شهرة جده للأم الشيخ مصطفى ابن عزوز هى على ما بينا فى الفصول السابقة ، وكذلك الشأن بالنسبة الى مكانة خاله الشيخ محمد المكى ابن عزوز ، بل اختار سبيلا وعرة فى حياته شعارها قول الشاعر العربى القديم أبى الطيب المتنبى :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى
وبنفسى فخرت لا بجدودى

وقد سار الشيخ محمد الخضر على هذا المنوال طيلة الفترة التى مرت من حياته فهل سيسير عليها فى بقية الفترات ؟ اننا سنبين ذلك فى الفصول القادمة .

♦ مجلة السعادة العظمى : (1904 م.)

ان الجهد العلمى الذى كان يبذله هذا الرجل فى سبيل نشر المعرفة عن طريق الدروس التى كان يلقيها على الطلاب الزيتونيين لم تثنه عن التفكير فى خلق وسائل اخرى اكثر تأثيرا وانتشارا ، ولا شك ان اهم هذه الوسائل هى الكتابة ، وقد رأينا ما قاله صاحبنا عند طلبه من النظارة العلمية بجامع الزيتونة اضافة مادة الانشاء الى الفنون التى تدرس ضمن البرنامج لا همية الكتابة فى حياة الشعوب والامم (1) .

---

(1) انظر هذا البحث ص : 32 .

وقد أسس في شهر محرم سنة 1322 هـ / شهر افريل سنة 1904 م. مجلة « السعادة العظمى » وهي اول مجلة عربية ظهرت في تونس ، وكانت نصف شهرية صدر منها 21 عددا فقط ، اذ انقطعت عن البروز في شهر ذي القعدة سنة 1322 هـ / شهر جانفي سنة 1905 م.

ونظرا لاهمية هذه المجلة من حيث انها المجلة العربية الاولى الصادرة بتونس ومن حيث انها اول تأليف للشيخ محمد الخضر لانه كان يحرر اغلب مقالاتها فسنفرد لها بحثا في القسم الخاص بآثار الرجل مبينين فيه ظروف تأسيسها ومحتواها وقيمتها في ذلك العهد وخاصة بالنسبة الى الحركة الاصلاحية كما سنبين كذلك اسباب انقطاعها عن الصدور .

• الرحلة الجزائرية الاولى : (سنة 1903 م .)

ان العلاقة بين سكان بلدة نفطة مسقط رأس الشيخ محمد الخضر حسين وسكان القرى والمدن الموجودة جنوب البلاد الجزائرية علاقة متينة جدا تتجاوز الجوار الى النسب والمصاهرة،فكم من عائلة تونسيةمنهذه البلدة استقرت ببلدة نفطة واستوطنت بها ، وكم من عائلة تونسية من هذه البلدة استقرت بالجنوب الجزائري وخاصة بمناطق الواحات . ويكفي ان نذكر ان فترات من التاريخ هي مشتركة بين المنطقتين ، وتوجد الآن وثائق هامة مخطوطة في منطقة الزاب بالجنوب الجزائري تتعلق ببلدة نفطة وخاصة بالفترة التي ظهر فيها المذهب الاباضي ، وتركز في هذه البلدة ، وهي فترة هامة من تاريخ الفكر الاسلامي .

ولذلك فانه يمكن لاي ساكن من نفطة ان يزور الجنوب الجزائري دون مشقة ولا عناء ، لانه يجد من يكفله مدة اقامته وكذلك الشأن بالنسبة الى زيارة المواطنين الجزائريين الى هذه البلدة والى سائر مناطق الجريد وخاصة اثناء فصل الخريف لشراء « التمور » مبادلة « بالقمح » والزيت والعسل وصوف الاغنام ووبر الابل .

ولذلك فقد قام الشيخ محمد الخضر حسين بزيارة الى البلاد الجزائرية

وكان دافعه الاول هو نوع الصلات التى كانت تربط بين تونس والجزائر يضاف الى ذلك سببان هامان اولهما اصل عائلته الجزائرى الذى اشرنا اليه عند الحديث عن نسب الرجل(I)، وقد كانت من العائلات الجزائرية الشهيرة فى ميادين الدين والعلم والادب وثانيهما ميله الى الرحلة باعتبارها وسيلة من وسائل الاصلاح والتعلم وسبيلا من سبل المعرفة والثقافة وتكوين الشخصية واصلاح المجتمع الاسلامى ، وقد كتب مقالات عديدة والقى محاضرة هامة فى الموضوع ، كما درس حياة عدد كبير من العلماء والرحالة العرب وتأثر بهم تأثرا بالغا ومما قاله فى هذه المحاضرة التى القاها بالمجمع العلمى العربى بدمشق :

« يكثر الراحلون من بلاد الى اخرى والغرض من هذه المحاضرة البحث عن رحلات اهل العلم والادب وما تأتى به من ثمار طيبة لنعرف كيف تكون الرحلة من وسائل ترقية العلوم والآداب وتهذيب النفوس واصلاح حال الاجتماع(2) »

وقد اضفت ملحقا الى هذه الدراسة خصصته لجانب الرحلة فى شخصية هذا الرجل الثقافية ، ويشمل تحليل نظرياته فى الموضوع ، ونصوص رحلاته التى نشرها سواء بتونس او بالمشرق ، وذلك لما يمثله هذا الجانب الطريف من اهمية ضمن ادب الرحلات عامة وبالنسبة الى شخصيته خاصة من حيث تهذيبها والتعريف بقيمتها العلمية فى مختلف الامصار والبلدان التى زارها .

وقد قام الشيخ محمد الخضر حسين برحلتين الى الجزائر ، اما الرحلة الاولى فلم ينشر عنها صاحبها وصفا كما فعل بالنسبة الى بقية الرحلات حسبما نعلم اذ لم نجد أثرا لها فى صحافة ذلك العهد ولا فى احاديثه عن مراحل حياته فى بعض المقالات مع الاشارة الى ان الرجل قد تعرض فى عدة مناسبات الى الحديث عن زيارته الى الجزائر مع ذكر تواريخ مختلفة ، لكن المقارنات التى

(I) انظر هذا البحث ص : 22 .

(2) الهداية الاسلامية ــ م IO ج 2 ص : 65 .

قمت بها بين هذه التواريخ وما وقع فيها من احداث تؤكد انه كان دائما يقصد رحلته الجزائرية الثانية (I) ·

اما ما يثبت القيام بالرحلة الاولى ما ذكره الشيخ محمد الخضر حسين فى مقدمة الحديث عن رحلته الثانية الى البلاد الجزائرية بقوله :

« ··· كنت اسعفت فيما سلف من الزمان باجراء سياحة فى اطراف المملكة الجزائرية وبقيت النفس مستشرقة الى اعادتها تارة اخرى الى مدينة الجزائر نفسها » (2) ·

ويمثل هذا النص الدليل الوحيد الذى يؤكد تاريخيا قيامه بهذه الرحلة وهو يبين ان الرجل قد اقتصر فى رحلته الاولى على زيارة « اطراف المملكة الجزائرية » ، اما تاريخها فلم نعثر على وثائق تبين المدة والتوقيت بصورة تفصيلية الا انه من المتأكد لدينا ان الرجل قد قام بزورته الاولى الى الجزائر فى السنة التى سبقت زورته الثانية اليها ·

يقول عند الحديث عن بلدة « سوق اهراس » التى زارها فى الرحلة الثانية ايضا :

« ··· يوجد فى هذا البلد مدرس آخر هو الشيخ عبد المجيد ، كنت فى **السنة الفائتة** أتيت المسجد الذى يدرس فيه المختصر الخليلى وقد سبقت لنا معرفته بالحاضرة فرحب بنا واحسن لقاءنا ثم سعى بنا الى محل الدرس فجلس عن يسارنا وشرع فى تقريره بطريقة مقتصدة خالية من التطويل بعيدة عن الاختصار » (3) ·

وقد قام الرجل برحلته الثانية الى الجزائر فى شهر رمضان من سنة

(I) أشار فى الهداية الاسلامية م 5 ج 6 الى تعرفه على العلامة المرحوم عبد الحليم بن سماية عند زيارته الى عاصمة الجزائر فى رمضان I32I بينما قام بهذه الزيارة سنة I322 هـ .

(2) مجلة س . ع . عدد I9 ـ 20 ص 289 انظر الملحق « الرحلة الجزائرية » ص : 233 .

(3) نفس المصدر . عدد I9 ـ 20 ـ ص 29I .

1322 هـ. / نوفمبر من سنة 1904 م. ولذلك تكون الرحلة الاولى قد تمت خلال سنة 1321 هـ. / سنة 1903 م.

ويمكن ان نفرض ان هذه الزورة الاولى قد وقعت خلال شهر سبتمبر من السنة المذكورة ، ذلك لانه فى التاسع من هذا الشهر (الموافق رجب من السنة الهجرية) حل بتونس الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رائد الحركة الاصلاحية فى العالم الاسلامى للقيام بزورته الثانية اليها بعد ان زارها للمرة الاولى سنة 1884 م.،فاهتزت لمقدمه اندية العلم والادب والاصلاح واقبل على الترحيب به واستضافته عظماء البلاد وعلماؤها ، وجرت الاحاديث والتقى به المنتقدون عليه ، واشتد الجدال بينه وبينهم فى مسائل كثيرة ، فلم يخرج ذلك بهم عن تعظيمه ورعاية مقامه . فكانت زيارته موسم نفاق العلم والادب والمباحث الاصلاحية والفكرية (1) .

وقد وصفت جريدة « الحاضرة » (2) هذه الرحلة وتحدث عنها كل من كتب عن حياة الاستاذ الامام لما كان لها من اهمية فى تاريخ الحركة الاصلاحية بتونس والعالم الاسلامى عامة ، هذا الحدث العلمى الهام لا نجد ضمن العلماء والمثقفين الذين شاركوا فيه وحضروه الشيخ محمد الخضر حسين فى حين اننا نجد جميع العلماء الذين كان لهم اتصال متين وعلاقة خاصة به مثل الشيخ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور .

ولا يمكن – فى رأيى – ان يكون هذا الرجل الطموح المحب للمعرفة موجودا بتونس دون ان يحضر هذه المناسبة العلمية الهامة ، ولذلك فلا بد ان يكون فى تلك المدة بالبلاد الجزائرية اثناء القيام برحلته الاولى اليها .

---

(1) م . ف . ابن عاشور « الحركة الادبية » ص 75 .

(2) جريدة أسبوعية صدر عددها الاول يوم 28 أوت 1888 يديرها السيد على بوشوشة عضو الجمعية الخلدونية ومن ابرز عناصر الحركة الاصلاحية ـ راجع اعداد 8 ـ 15 – 22 ـ 29 سبتمبر و 27 أكتوبر 1903 .

وقد أكد الشيخ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور صحة هذا الافتراض فى احدى مقابلاتى له (I) •

◆ رحلته الثانية الى الجزائر :

قام الشيخ محمد الخضر حسين برحلته الثانية الى البلاد الجزائرية خلال شهر رمضان المعظم من سنة I322 هـ• / شهر نوفمبر سنة I904 ، وكتب وصفا عن هذه الرحلة بعنوان « الرحلة الجزائرية » (2) نشر فى العددين الاخيرين من مجلة « السعادة العظمى » : عدد I9 و 20 الصادرين فى I6 شوال سنة I322 هـ• / 23 ديسمبر سنة I904 م • من الصفحة 289 الى صفحة 304 ، وعدد 2I الاخير الصادر فى غرة ذى القعدة من نفس السنة الهجرية / 7 جانفى سنة I905 م• من صفحة 332 الى صفحة 336 وهى الصفحة الاخيرة من المجلة • وتجدر الملاحظة الى ان وصف هذه الرحلة لم ينته وانقطعت مجلة « السعادة العظمى » عن الصدور ، وانقطع معها نشر الحديث عن « الرحلة الجزائرية » ولم نعثر عن بقيته ، واظن ان صاحبه لم يواصل نشره فى جريدة او مجلة اخرى فى ذلك العهد •

وقد شرع الشيخ محمد الخضر حسين فى هذه الـرحلة يـوم السبت 5 رمضان سنة I322 هـ• / I2 نوفمبر سنة I904 م• وامتدت الى يوم الثلاثاء I5 رمضان / 23 نوفمبر من نفس السنة ، وهو اليوم الذى غادر فيـه عـاصمة الجزائر عائدا الى بلاده ، فتكون مدة اقامته بالبلاد الجزائرية قد بلغت احـد عشر يوما دون اعتبار المدة اللازمة لعودته الى تونس التى لم نستطع التعرف عليها لعدم نشر القسم الاخير من الرحلة •

(I) كنت أزور الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور فى بيته فى مناسبات مختلفة اثناء اعدادى لهذا البحث للتثبت فى كثير من المواضيع التى تتصل بحياة الشيخ محمد الخضر حسين وقد افادنى كثيرا كما وجدت منه مساعدة وعطفا نادرين يؤكدان وفاءه للعلم ولروح صديقه الزكيـة .

(2) انظر الملحق ص : 233 .

سافر هذا الرجل متخذا سبيله فى « البر » لانـه اجمـل منظـرا واقـل خطرا » (1) وكان منفردا فلم يرافقه احد من افراد عائلته الا فى القسم الاخير من الرحلة (2) • وقد زار اثناء الاحد عشر يوما التى قضاها بالبلاد الجزائرية مدن : سوق اهراس ، وتبسة ، وعين البيضـاء ، وقسنطينـة ، وباتنـة ، والجزائر العاصمة التى كانت هدف رحلته هذه لان اغلب المدن الاخرى قـد زارها فى السنة السابقة اثناء القيام برحلته الاولى (3) •

وقد اهتم اثناء ذلك بالميدان الثقافى والدينى ، فزار المساجد والمكتبات ، وحضر بعض الدروس الدينية واللغوية التى كانت تلقى فى تلك الفترة ، كما ألقى بعض المسامرات فى الفقه والحديث والتفسير وشارك فى بعض المجالس الادبيـة •

ومما يؤكد اهتمامه الكبير بهذا الجانب قصر اقامته ببلدة تبسة التى كانت « منفوضة الجراب » من آثار التعليم سوى ان بعض المتخرجين من الجامع الاعظم من اهالى الجريد يجاور بها نحو خمسة اشهر فى السنة يلقى فيها دروسا من الكتب الابتدائية (4) •

وقد تعرف على عدد كبير من الشيوخ والعلماء منهم الشيخ محمد بن شنب احد الاساتذة بالمدرسة الثعالبية بعاصمة الجزائر (5) • الذى قال عنه : «اخذنا معه اطراف محاورة اطلعتنا على ماله من النباهة التـامة والتفقـه فى الامـور الحديثة زيادة عما له من التفنن » (6) • ومن هؤلاء الشيوخ ايضا العلامة الشهير الشيخ عبد القادر المجاوى (7) الذى درس عليه عدد كبير من قضاة وعـدول

---

(1) انظر الملحق « الرحلة الجزائرية » ص : 233 .

(2) السعادة العظمى عدد 19 ـ 20 ـ ص : 295 .

(3) انظر الرحلة الجزائرية وخاصة عند الحديث عن زيارته لسوق اهراس وقسنطينة .

(4) مجلة س . ع . ج . 19 ـ 20 ص : 291 .

(5) نسبة الى الشيخ عبد الرحمان الثعالبى المتوفى سنة : 888 هـ 1468 م . من علماء التفسير له كتاب « الجواهر الحسان فى تفسير القرآن » ويوجد ضريحه بالجزائر العاصمة .

(6) مجلة س . ع . ج 19 ـ 20 ص : 296 .

(7) المتوفى سنة 1914 م .

الجزائر والذى قال عنه : « نستحسن من دروس هذا الشيخ اقتصاره فى كل فن على تقرير مسائله التى يشملها موضوعه وعدم خلط بعضها ببعض » (1) • وقام فى اليوم الاخير من هذه الرحلة الثانية الى الجزائر بزيارة الى مكتبتها العمومية التى اطلع بها على عدة كتب هامة ومخطوطات فريدة مما جعله يقول عنها : « ••• هجت أسفا على انى لم اتمكن من زيارتها الا فى آخر يوم من ايام اقامتنا حتى انى لم استوف مطالعة انموذج الكتب بتمامه » (2) • وبذلك يختم وصفه عن هذه الرحلة •

ويبدو ان الشيخ محمد الخضر حسين تمكن خلال هذه الزورة من الاطلاع على معالم الثقافة فى البلاد الجزائرية وقد تأثر بذلك تأثرا كبيرا دعم رغبته فى القيام برحلات اخرى وصفها باسلوب ادبى شيق جعله يحتل مكانة ممتازة ضمن الادباء والرحالة التونسيين فى بداية القرن العشرين •

• تولى خطة القضاء ببنزرت :

انقطعت مجلة « السعادة العظمى » عن الصدور فى شهر جانفى سنة 1905 م• لاسباب سنتعرض اليها عند الحديث عن هذه المجلة فى القسم الثانى من البحث المتعلق بآثار الرجل •

واثر ذلك تولى الشيخ محمد الخضر خطة القضاء ببنزرت وكان للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قسط كبير فى التأثير عليه لقبول هذه الوظيفة اذ يبدو ان الرجل كان لا يميل الى العمل فى الخطط الادارية (3) بالاضافة الى رغبته الدائمة فى مواصلة التعلم والتعليم لان فى ذلك تكوينا متواصلا للشخصية ومساهمة فى اصلاح الانسان والمجتمع •

---

(1) نفس المصدر ـ ص 297 .

(2) انظر الملحق ـ ص : 250 .

(3) ذكر لى ذلك اثناء حديث معه عن الشيخ محمد الخضر .
انظر ز . ع . السنوسى « الادب التونسى » ج 2 ص : 193 .

بقى اشهرا قليلة فقط متقلدا خطة القضاء ببنزرت قدم اثرها استقالته وألح على قبولها وعاد الى تونس العاصمة لمباشرة التدريس بجامع الزيتونة من جديد ، وتولى اثناء المدة القصيرة التى قضاها ببنزرت الخطابة والتدريس بجامعها الكبير كما كانت له مجالس علمية وادبية ثرية وقد القى فى نفس المدة محاضرته الشهيرة « الحرية فى الاسلام » بنادى جمعية قدماء الصادقية سنة 1906 م. والتى نشرت سنة 1909 م. ونالت اهتمام جميع الاوساط الثقافية فى ذلك العهد .

♦ التدريس بجامع الزيتونة :

عاد الى تونس العاصمة خلال سنة 1906 م. وباشر التدريس بجامع الزيتونة تطوعا كما كلفته ادارة الجامع بالاشراف على تنظيم المكتبة ضمن لجنة تكونت للقيام بهذا العمل ، ويؤكد ذلك اهتمام الادارة وتقديرها لكفاءته لان تنظيم مكتبة علمية غنية بالمخطوطات وبأمهات الكتب لا يمكن ان يوكل لغير رجال عرفوا بالعلم الغزير والاطلاع الواسع .

وقد شارك خلال سنة 1907 م. / سنة 1325 هـ. فى مناظرة للتدريس من الطبقة الثانية ونجح فيها كما وقع تعيينه استاذا بالمدرسة الصادقية وانتدبته الجمعية الخلدونية ليلقى دروسا على طلابها فى الانشاء والبلاغة (1) .

وكان محبا لتلاميذه ، حاثا إياهم على المطالبة باصلاح التعليم الزيتونى . ولذلك نجده ضمن شيوخ جامع الزيتونة الاوائل الذين تزعموا حركة اصلاح التعليم بتأسيس جمعية « تلامذة جامع الزيتونة » (2) سنة 1324 هـ. / 1906 م. فقد عقدت الهيأة الوقتية لهذه الجمعية اجتماعا عاما بقاعة الخلدونية يوم 27 ذى الحجة من السنة المذكورة حضره عدد كبير من التلامذة والاساتذة كان من ابرز الخطباء الموجهين فيه الشيخ الطاهر النيفر الرئيس

---

(1) مجلة « لواء الاسلام » سبتمبر 1956 .

(2) م . ط . ابن عاشور « اليس الصبح بقريب » ص : 250 .

الوقتى لهذه الهيأة والشيخ محمد الخضر حسين • وقـد انتخب المجتمعـون هيأة الجمعية الرسمية التى كانت تتألف من الرئيس الشيخ محمد رضوان واحد عشر عضوا منهم : الشيخ الطاهر النيفر ومحمد الخضر حسين ومحمد الطاهر ابن عاشور وابو الحسن النجار ومحمد الصادق النيفر •

وفى 21 محرم سنة 1325 هـ• / سنة 1907م انحلت الهيأة السابقة وتكونت هيأة جديدة باسم « الجمعية الزيتونية » تولى رئاستها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وعضويتها ابرز الشيوخ منهم : محمد رضوان ـ الطاهر النيفر ـ محمد النخلي ـ محمد الخضر حسين ـ أبو الحسن النجار والصادق النيفر (1) •

يتبين من ذلك ان الشيخ محمد الخضر لم يقصر نشاطه على التدريس بل كان له نشاط اجتماعى يهدف الى اصلاح التعليم كما كان له نشاط ثقـافى واسع يتمثل فى القاء المحاضرات مثل محاضرته العلمية الشهيـرة « حيـاة اللغة العربية » التى القاها بنادى قدماء الصادقية سنة 1327 هـ• / سنـة 1909 م • ونشرت فى نفس السنة والتى سنتعرض اليها بالتحليل فى القسم الثانى من هذا البحث الخاص بآثار الرجل •

---

(1) المصدر السابق : ص 252 .

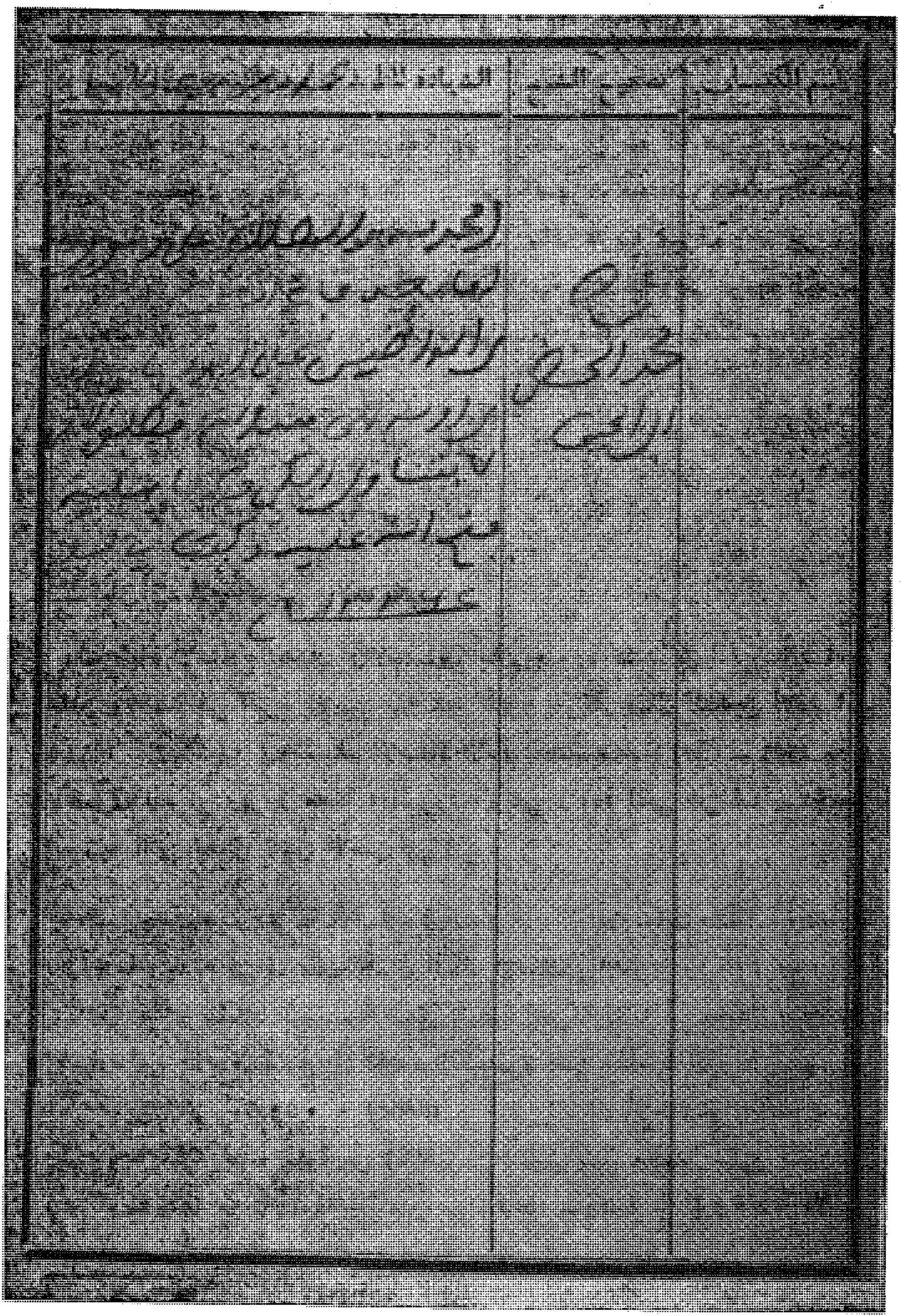

(*) هذه صفحة من دفتر الطالب السيد عمار بن رمضان الشابى (والد صديقنا الدكتور على الشابى) عليها ملاحظات استاذه الشيخ محمد الخضر حسين بخطه .

◆ **بين تيارين إصلاحيين :**

امتازت العشر سنوات الاولى من القرن العشرين بحركة ثقافية وسياسية نشيطة سيطرت على الحياة الفكرية بتونس وصهرت مختلف عناصر النخبة المثقفة الموجودة وقتئذ سواء منها من تثقف بثقافة عربية صرف وهم خريجو جامع الزيتونة او من تثقف بثقافة مزدوجة عربية فرنسية وهم خريجو المدرسة الصادقية • وان كان هدف هذه الحركة الواسعة واحدا هو الاصلاح فانه يمكن تقسيمها الى تيارين :

1 ـ تيار الاصلاح الديني والاجتماعي •

2 ـ تيار الاصلاح السياسي •

أ ـ تيار الاصلاح الديني والاجتماعي :

اما تيار الاصلاح الديني والاجتماعي فان جذوره تمتد الى القرن التاسع عشر وخاصة فى الربع الاخير منه عند ظهور حركة جمال الدين الافغاني (1833 ـ 1897 م•) وتلميذه الاستاذ الامام محمد عبده (1849 ـ 1905 م•) بالمشرق العربى وبروز مجلة « العروة الوثقى » (1) التى هى لسان الجمعية السرية التى تحمل نفس الاسم •

فقد وجدت هذه الحركة الاصلاحية صدى فى كل الاوساط الثقافية وتجاوبا تجاوز ما وجدته فى مختلف بلدان العالم الاسلامى الاخرى وذلك لوجود تيار إصلاحى قديم بالبلاد التونسية سبق انتشار حركة الافغانى وعبده • وتجدر الاشارة فى هذه المناسبة الى الجهود الكبيرة التى بذلها الوزير المصلح خير الدين المتوفى 1308 هـ • / 1889 م • فى الميدان الاجتماعى والسياسى وكذلك ما بذله بعده نخبة من المثقفين اللامعين منهم محمد بيرم الخامس (1840 ـ 1889 م•) ومحمد السنوسى (1812 ـ 1900 م•) وخاصة الاخير

---

(1) « العروة الوثقى » 13 مارس ـ 16 أكتوبر سنة 1884 . م .

الذى اصبح عضوا فى جمعية « العروة الوثقى » السرية وزعيما للحركة الاصلاحية فى تونس فى السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ٠

وقد وقعت عدة احداث دعمت هذا الاتجاه الاصلاحى الدينى ، منها زيارة الاستاذ الامام محمد عبده الاولى الى تونس والتى دامت من 6 ديسمبر سنة 1884 م٠ الى 4 جانفى 1885 م٠

فقد اتصل الاستاذ الامام اثناء هذه المدة بالعائلة المالكة وكبار العلماء وحضر الدروس بجامع الزيتونة الاعظم واجتمع فى قصور العظماء ٠٠٠ « وامتزج برجال العصابة الاصلاحية » (1) وقد كتب الشيخ محمد السنوسى عن هذه الزيارة فى كتابه « الرحلة الحجازية » (2) ولعله المصدر الوحيد الذى يخبر عنها (3) ، ومما قاله فى الجزء الثالث ص 187 من هذه الرحلة :

« لما اصاب اهلها (باريس) مرض الكوليرا خرج مصفف احرف الصحيفة فعطلت (العروة الوثقى) وانتهز الشيخ محمد عبده فرصة ذلك لدخول تونس فدخلها فى التاسع عشر من صفر الخير (6 ديسمبر 1884 م٠) وتلقاه الامير على باشا باى (1881 ـ 1902 م٠) فى باردو وزار ولى العهد بسانيته بالمرسى واستضافه الاخوان سيدى حسين باى وسيدى الناصر باى كما استضافه بالحاضرة كثير من اعيان العلماء وحضر عندى ليلة الاربعاء السادس والعشرين من صفر الخير (13 ديسمبر 1884 م ٠) اثنتين وثلاثمائة وألف واسترسل اجتماعنا به الى ان قضى موسم المولد الشريف وسافر يوم الاحد السابع عشر من ربيع الاول (4 جانفى 1885 م٠) قاصدا التوجه عن طريق مالطة ونابلى ثم الى باريس ورأينا منه اثناء ذلك تفوق الفكر وفصاحة اللسان وكمال الرواية واستحضار المسائل من العلوم العقلية ما تطابق المخبر والخبر واغنى بالعيان عن البيان مع ماله من الدهاء والتحنك بالتجارب ٠٠٠ »

---

(1) م . ف . ابن عاشور « الحركة الادبية » ص 60 .

(2) « الرحلة الحجازية » مخطوط بالمكتبة الوطنية عدد 3346 فى ثلاثة اجزاء .

(3) حوليات الجامعة التونسية سنة 1966 عدد 3 ـ المنصف الشنوفى « مصادر عن رحلتى الاستاذ الامام » .

ولم يقتصر الشيخ محمد عبده عن الحديث على العلم والعلماء فى مجالسه بتونس وانما تناول كذلك ما سماه الشيخ محمد السنوسى « بالسياسة الحاضرة » .

ومن الاحداث الهامة ايضا التى ساعدت على تعزيز هذه الحركة تأسيس النخبة الاصلاحية المثقفة جريدة « الحاضرة » (1) التى هى أول جريدة اسبوعية عربية غير رسمية صدرت بتونس (2) وقد كان مدير هذه الجريدة الاستاذ على بوشوشة وساعده السيد البشير صفر (المتوفى سنة 1335 هـ. 1917 م.) وكذلك الشيخ سالم بوحاجب (المتوفى سنة 1343 هـ. 1925 م.) والشيخ محمد السنوسى . كما صدرت بعدها بسنتين اى سنة 1890 م. جريدة « الزهرة » التى كان يديرها الاستاذ عبد الرحمان الصنادلى ، وقد كان الوطنيون يعتبرون ان هذه الجريدة اكثر تحررا عن الادارة الفرنسية من زميلتها التى كانت موصوفة بالاعتدال .

ولعل اهم حدث وقع فى السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر واثر تأثير مباشرا فى الحركة الاصلاحية فيما بعد هو تأسيس « الجمعية الخلدونية » سنة 1896 م. فانتخب اول رئيس لها الاميرلاى محمد القروى وكان يساعده مجلس يتألف من السيد البشير صفر وعدد من المثقفين من خريجى المدرسة الصادقية ومن الزيتونيين تلامذة الشيخ سالم بوحاجب احد رواد الاصلاح البارزين فى ذلك العهد ، وقد كان الهدف من هذه الجمعية تدريس العلوم وبعض المواد الهامة باللغة العربية لكن نشاطها تجاوز ذلك الى القاء المحاضرات والمسامرات فى مختلف العلوم فاصبحت مركز اشعاع ثقافى واصلاحى هام كان له الاثر البعيد المدى فى الحياة الفكرية بتونس .

هذه الاحداث البارزة التى تمت خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر قد ساعدت على دعم تيار الاصلاح الدينى والاجتماعى خاصة اذا اضفنا اليها

---

(1) صدر العدد الاول منها يوم 24 ذى القعدة سنة 1305 / 2 أوت 1888 م .
(2) م . ف . ابن عاشور « الحركة الادبية » ص : 67

صدور مجلة « المنار » (1) التى أسسها الشيخ رشيد رضا بمصر بوحى من أستاذه الشيخ محمد عبده • وقد اهتمت النخبة المثقفة التونسية بهذه المجلة مما جعل رشيد رضا يقول منوها بالاصلاحيين التونسيين : « وجاء من تونس أن الجزء الواحد من المنار يدار على عشرات من الناس » (2) كما اهتمت هذه المجلة بتونس فكانت تكثر من نشر الاخبار عنها ولا سيما ما يتعلق منها بالتعليم والاصلاح الدينى فارتبطت بذلك « بالنهضة الفكرية التونسية ارتباطا وثيقا » (3) •

وفى بداية القرن العشرين إزداد تيار الاصلاح الدينى والاجتماعى دعما وشمولا فكثر مريدوه والمدافعون عنه كما اشتد الخلاف بين هؤلاء وبين المحافظين وقد ازداد هذا الوضع الفكرى حدة بزيارة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الثانية الى تونس من يوم الاربعاء 9 الى يوم الخميس 22 سبتمبر سنة 1903 م• (4) ويكفى ان نذكر ما قاله الاستاذ المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور فى كتابه « الحركة الادبية والفكرية فى تونس » حتى نتبين مدى اهمية هذه الزيارة من الناحية العلمية وتأثيرها على الحركة الاصلاحية التونسية :

« زار الاستاذ الامام تونس زورته الثانية فى رجب سنة 1321 هـ• سبتمبر 1903 واهتزت لمقدمه اندية العلم والادب والاصلاح واقبل على الترحيب به واستضافه عظماء البلاد وعلماؤها وجرت الاحاديث والابحاث والتقى به المنتقدون عليه واشتد الجدال بينه وبينهم فى مسائل كثيرة فلم يخرج ذلك بهم عن تعظيمه ورعاية مقامه فكانت زيارته موسم نفاق العلم والادب والمباحث الاصلاحية والفكرية • وكان اكثر الناس التفافا حوله والتحاما به مدة مقامه بتونس رجال الخلدونية وجريدة « الحاضرة » (ص 75) •

---

(1) صدرت مجلة المنار يوم 15 مارس سنة 1893 م وكانت أسبوعية ثم أصبحت شهرية ابتداء من عامها التاسع سنة 1906 م وقد كان البشير صفر من مراسليها بتونس وقد توقفت اثر وفاة الشيخ رشيد رضا فى 22 أوت سنة 1935 م .

(2) مجلة المنار مجلد 5 ج 22 ص 880 .

(3) م . ف . ابن عاشور « الحركة الادبية والفكرية بتونس » ص 79 .

(4) حوليات الجامعة التونسية عدد 3 سنة 1966 ص 99 .

كانت هذه الزورة الثانية عاملا هاما فى اشتعال حمية الانتصار للاصلاح الدينى والاجتماعى مما ادى بحركة المحافظين المعارضين للاصلاح الى التفكير فى توفير عنصرين متكاملين للتغلب على انصار الحركة الاصلاحية والتنقيص من تأثيرهم وهما : عالم شهير تلتف حوله حركتهم ، كما التفت حركة الاصلاحيين حول الاستاذ الشيخ سالم بوحاجب ، ومجلة علمية ينشرون فيها مقالاتهم ومواقفهم تقابل مجلة « المنار » وتناقش المباحث الدينية مع التزام المذهب الذى عليه جمهور العلماء فى المسائل الاعتقادية وفروع الفقه العملية.

وقد توفر العنصر الاول بالتفافهم حول الشيخ محمد النجار المفتى المالكى المعروف بغزارة علمه (1) والذى كان كلما تناولت مجلة « المنار » مسألة من المسائل الا وانتصب لبحثها وتمحيصها وتقديم الحجج الشاهدة « بان مسلك المنار مخالف لمذهب اهل السنة . ويقوم بذلك فى دروسه اليومية ومجالسه وفى درسين حوليين يلقيهما فى شهر رمضان بمناسبة ختم مجلس الحديث الشريف يشهدهما الامير وجميع العلماء وجمهور عظيم من الخاصة والعامة » (2) .

اما العنصر الثانى الذى سعى المحافظون لايجاده فقد توفر باصدار مجلة « السعادة العظمى » التى اسسها الشيخ محمد الخضر حسين . لكن هذه المجلة لم تكن تمثل حركة المحافظين فى جميع المسائل العلمية والدينية ولم تعبر عن آرائهم ومواقفهم الا فى مناسبات قليلة كما سنبين ذلك عند الحديث عنها فى قسم « آثار الرجل » من هذا البحث ، بل كان ظهور «السعادة العظمى» « فى معمعة تلك الخلافات كطلوع الحكم العادل تنزهت به المجادلات عن الفحش وتطهرت من الهمز واللمز وتسامت عن التشهير والاذى الشخصى » (3) .

---

(1) انظر ص : 36 من هذا البحث .

(2) م . ف . ابن عاشور « الحركة الادبية والفكرية بتونس » ص 78 .

(3) م . ف . ابن عاشور « الحركة الادبية والفكرية بتونس » ص : 78 .

ولم تعمر هذه المجلة طويلا ، واستمر تيار الاصلاح الدينى والاجتماعى فى التطور وتغذى بتيار سياسى قومى تبلور ضمن التيار الاول وتدعم خلال السنوات الاولى من القرن العشرين فسيطر على الحركة الفكرية التونسية واصطبغت به حياة النخبة المثقفة ٠

ب ـ تيار الاصلاح السياسى :

لقد كان هذا التيار منصهرا ضمن التيار الاول وكانت عناصره المثقفة البارزة مندمجة متعاونة مع عناصره فى مختلف الجمعيات التى كانت موجودة فى ذلك العهد اى فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن العشرين ٠

وتميز الاتجاه السياسى وبرز رواد الحركة القومية التونسية فى مرحلتها الاولى خلال سنة 1907 م٠ وخاصة منذ تأسيس جريدة « التونسى » (1) يوم 7 فيفرى من هذه السنة وهى لسان حركة « الشباب التونسى » التى تأثرت بحركة « الشباب التركى » وحركة «الشباب الايرانى» والتى كان يقودها الزعيم على باش حامبة (1879 م ٠ ــ 1918 م ٠) ذلك لان عناصر هذه الحركة كانت ملتفة حول جريدة « الحاضرة » ومشاركة بصورة فعالة ونشيطة فى تسيير وتوجيه جمعية « الخلدونية » و « نادى قدماء الصادقة » ثم احدثت تجمعا مستقلا ذا صبغة سياسية وطنية له اتجاه مضبوط ووسيلة يعبر بها عن برامجه وافكاره فى خصوص المشكلة القومية ٠

ولذلك نجد عنوان افتتاحية العدد الاول (2) بجريدة « التونسى » هو « برنامجنا » الذى يمكن تلخيصه فى مطلبين :

---

(1) جريدة اسبوعية صدر العدد الاول منها يوم الخميس 7 فيفرى سنة 1907 والعدد الاخير يوم الخميس 7 مارس سنة 1912 م أى قبل اسبوع من نفى مديرها على باش حامبة يوم 13 مارس 1912 .

(2) حل بتونس يوم صدور العدد الاول من « التونسى » المقيم العام الفرنسى الجديد (ألابتيت) Alapetite خلفا لستيفان بيشون Stephen Pichon

1 ـ المشاركة (تشريك التونسيين فى تسيير شؤون البلاد) .

2 ـ المساواة بين الفرنسيين والتونسيين .

اذن فان هذه الحركة لم تطالب بتحرير البلاد من الاستعمار والهيمنة الاجنبية بل اكتفت بهذين المطلبين اللذين يمكن اعتبارهما مظهرا ثوريا عند وضعهما فى إطارهما التاريخى والاجتماعى والسياسى . وقد كان من ابرز عناصر حركة « الشباب التونسى » بشير صفر وعبد الجليل الزاوش والشيخ عبد العزيز الثعالبى الذى تأثر بتيار الاصلاح الدينى والاجتماعى ثم ساهم مساهمة فعالة فى هذه الحركة السياسية وكان من اهم ممثليها فى مؤتمر « المستعمرات » الذى انعقد بمدينة مرسيليا من يوم 5 الى 9 سبتمبر 1906 م.

واصلت هذه الحركة نشاطها السياسى سعيا لتحقيق المطالب التى كانت تتبناها وتدافع عنها وكان ذلك بكتابة المقالات اذ لم يكن لها تنظيم شعبى يربطها بالمواطنين التونسيين فى مناطق مختلفة من البلاد . ومن القضايا التى تصدت لها جريدة « التونسى » بالنقاش تمثيل التونسيين فى المجلس الاستشارى الذى اسسته السلط الاستعمارية الفرنسية سنة 1891 م. عندما كان ماسيكو Massicault مقيما عاما بتونس ، وقد كان دور هذا المجلس الذى يتألف من فرنسيين فقط النظر فى شؤون الدولة التونسية وميزانيتها .

فقد صدر فى 2 فيفرى سنة 1907 م. قانون يجعل هذا المجلس يتألف من 36 فرنسيا و 16 تونسيا يعينهم المقيم العام . فانتقدت « حركة الشباب التونسى » هذا القانون وطالبت بالزيادة فى عدد التونسيين مع جعل الانتخاب هو اسلوب الاختيار لهؤلاء النواب . لكن طريقة العمل التى اتبعتها هذه الحركة وتصلب الحكم الاستعمارى لم يمكنها من تحقيق اى هدف مما رسمته لنفسها رغم مواصلة النشاط سنين عديدة .

ويبدو ان زعماء هذه الحركة القومية الناشئة قد تأكدوا من عدم نجاعة اسلوب النضال السياسى الذى انتهجوه مما جعلهم يفكرون فى الدخول فى

كفاح شعبى تصطدم فيه جماهير التونسيين مع السلط الاستعمارية الحاكمة فى البلاد ·

ويثبت ذلك حادثة مقبرة الزلاج ، التى وقعت يوم 7 نوفمبر سنة 1911 وكذلك مقاطعة المواطنين التونسيين لحافلة « الترام » فى فيفرى سنة 1912 بعد اشهر قليلة من الحادثة السابقة تضامنا مع الشعب الليبى بمناسبة الحرب الليبية الايطالية ·

وقد قام الزعيم على باش حامبة بدور هام فى هذه الاحداث الاخيرة سواء باشرافه على اللجنة التى قامت بتحريض المواطنين على مقاطعة « الترام » او بكتابة المقالات فى جريدة « التونسى » الداعية الى مناصرة الدولة العثمانية المسلمة فى حربها المقدسة ضد الايطاليين فى ليبيا ·

وكان موقف السلط الفرنسية مقابلة هذه الاحداث بالزجر العنيف وذلك بمنع جريدة « التونسى » من الصدور يوم 7 مارس سنة 1912 ، ونفى مديرها وزعيم « حركة الشباب التونسى » على باش حامبة صباح يوم 13 مارس من نفس السنة ، ومحاكمة عدد من الوطنيين مع تسليط اشد العقوبات عليهم · ونظرا الى أن هذه الحركة لم يكن لها تنظيم شعبى يمكنها من الصمود والاستمرار فقد انحل عقدها وتشتتت عناصرها البارزة وتلك هى نتيجة كل حركة سياسية غير شعبية · وتجدر الملاحظة الى ان هذه الحركة تمثل حلقة اساسية من حلقات الكفاح الوطنى بالبلاد التونسية (1) لانها مهدت للحركات السياسية التى تلتها وساعدتها على الاستفادة بما قامت به من اعمال لمواصلة النضال القومى حسب طريقة اكثر احكاما وادق تنظيما مما مكنها من الصمود والدوام والنجاح ·

ان ما بيناه بايجاز عن الحركة الاصلاحية الدينية والسياسية بتونس فى بداية هذا القرن يوضح ما قامت به النخبة المثقفة التونسية من جهود فى هذا

(1) « الشباب التونسى والمعمرون الفرنسيون » ش . أ . جوليان تعريب الاستاذين محمد مزالى والبشير بن سلامة .

الميدان وما سيطر على حياتها الفكرية من مشاغل وما كانت تتبناه من مبادىء. واذا كان الشيخ محمد الخضر حسين احد افراد هذه النخبة كما بينا ذلك عند الحديث عن مراحل حياته السابقة **فما هو نوع مساهمته ومداها في هذه الحركة ؟**

ينتمي الشيخ محمد الخضر الى مجموعة المثقفين الزيتونيين ـ كما هو معلوم ـ ولذلك نجد مشاركته ضمن تيار الاصلاح الدينى والاجتماعى كبيرة سواء بما قام به من اعمال وبذله من جهود فى ميدان اصلاح التعليم الزيتونى (1) او بتأسيسه مجلة « السعادة العظمى » بمساعدة وتوجيه شيخه الاستاذ محمد النجار احد رواد حركة المحافظين (2) المناوئة لحركة الاصلاحيين التى كان من ابرز روادها الشيخ الاستاذ سالم بوحاجب والاستاذ بشير صفر ، ورغم ان موقف الشيخ محمد الخضر حسين فى المجلة لم يكن هو نفس موقف المحافظين ، بل قاومه البعض منهم كما سنبين ذلك فى الفصول القادمة ، لكن هذا العمل يعتبر مساهمة فى الحركة الفكرية « تساير تيار الاصلاحيين » ولا تساند مواقفهم وآراءهم .

اما بالنسبة الى تيار الاصلاح السياسى الذى كان يتزعمه على باش حامبة وتمثله حركة « الشباب التونسى » فان الشيخ محمد الخضر حسين لم يكن له عمل يذكر فى هذا الميدان بل هناك تساؤلات تنتظر الاجابة عن موقفه من « حوادث الزلاج » وخاصة حوادث « الترام » التى نتج عنها نفى الزعيم على باش حامبة . وتجدر الاشارة الى ان هذا الرجل كانت له روح وطنية صادقة وشعور متواصل بالمرارة لما يقاسيه الشعب التونسى من ظلم السلطة الاستعمارية ومضايقة المعمرين الاجانب وقد ظهر هذا الشعور عند رفضه عضوية المحكمة التونسية الفرنسية التى اقترحت عليه كما سنلاحظه بصورة اوضح فى المراحل القادمة من حياته وفى آثاره النثرية والشعرية .

---

(1) انظر ص : 47 .

(2) انظر ص : 36 .

وفى رأينا فان هناك اسبابا عديدة نفسية واجتماعية Psycho-sociologiques حددت موقف الشيخ محمد الخضر حسين ونظرته الى النشاط السياسى سأتعرض اليها بالتفصيل فى القسم الثالث من هذا البحث . ولعل الموقف الوحيد الذى نجده لهذا الرجل فى تلك الفترة هو مشاركته فى التنديد بالحرب التى شنتها ايطاليا سنة 1911 ضد ليبيا التابعة وقتئذ للحكم العثمانى، ودعوة المواطنين الى مساعدة شعب ليبيا المسلم والحكومة العثمانية ضد الايطاليين . ويبدو ان دافع ذلك هو نظرة الشيخ محمد الخضر حسين الدينية والسياسية وخاصة الى الباب العالى بتركيا باعتباره رمز السلطة الاسلامية التى يجب على جميع المسلمين دعمها ومساندتها والدفاع عنها .

وقد نشر بهذه المناسبة قصيدته الشهيرة التى نجد فيها بوضوح حبه للحرية وعواطفه الوطنية الجياشة وقد دعا فيها المواطنين الى اعانة بعثة الهلال الاحمر التركية التى مرت بتونس قاصدة طرابلس والتى كانت تجمع الاموال والمساعدات الى المتضررين فى الحرب الليبية الايطالية . وقد قال فى مطلعها : (1)

ردوا على مجدنا الذكر الذى ذهبا
يكفى مضاجعنا نوم دها حقبا (2)
ولا تعود الى شعب مجادته
الا اذا غامرت هماته الشهبا

وقد كانت النخبة المثقفة التونسية تعيش فى جو نفسى خانق فى النصف الثانى من سنة 1912 نتيجة ما سلطه على البلاد من ارهاب وتعسف النظام الاستعمارى القائم اثر حوادث « الترام » ، ولا شك ان الشيخ محمد الخضر حسين كان يعانى نفس الازمة ويشعر بنفس الشعور وهو الوطنى الحساس وقد زاد فى ضيق نفسه خيبته فى مناظرة التدريس من الطبقة الاولى التى

---

(1) ديوان « خواطر الحياة » ط . ثانية ص : 33 .
(2) البحر : البسيط .

اجتازها اثناء تلك المدة وسعى شيوخ النظارة الى اسقاطه نتيجة وجود بعض العوامل الشخصية والميول الخاصة جعلت هؤلاء الشيوخ (وخاصة منهم الشيخ بلحسن النجار) لا يعتمدون على مقاييس الكفاءة العلمية مما ادى بالشيخ محمد الخضر الى قول البيتين المشهورين :

عجبا لهاتيك النظارة أصبحت
كالثوب بين أنامل (القصار)
وأنامل (القصار) تعبث مثل آ
لات تحركها يد (النجار) (1)

رحلته الى الشرق العربى :

بينا عند الحديث عن رحلة هذا الرجل الى الجزائر ميله الى هذا النوع من النشاط باعتباره وسيلة هامة من وسائل التثقف والتعلم وتكوين الشخصية وفى نفس الوقت وسيلة من وسائل اصلاح المجتمع الاسلامى وتهذيبه ٠

وقد ذكرنا أنه حاول القيام برحلة الى المشرق العربى سنة بعد حصوله على شهادة التطويع اى عام 1317 هـ٠ / 1889 م٠ الا انه رجع من مدينة طرابلس الغرب ولكن شوقه الى ذلك لم ينقطع مثلما هو الشأن بالنسبة الى رجال العلم والدين الذين كانوا يتوقون الى زيارة مواطن الثقافة فى تلك الربوع لتقوية معارفهم واثرائها والاطلاع على المعاهد العلمية التى كانت منارات تشع نور المعرفة على طلابها وتدعم الحضارة الاسلامية ٠ وقد ازداد هذا الشوق شدة اثر انتقال اخوته الثلاثة : زين العابدين والمكى والعروسى ابناء الحسين واستقرارهم بدمشق العاصمة السورية سنة 1911 لدوافع نجهلها الى الآن وكان قد ارتحل قبل ذلك خاله الشيخ محمد المكى ابن عزوز واستقر بالاستانة سنة 1313 هـ٠ / 1898 م٠ (2) وبذلك فقد اجتمعت اسباب عديدة : علمية

(1) ــ البحر الكامل ــ الشيخ (القصار) والشيخ (النجار) من كبار شيوخ جامع الزيتونة وهما من هيئة نظارة الجامع الأعظم .

(2) انظر ص : 25 .

وعائلية وسياسية جعلت الشيخ محمد الخضر حسين يفكر فى القيام برحلة الى الشرق ويبدو ان السبب العائلى كان مرجحا اذ نجده يقول فى اول الحديث الوصفى الذى سماه « خلاصة الرحلة الشرقية » (1) ·

« سنح لى باعث على الرحلة الى بلاد الشام وهو زيارة الاهل وفاء بحق صلة الرحم » ·

شرع هذا العلامة فى رحلته يوم الخميس 4 شعبان سنة 1330 / 18 جويلية 1912 عن طريق البحر وانهاها يوم الاثنين 16 ذى الحجة / 24 نوفمبر من نفس السنة فتكون مدة الرحلة اربعة اشهر وستة ايام ونشرت « خلاصة » هذه الرحلة بجريدة « الزهرة » من يوم 25 مارس الى 7 افريل ومن 18 الى 27 افريل سنة 1913 ·

وقد زار خلال تلك المدة جزيرة مالطة ومدينة الاسكندرية التى قام بجولة فى بعض احيائها واطلع على اهم مساجدها ومكتبتها التى قال عنها : « لم يقع بصرى فيما طالعته على كتاب نادر يستحق ان نذكره » (2) ثم انتقل الى القاهرة فزار جامع الازهر واتصل ببعض شيوخه منهم العالم احمد امين الشنقيطى (المتوفى سنة 1331 هـ· 1913 م·) وهو « احد العلماء الذين تجولوا فى بلاد الشام والحجاز » (3) وقد ابتهج بقدومه طلاب الازهر المغاربة الذين منهم من حضر دروسه بجامع الزيتونة ، وألحوا عليه صحبة عدد من الطلبة الشيوخ القاء درس بالازهر محافظة « على سنة الكثير من اهل العلم حيث يمرون » بهذا المعهد العلمى الكبير · فلبى هذا الطلب والقى درسا فى التفسير نال اعجاب الحاضرين وتقديرهم لغزارة علمه وسعة اطلاعه ودقة معارفه وقوة حجته وقد نشر الشيخ محمد الخضر خلاصة هذا الدرس فى حديثه الوصفى عن رحلته الشرقية ·

---

(1) انظر الملحق ـ ص : 251 .

(2) الملحق ـ ص . 254 .

(3) الملحق « خلاصة الرحلة الشرقية » ص 259 .

ثم بارح مدينة القاهرة يـوم الاحـد 14 شعبـان سنـة 1330 هـ• / 28 جويلية 1912 م• فزار بور سعيد ، ثم يافا ، وحيفا ، وكان اثناء تنقله عبر المدن يتصل بالعلماء والادباء ويتحاور معهم فى قضايا فقهيـة وادبية ولغوية وقد دخل مدينة دمشق يوم 31 جويلية 1912 حيث استقر مع اخوته بحى الميدان (1) •

وقد استقبله علماء دمشق ووجهاؤهـا استقبـالا حارا ولا غرابـة فـى ذلك وهو أخو الشيخ زين العابدين بن الحسين الـذى كان يلقـى دروسـا بالجامع الأموى مثل بقية ابرز علماء دمشق كما ان شهرة الشيخ محمد الخضر حسين قد سبقت حلوله بديار الشام وذلك عن طريق مؤلفاته « الحرية فى الاسلام » و « الدعوة الى الاصلاح » و « حياة اللغة العربية » التى القاها محاضرات بتونس وطبعت سنة 1909 م• ووزعـت فى عـدة بلـدان عـربية وخاصة بالمشرق • ومن ابرز العلماء الذين اتصلوا بالشيخ محمد الخضر بدمشق الشيخ يوسف النبهانى (المتوفى سنة 1345 هـ• 1926 م•) والشيخ سعيد الجزائرى •

وقد قضى الشيخ محمد الخضر بدمشق كامل شهر رمضان زار خلاله أهم المؤسسات الثقافية بالعاصمة السورية وخاصة الجامع الاموى حيث القى اثنى عشر درسا فى الحديث حضرها عدد كبير من طلاب العلم والشيوخ « وقـد تحلى العلماء بدمشق بهذا الخلق العالى وهو حضورهم بدروس الحديث من تلقاء انفسهم استمدادا لبركة الحديث ومجاملة لمن انتصب لتدريسه » (2) ••

كما اتصل بعدد كبير من العلماء وتحادث معهم فى قضايا فقهيـة وادبيـة ولغوية مختلفة منها رسالة « معانى الحروف » للخليل ابن احمد الفراهيدى(3) التى نشرها مع منظومة شعرية فى نفس الموضوع فى « خلاصة الرحلة » (4)

---

(1) « حى الميدان » من اقدم احياء دمشق واهمها من الناحية التاريخية والعلمية .

(2) الملحق « خلاصة الرحلة الشرقية » ص : 283 .

(3) المتوفى سنة 175 هـ 791 م .

(4) الملحق « خلاصة الرحلة الشرقية » ص : 294 .

وقد بارح هذا العلامة مدينة دمشق يوم الجمعة 2 شوال سنة 1330 هـ. / 13 سبتمبر 1912 م. قاصدا بيروت حيث قضى عدة ايام اتصل فيها ببعض العلماء وحضر المحاضرة التى القاها السيد شفيق المؤيد (1) احد رجال السياسة بالشام والتى دعا فيها الى مناصرة حزب « الائتلافيين » ونكث اليد من حزب « الاتحاديين » .

والجدير بالملاحظة ان الشيخ محمد الخضر لم يتعرض فى « خلاصة الرحلة الشرقية » الى بعض الافكار والنظريات التى ذكرها المحاضر مثلما هو الشأن بالنسبة الى الدروس والمحاضرات العلمية بل اكتفى بقوله : « ولكنه اتى فيها على تفاصيل وضرب لها امثالا من التاريخ فانبأت بسعة اطلاعه فى الاحوال الداخلة والخارجة » (2) ويضيف الى ذلك تذكره ـ عند مشاهدته الخلاف الموجود بين الاتحاديين والائتلافيين ـ قول الشاعر العراقى معروف الرصافى (3) :

فهم كالبحر يعطب راكبوه
ويسلم منه من لزم الضفافا (4)

فهل يدل ذكره لهذا البيت على عدم ميله الى الدخول فى الخلافات السياسية والسعى الى الابتعاد عنها لان فى ذلك السلامة والنجاة ؟ سنترك الاجابة عن ذلك عند تحليل آرائه ومواقفه السياسية فى القسم الثالث من هذه الدراسة .

ثم انتقل من بيروت الى عاصمة الخلافة العثمانية « استنبول » لزيارة استاذه وخاله الشيخ محمد المكى ابن عزوز الذى لم يلتق به منذ خمس عشرة سنة (5) « فانتفض الفؤاد اشتياقا الى زيارته المؤكدة بواجب القربى

---

(1) من رواد النهضة السياسية بسوريا ـ حكم عليه بالاعدام سنة 1334 هـ 1916 م .
(2) الملحق ـ خلاصة الرحلة ـ ص : 301 .
(3) المتوفى سنة 1945 م .
(4) البحر : الوافر .
(5) انتقل الشيخ محمد المكى سنة 1313 هـ ـ 1898 م .

وحق التدريس » . وبقى بالبلاد التركية مدة تقارب الشهرين زار خلالها أهم المراكز الثقافية والعلمية واتصل بابرز العلماء والشيوخ صحبة خاله « الشيخ الاستاذ » ، وتحاور معهم فى شتى العلوم الدينية واللغوية . وكان من بين هؤلاء الشيخ إبراهيم ظافر الذى كان من المقربين للسلطان العثمانى وأخوه حسن ظافر وكذلك الشيخ اسماعيل الصفائحى التونسى والشيخ عبد العزيز جاويش .

وبارح الشيخ محمد الخضر حسين الاستانة يوم السبت 7 ذى الحجة سنة 1330 هـ . / 16 نوفمبر 1912 م . عائدا الى تونس التى وصل إليها يوم الاثنين 16 ذى الحجة / 24 نوفمبر من نفس السنة وبذلك انتهت رحلته الشرقية التى ختم « خلاصتها » بقوله :

اری سفری شعرا ولكن بيوته
مفصلة فى غير بحر وفى بحر
ومقطع عودى من بدائعه الا
ترى عجزا قد رد فيه على صدرى (1)

ولا شك ان هذه الرحلة قد كانت مناسبة هامة من الناحية العلمية فزادت فى معارف الرجل وقوت شخصيته واطلعته على حياة ثقافية اوسع مما كان يعرفه بتونس وفتحت له آفاقا رحبة تغرى رجل علم طموحا مثله بالعودة اليها والاستفادة بما فيها من معارف . وتجدر الاشارة الى ان صاحبنا لم يهتم بغير العلم والعلماء اثناء ترحاله . ولذلك فرغم وجوده بالاستانة فى نفس المدة التى كانت تدور فيها رحى حرب ضروس بين تركيا والممالك البلقانية ، وكان الشعب التركى فى هيجان مستمر ، والصحف التركية مثل « تركيا الفتاة » و « الصباح » و « استانبول » تواصل وصف المظاهرات الشعبية والرغبة العارمة فى مواصلة الحرب (2) ، فان الشيخ محمد الخضر لم يشر الى ذلك البتة

---

(1) البحر . الطويل .
(2) انظر جريدة الزهرة ـ اكتوبر 1912 .

ولم يحضر فى تجمع او مظاهرة تتصل بالحالة السياسية فى البلاد العثمانية ، ويبدو ان رغبة البحث عن العلم ومصادره قد تغلبت على كل رغبة اخرى ويبدو كذلك انه آثر السلامة تأكيدا لما ذكره عند استماعه الى محاضرة السيد شفيق المؤيد عند زيارته مدينة بيروت (1) ٠

انتقاله الى الشرق:

عاد المترجم له الى تونس يوم 24 نوفمبر سنة 1912 م٠ فوجد ادارة المدرسه الصادقية قد فصلته عن التدريس بهذا المعهد الذى التحق بـه منـذ سنـة 1907 م ٠ وقد لاحظ بعض الكتاب والدارسين (2) ان سبب هـذا الفصـل سياسى لما قام به الشيخ محمد الخضر فى الشرق من اعمال تمس بالنظـام الفرنسى الحاكم بتونس ، وفى رأينا ان هذا الرجل لم يقم بنشاط فى هذا الميدان يذكر كما بينا ذلك عند الحديث عن « الرحلة الشرقية » فيكون سبب تعويضه بغيره من الاساتذة فى المعهد الصادقى هو عدم مباشرته خطة التدريس وقد مر شهران تقريبا عن افتتاح السنة الدراسية (3) ٠ وواصل الشيخ محمد الخضر نشاطه الثقافى بالقاء الدروس بجامع الزيتونة كمـا القى محـاضرته « مدارك الشريعة الاسلامية » بنادى « جمعية قدماء الصادقية » وهى آخـر محاضرة له بتونس ٠ ولم يدم هذا النشاط طويلا فتغلبت على نفسه رغبـة العودة الى الشرق والاستقرار مع اخوته بدمشق وراى « ان القيام بحق الاسلام يستدعى مجالا واسعا وسماء صافية » (4) فقرر الارتحال الى الشام نهائيـا خلال شهر ديسمبر سنة 1912 م٠ مودعا زوجته التى رفض اهلها مرافقتها له بقوله :

---

(1) انظر ص . 301 من البحث .

(2) الاستاذ أ . م . كرو ـ العمل 22 فيفرى سنة 1969 « السيد محمد الخضر حسين » .

(3) لقد أكد هذا الافتراض الشيخ العلامة الطاهر ابن عاشور .

(4) م . خ . حسين « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » اهداء الكتاب .

جارتي منذ ضحوة العمـر عـذرا

لاخي خطرة (1) نأى عنه بيتك (2)

قال يـوم الـوداع وهـو يعـاني

سكرة البين : ليتني ما عرفتك (3)

كما ودع اصدقاءه بتونس من علماء وادباء ربطت بينه وبينهم صلات حب المعرفة والاصلاح قاصدا الشام عن طريق البلاد الجزائرية (4) تاركـا وراءه وطنه الذي كثيرا ما تغنى به في اشعاره ، ومكانته العلمية المرموقة التـي بقي اثرها الى الآن لدى جميع الشيوخ الذين عاصروه والطلاب الذين تتبعوا دروسه ومحاضراته .

وكان الشيخ محمد الخضر حسين بهذا الارتحال الى بلاد المشرق قد طوى قسما هاما وثريا من حياته (وكانت سنـه تنـاهز الاربعين) تكـونت فيه شخصيته العلمية وغزرت معارفه ممـا جعلهـا تبحـث عن مجـالات اوسـع وآفاق أرحب .

---

(1) الخطرة : ما يتحرك في القلب والمراد همة الرحيل الى الشرق (الديوان) .

(2) البحر : الخفيف .

(3) ديوان « خواطر الحياة » ص : 134 .

(4) ز . ع . السنوسي « الادب التونسي » ج 2 ص 193 .

البَابُ الثاني

حيَاته بالبِلادِ السّورية

تمتاز هذه المرحلة الثانية من حياة الشيخ محمد الخضر حسين بكثرة تنقله بين بلدان عربية وأوروبية وخاصة اثناء الحرب العالمية الاولى وقيامه بمهام خطيرة يشوبها نوع من الغموض وتحيط بها عديد من التساؤلات . ولذلك فيمكن ان نطلق عليها مرحلة « التنقل والترحال » (1) وهى تمتد من سنة 1912 م. الى 1920 م. وهى السنة التى انتقل فيها الى القاهرة واستقر بها نهائيا الى آخر ايام حياته .

وتنقسم هذه الفترة الى قسمين :

1 ـ حياته بدمشق .

2 ـ حياته بالاستانة وبرلين .

وتجدر الاشارة الى اننا لم نتبع الاطار الزمنى فى هذا التقسيم لان سفره الى تركيا والمانيا قد تم فى فترات مختلفة وغير متواصلة .

---

(1) أطلق هذه التسمية اغلب الكتاب الذين درسوا حياة الشيخ محمد الخضر وخاصة منهم الاستاذ ا . م . كرو والشيخ م . ف . ابن عاشور .

الفصـــل الأول

* * *

حيـاتـــه بـــدمشـــق

غادر الشيخ محمد الخضر البلاد التونسية وقصد الشرق فزار مصر حيث اتصل بعدد من علمائها منهم الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » . ثم انتقل الى دمشق فأقام بها مدة قليلة ارتحل بعدها الى الحجاز والبانيا ومناطق عديدة من بلاد البلقان والاستانة واخيرا عاد الى العاصمة السورية وقر بهـا قراره فى بيت اخوته « بحى الميدان » .

وقد ابتهج لمقدمه علماء الشام ووجهاؤها وهم الذين اتصلوا به عند زيارته الاولى الى الشرق وتحادثوا معه واستمعوا الى دروسه فى الجامع الاموى كمـا طالعوا مجلة « السعادة العظمى » التى كان يشرف عليها خلال سنة 1904 م. والتى كان يرسلها الى اخوته بدمشق كما طالعوا كذلك بعض مؤلفاته مثـل « الدعوة الى الاصلاح » و « الحرية فى الاسلام » .

ومنذ المدة الاولى التى استقر فيها بدمشق وقع انتدابه للتدريس بالمدرسة السلطانية وهى من ابرز المعاهد العلمية بالبلاد السورية ، تولى التدريس بها عدد كبير من العلماء منهم الاستاذ الامام محمد عبده وذلك خلال السنـوات التى وقع فيها نفيه من مصر واستقـر ببيـروت (1882 م. ـ 1889 م.) . وبالاضافة الى ذلك واصل القاء محاضراته العلمية بالجامع الاموى ، وكتابة مقالاته فى الصحف والمجلات ، ويبدو انه اهتم فى هذه الفترة بالمشكلة العربية التركية ودعا الى ضرورة تمتين روابط الالفة بين العرب والاتراك فى ظـل الخلافة العثمانية (1) .

---

(1) ز . ع . السنوسى ـ الادب التونسى ـ ج 2 ص : 193 .

وقد صرف جل اهتمامه الى العلم والعلماء فكان كثير البحث والتعمق ، غزير المطالعة ، دائم الاستقصاء ولذلك قال فى مقدمة ديوان « خواطر الحياة » :

« نزلت دمشق وللشعر فيها سوق غير كاسدة ولكنى آثرت ان اصرف القريحة فى البحث العلمى او فى العمل للقضيـة الاسـلامية بقـدر مـا استطيع » (1) .

لم يثنه نشاطه العلمى المتواصل عن ملاحظة الوضع السيـاسى القـائم بالبلاد السورية والنظر فى حالته . ومما حز فى نفسه فى ذلك العهد ضعف نظام الحكم العثمانى وتزايد نفوذ قنصل فرنسا بالنسبة الى نفوذ قنـاصل الدول الاخرى الموجودين بالعاصمة السورية مما جعله يقول قصيدته : « بكاء على مجد ضائع » (2) التى ذكر فيها سببا من اسباب هجرته الى المشرق وهو ان يرى سياسة أمته « فى قبضة الخصم العنيد » ويضيف :

وحسبت هذا الشـرق لـم
يبرح على عهد الرشيد (3)
يسـع الجهـود اذا تضـا
يقـت البـلاد عـلى الجهـود
ويقـوم يـوم أبثـه
بعض الاسى هل من مزيـد
فـاذا المجـال كـأنـه
من ضيقه خلق الوليد (4)

دخـولـه السجـن :

عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى تولى القائد التركى جمال باشا (5) حكم البلاد السورية وكان مشهورا بظلمه وتعسفه وجبروته ، وخاصة مع المفكرين

---

(1) انظر « خواطر الحياة » ص 5 .
(2) ديوان « خواطر الحياة » ص : 61 .
(3) البحر : مجزوء الكامل .
(4) ضرب المثل بخلق الصبى لضيقه وسرعة ضجره .
(5) قتل سنة 1922 م .

ورجال النخبة المثقفة ، وخلال سنة 1916 قام عدد من الوطنيين فى سوريا بحركة ضد نظام الحكم العثمانى الجائر ، فقاومها جمال باشا بعنف شديد وذلك بسجن وقتل عدد من المفكرين ، ومن بين الذين اتهمهم بمعرفة هذه الحركة المتآمرة وعدم اعلام السلط التركية بها هو الشيخ محمد الخضر حسين فادخله السجن يوم 15 اوت سنة 1916 م. وبقى به الى يوم 29 جانفى 1917 م. حيث وقعت محاكمته وثبتت براءته فاطلق سراحه ، وقد تأثر الشيخ محمد الخضر بهذا العمل التعسفى تأثرا كبيرا وخاصة من عدم تمكينه ـ وهو بالسجن ـ من ادوات الكتابة والمطالعة مما جعله يقول : (1)

غل ذا الحبس يدى عن قلم
كان لا يصحو عن الطرس فناما

هل ينود الغمض من مقلته
او يلاقى بعده الموت الزؤاما

انا لولا همة تحدو الى
خدمة الاسلام آثرت الحماما

ليست الدنيا وما يقسم من
زهرها الا سرابا او جهاما (2)

وقد عاد هذا العلامة اثر خروجه من السجن الى التدريس بالمدرسة السلطانية والى القاء محاضراته العلمية بالجامع الأموى .

لكن هذا النشاط العلمى لم يتواصل مدة طويلة اذ تلقى صاحبه دعوة من مركز الخلافة العثمانية بالاستانة للعمل منشئا عربيا بوزارة الحربية . ويبدو ان غموضا كبيرا يحيط بهذه الخطة الجديدة اذ من هو الذى اعلم الباب العالى بمكانة الشيخ محمد الخضر حسين حتى وقع تكليفه بهذا العمل فى ظرف كانت تدور فيه رحى الحرب العالمية الاولى؟ولماذا قبل هو نفسه القيام بهذه الخطة دون تردد ؟ هل للهروب من سلطة الحاكم جمال باشا أم لاسباب أخرى ؟

---

(1) أ . م . كرو « العمل » 28 فيفرى 1969 ـ الشيخ محمد الخضر حسين .

(2) البحر : الرمل .

ان انعدام الوثائق المتعلقة بهذه الفترة من حياة الرجل يجعلنا نعتمد على بعض المقارنات التاريخية وتقديم افتراضات تناسب الظروف السياسية التى كانت متوفرة خلال العقد الثانى من القرن العشرين • فهناك عدة احتمالات يمكن ذكرها بالنسبة الى دعوة الشيخ محمد الخضر الى تركيا (1) ، منها مساع شخصية بذلها هذا الرجل مع بعض اصدقائه بالاستانة مثل الشيخ حسن ظافر (2) الذى كان على اتصال دائم بالسلطان العثمانى ، ومنها تدخل الوطنى التونسى على باش حامبة زعيم حركة « الشباب التونسى » لدى الباب العالى وقد كان مهاجرا باستانبول بعد نفيه من البلاد التونسية فى 13 مارس 1912 م• اثر حوادث « الترام » (3) •

وتجدر الاشارة الى ان هذا الزعيم المنفى قد تحمل مسؤوليات هامة فى الحكومة التركية وكان فى تلك السنة (1917 م•) مستشارا للصدارة العظمى (4) كما كان يوجد معه بالاستانة عدد من زعماء حركات وطنية عربية وقع اضطهادهم ببلدانهم فلجأوا الى العاصمة التركية التى رحبت بهم ومدت لهم يد المساعدة للاستقرار والعمل الوطنى الهادف الى تدعيم الخلافة العثمانية •

الفصل الثانى

* * *

حياته بالاستانة وبرلين

استقر الشيخ محمد الخضر حسين بالاستانة وكان خاله العلامة محمد المكى ابن عزوز قد توفى سنة 1334 هـ• / 1916 م• وباشر خطة التحرير بالقلم

---

(1) أ . م . كرو « العمل » 28 فيفرى 1969 الشيخ محمد الخضر حسين .

(2) الملحق « خلاصة الرحلة الشرقية » ـ ص : 322 (كان هذا الرجل وثيق الصلة بالشيخ المكى ابن عزوز)

(3) انظر : ص : 57 من هذا البحث .

(4) الزعيم علال الفاسى ـ « الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى » ص 45 •

العربى بوزارة الحربية التركية . وقد تحدث عما قام به قبل الشروع فى هذه المهمة بقوله :

« ولما وليت التحرير بالقلم العربى فى وزارة الحربية بالاستانة قدموا لى ورقة لاكتب فيها شخصيتى وما اميل اليه من العلوم اكثر من غيره ووجهة تخصصى العلمى فكتبت انى مختص بعلوم البلاغة واصول الفقه الاسلامى وكان بجانبى احد علماء شنقيط فقال لى : لم زدت وصف (الاسلامى) ؟ فلم يسعنى الا ان قلت له : كتبتها لزيادة الايضاح وسمعت من سمى القوانين الوضعية فقها فيضعون بالطبيعة للقوانين الوضعية اصولا فتكون كلمة (الاسلامى) للاحتراز عن غيره » (1) .

ان الشيخ محمد الخضر لم يتحدث ـ فيما وصل الينا من الوثائق ـ عن محتوى مسؤوليته بالاستانة لكن ما يفهم من التسمية ، وما هو معمول به فى وزارات الحربية فى مختلف الدول وخاصة بالنسبة الى الدولة التركية التى كانت لها امبراطورية واسعة الارجاء تشمل دولا عربية وغير عربية هو ان دور الشيخ محمد الخضر (2) يتمثل فى متابعة التقارير العسكرية والسياسية التى ترد على الوزارة وتحرير ومراجعة التقارير التى تصدر منها الى الدول العربية الخاضعة للحكم العثمانى .

ولا شك ان هذه المسؤولية تتطلب ثقة السلطة التركية فى صاحبها لان لها صبغة سياسية ، وخاصة تقلدها اثناء قيام الحرب العالمية الاولى . ولهذه الاعتبارات السياسية اشرت الى وجود غموض فى هذه الفترة من حياة الرجل لا يمكن ان يزول الا بالرجوع الى وثائق وزارة الحربية التركية لذلك العهد . ويبدو ان الباب العالى قد تدعمت ثقته فى اخلاص الشيخ محمد الخضر للسلطنة العثمانية فكلفه بمهام جديدة فى ألمانيا التى كانت فى حالة حرب مع فرنسا

---

(1) مجلة « لواء الاسلام » ديسمبر 1956 نقلا عن كلمة تأبين الشيخ محمد الخضر التى القاها الدكتور على النجار فى المجمع اللغوى بالقاهرة يوم 3 مارس 1958 .

(2) كان معه علماء آخرون يباشرون هذه الخطة .

وحليفة للدولة العثمانية (1) فسافر الى برلين صحبة عدد من الشيوخ العلماء مثل السيد صالح الشريف شيخ سابق بجامع الزيتونة والسيد اسماعيل الصفائحي قاض حنفي سابق بتونس ايضا ٠

وتجدر الاشارة الى ان مهمة هذه البعثة من العلماء بالبلاد الالمانية ترتبط بما كانت تهدف اليه الحكومة العثمانية من بعث ثورات شعبية في بلدان شمال افريقيا ضد الحكم الفرنسي الاستعماري القائم (2) ٠

فقد اسست لهذا الغرض « هيئة » لغزو شمال افريقيا بالاتفاق مع رجالها اللاجئين » (3) كما تشكلت لجنة خاصة بالاسرى المغاربة يتمثل نشاطها « في جمعهم في المانيا وتركيا وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزود بالسلاح والذخيرة وترسل عن طريق الغواصات لطرابلس وكان مقررا ان يرأسها على باش حامبة بنفسه ليكون مندوبا عن الخليفة العثماني لتحرير مسلمي شمال افريقيا من الاستعمار المسيحي » (4) ولا غرابة ان يقوم الزعيم على باش حامبة بهذا العمل وهو الذى فشلت لديه « سياسة المشاركة » مع فرنسا التى كان يدعو اليها سنة 1907 م٠ في افتتاحيات جريدة « التونسي » التى كان يديرها باسم حركة «الشباب التونسي»٠فقد تغيرت نظرته الى اساليب العمل التى يدعو الى اتباعها مع الحكم الاستعماري قبل حوادث « الترام » التى وقعت سنة 1912 م٠ واصبح يؤمن بضرورة تسخير كل القوى لتحقيق الصدام مع الاستعمار وخوض معركة دموية ضده ٠ لذلك فلا يستبعد ان تكون مهمة الشيخ محمد الخضر حسين بالمانيا متصلة بهذا الاطار السياسي الثوري٠وقد بقي بهذا البلد الاوروبي مدة تسعة اشهر تعلم خلالها اللغة الالمانية وتعرف على عادات وطبيعة المجتمع الالماني ، ثم رجع الى الاستانة فبقي فترة قليلة عاد بعدها الى برلين

---

(1) أ ٠ م ٠ كرو « العمل » 28 فيفري 1969 الشيخ محمد الخضر حسين ٠

(2) علال الفاسي « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ص : 45 ـ 46 ٠

(3) نفس المصدر ص : 46 ٠

(4) نفس المصدر ص : 47 ٠

مرة اخرى واقام بها خلال سنة 1918 م. مدة تقارب سبعة شهور الى نهاية الحرب العالمية الاولى وسقوط الاستانة فى ايدى الحلفاء .

ومما يؤكد قيام هذا العلامة بنشاط سياسى فى برلين ـ بالاضافة الى ما ذكرنا ـ حديثه عن بعض المسؤولين الالمان مثل مدير المخابرات فنجده يقول : (1)

« واذكرانى حين كنت فى المانيا فى ايام الحرب الاولى حضرت حديثا يدور بين مدير الاستخبارات الالمانية (2) وسكرتيره اثناء سفرنا الى قرية ويزندرف . سألنى المدير فى نهايته فقال : أليس كذلك يقرر ابن خلدون ؟ قلت : « وماذا يقرر ؟ قال : ان العرب لا يصلحون للملك ولا يحسنون حكما للامم . قلت : انما خص ذلك بعهد الجاهلية وقرر انهم فى الاسلام احسنوا السياسة وقاموا باعباء الملك خير قيام وقد بين ذلك غاية البيان فى فصل عقده فى مقدمته ذكر فيه ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك » .

وقد نظم بهذه المناسبة ابياتا شعرية بعنوان «العرب والسياسة»(3) منها :

عذيرى من فتى ازرى بقومى
وفى الاهواء ما يلد الهذاء
يقول : العرب ظلوا فى جفاء
وما عرفوا السياسة والدهاء
سلوا التاريخ عن حكم تملت (4)
رعاياه العدالة والرخاء (5)

---

(1) مجلة « لواء الاسلام » نوفمبر 1955 .
(2) قال فى « خواطر الحياة » ص 14 « يرافقنى مدير الامور الشرقية » .
(3) المصدر السابق .
(4) تملت : تمتعت يقال تملى الشىء أى تمتع به .
(5) البحر : الوافير .

وقد اتصل الشيخ محمد الخضر بالاستاذ محمد باش حامبة (1) الذى التحق بأخيه « على » الى اسطانبول خلال سنة 1913 م. ثم انتقل الى برلين سنة 1916 وبقى يتردد بينها وبين مدينة جنيف حيث اسس مجلة « المغرب » Revue du Maghreb كما انشأ اللجنة « التونسية الجزائرية » للدفاع عن قضايا المغرب العربى الوطنية .

وقد وجهت هذه اللجنة تقريرا مفصلا الى مؤتمر الصلح المنعقد فى فرنسا (2) تحت عنوان : « مطالب الشعب الجزائرى التونسى » امضى فيه :

- الشيخ صالح الشريف التونسى
- الشيخ محمد الخضر بن الحسين
- الشيخ محمد ميزيان التلمسانى
- محمد الشيبى التونسى
- محمد بيزار الجزائرى
- حمدان بن على الجزائرى
- محمد باش حامبة حاكم سابق بتونس (3)

ولا شك ان الشيخ محمد الخضر حسين قد كان على اتصال مستمر بالاستاذ محمد باش حامبة طيلة اقامته ببرلين ، وبذلك فقد كان مشاركا له فى كل الانشطة السياسية التى يقوم بها لفائدة القضية الوطنية التونسية او لفائدة قضايا المغرب العربى التحريرية بصورة عامة .

واذا اشرنا الى ان نظرية الاخوين باش حامبة (على ومحمد) متشابهة من حيث المحتوى والاسلوب ، فهل ان الشيخ محمد الخضر قد كان متفقا معهما فى ذلك خاصة وان الثلاثة كانوا يعملون معا فى ظل الحكومة العثمانية سواء

---

(1) المتوفى ببرلين يوم 27 ديسمبر 1920 .
(2) سنة 1917 .
(3) راجع مجلة « المغرب » سبتمبر - ديسمبر 1918 ص 129 وما يليها .

بالاستانة او ببرلين ؟ سنرى ذلك بصورة مفصلة عند الحديث عن نظرته السياسية فى القسم الثالث من هذه الدراسة .

وتجدر الملاحظة الى ان هذا الرجل العلامة قد تحدث عن المدة التى قضاها بالمانيا فى حديث وصفى كتبه بجريدة « البلاغ » البيروتية اثر عودته الى دمشق سنة 1918 بعنوان : « الرحلة الالمانية » (1) وقد حاولت الحصول على نص هذه الرحلة لنشره فى الملحق الا اننى لم اتمكن من ذلك لفقدان اعداد الجريدة التى يوجد بها هذا الحديث الوصفى فى اغلب المكتبات بالمشرق العربى .

ولم يقتصر الشيخ محمد الخضر على ذلك اذ تعرض الى كثير من ملاحظاته وانطباعاته عن البلاد الالمانية فى مناسبات كثيرة اخرى . ومن ذلك ما قاله فى مجلة « لواء الاسلام » (فيفرى 1957) :

« واذكر انى حين كنت فى المانيا لم آكل من لحوم حيوانهم لانى عرفت انهم لا يذبحون الحيوان بالطريق الشرعى انما يقتلونه بالضرب على رأسه أو بالخنق وأخذت فى ذلك بقوله تعالى عند تعداد المحرم من الحيوان : (والمنخنقة والموقوذة) وهو ينطبق على ما كانوا يعملون » .

ويصف بعض المظاهر الاجتماعية التى تتصل بالمجتمع الالمانى مثل حب العمل فيقول : « فلا يوجد غير نفر قليل يتكفف اذ لا يعدم سليم البدن ان يجد هناك عملا حيويا اذا شاء . والتعليم هناك ــ وهو الزامى ــ يقبح لصاحبه ان يقف موقف الاستجداء » (2) .

ويبدو ان الشيخ محمد الخضر قد كان يحيا فى برلين حياة نفسية هادئة حينا ومضطربة حينا آخر ، ولا غرابة فى ذلك وهو رجل الدين الذى عاش فى

---

(1) ذكر لى ذلك صديقى الاستاذ رضا التونسى بن زين العابدين بن الحسين المقيم بدمشق والمشرف على نشر تراث الشيخ محمد الخضر . هذا وقد طلبت نسخة مصورة عن هذه الرحلة من بعض المكتبات الشرقية لنشرها فى الملحق فلم أتمكن من ذلك .

(2) م . خ حسين « رسائل الاصلاح » ج . 1 ــ ص 66 .

مدينة اوروبية الاشهر العديدة بعيدا عن الاهل والاصدقاء وفى ظروف الحرب القاسية .

ولذلك فقد قال قصائد شعرية كثيرة فى برلين تمتاز بقلة عدد ابياتها لانها تعبر عن حالات نفسية متقطعة كما سنرى ذلك عند دراسة ديوان « خواطر الحياة» . ومن ابرز هذه القصائد ما قاله بمناسبة عيد الفطر حيث تذكر اهله ووالدته الحنون ، والعادات التى يمارسها المسلمون فى هذه المناسبة الدينية. قال فى « العيد فى برلين » : (1) .

يوم عيد وما تفتق كم (2)
عن أنيس ولا كسم الخياط (3)
ما تملى سمعى تهانىء صيغت
فى قلوب موصولة بنياطى (4)
أين جيراننا وأين المصلى (5)
وخطيب يهدى لخير صراط
أين منى شفيقة القلب (6) تهدى
دعوات مثل الظباء عواطى (7)

وعندما سقطت تركيا فى ايدى الحلفاء سنة 1916 عاد الشيخ محمد الخضر صحبة عدد من زعماء الحركة الاسلامية الى الاستانة على متن الباخرة التى

---

(1) ديوان « خواطر الحياة » ص 99 .
(2) غطاء النور .
(3) البحر : الخفيف .
(4) النياط : الفؤاد .
(5) اسم مكان بدمشق وبه جامع المصلى الذى كثيرا ما كان يلقى فيه الشيخ محمد الخضر دروسا دينية .
(6) يقصد والدته .
(7) من عطا الظبى اذا رفع رأسه يتناول الثمر .

حملت العثمانيين من مدينة همبورغ الى العاصمة العثمانية (I) ومنها عاد الى دمشق وقد اقتسم الغزاة المحتلون مركز الخلافة واجزاء امبراطوريتها .

وقد اثر هذا الحادث فى نفسه التأثير البالغ لما كان يعلقه من آمال على الباب العالى فى مساعدة القضايا الوطنية التحريرية بالعالم العربى وخاصة بشمال افريقيا ، وكذلك لما كان يؤمن به من ضرورة تدعيم الخلافة الاسلامية وتقويتها لان فى ذلك دعما للدين الاسلامى وتقوية له .

ورجع الشيخ محمد الخضر الى عاصمة الشام وقد تحررت سوريا من الحكم العثمانى ومن جبروت وظلم القائد جمال باشا ، واصبحت حكومة عربية يشرف على شؤونها الملك فيصل بن حسين . وبعد ان قر قراره فى عائلته عاد الى مباشرة خطة التدريس بالمدرسة السلطانية كما كان قبل سفره الى المانيا وكذلك الى القاء محاضراته الدينية بالجامع الأموى وجامع المصلى . ولم تزل آثار الهزيمة التى اصابت الخلافة العثمانية من نفسه فكبرت مأساته وتواصل همه يضاف الى ذلك فقدانه لوالدته الحنون التى توفيت وهو بالبلاد الالمانية والتى رثاها بقصيدة بليغة ظهر فيها تشاؤمه ونظرته القاتمة الى الحياة وهى بعنوان : « بكاء على قبر » (2) مطلعها :

قطب الدهر فابديت ابتساما
وانتضى الخطب فما قلت سلاما (3)
لست ادرى ان فى كفيك يا
دهر رزءا يملأ العين ظلاما
لست ادرى انك القاذف فى
مهجتى نارا ومذكيها ضراما

(I) ملف الشيخ محمد الخضر بالمجمع اللغوى بالقاهرة (كلمة التابين ـ الدكتور محمد على النجار) .

(2) ديوان « خواطر الحياة » ص 157 .

(3) البحر : الرمل .

ويتحدث عن والدته فيقول :

بنت عزوز (1) لقد لقنتنا
خشية الله وان نرعى الذماما
ودرينا منك ان لا نشترى
بمعالينا من الدنيا حطاما
ودرينا منك ان الله لا
يخذل العبد اذا العبد استقاما
ودرينا كيف لا نعنو لمن
حارب الحق وان سل الحساما

المجمع العلمي :

تأسس المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1919 م. وعقد جلسته الاولى يوم 30 جويلية من نفس السنة . وقد وقع تعيين الشيخ محمد الخضر حسين عضوا عاملا بالمجمع صحبة مجموعة من الباحثين والعلماء منهم محمد كرد علي ، محمد ابن أبي شنب (من الجزائر) ، حسن حسني عبد الوهاب (من تونس) ، المستشرق ماسينيون (من فرنسا) وبروكلمان (من المانيا) .

وقد بقي عضوا بهذا المجمع عاملا في لجانه طيلة المدة التي قضاها بسوريا ثم اصبح مراسلا عند التحاقه بمصر واستقراره بها نهائيا .

سفره الى مصر :

استمر هذا الرجل في نشاطه العلمي من القاء المحاضرات وكتابة المقالات الاصلاحية في الدين والاجتماع والسياسة (مساندة الخلافة الاسلامية) الى ان احتل الجيش الفرنسي البلاد السورية اثر معركة « ميسلون » (2) الشهيرة

---

(1) والدة الشيخ م . خ . حسين هي ابنة الشيخ مصطفى ابن عزوز انظر ص : 22 من الكتاب
(2) اسم جبل يوجد قرب دمشق .

التى نشبت يوم 24 جويلية 1920 والتى قتل فيها القائد السورى يوسف العظمة وتنازل اثرها الملك فيصل عن العرش ٠

وبهذا الحدث الجديد اصبحت اقامة الشيخ محمد الخضر بدمشق غير ممكنة فقرر الذهاب الى مصر (1) هروبا من الحكم الفرنسى الاستعمارى الذى لاحقه خفية فى تونس ثم حكم عليه بالاعدام غيابيا لاتهامه بالمشاركة فى تحريض المغاربة بالمانيا وتركيا على التآمر والثورة ضد السلطة الفرنسية فى شمال افريقيا (2) ٠

وتجدر الاشارة الى ان قضية « الحكم بالاعدام » لم نجد لها وثائق مثبتة سوى ما ذكره الاستاذ أ٠ م٠ كرو فى مقالاته بجريدة « العمل » أو الاستاذ على رضا التونسى ابن أخى الشيخ محمد الخضر للتعريف بحياة عمه عند اعادة نشر مؤلفاته ٠ وقد لاحظ لنا هذا الاخير نفسه انه لم يجد مصادر تؤكد هذا الخبر وانما اعتمد فيه على النقل ، ولا يمكن فى رأينا الاعتماد على ذلك فى قضية خطيرة كهذه القضية ٠

لكن هذا لا يمنعنا من تقديم بعض الافتراضات بالاعتماد على مقارنات تاريخية ٠ فقد بينا اثناء الحديث عن حياة الرجل بالاستانة وببرلين اتصاله الوثيق بالزعيم على باش حامبة ومحمد أخيه وببعض التونسيين اللاجئين بتركيا وخاصة الشيخ صالح الشريف والشيخ اسماعيل الصفائحى٠كما بينا كذلك النشاط السياسى الذى كانت تقوم به هذه الجماعة بدعم ومساعدة الباب العالى من أجل احداث الثورة ضد الحكم الفرنسى المسلط على بلدان شمال افريقيا ٠ وقد علمت الحكومة الفرنسية بذلك عن طريق مصالح مخابراتها السرية التى كانت تعمل بتعاون دائم مع المصالح المماثلة التابعة

---

(1) كان من المقرر ان يعود الى تونس ثم عدل عن ذلك وقرر السفر الى مصر.أنظر الديوان ص121

(2) أ . م . كرو جريدة « العمل » 28 فيفرى 1969 ـ الشيخ محمد الخضر حسين .

لدول الحلفاء فاصدرت امرا عليا عن طريق باى تونس فى 12 جويلية 1917م٠(1) يقضى بحجز أملاك مجموعة من التونسيين منهم (2) :

- محمد باش حامبة
- اسماعيل الصفائحى
- صالح الشريف

ولم نجد اسم الشيخ محمد الخضر حسين ضمن هؤلاء لانه لم يترك املاكا بتونس لكن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قد أكد لنا صدور قرار ضده « بدعوى انه لم يرجع الى تونس وعصا السلطة الفرنسية التى طلبت منه ذلك » ٠ ويضاف الى ما ذكرنا تهمة التآمر على أمن الدولة التى وجهت لمحمد باش حامبة وقدم بموجبها الى مجلس الحرب طبقا لمذكرة خطية صادرة عن ادارة ـ مراقبة الاهالى السياسية ـ بتاريخ 30 اكتوبر 1920 م ٠(3)

ولا شك ان وجود قرار « حجز الاملاك » سيجعل الحكومة الفرنسية تطارد صاحبه فى كل البلدان التابعة لها والتى منها البلاد السورية ٠ كما ان «تهمة باش حامبة » لن تنحصر فيه بل لا بد ان تمس افراد المجموعة الذين كانوا يهدفون الى « التئامر على أمن الدولة » الفرنسية المستعمرة ٠

ولذلك قرر الشيخ محمد الخضر حسين السفر الى مصر والاستقرار بالقاهرة وهى البلاد العربية التى لم يصلها الاستعمار الغرنسى ، كما انها مقر جامع الازهر وكعبة العلماء والباحثين بالنسبة الى جميع البلدان الاسلامية ولذلك نجده يقول :

« وبعد ان وضعت الحرب أوزارها وأخذت البلاد العربية والتركية **هيأة غير** هيأتها هبطت مصر فلقيت على ضفاف وادى النيل علما زاخرا وأدبا جما » (4)

---

(1) صدر هذا الامر العلى فى الرائد الرسمى عدد 57 بتاريخ 18 جويلية 1917 .

(2) ملف « محمد باش حامبة » مصلحة الوثائق القومية ـ وزارة الشؤون الثقافية والاخبار بتونس .

(3) الدكتور الحبيب الجنحانى ـ محمد باش حامبة ـ ص 48 .

(4) م . خ حسين ـ نقض كتاب الاسم واصول الحكم « اهداء الكتاب » .

وقد تأثر لذلك أهله واصدقاؤه العلماء والشيوخ بالشام منهم الاستاذ خليل مردم بك (I) الذى وجه له رسالة رقيقة تدل على تقديره له والصداقة المتينة التى كانت تربط بين الرجلين ، وهى مثال لنوع الصلات التى كانت تجمع الشيخ محمد الخضر بعلماء سوريا ووجهائها . وقد جاء فى هذه الرسالة (2) :

« ان من خير ما اثبته فى سجل حياتى واشكر الله عليه معرفتى الى الاستاذ الجليل السيد محمد الخضر التونسى واخوانه الفضلاء وصحبتى لهم ، فقد صحبت الاستاذ عدة سنين رأيته فيها الانسان الكامل الذى لا تغيره الاحداث والطوارىء فما زلت اغبط نفسى على ظفرها بهذا الكنز الثمين حتى فاجأنى خبر رحلته عن هذه الديار فتراءت لى حقيقة المثل « بقدر سرور التواصل تكون حسرة التفاصل » ، ثم اتبع هذا الاستاذ رسالته بقصيدة سماها « الرتيمة » (3) جاء فيها :

أكاد اقضى جوى والدار جامعة
فكيف حالى اذا وقت النوى حانا (4)

فأجابه الشيخ محمد الخضر بقصيدة عنوانها : « الصداقة هى الرتيمة » يقول فيها :

هى « الرتيمة » فيما قال مبدعها
وهل يغيب السدا عن طلعة الفلق (5)
انى على ثقة من ان ذكرك لا
ينفك مرتسما فى النفس كالخلق

(I) كان وزير خارجية سوريا ورئيس المجمع العلمى العربى بدمشق .
(2) انظر ديوان « خواطر الحياة » ص I2I .
(3) الرتيمة . خيط يعقد فى الاصبع للتذكير والمراد بها ما يعين على التذكر
(4 ـ 5) البحر البسيط .

وكيف انسى (خليلا) قد تضوع فى
حشاشتـــى وده كالعنبـر العبـق

ولم ينس هذا الرجل بقية اصدقائه العلماء ، كما انه لم ينس ما وجده فى دمشق من تبجيل وتقدير جعلاه يذكر تلك المرحلة من حياته فى كل مناسبة ويميزها عن بقية المراحل الاخرى سواء منها التى قضاها بتونس أو بمصر . يقول فى حديث وصفى كتبه فى مجلة « الهداية الاسلامية » عن رحلته الى دمشق التى قام بها خلال شهر جويلية سنة 1937 وكان وقتئذ مستقرا بمصر :

« هذه الاوطان الثلاثة (1) التى قضيت بها عمرا غير قصير ، واذا كـان فضل العلماء المحققين والادباء المستقيمين والرؤساء الراشدين قد غطى فى تونس ومصر على ما اشرت اليه من مناواة بعض الغافلين او الجاحدين حتى انسا ولـم تبلـغ ان يكون لها فـى حياتـى الادبية اثر ، فان الاعوام التـى قضيتها بين اهل دمشق لم اشعر فيها على ما اذكر الا برقة العطف وحسن اللقاء اينما كنت ، فاذا حننت الى دمشق فانما احن الى الخلق الكريم والادب الاخاذ بالالباب وقد شهد لها بهذه المزايا كثير من نزلائها العلمـاء والادبـاء من قبلى » (2) .

انتقل هذا الشيخ الى مصر واستقر بالقاهرة فى الاشهر الاخيرة من سنة 1920 وسنه تناهز 47 عاما فيكون بذلك قد طوى فتـرة من اخصب فتـرات حياته واثراها فى مختلف الميادين العلمية والاصلاحية والسياسية ، ودخل المرحلة الثالثة والاخيرة من هذه الحياة الزاخرة .

---

(1) يقصد تونس وسوريا ومصر ، هذه فقرة من كلمة القاها الشيخ محمد الخضر فى حفل تكريم اقامه له احد تلاميذه الدكتور عبد الوهاب المالكى انظر الملحق ـ ص : 335 .

(2) مجلة « الهداية الاسلامية » م 10 . ج 5 . ص 257 .

الباب الثالث

حياته بمصر

ان المرحلة الثالثة والاخيرة من حياة الشيخ محمد الخضر حسين هى اثرى مرحلة واغزرها من الناحية العلمية والثقافية ، لان شخصية الرجل قد تكونت التكوين الشامل ، فمرت بأحداث عديدة متقلبة ، وساهمت فى القيام بمهـام صعبة وخطيرة ، كما اتصلت بشخصيات علمية اخرى زادتها عمقا فى معرفتها وشمولا فى اطلاعها ٠ ولذلك فاذا كانت المرحلة التى قضاها بتونس من حياته قد امتازت بالتعلم والتثقف ، واختصت المرحلة التى قضاها بالشام بكثرة التنقل والترحال ، فان هذا الجزء الاخير من حياته قد امتاز بالاستقرار وببلوغ اعلى المراتب العلمية التى يصبو اليها رجل علم وديـن فى مختلف العهـود الاسلامية ، ولذلك فهى كما سماها الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور مرحلة « المجد الثقافى والشهرة العلمية » (1) ٠

وتجدر الاشارة الى ان اهم مركز علمى قد بلغه الشيخ محمد الخضر بمصر هو اشرافه على مشيخة جامع الازهر ولذلك فقد قسمنـا المـرحلة الثـالثة والاخيرة من حياته الى ثلاثة فصول :

1 ـ **الفصل الأول** : حياته قبل بلوغه مشيخة الازهر أى من سنة 1920 م٠ الى 1952 م٠

2 ـ **الفصل الثانى** : حياته وهـو شيـخ الجامع الازهر وهى من سنة 1952 م٠ الى 1954 م٠

3 ـ **الفصل الثالث** : حياته بعد خروجه من الازهر الى وفاته اى من سنة 1954 م٠ الى 1958 ٠

---

(1) ذكر ذلك فى محاضرة القاها بمناسبة أربعينية الشيخ محمد الخضر حسين فى مارس 1958

الفصـــل الأول

* * *

حياته قبل بلوغه مشيخة الازهر

انتقل الشيخ محمد الخضر الى مصر واستقر بمدينة القاهرة وحيدا بعيدا عن أهله وأقاربه وأصدقائه ٠

وقد اتصل هذا الرجل ببعض الذين عرفهم فى زورتـــه الاولى الى البــلاد المصرية سنة 1912 م٠ او فى الاستانة التى كانت تأوى عـــددا من الوطنيين المصريين الذين عاد البعض منهم الى بلاده عند سقوط تركيا فى أيدى الحلفاء ويبدو أن الشيخ محمد الخضر لم يعتمد على صداقاته وصلاته القديمة بل اعتمد بالدرجة الاولى على كفاءته الشخصية٠ وقد تحمل اتعابا كثيرة فى ايامه الاولى واصر على مواصلة البقاء بالقاهرة والبحث عن عمل حتى لا يبقى عالة على غيره من الناس٠ ويبدو ان الاستاذ احمد تيمور (1) هو اول من عرف قيمته العلمية وقدرها حق قدرها ، وساعده على الاستقرار فوقـــع انتدابـــه مصححا بـــدار الكتـــب المصرية (2) وهى خطة سهلة بالنسبة الى علم الرجل وسعة معارفـــه ، وقـــوة شخصيته ٠ وقد آثر هذه الحياة عن العودة الى دمشق واهله واصدقائه ٠ يقول فى قصيدة « رضيت عن اغترابى » (3) التى انشأها فى تلك الفترة وهى حوار بينه وبين من كان ينصحه بالرجوع الى الشام :

---

(1) المتوفى سنة 1938 كانت له علاقة متينة بالشيخ محمد الخضر حسين .

(2) أ . م . كرو جريدة « العمل » 7 مارس 1969 ـ الشيخ محمد الخضر حسين .

(3) ديوان « خواطر الحياة » ص 172 .

يقول : تقيم فى مصر وحيدا
وفقد الانس احدى الموتتين (1)
الا تحـدو المطيـة نحـو أرض
تعيـد اليـك أنس الاسـرتين
وعيشا ناعمـا يـدع البقايـا
من الاعمـار بيضـا كاللجيـن

فيجيبـه :

فقـلت له : أيحلـو لى إيـاب
وتلك الارض طافحة بغيـن (2)
وما غين البلاد سوى اعتساف
يدنسهـا بـه خـرق اليـدين

وقد قام الشيخ محمد الخضر بنشاط ثقافى وعلمى بالاضافة الى مباشرة مهنته بدار الكتب ، فكان يلقى المحاضرات والدروس الدينية بالمساجد ، ويكتب المقالات فى بعض الصحف والمجلات لافادة المسلمين وتبصيرهم وبالخصوص للتعريف بقيمته العلمية وسعة معارفه .

اهتمـامـه بالمغـاربـة :

لاحظنا عند الحديث عن الرحلة الاولى التى قام بها هذا الرجل الى المشرق اتصاله بطلبة المغرب العربى الذين كانوا يدرسون بجامع الازهر ، وكذلك ببعض المواطنين التونسيين الذين كانوا يعيشون بالاسكندرية والقاهرة وفى بقية المدن التى زارها ومر بها اثناء تلك الرحلة . وقد اتصـل بالمـواطنين

---

(1) البحر : الوافـر .
(2) الغين : الغيم .

المغاربة الموجودين بالقاهرة اثر استقراره بها وذلك للخروج من الغربة التي كان يعانيها ويتحسس مرارتها . ويبدو ان حالة هؤلاء المغتربين لم تكن مرضية مما دفع الشيخ محمد الخضر الى تأسيس « جمعية تعاون جاليات افريقيا الشمالية » في شهر جوان سنة 1924 (1) . وقد تألفت الهيئة الاولى لهذه الجمعية من :

- الشيخ محمد الخضر حسين (من تونس) رئيس
- طاهر محمد التونسي (من تونس) عضو
- محمد عبد الوهاب المحامي
- الدكتور عبد العزيز قاسم } (من المغرب)
- الاستاذ محمد الرزقي
- الدكتور عبدالسلام العيادي } (من الجزائر)
- الاستاذ محمد التهامي نصر
- الاستاذ عبد الله الكافي } (من ليبيا)

وكان مقر هذه الجمعية عيادة الدكتور عبد العزيز قاسم المغربي بالسبع قاعات البحرية بالسكك الحديدية بالقاهرة .

اما دورها فقد كان السعي لرفع مستوى هذه الجاليات من الناحية الثقافية والاجتماعية (2) .

موقفه من الخلافة الاسلامية :

قام مصطفى كمال باشا بالدعوة الى فصل السلطة عن الخلافة اى فصل الدين عن السياسة في خطابه التاريخي الذى القاه بالجمعية الوطنية التركية

---

(1) جريدة « الحرم » التي كان يصدرها السيد فؤاد شاكر . نقلت هذه المعلومات عن الصديق الاديب الاخ الحبيب شيبوب الذى اعانني بمراجع عديدة تتصل بالشيخ محمد الخضر حسين فله كامل شكرى وتقديرى .

(2) أ . م . كرو جريدة « العمل » 7 مارس 1969 الشيخ محمد الخضر حسين .

يوم غرة نوفمبر 1922 والـذى قال فيه : « مقام الخلافـة محفـوظ وبجانبـه مقام السيادة والسلطة الوطنية اى الجمعية الوطنية التركية الكبرى ، ولا شك ان هذين المقامين يقفان جنبا الى جنب وقفـة اعلى واسمـى من وقفـة الخلافة العاجزة الضعيفة » (1) .

وقد اصدرت على اثره هذه الجمعية قرارها القاضى « بان الشعب التركى قد فوض للجمعية الوطنية الكبرى التى تمثله تمثيلا حقيقيا جميع حقوق سيادته وحاكميته ... من اجل ذلك يعتبر الشعب التركى شكل الحكومة التى فى الاستانة والمستندة على السيادة الشخصية منتقلـة الى التاريـخ انتقالا ابديا » كما اشار هذا القرار الى بقاء « الخلافة فى ءال عثمان بحيث تنتخب الجمعية الوطنية الكبرى لها من ءال ذلك البيت ارشدهم واصلحهم علما واخلاقا . والدولة التركية سناد مقام الخلافة » .

وفى شهر مارس سنة 1924 م. وقع الغاء الخلافة نهائيا . وقد اثار هذا القرار ضجة كبيرة فى العالم الاسلامى فكتبت المقالات المعـارضة ، وعقـدت المؤتمرات للتشهير بهذا الالغاء الذى يتعارض مع مذهب اهل السنة الذى يشير الى ان « الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الـدين وسيـاسة الدنيا » (2) .

وقد كان الملك فؤاد ملك مصر من اكبر المعارضين والحاثين لرجال الدين وشيوخ جامع الازهر على التنديد بهذا القرار وباصحـابه ذلـك لانه كان يسعى لتولى خلافة المسلمين وزعامـة العالم الاسلامى وفـى ذلك مكاسـب ادبية ومادية وسياسية . وقام انصار الملك فؤاد واتباعـه بترويج هذه الفكرة والدفاع عنها باستعمال وسائل عديدة .

---

(1) مجلة ـ المنار ـ م 23 ـ ج 10 .

(2) الامامة والخلافة لهما معنى واحد ـ انظر كتاب « الاحكام السلطانية » للماوردى .

وفى خضم هذا الاختلاف الشديد القائم بين المدافعين عن هـذه الخطـة الاسلامية وبين المناوئين لها اصدر الشيخ على عبد الرازق احد علماء الازهر كتابه « الاسلام واصول الحكم » فى غرة افريل سنة 1925 وأكد فيه « ان الخلافة ليست ضرورية لقيام حكومات اسلامية حديثة وانها ليست من الدين فى شىء » (1) .

وقد اثار هذا الكتاب ضجة كبيرة وحادة فى اوساط رجال الدين وخاصة لدى علماء الازهر سواء بالنسبة الى محتواه المخالف لما يعتقده اولئك العلماء والشيوخ او بالنسبة الى مؤلفه الذى هو من رجال الاسلام ولا يمكن لمثله ان يصدر عنه كتاب من هذا النوع .

ولذلك نجد صاحب مجلة « المنار » يصف هذا الكتاب بانه « دعوة جديدة الى نسف بنائها (الخلافة) وتضليل ابنائها » (2) وهو « هدم لحكم الاسلام وشرعه من اساسه وتفريق لجماعته » (3) ومما ذكره الشيخ رشيد رضا فى مقاله الذى كتبه للرد على الشيخ على عبد الرازق والتشهير به : « بينا نحن معشر المسلمين على هذا (محاربة الالحاد) اذا نحن بنبأة جديدة فى شكلها تؤيد تلك النزعة الافرنجية النصرانية فى موضوعها وتلك الفعلة الالحادية فى مشروعها .

بينا نحن كذلك اذا نحن ببدعة حديثة لم يقل بمثلها احد انتمى الى الاسلام صادقا ولا كاذبا . بدعة شيطانية لم تخطر فى بال سنى ولا شيعى ولا خارجى ولا جهمى ولا معتزلى بل لم تخطر على بال اولئك الزنادقة الذين زعمـوا ان للاسلام باطنا غير ظاهره . اما الناعق بهذه البـدعة اليـوم فمـن العلمـاء المتخرجين من الازهر ومن قضاة المحاكم الشرعية (ان هذا لشىء عجاب) ومن

---

(1) على عبد الرازق : « الاسلام وأصول الحكم » ص : 86 .
(2) مجلة المنار ـ م 26 ج 2 ـ ص 100 .
(3) المرجع السابق ـ ص : 101 .

بيت كريم فى هذه البلاد عرف اهلــه بالاداب العــالية والاخــلاق وبالــدين أيضا » (1) ٠

كما قدم علماء الازهر عريضة الى مشيخة الجامع يوم الثلاثاء 23 جويلية 1925 م٠ وصفوا فيها الكتاب بانه « انكر اشياء لا نعلم الا انها معلــومة من الدين بالضرورة باتفاق بين العلماء » وقررت « هيأة كبار العلماء » فى جلستها المنعقدة يوم الاربعاء 22 محرم سنة 1344 هـ٠ / 12 أوت 1925 طرد صاحــب الكتاب من زمرتها (2) كما اتهم بالزندقة والالحاد ٠ وقد تسبب هذا الكتاب الذى صودر من الاسواق فى احداث ازمة وزارية فى مصر باستقالة الوزراء التابعين لحزب الدستور بعد اقالة الملك للسيد عبد العزيز فهمى وزير الشؤون الدينية (الحقانية) ورئيس الحزب نتيجة مساندته موقف صاحب الكتاب ٠ وقد اغتنم الشيخ محمد الخضر حسين هذه المناسبة للمساهمة فى خوض هذه المعركة الدينية والسياسية فألف كتابا رد فيه على الشيخ على عبد الرازق سماه « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » ورتبه نفس الترتيب المتبع فى الاصل المردود عليه ٠

وذاعت شهرة هذا الكتاب فى جميــع الاوســاط العلميــة وفــى مختلــف البلدان الاسلامية ، كما نال حظوة خاصة لدى الملك فؤاد ملك مصر ٠ ويبدو ان الشيخ محمد الخضر قد كان مدفوعا الى تأليف هذا « النقض » بدوافع دينية عقائدية اذ هو العالم الذى يؤمن بخطة الخلافة الاسلامية وبعدم الفصل بين الدين والسياسة مما جعله يكتب مقــالا بعنوان « ضلالــة فصل الدين عــن السياسة » جاء فيه :

« ثلاث حقائق كل واحدة منها شطر من الاسلام : عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم واشتمال شريعته بنصوصها واصولها على احكام ما لا يتناهى

(1) المصدر السابق ٠

(2) مجلة المنار ــ م 26 ــ ج 5 ص 383 ٠

من الوقائع وكون هذه الشريعة احكم ما تساس به الامم واصلح ما يقضى به عند التباس المصالح او التنازع فى الحقوق » (1) ·

كما قال قصيدته « الخلافة والانقلاب التركى » (2) بمناسبة الاعلان عن قرار « كمال أتاتورك » فى الغاء الخلافة وتأسيس حكومة لا دينية · وقد جاء فى هذا القصيد :

ما خطب قوم ـ طالما وصلوك
واعتز باسمك عرشهم ـ هجروك(3)
حرسوك احقابا وحلق صيتهم
فى الخافقين لانهم حرسوك

ومما قاله أيضا :

نهض الزعيم وما رعى عهد التى(4)
لولا اسمها ما صال صول ملوك
برح الخفاء وحاد وهو مظفر
نشوان عن منهاجها المسلوك
عذروه اذ اقصى الخلافة جانبا
ومحا اسمها ليزيل غين شكوك(5)
ما بال قسطاس الشريعة ضاع فى
افق السياسة ضيعة المتروك
والقوم قوم « محمد » ان زحزحوا
عن هديه اقتحموا شعاب النوك(6)

---

(1) م · غ · حسين « رسائل الاصلاح » ص 159 .
(2) ديوان « خواطر الحياة » ص 127 .
(3) البحر : الكامل .
(4) يقصد الشريعة الاسلامية .
(5) ما كان يخامر دول الغرب من سوء ظن بالخلافة .
(6) جمع انوك وهو ضعيف العقل .

ولكن هل كان السبب العقائدى فقط هو الذى دفع الشيخ محمد الخضر الى تأليف هذا الكتاب ؟ لا أظن ذلك بل لا بد ان تكون هناك دوافع اخرى شخصية منها ابراز مكانته العلمية فى مصر ، وبيان قيمته الثقافية وسعة اطلاعه وتضلعه فى قضايا الدين والشريعة ، ومنها ايضا تلبية رغبة القصر الملكى واستجابته لطلب انصاره ومؤيديه ويؤكد ذلك « اهداء الكتاب الى خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر المعظم » (I) .

فدراسة نص هذا « الاهداء » تبين بوضوح بعض الاسباب التى دعت الرجل الى تأليف الكتاب اذ يقول فى خاتمته :

« تلك المزية (رعاية الدين) التى اصبح بها صاحب الجلالة **واسطة عقد** ملوك الامم الشرقية قد اخذت فى نفسى مأخذ الاكبار والاجلال ودعتنى الى ان اقدم الى خزانته الملكية مؤلفا قمت فيه ببعض حقوق اسلامية وعلمية وهو « نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم » ورجائى ان يتفضل عليه بالقبول والله يحرس ملكه المجيد ويثبت دولته على دعائم العز والتأييد » .

ويختم هذا الاهداء بالعبارة التالية : « المخلص فى الطاعة ـ محمد الخضر حسين ـ » .

وقد تمكن الشيخ محمد الخضر من تحقيق الاهداف العلمية والسياسية التى أشرت اليها بايجاز عند تأليف هذا الكتاب، كما اصبحت له مكانة شخصية مرموقة فى الاوساط الثقافية والدينية ولدى الملك فؤاد ورجال القصر وبذلك بدأ صاحبنا يدخل باب الشهرة العلمية والتقدير الثقافى .

خلافه مع طه حسين :

ألف الدكتور طه حسين سنة 1926 م . كتابا سماه « فى الشعر الجاهلى » تعرض فيه الى مدى تعبير هذا الشعر عن الحياة العربية الجاهلية وتمثيله للغتها ومظاهرها الاجتماعية . وتوصل بعد تحليل وتمحيص عقليين الى ان اغلب اشعار الجاهليين منتحل لا تعبر بصدق عن مضمون الحياة الجاهلية كما ان اسباب هذا الانتحال عديدة منها دينية وسياسية وشعوبية .

(I) م . خ . حسين ـ « نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم » ـ الاهداء .

وفى يوم 30 ماى سنة 1926 م· تقدم طالب ازهرى برسالة الى النيابة العمومية بالقاهرة اتهم فيها الدكتور طه حسين بتأليف كتاب « فيه طعن صريح فى القرآن » حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوى الكريم ، (1) كما اشتد غضب علماء الازهر لصدور هذا الكتاب وخاصة ان ما اثاره فى نفوسهم الشيخ على عبد الرازق بتأليف كتابه « الاسلام وأصول الحكم » من حدة دفاعا عن الخلافة الاسلامية لم تمح آثاره فقدم هؤلاء الشيوخ خطابا الى السيد محمد نور رئيس النيابة العمومية بمصر اتهموا فيه مؤلف « فى الشعر الجاهلى » بانه « كذب القرآن وطعن فى النبى (صلعم) وفى نسبه الشريف واهاج بذلك ثائرة المتدينين وأتى فيه بما يخل بالنظم العامة ويدعو الناس الى الفوضى » (2) وطالب شيخ الازهر وعلماؤه رئيس النيابة باتخاذ العقوبات القانونية اللازمة ومحاكمة من مس دين الدولة الرسمى ·

وكانت نتيجة هذه المطالب المتعددة محاكمة الدكتور طه حسين التى انتهت بتبرئته وحفظ ملف القضية يوم 30 مارس 1927 م· حسبما جاء فى تقرير النيابة العمومية :

« ··· وحيث انه مما تقدم يتضح ان غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين بل ان العبارات الماسة بالدين التى اوردها فى بعض المواضع من كتابه انما قد اوردها فى سبيل البحث العلمى مع اعتقاده ان بحثه يقتضيها ·

وحيث انه من ذلك يكون القصد الجنائى غير متوفر فلذلك تحفظ الاوراق اداريا » (3) وقد حضر جماعة من كبار العلماء بالازهر التحقيق الذى قام به وكيل الجمهورية العام بمصر مع الدكتور طه حسين الا انهم عجزوا فى نقاشهم معه مما جعل بعض الحاضرين يقول : « ان علماء الازهر ارادوا تكفير طه

---

(1) خيرى شلبى « محاكمة طه حسين » ـ ص 5 .
(2) نفس المصدر ص 6 .
(3) نفس المصدر ص 70 .

حسين فاثبت هو كفرهم » (1) · وبالاضافة الى معالجة هذه القضية من الناحية القانونية فقد صدرت مقالات عديدة فى الصحف والمجلات للرد على المؤلف واتهامه بالكفر والزندقة فقد اعلن صاحب المنار عن صدور الكتاب بقوله (2) : « الدعوة الى الالحاد والتشكيك فى الدين كتاب « فى الشعر الجاهلى » ثم اضاف « ظهر بمصر فى اواخر السنة الماضية كتاب بهذا الاسم من وضع الدكتور طه حسين مدرس الاداب فى الجامعة المصرية وأحد أركان جمعية دعاية الالحاد بمصر » ·

ولم يكتف بعض العلماء والكتاب بنشر المقالات ، فألقوا المحاضرات مثل الشيخ محمد الخضرى وألفوا الكتب مثل الاستاذ محمد لطفى جمعة صاحب « الشهاب الراصد » والاستاذ محمد فريد وجدى صاحب كتاب « نقد كتاب فى الشعر الجاهلى » ·

وقد شارك الشيخ محمد الخضر حسين بتأليف كتاب لا فى النقد بل فى « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » ولا شك ان كلمة « نقض » أكثر حدة وشمولا من كلمة « نقد » · وقد نال هذا الكتاب شهرة كبيرة فى الاوساط الثقافية وخاصة لدى علماء الازهر ورجال الدين · وقد ذكر الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور رحمه الله « ان الدكتور طه حسين يعتبر كتاب الشيخ محمد الخضر من أهم الردود وأشدها حجة » (3) ·

وقد اولى الشيخ محمد الخضر حسين الجانب الدينى اهتمامه الكامل عند الرد على طه حسين كما سنبين ذلك عند تقديمنا لهذا الكتاب فى القسم الثانى من هذه الدراسة المتعلق بآثار الرجل ·

وتجدر الاشارة الى ان الخلاف بين الرجلين لم ينته عند هذا الحد بل استمر

(1) مجلة « المنار » م 27 . ج 8 ص 619 .
(2) المصدر السابق .
(3) م . ف . ابن عاشور ــ محاضرته عن الشيخ محمد الخضر فى مارس 1958 .

بعد ذلك وبرز فى مناسبات عديدة كما ان اسلوب النقد قد بلغ مرحلة السخرية والاستهزاء فى بعض الاحيان .

فقد ألف الاستاذ ابراهيم مصطفى كتابه « إحياء النحو » تعرض فيه الى بعض علماء النحو القدامى ونظرياتهم فى هذا الميدان فرد عليه الشيخ محمد الخضر حسين فى مجلة الهداية الاسلامية (1) ومما قاله : « ... والواقع ان المؤلف سلك أعوج الطرق فى التحامل على علماء العربية والمبالغة فى نسبتهم الى التقصير وهى الطريقة التى يسلكها الدكتور طه حسين على جهالة او قضاء لحاجة فى النفس » وقد كتب طه حسين تقديما لهذا الكتاب شكر فيه جهود المؤلف وسعة علمه ، تعرض له الشيخ محمد الخضر بقوله : « ... وهذا التقريظ دائر بين أمرين : اما ان الدكتور لم يقرأ الكتاب وقرظه مع العاطفة والمبدأ واما انه قرأه ولضعفه فى علم العربية وقلة تردد نظره على كتبها العالية بدا له ان هذا الكتاب احياء لعلم النحو » (2) ويبدو من مقال « الهداية الاسلامية » ان الشيخ محمد الخضر قد كان يعتزم تأليف كتاب للرد على الاستاذ ابراهيم مصطفى وعدل عن ذلك عند صدور كتاب الشيخ محمد عرفة « النحو والنحاه بين الازهر والجامعة » الذى حقق نفس الغرض .

وتجدر الاشارة الى ان صدور كتابى الشيخ محمد الخضر للرد على الشيخ على عبد الرازق والدكتور طه حسين قد دعم شهرته فى الاوساط العلمية وبين غزارة علمه وسعة اطلاعه فى ميادين اللغة والادب والدين مما جعل مكانته الثقافية تبرز لتحتل فيما بعد ما يطمح اليه رجل يسعى الى نيل المعالى اعتمادا على كفاءته وثقته فى نفسه . ولذلك نجده بالاضافة الى ما أصبح يتمتع به من قيمة علمية « يتشرف بمقابلة جلالة الملك فؤاد يوم الاحد غرة اوت سنة 1926 م. فى سراء قصر التين بالاسكندرية مقابلة خاصة » (3) ورغم ان هذا

---

(1) مجلة « الهداية الاسلامية » م 10 ج 7 (مارس 1938) ص 440 .

(2) نفس المصدر .

(3) مجلة « الهداية الاسلامية » م 8 ، ج 8 ص 441 .

العلامة لم يذكر موضوع هذه المقابلة الا انه من المتأكد ان ملك مصر قد شكره اثناءها على ما بذله من جهود علمية للدفاع عن شرعية الخلافة الاسلامية وضرورة وجودها وكذلك لحماية الدين الاسلامى من تهم الملحدين والزنادقة ٠

ويقول الشيخ محمود حافظ الامين العام لجمعية الهداية الاسلامية بالقاهرة والاستاذ بدار العلوم فى الكلمة التى القاها بمناسبة حفل التكريم الذى اقامته هذه الجمعية للشيخ محمد الخضر مساء يوم الجمعة 16 شعبان سنة 1356 هـ٠ / 22 اكتوبر 1937 م٠ (1) :

« ولما بلغ خبره (2) المغفور له صاحب الجلالة الملك فؤاد الذى عرف بغيرته الشديدة على الاسلام وحبه الخالص للمسلمين بلغ عطفه على فضيلة الاستاذ الخضر ان سمح له بمقابلته فسافر الى الاسكندرية وقتئذ وحظى بالمقابلة الملكية ، وقد لقى من عطف الملك وكلمات التشجيع والحض فى خدمة الاسلام ورفع شأنه والدفاع عما يوجه اليه من سهام وطعنات مما جعل فضيلته يلهج بالثناء والدعاء لجلالته » ٠

تأسيس جمعية الهداية الاسلامية :

لم يقصر الشيخ محمد الخضر نشاطه على تأليف ما ذكرنا بل واصل محاضراته ودروسه الدينية فى بعض المساجد وكتابة المقالات فى الصحف ٠

وقد ثارت ثائرة الرجل لما كان يوجه ضد بعض القيم الاسلامية من انتقاد وتحد شأنه فى ذلك شأن رجال الدين والعلماء المعاصرين له بمصر فى ذلك العهد ٠ وبالاضافة الى ذلك فقد لاحظ ظهور تفسخ اخلاقى لدى الشبان المسلمين وانتشر الحقد والبغضاء بين بعضهم وعظم التباعد بين الشعوب الاسلامية التى يعانى اغلبها ظلم الاستعمار الاجنبى وقهره والعمل للقضاء على

---

(1) مجلة « الهداية الاسلامية » م 10 ج 3 ص 129 ـ تتعلق كلمة الشيخ محمود حافظ بحياة الشيخ محمد الخضر حسين .

(2) يقصد كتاب « نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم » .

اهم مقومات شخصيتها . لقد جعل كل ذلك العائلة الاسلامية على حالة لا يطمئن لها العالم المتبصر ورجل الدين المصلح خاصة اذا شعر بثقل المسؤولية الداعية الى السعى لتعزيز الاسلام وارشاد المسلمين وتقوية صفوفهم ولحمتهم. ان هذه المظاهر الاجتماعية السلبية التى كان يعانيها المجتمع الاسلامى هى التى دفعت الشيخ محمد الخضر حسين الى العمل على الاصلاح فدعا صحبة عدد من العلماء الشيوخ منهم : الاستاذ مصطفى المراغى شيخ جامع الازهر ، والاستاذ عبد الحليم النجار الى تأسيس جمعية تسمى « جمعية الهداية الاسلامية » وبرز هذا الهيكل الى الوجود يوم 13 رجب سنة 1346 هـ. / 6 جانفى 1928 م. « للقيام بما يرشد اليه الدين الاسلامى الحنيف من علم رفيع وأدب نافع وخلق كريم » (1) .

وكانت تهدف هذه الجمعية الى :

1 — السعى لتمتين الصلات بين الشعوب الاسلامية وتوثيق الروابط بينها والقضاء على الخلافات بين الفرق الاسلامية المختلفة .

2 — التعريف بحقائق الاسلام ونشرها باسلوب يلائم روح العصر .

3 — مقاومة الالحاد والدعايات المناوئة للدين الاسلامى بطرق علمية .

4 — السعى لاصلاح شأن اللغة العربية واحياء ادابها (2) .

وقد استعمل اعضاء الجمعية وسيلتين اساسيتين لتحقيق ذلك وهما :

1 — القاء المحاضرات والمسامرات فى المساجد عقب صلاة الجمعة وفى بعض النوادى وخاصة التابعة لفروع جمعية « الهداية الاسلامية » .

2 — اصدار مجلة تحمل اسم الجمعية يشارك فى تحريرها نخبة من العلماء والفقهاء فى الدين والادب واللغة .

---

(1) مجلة « الهداية الاسلامية » م 1 ، ج 3 .

(2) نفس المصدر .

وقد تكون اول مجلس لادارة هذه الجمعية من :

- الشيخ محمد الخضر حسين : رئيس
- الشيخ محمد عبد المطلب : (مدرس بدار العلوم العليا) نائب أول للرئيس •
- الشيخ على محفوظ : (مدرس بقسم الوعظ والارشاد بالازهر) نائب ثان للرئيس
- الشيخ فكرى ياسين : (مدرس بالازهر) كاتب عام الجمعية
- الشيخ عبد الحميد مدكور : أمين مال
- الشيخ مصطفى بدرزيد : (مدرس بالازهر) مراقب

كما شمل المجلس احدى عشر عضوا من ابرز علماء الازهر نذكر منهم :

- الشيخ عبد الوهاب النجار : (مدرس بقسم التخصص بالازهر)
- الشيخ محمد عبد السلام القبانى : (مدرس بالازهر)

ولا شك ان تركيب هذه الهيأة الاولى للجمعية ونوع اعضائها من الناحية العلمية يبين مدى اهميتها فى ذلك العهد كما يبين قيمة الشيخ محمد الخضر ومكانته الثقافية التى اصبح يعترف بها اشهر علماء الازهر وكبار رجال الدين فى البلاد المصرية •

وقد قام الرجل بدور كبير للتعريف باهداف هذا الهيكل الاسلامى الجديد ودعوة العلماء الى الانضمام اليه والنشاط داخله ، من ذلك الخطبة التى القاها يوم الخميس 15 ذى القعدة سنة 1347 هـ• / 25 افريل 1929 م• فى الحفل الذى اقيم بمناسبة انتقال ادارة جمعية الهداية الاسلامية الى مقر جديد (1) (شارع سوق السلاح بالقاهرة) اتخذت فيه ناديا لالقاء المحاضرات • وقد حضر هذه المناسبة عدد كبير من العلماء والاساتذة نخص منهم بالذكر مصطفى

---

(1) مجلة « الهداية الاسلامية » م 2 .

المراغى شيخ الجامع الأزهر ، ومحمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا ، وعبد الرحمان قراعة مفتى الديار المصرية سابقا ، ويوسف الدجوى من هيأة كبار العلماء ، وأحمد تيمور باشا ، وعبد العزيز بك محمد المستشار بمحكمة الاستئناف ، ومحمد اسعد برادة مدير دار الكتب المصرية ، والسيد عبد الرحمان عزام (1) ٠

تعرض الشيخ محمد الخضر فى الكلمة التى القاها نيابة عن هيأة الجمعية الى اهدافها قائلا : « فاذا عرجنا فى خطبنا على عوج فى الاخلاق او مرض فى القلوب فانما نقصد الى السلامة من العوج والحماية من المرض ولا تنهض الامة من كبوتها الا ان تفتح صدرها لرجال ينقذونها على نصح ويلفتون نظرها الى ما يلقى فى سبيلها من رجس وفساد » ومما ذكره ايضا : « تعمل هذه الجمعية على اصلاح الاخلاق ولا سيما خلق كالملق يكون لها فى ظهور الباطل على الحق اثر شديد ٠ وقد علمنا التاريخ والمشاهدة ان لا خير فى نفوس تلقى بمودتها وتملقها الى من يقطعون سبيل الرشد ويبلغونها عوجا » (2) ٠

وتجدر الاشارة الى ان هذه الجمعية لم تهتم بالنشاط السياسى كما ان المجلة التى انشأتها لم تنشر مقالات سياسية وقد بين ذلك فى نفس الكلمة السابقة بقوله : « اخذت هذه المجلة على نفسها ان لا تتعرض لشؤون السياسة فان الجمعيات التى تحوم على السياسة قد تقصر اعمارها او لا تستقر على مبادئها ونحن نبغى قيمة راسية » (3) ٠

وقد كونت هذه الجمعية فروعا بعدة مدن بالبلاد المصرية وفى بعض البلدان العربية مثل سوريا والعراق ٠

---

(1) تحمل مسؤولية الامانة العامة لجامعة الدول العربية عند تأسيسها سنة 1945 ٠

(2) مجلة « الهداية الاسلامية » م 2 ٠

(3) نفس المصدر – سنتعرض الى نظرية الرجل فى السياسة ومشاركته فيها فى القسم الثالث من البحث ٠

مجلة الهداية الاسلامية :

اما المجلة التى هى لسان الجمعية فقد صدر العدد الاول منها فى جمادى الاولى سنة 1347 هـ / اكتوبر 1928 م. واستمر بروزها شهريا الى انقطاعها خلال الحرب العالمية الثانية ، رغم اننا نجد فى صفحة الغلاف الخلفية « هذه المجلة ستصدر مرتين فى الشهر اما الآن فتصدر شهريا بصورة مؤقتة » وكان يديرها رئيس الجمعية أما المسؤول عن الاشتراكات فهو الشيخ مصطفى بدر زيد مراقبها والاستاذ بالجامع الازهر .

ووقع الاقتصار - فى توزيع هذه المجلة فى عهدها الاول - على بعض الاقطار العربية منها تونس حيث كانت تباع بمكتبةالاستقامة (نهجسيدىابنعروس) وبالمكتبة العلمية (نهج الكتبية) وكذلك بالمكتبة الشرقية بصفاقس . اما ما تنشره من المقالات فقد كان يستجيب الى اهداف الجمعية التى تعبر عنها اذ نجد فيها نصوص المحاضرات التى كانت تلقى فى نادى جمعية الهداية الاسلامية وبعض البحوث الدينية والادبية الهادفة الى دعم الاسلام وانارة المسلمين ومقاومة التيارات الالحادية التى كانت تبرز من حين الى آخر اثناء تلك الفترة .

كما كانت تنشر هذه المجلة اخبارا عن البلاد التونسية ومقالات عن ابرز شخصياتها العلمية مثل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور للتعريف بهم وبقيمتهم فى المشرق العربى ، كما كانت تنشر بحوثا يكتبها علماء تونسيون مثل الشيخ محمد النيفر والشيخ الطاهر ابن عاشور ، وكان من ابرز مراسليها الشيخ محمد المكى بن الحسين .

ولا شك أن ذلك يعود الى الشعور الوطنى الذى لم يفارق الشيخ محمد الخضر وحنينه الى بلاده ، ورغبته فى التعريف بها ، وبامجادها العلمية والادبية . وقد ادخلت هيأة الجمعية تحويرا فى شكل مجلتها كما طورت محتواها عند دخولها سنتها الحادية عشرة اى ابتداء من العدد الصادر فى شهر رجب سنة 1357 هـ / شهر سبتمبر 1938 م. ، بعد ان قضت « عشر سنين متتالية ،

وهى تدعو الى الخير والاصلاح ، وتواصل البحث عن الحقائق الدينية والعلمية والادبية ، سالكة فى جهادها سبيل الحكمة ، لا تجمد عن حق ، ولا يطيش لها قلم فى باطل » (1) . فكبر حجمها ، كما اصبحت تحتوى على سبعة عشر بابا ، يتناول فيها العلماء والفقهاء فى اللغة والدين جميع القضايا التى تتصل بالاسلام والمسلمين مثل : تفسير القرآن وشرح الاحاديث النبوية الصحيحة ونشر الفتاوى والاحكام والقيام بمقارنات بين الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية ومدى تلاؤمهما ومكافحة بعض البدع والعادات السيئة الخ ...

وكان لهذه الاعمال الجليلة نتائجها المثمرة اذ اهتم جميع المثقفين بهذه المجلة « الاسلامية العلمية الادبية » فانتشرت فى جميع الاوساط ، وابتهج بها القراء المسلمون مما مكنها من القيام بدور كبير فى توجيههم وارشادهم ، وفى اصلاح المجتمع الاسلامى بصورة عامة .

وقد قرظ المجلة منذ صدورها عدد من العلماء ، نذكر منهم بالخصوص الشيخ رشيد رضا الذى اهاب بها فى مجلة « المنار » ، وحث المسلمين على قراءتها ، ومما قاله فى الشيخ محمد الخضر : « وهو صديقنا الاستاذ التونسى الزيتونى الازهرى العالم الفاضل الكاتب الخطيب المتفنن » (2) .

التدريس بالازهر :

لقد ساعدت كل الجهود التى بذلها الشيخ محمد الخضر حسين فى ميدان التأليف والقاء المحاضرات والدروس وكتابة المقالات فى المجلات والصحف على اظهار كفاءته العلمية وقيمته الشخصية ، مما جعله يعد من ابرز العلماء فى مصر بعد ثمانى سنوات فقط من حلوله بهذه البلاد الاسلامية المشهورة بشيوخها وفقهائها فى مختلف الميادين الدينية واللغوية والادبية .

---

(1) « مجلة الهداية الاسلامية » م II ج I ص I .

(2) مجلة « المنار » م 29 — ج 9 — ص 720 .

وبرز تقدير علماء مصر لهذا الرجل عندما وقع انتدابه للتدريس فى قسم التخصص بالجامع الازهر سنة 1927 م. بصورة مؤقتة ، وعندما اصبح الاستاذ مصطفى المراغى شيخا للازهر سنة 1928 ، وقع ترسيمه بصورة نهائية فى هذا المعهد العلمى الشهير (1) ، وتجدر الاشارة الى ان هذه الخطة تتطلب من صاحبها العلم الغزير ، والاطلاع الواسع ، ولا شك ان هذا المدرس الجديد قد كان اهلا للقيام بها لشغفه بالتعليم كما ان تجربته الطويلة بجامع الزيتونة وما تركه فيه من اثر لدى ابرز شيوخه وتلاميذه تشهد بقيمته العلمية وقدرته التعليمية .

مجلة « نور الاسلام » :

تكاثرت الدعايات المغرضة ضد الاسلام ، واخذت فى الانتشار عن طريق الصحف والمجلات مما دعا رجال الدين الى ضرورة مجابهة هذه الحملة بوسائل عديدة ومتنوعة .

ويبدو ان الدور الذى قامت به جمعية « الهداية الاسلامية » وخاصة مجلتها الشهرية قد قوى فى عزيمة العلماء وخاصة منهم المشرفين على المجلس الاعلى للمعاهد الدينية بمصر .

فقد قدم السيد عبد العزيز بك محمد المستشار بمحكمة الاستئناف وعضو المجلس الاعلى للازهر اقتراحا يقضى بانشاء مجلة اسلامية ، تساهم فى انارة السبيل للمسلمين ، وفى مكافحة التيارات المنحرفة التى تنشرهـا الفـرق والطوائف الدينية المناوئة للاسلام . فقرر هذا المجلس بعد اعداد دراسة فى المشروع قدمها صاحب الاقتراح تخصيص مبلغ مالى للانفاق على مجلة دينية .

وعندما تولى الاستاذ محمد الاحمدى الظواهرى (2) مشيخة الازهر خلفـا للشيخ مصطفى المراغى الذى استقال من هذا المنصب فى شهر اكتوبر 1929 م.

---

(1) مجلة « المنار » م 31 – ج 5 – ص 377 .

(2) المتوفى فى 12 ماى سنة 1944 – تولى مشيخة الازهر مدة خمس سنوات .

اهتم بمشروع المجلة « فأخذ يدبره بجد وحكمة حتى لانت صعابه وتهيأت بتأييد الله اسبابه » (1) .

صدرت مجلة الجامع الازهر ، تحمل اسم « نور الاسلام » واسندت ادارتها الى السيد عبد العزيز بك محمد صاحب اقتراح انشائها ، واسندت رئاسة تحريرها الى صديقه الشيخ محمد الخضر حسين أحد علماء الازهر .

واذا لاحظنا ان الخطة الثانية في ميدان الصحف والمجلات لا توكل الا الى ذوى الخبرة والعلم الغزير ، تبينا مدى التقدير الذى اصبح يتمتع به الشيخ محمد الخضر حسين لدى مشيخة الازهر وعلمائه ، مما جعلهم يسندون له الاشراف العلمى على المجلة الرسمية لهذا المركز الاسلامى الشهير .

وقد كتب الرجل افتتاحية العدد الاول لهذه المجلة « الدينية العلمية الاخلاقية التاريخية الحكمية » (2) الذى صدر فى شهر محرم سنة 1349 هـ / شهر جوان 1930 م . وضح فيها اغراضها الهادفة الى اظهار حقائق الاسلام ناصعة جلية بعيدة عن كل لبس وسوء تأويل ، ونشر آدابه ودفع الشبهات التى يريد الملحدون الصاقها به . كما بين الخطة التى رسمتها هيأة المجلة والتى « لا تمس السياسة فى شأن » (3) ، وهو نفس المنهج الذى رسمته جمعية « الهداية الاسلامية » لمجلتها . ويؤكد ذلك مدير المجلة ايضا فيقول « اغراض المجلة دينية خلقية علمية بحتة فلا تتعرض للسياسة بحال » (4) .

اما الابواب التى تحويها المجلة فهى تشبه الى حد كبير ابواب مجلة « الهداية الاسلامية » مع اضافة بعض الفصول والابحاث المتعلقة بأصول الفقه وأصول الدين ، والتأكيد على مناقشة المجلات والصحف المناوئة للدين

---

(1) مجلة « نور الاسلام » م 1 – ج 1 – ص 5 .
(2) كتبت هده العبارة تحت العنوان فى الصفحة الاولى من الغلاف .
(3) مجلة « نور الاسلام » م 1 ج 1 – ص 5 .
(4) المصدر السابق – ص 60 .

الاسلامى ، مما دعا المشرفين عليها الى احداث قسم خاص بترجمة ما يصدر فى هذه الوسائل الاعلامية للرد عليها فى الابان ، كما دعاهم ذلك بعد سنوات اخرى من صدور « نور الاسلام » الى اضافة قسم فى المجلة مكتوب باللغة الانقليزية لمناقشة المجلات الاجنبية ، ومكافحة الحركة التبشيرية المسيحية فى العالم الاسلامى . وقد كان الشيخ محمد الخضر حسين يكتب بعض المقالات الافتتاحية المتعلقة باصلاح المجتمع الاسلامى وبحوثا فى اصول الفقه ، كما كان يشارك فى تحرير هذه المجلة نخبة من علماء الازهر ابرزهم الشيخ يوسف الدجوى من هيأة كبار العلماء والشيخ حسين منصور وكيل دار العلوم العليا والشيخ ابراهيم الجبالى مدرس بقسم التخصص بالازهر . وقد احدث صدور هذه المجلة الاسلامية صدى طيبا فى الاوساط العلمية والدينية خاصة وانها تمثل اللسان الرسمى لمشيخة الازهر . وقرظتها صحف ومجلات عديدة ، منها مجلة « الهداية الاسلامية » ومجلة « المنار » ، ومما قاله الشيخ رشيد رضا ان بروز هذه المجلة « أمنية قديمة لنا ولكثير من مفكرى المسلمين ومحبى الاصلاح ونشر الاسلام والدفاع عنه » (1) ثم اشار الى الاسباب التى ادت الى تأخر وجودها ؛ واهمها ـ فى نظره ـ : ابتعاد جامع الازهر وشيوخه عن حياة العصر ومتطلباتها الجديدة ، ولذلك اناط شيخه الاعمال الرئيسية « فى المجلة الازهرية برجال من غير خريجى الازهر » ، ومما قاله صاحب « المنار » عن الشيخ محمد الخضر حسين رئيس تحرير المجلة : « انه من علماء تونس وأدبائها وقد اعطى لقب عالم فى الازهر بامتحان خاص ، وصفة استثنائية ، وجعله الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الازهر السابق مدرسا فى قسم التخصص من الازهر بعناية خاصة استثنائية ايضا وهو كفؤ لهذا وذاك » (2)

واضاف الشيخ رشيد رضا الى ذلك لومه على الشيخ محمد الخضر لانه لم يشر الى الجهود التى بذلها الشيخ المراغى فى بعث المجلة ، وقد كان عند

---

(1) مجلة « المنار » م 31 ـ ج 2 ـ ص 155 .

(2) مجلة « المنار » م 31 ـ ج 2 ـ ص 156 .

أعداد مشروعها رئيسا للمجلس الأعلى للمعاهد الدينية وشيخ جامع « الازهر » فله الفضل الاول فى تنفيذ هذا المشروع ، كما ان له الفضل عليه نفسه « وان لم يكن من اعضاء جمعيته او حزبه » . كما ناقشه فى عدم اهتمام المجلة بالسياسة لما فى ذلك من تضييق على نفسها ، بالاضافة الى ان الاسلام « دين سياسة وسيادة وتشريع يشمل جميع شؤون البشر » (1) .

وقد اثار هذا التقريظ حافظة الشيخ محمد الخضر ، فأجاب عنه فى مجلة « الهداية الاسلامية » ، وتواصلت المناقشات بين الرجلين وبين مجلتى « المنار » و « نور الاسلام » فى قضايا مختلفة حتى بلغت حدا ادى الى تدخل ابرز رجال العلم والثقافة بمصر ، للتنقيص منه ومحاولة ازالته .

وفى سنة 1935 م. استقال الاستاذ محمد الاحمدى الظواهرى من مشيخة الازهر ، فخلفه الشيخ مصطفى المراغى ، وعند ذلك اسندت مسؤولية الاشراف على مجلة « نور الاسلام » الى السيد محمد فريد وجدى . وفى منتصف سنة 1374 هـ. / سنة 1955 م. اصبح اسمها « مجلة الازهر » .

خصومته مع الشيخ رشيد رضا :

تعود العلاقة بين الشيخين محمد الخضر حسين ورشيد رضا الى سنة 1904 م. عندما اسس الاول مجلة « السعادة العظمى » التى كانت ردا ضمنيا على مجلة « المنار » .

ولم تقم المجلة العربية الاولى بتونس بهذا الدور بشكل واضح لكن الخلاف بين المجلتين كان قائما كما سنتعرض الى ذلك بصورة مفصلة فى القسم الثالث من هذه الدراسة . وتقابل الرجلان سنة 1912 م. عند نزول الشيخ محمد الخضر بالقاهرة ، وهو فى طريقه الى دمشق للاستقرار بها مع اخوته وذويه . واثر انتقاله الى مصر نهائيا سنة 1920 م اتصل مرة اخرى بالشيخ

---

(1) المصدر السابق .

رشيد رضا ، ونشر خلال سنة 1921 م• سلسلة من المقالات بمجلة «المنار» (1) حول موضوع « الخيال فى الشعر العربى » ثم جمعها فى كتاب نشره سنة 1922 م• ، كما كتب مجموعة اخرى من المقالات فى السنة الموالية بنفس المجلة (2) حول موضوع « القياس فى اللغة العربية » ، ثم نشرها فى كتاب صدر بالقاهرة سنة 1934 م• ، وقد كان الرجلان متفقين فى النظرة الى اللغة العربية وآدابها من حيث الدفاع عنها باعتبارها وسيلة للتعريف بأصول الدين الاسلامى ، وهى لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة • وتزداد الصلة بين الشيخين متانة عند صدور كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرزاق • وكتاب « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين » ويقف منهما الشيخ محمد الخضر الموقف الذى بيناه (3) ، فيسانده الشيخ رشيد رضا ويقرظ كتابيه ويشيد بهما وبقيمة صاحبهما العلمية والدينية كما يقرظ مجلة « الهداية الاسلامية » (4) •

وتبرز القطيعة عند صدور العدد الاول من مجلة « نور الاسلام » ، وما كتبه فى شأنها صاحب المنار وخاصة لومه على رئيس تحريرها عدم ذكره الشيخ مصطفى المراغى وابتعاد المجلة عن السياسة •

وقد اجاب الشيخ محمد الخضر صاحب المنار بمقال عنوانه : « للحقيقة والتاريخ » خطاب مفتوح الى الاستاذ السيد محمد رشيد رضا نشر بمجلة « الهداية الاسلامية » (5) •

ويبدو ان الرجل لم يرد اقحام مجلة جامع الازهر فى خصومة اخذت منطلقا شخصيا بالدرجة الاولى ولذلك نجده يكتب اجابته فى مجلة هو مسؤول عنها من الناحية الادارية والقانونية •

---

(1) مجلة « المنار » م 22 ـ الاجزاء : 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ 7 ـ 9 •

(2) نفس المصدر ـ م 23 •

(3) انظر ص : 89 ـ ص 94 من هذا الكتاب .

(4) انظر ص : 103 .

(5) مجلة « الهداية الاسلامية » م 3 ـ ج 1 ـ ص 12 .

يبدأ صاحب الكتاب المفتوح رده على مقال « المنار » بوصفه بأنه « نقد وتقريظ » لمجلة « نور الاسلام » ، وان « الحقيقة والتاريخ لا يسمحان له بالسكوت عن بعض الكلمات المعدودة التى جاءت فى هذا النص فكانت نابئة وجارحة » .

ثم يذكر ما قاله الشيخ رشيد رضا فى خصوص مساعدة الشيخ المراغى له حيث جعله « مدرسا فى قسم التخصص من الازهر بعناية خاصة استثنائية » ، فيشير الى ان مجلس الازهر الاعلى قد ندبه للتدريس « قبل ولاية فضيلة الاستاذ الشيخ المراغى بنحو سنة » (1) عندما كان الاستاذ عبد الرحمان قراعة رئيسا لهذا المجلس .

ويواصل الشيخ محمد الخضر خطابه للرد على كل القضايا التى اثارها صاحب المنار ، باسلوب واضح وحجج منطقية ، دون تحامل او اثارة ، ويبدو فى ذلك وكأنه يتحاشى قيام خصومة ـ تظهر خفية ـ بينه وبين صاحبه . ويؤكد ذلك ما اشار اليه فى هذا الخطاب بقوله : « وعلى فرض ان اكون قد اجملت القول فى مواضع تعلمون منها اكثر مما اعلم ، كان لفضيلتكم ان تكتبوها للتاريخ فى صفاء خاطر متحامين الكلمات التى يسبق الى اذهان بعض الناس انها مصنوعة لتثير غبار فتنة . ومثل هذه الفتنة لو ايقظها غيركم لكان من واجب الدين وسماحة الاخلاق عليكم ان تبادروا الى اخمادها وواجب الدين وسماحة الاخلاق قبل كل دعاية : » (2) .

ويختم هذه الرسالة الهامة فيقول : « هذا وظننا فى الاستاذ انه ينقد فى اخلاص ويتلقى الجواب فى سكينة وانصاف وسلام عليك يوم تقرظ ، ويوم تنقد ، ويوم تكون للحق وليا » (3) .

---

(1) مجلة « الهداية الاسلامية » م 3 ـ ج 1 ـ ص 13 .
(2) المصدر السابق ـ ص 14 .
(3) المصدر السابق ـ ص 14 .

ولم يتلق الشيخ رشيد رضا هذا الرد في سكينة ، بل اجابه بمقال عنوانه : « رد المنار الذى تتجلى به الحقيقة وينصف التاريخ » (1) اطول من « الخطاب المفتوح » باربع مرات (نشر مقال الشيخ محمد الخضر في اربع صفحات من مجلة ـ الهداية ـ بينما نشر مقال الشيخ رشيد رضا في 16 صفحة من ـ المنار ـ) .

كما انه اكثر حدة ، واشد حماسا ، واقذع عبارة ، وادعى الى الخصومة بل الى « الفتنة » . يشير صاحب المنار الى ان « نصيحته الاسلامية » وتقريظه « لنور الاسلام » قد قوبلا بقطع هذه المجلة عن مبادلة « اختها المنار » بالاضافة الى الرد الذى نشر بمجلة « الهداية الاسلامية » ، ثم اكد التزامه باتباع الحق في مناقشته للشيخ محمد الخضر « مع المحافظة على سابق مودته ان شاء » . الا انني اعتقد ان تلميذ الامام محمد عبده لم يحافظ على ما تعهد به بل تجاوز حدود القواعد المتبعة في المناقشات العلمية .

فمما يذكره ان رئيس تحرير مجلة الازهر « يراوغ » في بيان الحقيقة ثم يتحدث عن انتدابه بجامع الازهر فيصفه بقوله : « ندب الاستاذ محمد الخضر التونسي الفرنسي التبعة للتدريس » وهو « احد الغرباء المشمولين بالحماية الفرنسية مع عدم الحاجة الى الانتفاع بهذه الحماية من جانب السياسة » ، ويشير الى ان الرجل كان يتقاضى مكافأة شهرية قدرها ثمانية جنيهات وعند دخول المراغي المشيخة اصبح يتقاضى خمسة عشر جنيها « فليست هذه عناية خاصة بصفة استثنائية ، لان الاستاذ اجنبي غير مصرى ؟ » (2) .

واذا تركنا جانبا العنصر الشخصي الذى اثاره صاحب المنار في رده وذكرنا البعض منه والذى يبدو انه كتبه وهو في حالة غضب شديد فقد

---

(1) مجلة « المنار » ـ م 31 ـ ج 5 ـ ص 375 .
(2) المصدر السابق ص 377 .

تعرض مع ذلك الى قضيتين جوهريتين : الاولى موقف الشيخ محمد الخضر من حركة محمد عبده الاصلاحية الذى تبين من خلال ما عبر عنه من استبشار وامل فى الاصلاح وذلك بمجلة « الهداية الاسلامية » عند استقالة الشيخ مصطفى المراغى احد تلاميذ الاستاذ الامام البارزين من الازهر وتعويضه بالشيخ محمد الاحمدى الظواهرى ذى الاتجاه المحافظ • والثانية موقفه من الحالة السياسية بالعالم الاسلامى وخاصة بشمال افريقيا ، وعدم التعرض اليها فى مجلتى « الهداية » و « نور الاسلام » وبالخصوص فى بعض المناسبات الوطنية الهامة كعملية تنصير البربر بالمغرب الاقصى وانعقاد المؤتمر الافخارستى بتونس •

وسأترك تحليل موقف هذا الرجل ونظرياته فى خصوص هاتين القضيتين ومناقشته فى القسم الثالث من هذا البحث • ورغم ما ذكره صاحب المنار من مس وتعريض بشخصية محمد الخضر وبقيمته العلمية فهو يختم القسم الاول من توضيحه للحقيقة وانصافه للتاريخ بقوله : « واننى لأود لو اكون مخطئا فيما فهمت من مقالته ومن مجلة جمعيته ، وما يعنيه من اثارة الفتنة ومن الامراض العقلية والخلقية ، وان يكون كما كنت اظن من حزب المصلحين المعتدلين بين الجامدين والمتفرنجين فنعود بعد هذا التنازع متعاونين ، وبعد هذا الاختلاف متفقين ، وتلك عقبى المخلصين » (1) • لكن الخلاف لم يقف عند الرجلين بل تجاوزهما واصبح بين المجلتين : « نور الاسلام » و « المنار » ثم بعد ذلك بين مشيخة جامع الازهر وصاحب المنار •

فقد كتب الشيخ رشيد رضا مقالا بمجلته عنوانه : « مجلة نور الاسلام والاستاذ الدجوى » (2) تعرض فيه الى عجز هذا الاستاذ ومخالفته اجماع السلف الصالح فى شرح الاحاديث والفتاوى « وتأييد الخلف الطالح فى الابتداع » • وقد قام الشيخ يوسف الدجوى وهو من هيئة كبار العلماء بالرد

---

(1) مجلة « المنار » م 31 – ج 5 – ص 386 .

(2) مجلة « المنار » – م 31 – ج 10 – ص 745 .

على هذا المقال واستمر النقاش والجدال بين الرجلين بلغ حدة كبيرة جعلت كلا منهما يرمى الآخر « بالضعف والعجز فى العلم وعدم الكفاءة » • يقول صاحب المنار فى منازله : « لم اكترث له ولا رايته اهلا للرد عليه فهو غير كفء للمبارزة بعلم ولا ادب ولا بصدق فى القول ولا امانة فى النقل ولا اخلاص فى النية » (1) •

وقد دعا هذا الخلاف الشديد الى تدخل مفتى الديار المصرية الشيخ عبد المجيد سليم لتحقيق الصلح ، ثم تدخل مشيخة الازهر نفسها صحبة نخبة من ابرز العلماء لكن ذلك لم يقض على الخصومة التى تداخلت فيها عدة عناصر منها ما يتصل بالنزاع القائم بين المحافظين والاصلاحيين • وقد جمع صاحب المنار المقالات التى نشرها فى هذه القضية فى كتاب سماه : « المنار والازهر » صدر سنة 1352 هـ• / سنة 1933 م• وهو يشتمل على مقدمة فى تاريخ جامع الازهر و « جناية مشيخة الظواهرى عليه » (2) كما يحوى مقالات فى الرد على مجلة الازهر « نور الاسلام » فى افترائها على المنار وتأييدها البدع والخرافات » (3) •

ولم ينته الخلاف بين الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ رشيد رضا الى ان توفى صاحب المنار سنة 1353 هـ• / سنة 1935 م• ويبدو ان الاول لم ينس ذلك وبقى يتذكره فى كل مناسبة يتحدث فيها عن الفترة التى قضاها من حياته بمصر •

يقول فى كلمة القاها بدمشق عند رحلته اليها سنة 1938 م• : « ثم رحلت الى القاهرة فلقيت من كبار علمائها وصفوة ادبائها ورجال نهضتها ورؤساء دولتها احتفاء وتكرمة ، غير ان مدينة كمدينة القاهرة لا تخلو من نفر ينتمون

---

(1) مجلة « المنار » م 32 – ج 8 – ص 639 .

(2) المصدر المذكور ص 1 . الظواهرى هو محمد الاحمدى الظواهرى شيخ الجامع الازهر لذلك العهد .

(3) نفس المصدر .

الى العلم او الادب لا يبالون ان يجحدوا بعض الحقائق ويدعوا الى هذا الجحود فكنت فيمن ينبه لهذه الحقائق ، ويشير الى ان تلك الدعوة دعوة غير رابحة ولا اكتمكم ايضا انى لاقيت قسطا من مناوأة اولئك الجاحدين » (1) .

دخوله المجمع اللغوى :

اصدر فؤاد الاول ملك مصر مرسوما فى 14 شعبان سنة 1351 هـ / 13 ديسمبر 1932 م. يقضى بانشاء « مجمع اللغة العربية الملكى » بالقاهرة (2) .

وقد حدد المرسوم اغراض هذه المؤسسة العلمية الهامة التى منها المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها مستجيبة لمطالب العلوم والفنون الجديدة وملائمة لحاجيات العصر الحديث ، ومنها ايضا وضع معجم تاريخى للغة العربية واعداد دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية » (3) . وتشير المادة الرابعة من هذا المرسوم الى ان المجمع يتألف « من عشرين عضوا عاملا يختارون من غير تقيد بالجنسية من بين العلماء المعروفين بتبحرهم فى اللغة العربية او بأبحاثهم فى فقه هذه اللغة او لهجاتها » (4) .

وفى 16 جمادى الثانية سنة 1352 هـ / 6 اكتوبر سنة 1933 م. صدر مرسوم ملكى ثان تم بموجبه تعيين الاعضاء العاملين بالمجمع وهم من ابرز العلماء والمستشرقين فى ذلك العهد منهم :

* الاستاذ محمد توفيق باشا وهو اول رئيس للمجمع .
* الدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة وهو اول كاتب عام للمجمع .

---

(1) مجلة « الهداية الاسلامية » م 10 – ج 5 . ص 263 .
(2) مجلة المجمع ج 1 – سنة 1935 .
(3) نفس المصدر .
(4) المصدر السابق .

★ الشيخ ابراهيم حمروش شيخ كلية اللغة العربية بالجامع الازهر ·

★ الشيخ محمد الخضر حسين الاستاذ بكلية اصول الدين بالجامع الازهر ·

★ الشيخ عبد القادر المغربى ·

★ السيد حسن حسنى عبد الوهاب ·

★ المستشرق · هـ· جب · استاذ بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن ·

★ المستشرق نالينو استاذ بجامعة روما ·

★ المستشرق ماسينيون استاذ بجامعة باريس ·

وتفرع اعضاء المجمع الى احدى عشر لجنة لدراسة مختلف الميادين اللغوية والعلمية والفنية · وترأس الشيخ محمد الخضر حسين لجنة اللهجات وساهم فى اشغال عدة لجان اخرى اهمها :

- لجنة الآداب والفنون ·
- لجنة دراسة معجم المستشرق فيشر المتعلق بالالفاظ القرآنية ·
- لجنة المعجم الوسيط ·
- لجنة الاعلام الجغرافية (1) ·

كما القى عدة محاضرات وبحوث نشرت بمجلة المجمع منها :

- المجاز والنقل (نشر فى الجزء الاول ص 291) ·
- الاستشهاد بالحديث فى اللغة (نشر فى ج 3 ص 197) ·
- وصف جمع العاقل بصيغة فعلاء (نشر فى ج 7 ص 254) ·
- اسم المصدر فى المعجم (نشر فى ج 8 - ص 147) ·

وشارك فى المؤتمر الطبى العربى المنعقد بالقاهرة سنة 1939 م· نيابة عن المجمع والقى بحثا عنوانه : « طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها فى البلاد العربية » ·

---

(1) الدكتور محمد مهدى علام - « المجمعيون » ص : 158 .

فكان الشيخ محمد الخضر بذلك من ابرز اعضاء مجمع اللغة العربية العاملين، وبقى على هذه الحال الى آخر ايام حياته ·

وقد القى قصائد عديدة فى الجلسات الافتتاحية تعتبر من اطول قصائده واغزرها معنى فى بيان قيمة اللغة العربية وآدابها ، ودور ابنائها فى المحافظة عليها واثرائها ودعمها ، ومن اهمها التى القاها فى الدورة السادسة لهـذا المركز العلمى العربى والتى مطلعها (1) :

شبيهان : الهلال اذا تهادى
وفكر بات يرتاد السداد (2)
بنات الفكر آبدة (3) ولولا
عنان القول لم تسلس قيادا
رعى اللـه الاديب يروم معنـى
فيسعـده البيـان بما أرادا

رحلته الى دمشق :

ان السنوات التى قضاها الشيخ محمد الخضر بدمشق وما لقيه اثناءها من تبجيل وتقدير فائقين لدى علمائها ووجهائها تركه يتذكر هذه المدينـة العربية ، ويحن اليها فى كل مناسبة وهو القائل فى شأنها :

احـن الى ليـاليهـا كصـب
يحن الى ليالى الـرقمتين (4)
ومطمـح همتى فى ان اراهـا
تسامى فى علاهـا الفـرقدين

---

(1) ديوان « خواطر الحياة » ص 57 .
(2) البحر : الوافر .
(3) اى وحشية نفور .
(4) البحر : الوافر ـ الرقمتين : اسم مكان . انظر ديوان « خواطر الحياة » ص 172 .

استجابة لهذا الشوق ، وتلبية لرغبة عائلة الحسين ، سافر الرجل الى العاصمة السورية يوم الاحد 25 ربيع الثانى سنة 1356 هـ . / 4 جويلية سنة 1937 م . واقام بها مدة شهرين كاملين عاد اثرها الى القاهرة يوم الاثنين غرة رجب / 8 سبتمبر من نفس السنة . وقد كتب مقالا وصفيا عن هذه الرحلة فى مجلة « الهداية الاسلامية » عنوانه « حديث عن رحلتى الى دمشق » صدر فى العددين الخامس والسادس من المجلد العاشر لهذه المجلة . وقد كانت اقامة الشيخ محمد الخضر فى العاصمة السورية فرصة للاتصال باصدقائه العلماء والشيوخ ، والاجتماع بهم والتحاور معهم فى شتى العلوم الدينية واللغوية . ومما يبين قيمة هذا الرجل لدى علماء سوريا قدوم اكثر من اربعين عالما واديبا يوم حلوله بمنزل اخيه الشيخ زين العابدين بن الحسين وذلك للترحيب به ، والتعبير عن ابتهاج النخبة المثقفة السورية بزيارته ، ومن بين هؤلاء : الاستاذ بهجة البيطار عضو المجمع العلمى العربى بدمشق والشيخ محمد كامل القصاب احد زعماء الحركة الاستقلالية ورئيس « جمعية العلماء » والاستاذ سعيد الجزائرى حفيد الامير عبد القادر الجزائرى والشيخ محمود ياسين رئيس جمعية الهداية الاسلامية بدمشق ، والاستاذ خليل مردم بك الامين العام للمجمع العلمى العربى ، والاستاذ عبد القادر المغربى عضو المجمع العلمى بدمشق والمجمع اللغوى بالقاهرة . كما حضر مع هؤلاء العلماء والاساتذة الاديب والباحث العراقى الشيخ طه الراوى الامين العام لوزارة المعارف ببغداد لذلك العهد .

وقد اقام علماء سوريا ووجهاؤها عدة حفلات تكريم لهذا الرجل حضرها جميع اصدقائه وابرز تلاميذه (1) .

إغتنم الشيخ محمد الخضر فرصة وجوده بدمشق للقيام بنشاط ثقافى وعلمى كبير ، فالقى محاضرة بقاعة المحاضرات بالمجمع العلمى كان موضوعها

---

(1) انظر الملحق ص : 333 - 334 - 335 .

« اثر الرحلة فى الحياة العلمية والادبية » (I) والغرض منها « البحث عن رحلات اهل العلم والادب وما تأتى به من ثمار طيبة لنعرف كيف تكون الرحلة من وسائل ترقية العلوم والآداب وتهذيب النفوس واصلاح حال الاجتماع » (2) .

وقد تعرض المحاضر الى فوائد الرحلات واثرها فى تنمية العلوم وتمتين الصلات بين الشعوب ، معتمدا فى ذلك على حياة واقوال بعض الرحالين العرب . وختم حديثه بالقاء قصيدة عنوانها : « تحية دمشق سنة I356 هـ. » (3) مطلعها :

زارها بعد نوى طال مداها
فشفى قلبا مجدا فى هواها
راح نشوان ولا راح سوى
ان رأى الشام وحياه شذاها
نظرة فى ساحها تذكره
كيف كان العيش يحلو فى رباها
ما شكا فيها اغترابا واذا
حدثته النفس بالشكوى نهاها

وقد دعا فى هذا القصيد الى عدم الاكتفاء بمجد الاسلاف والتغنى به ، بل لا بد من مواصلة العمل والجد من اجل عزة الامة الاسلامية ورفعتها . وينهى هذه التحية بقوله :

فابعثوها همما تسمو كما
سمت الجوزاء تزهو فى سناها
ما الفخار الحق الا نهضة
احكم الايمان والعلم عراها

(I) مجلة « الهداية الاسلامية » م IO – ج 2 – ص 65 .
(2) المصدر السابق .
(3) ديوان « خواطر الحياة » ص I78 – I356 هـ / I937 م .

ثم القى الاستاذ محمد بهجة البيطار عضو المجمع كلمة تحدث فيها عن قيمة استاذه المحاضر وما اتصف به « من الرسوخ فى العلم والتواضع فى الخلق واللطف فى الحديث والرقة فى الطبع والاخلاص فى المحبة والبر بالاخوان والاحسان الى الناس » (1) ، كما اشار الى دروسه « فى المعقول والمنقول والفروع والاصول » التى كانت محل اعجاب تلاميذه الذين كان شديد الحرص على النهوض بهم واعدادهم للنهوض بأمتهم » .

وتجدر الاشارة الى ان عددا كبيرا من العلماء والادباء قد استمع الى هذه المحاضرة نخص بالذكر منهم الدكتور عبد الرحمان الكيالى وزير المعارف فى ذلك العهد . وقد اهتم الشيخ محمد الخضر بالحياة الثقافية والدينية فى دمشق ، وحالة الجمعيات الاسلامية وما تقوم به من نشاط لفائدة الاسلام والمسلمين . ولم ينه الرجل حديثه الوصفى عن رحلته « الدمشقية » (2) لكنه قدم لنا صورة واضحة عن حالة العاصمة السورية الثقافية والتعليمية والدينية ، وعما يتمتع به من مكانة ممتازة لدى النخبة المثقفة بهذه البلاد العربية .

وعند مغادرته دمشق وجه رسالة الى جميع العلماء والادباء و « الفضلاء » السوريين شكرهم فيها على ما غمروه به من حفاوة وتبجيل وتكرمة جاء فى مطلعها : « ما ابهج اياما قضيتها فى ربوع دمشق الفيحاء ، وما بهجة الايام الا ان تلقى وجوها باسمة ، وانظارا سامية ، ومعارف زاخرة وآدابا زاهرة ، وغيرة على الكرامة ملتهبة » (3) وقد اقامت جمعية « الهداية الاسلامية » بالقاهرة حفل تكريم بمناسبة عودة رئيسها من دمشق ومرور عشر سنوات على تأسيسها ، والقى فى هذا الحفل عدد من العلماء احاديث عن حياة الرجل وقيمته العلمية وجهوده فى رفع شأن الاسلام والمسلمين ، ثم اجابهم الشيخ

---

(1) مجلة « الهداية الاسلامية » م 10 ــ ج 2 ــ ص 103 .

(2) نشر الجزء الثانى من «حديث عن رحلتى الى دمشق» فى مجلة الهداية م10ــ ج 6 ص60

(3) مجلة « الهداية الاسلامية » م 10 ــ ج 1 ــ ص 50 .

محمد الخضر بكلمة تحدث فيها عن ضرورة تربية الشباب تربية دينية صحيحة حتى لا يصيبهم انحراف وزيغ عند ولايتهم « مقاليد الامور السياسية والادارية والقضائية » كما اكد « ان صلة الاخاء الاسلامى هى الصلة التى يدور عليها التعاون على الدعوة الى الاوطان واصلاح شؤونها » (1) ٠

اهتمامه بالمغرب العربى :

لقد بينا فى فقرات سابقة رغبة الشيخ محمد الخضر فى الاتصال بابناء شمال افريقيا القاطنين بالبلاد المصرية ، والسعى الى مساعدتهم وتحسين حالتهم الاجتماعية والثقافية ٠ وقد اخذ هذا الاهتمام شكلا تنظيميا بتأسيس « جمعية تعاون جاليات شمال افريقيا » التى تعرضنا الى هيئتها الاولى والغرض من تكوينها فى الابان (2) ٠ وقد تطورت نظرة الرجل الى هذا الموضوع عبر السنين ، واصبحت ذات صبغة سياسية برزت فى تأسيس جمعية تدعى « جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية » وذلك اثر الحرب العالمية الثانية ٠ ولم نعثر على معلومات تبين ظروف تكوين هذه « الجبهة » واعضاءها ونشاطها ، وغاية ما نعرفه عنها « المذكرة » التى وجهتها عن « تونس » الى دول العالم وابرز المنظمات العالمية القائمة فى ذلك العهد (3) ٠ وقد امضاها الشيخ محمد الخضر باعتباره رئيسا لهذه « الجبهة » ٠

وتتعرض هذه المذكرة الى حالة البلاد التونسية قبل الاحتلال وتاريخها العلمى والحضارى المجيد ، ثم تتحدث عن الاحتلال الفرنسى وكيف كان وقعه فى نفوس الوطنيين وما قام به فى هذه البلاد الاسلامية من تمكين المعمرين الاجانب من الاستقرار ، وطرد الفلاحين التونسيين بالاضافة الى التشجيع على التجنيس ، ومس العواطف الدينية ، والسعى لمسخ ابرز

---

(1) مجلة الهداية الاسلامية م 10 – ج 3 – ص 141 .

(2) انظر ص : 88 من هذا الكتاب .

(3) مجلة « الهداية » م 17 – ج 11 . انظر كتاب « تونس وجامع الزيتونة » جمع وتحقيق السيد على رضا التونسى – ص 128 .

مقومات الشخصية الوطنية · ثم تتعرض المذكرة الى « جهاد التونسيين فى سبيل قضيتهم » وعدم استسلامهم رغم « ما يلاقونه من الاحتلال من عسف » ·

وتجدر الاشارة الى ان الشيخ محمد الخضر قد اقتصر عند الحديث عن الحركات الوطنية التونسية على ذكر « الحزب الحر الدستورى » القديم وما عرضه من مطالب ولم يشر الى « الحزب الدستورى الجديد » الذى انبثق من التنظيم السياسى الاول فى مؤتمر تاريخى انعقد يوم 2 مارس سنة 1934 م· ببلدة قصر هلال ، واظن ان الرجل لم يذكر ذلك عن قصد لاسباب سنتحدث عنها فى القسم الثالث من هذه الدراسة · ويبدو ان « جبهة الدفاع عن شمال افريقيا » قد قامت بعدة اعمال لفائدة قضايا المغرب العربى (1) ، وكان من بين اعضائها الزعيم الحبيب بورقيبة المقيم وقتئذ بمصر والاستاذ محيى الدين القليبى (2) عند زيارته الاولى الى مصر · لكن هذا النشاط لم يتواصل ولم تشارك « الجبهة » فى مؤتمر المغرب العربى الذى انعقد بالقاهرة من 15 الى 22 فيفرى سنة 1947 م· والذى شاركت فيه البلاد التونسية « بواسطة مكاتب حزب الدستور (الجديد) فى القاهرة ، ودمشق ، والجزائر بواسطة مكتب حزب الشعب فى القاهرة ،، اما مراكش فقد مثلتها رابطة الدفاع عن مراكش ومعها الوفد المراكشى لدى رجال الجامعة » (3) · وقد اشرف على افتتاح المؤتمر السيد عبد الرحمان عزام الامين العام لجامعة الدول العربية كما حضره عدد كبير من رجالات العالم العربى المقيمين بالبلاد المصرية منهم الشيخ محمد الخضر حسين ، ودرس المؤتمرون عدة قضايا هامة منها :

---

(1) لقد أكد لنا الاستاذ البشير الزريبى الذى كان على اتصال مستمر بالشيخ محمد الخضر عندما كان طالبا بجامعة القاهرة ان هذه الجمعية قد قامت بنشاط كبير وقد سلمه رئيسها وثائق تتعلق بذلك لم يمكنا من الاطلاع عليها .

(2) « محى الدين القليبى » تأليف حسين المغربى ص 33 .

(3) علال الفاسى ــ « الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى » : ص : 321

ـ الاستعمار فى المغرب العربى •
ـ تنسيق الحركات الوطنية المغربية •
ـ المغرب العربى وجامعة الدول العربية •
ـ عرض القضية المغربية على الهيئات الدولية •

واثر انتهاء المؤتمر من اشغاله وقع فتح « مكتب المغرب العربى » بالقاهرة الذى كان مركز نشاط زعماء وحركات بلدان شمال افريقيا الوطنية ونقطة اتصال دائمة بين المغرب والمشرق العربيين •

فلم يقم الشيخ محمد الخضر بنشاط سياسى عملى مباشر بعد ذلك لفائدة القضية المغربية وسنبين الاسباب فى القسم الثالث من هذا البحث ، ولكن حماسه تواصل لقضايا المغرب اذ نجده يقدم المساعدة اللازمة للزعيم الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الدستورى الجديد عند قدومه الى مصر فى مارس 1945 م• وقد اوقفته السلطات المصرية للتثبت من هويته قبل دخوله القاهرة (1) ، كما نجده يزور الزعيم المغربى عبد الكريم الخطابى سنة 1947 م• فى السفينة التى اقلته فيها السلطات الفرنسية الاستعمارية عند ارجاعه من المنفى الى المغرب الاقصى وقد رست فى ميناء السويس ، ويقول قصيدته « بطل الريف » (2) اثر مقابلتهما مطلعها :

قلت للشرق وقد قام على
قدم يعرض ارباب المزايا (3)
ارنى طلعة شهم ينتضى
سيفه العضب ولايخشى المنايا
ارنيها اننى من أمة
تركب الهول ولاترضى الدنايا

---

(1) جريدة ـ العمل ـ حديث الرئيس الحبيب بورقيبة للوفد البرلمانى المصرى .
(2) ديوان ـ « خواطر الحياة » ـ ص 192 .
(3) البحر : الرمل .

فأرانى بطـل الـريف الـذى
دحر الاعداء فارتـدوا خزايـا

وقد تعرض الى قضايا التحرر الوطنى فى قصائد شعـرية اخـرى منهـا « صرخة المغرب » (1) التى يشير فيها الى تضحيات ابناء شمال افريقيا من اجل حصولهم على الكرامة والاستقلال ، يقول فى مطلعها :

يصـرخ المغـرب غيظـا واحتراقـا
صرخة الناهض للموت اشتياقا(2)
لا تلـومـوه اذا خـاض الـوغـى
ورأيتـــم دمـــه الغـض مـراقـــا
هو يلتذ الـردى اذ يسكـب الضيـــ
ـــم فـــى أكـؤســه مـاء زعـاقـــا

دخوله هيئة كبار العلماء :

بلغ الشيخ محمد الخضر درجة علمية بارزة فى القاهرة لما بذلـه طيلـة السنوات التى قضاها بالبلاد المصرية من جهود ، وقدمه من خدمات جليلة لفائدة الاسلام والمسلمين ، وقد دفعه طموحه للسعى الى الانتصاب لأعـلى هيئة علمية بمصر وهى « جمعية كبار العلماء » فطلب ذلك وقدم بحثا علميا ـ طبقا لشروط العضوية فى هذه الجمعية ـ موضوعه « القياس فى اللغة » فقبل بالاجماع سنة 1950 م٠ وسنتعرض الى هذه الرسالة فى القسم الثانى من هذا البحث ٠ وبذلك اجتاز هذا العلامة كل الدرجات الثقافية التى كانت موجودة بمصر فى عهده ولم تبق الا مشيخة الازهر التى بلغها خلال سنـة 1952 م٠ كما سنبين ذلك فى الفصل القادم ٠

---

(1) الديوان ـ ص 123 .
(2) البحر : الرمل .

الفصل الثانى

* * *

مشيخة الازهر

تقلد الشيخ محمد الخضر حسين منصب مشيخة الازهر فى ظروف سياسية واجتماعية معينة جعلت بقاءه فى هذا المنصب العلمى الهام لا يطول كثيرا رغم ما للرجل من قيمة علمية واخلاقية ودينية .

الثورة المصرية :

قام « الضباط الاحرار » المصريون يوم 23 جويلية سنة 1952 م. بانقلاب عسكرى ضد الملك فاروق فأزاحوه عن الحكم الذى اصبح بايدى الجيش ، واعلنوا عن برنامج سياسى واجتماعى واقتصادى ، يهدف الى القضاء على النظام الملكى ، وتحديد عدد الاحزاب السياسية ، وكذلك ازالة الاقطاع فى مصر وتحقيق ثورة شاملة تخرج البلاد المصرية من التبعية الاجنبية والفقر ، وتنقذ المواطن المصرى مما كان يعانيه من ظلم اجتماعى وخصاصة اقتصادية.

وقد اهتم مجلس قيادة الثورة بكل الهياكل والمؤسسات القائمة بالبلاد والتى منها الجامع الازهر المعهد العلمى الكبير .

تقلده مشيخة الازهر :

وفى يوم الاربعاء 27 ذى الحجة سنة 1371 هـ. / 17 سبتمبر 1952 م. زار ثلاثة وزراء منهم الشيخ حسن الباقورى وزير الاوقاف منزل الشيخ محمد الخضر بشارع خيرت باشا ، وبعد الترحيب بهم بادره صديقه الاستاذ الباقورى بالقول : « لقد وقع الاختيار عليك لتكون شيخ الازهر وقد جئت مع زميلى لنبلغك هذا القرار » (1) فابدى الرجل امتناعا نظرا لخطورة المهمة

(1) مجلة « المصور » الاسبوع الاخير ، شهر سبتمبر 1952 – حديث مع شيخ الازهر

وكبرها ، ولعجزه البدني وقد اشرفت سنه على الثمانين وهو الشيخ الذى احيل على المعاش عام 1950 م. بعد مدة من التدريس بالازهر دامت عشرين سنة . فرفض الوزير الاعتذار قائلا : « هذا امــر تجنيد وفي هذا العهــد المبارك تجند الكفاءات النزيهة لخدمة مصر » (1) وعند ذلك قبل هذه المسؤولية الجديدة واجاب : « وانا لا اهرب من الجندية ، وليوفقنا الله » (2) .

ولا شك ان الشيخ محمد الخضر قد فوجىء بعرض هذه الخطــة العلميــة الكبيرة عليه فهل تذكر في لحظة من لحظات تفكيره ليلة 17 سبتمبر 1952 ما كانت تردده والدته عندما كانت تلاطفه بلهجة شعبية ساذجة وهو صبي صغير « لخضر يالخضر ، تكبر وتولى شيخ لزهر » وهي مدفوعة باسلوب السجــع الذى احدثته كلمتا « لخضر » و « لزهر » ؟ لم يكن الرجل ينتظر بلوغه هذا المنصــب الرفيــع لاسبــاب عديــدة . لــذلــك اجــاب عــن ســؤال يتعلــق ببرنامجــه الاصــلاحــي فــي الازهــر بقــولــه : « ليــس لــدى برنامــج مدروس اذ كنــت لا اتوقــع ابدا ان اكــون يــومــا شيخــا للازهر بعد ان قضيت عمرا طويلا ادرس علم السياسة الشرعية في كليتي الشريعة واصول الدين ثم احلت الى المعاش بعد عشرين سنة في هذا العمل ولزمت بيتي » (3) .

وتجدر الملاحظة الى قلة المصادر المتعلقة بهذه الفترة من حيــاة الرجــل الهامة مما عاقنا عن معرفة الظروف الكاملة والاسباب التى ادت الى اختياره شيخا للازهر ، ولعل اكثر ما نستطيع افتراضه هو ان غزارة علمه ، وشهرته الواسعة في الاوساط الثقافية والدينية ، واعتداله وهدوء طبعه ، هو الذى

(1) تحصل الشيخ محمد الخضر على الجنسية المصرية خلال سنة 1932 م .
(2) المصدر السابق (مجلة المصور) .
(3) المصدر السابق .

ساعد على هذا الاختيار يضاف الى ذلك الصداقة التى كانت تربط بينه وبين عدد كبير جدا من فضلاء مصر وعلمائها ومن الوزراء واعضاء مجلس الثورة الذين كان من بينهم مساهمون فى نشاط جمعية « الهداية الاسلامية » ٠

وفـاة زوجتـه :

لقد تزوج الشيخ محمد الخضر اربع نسـاء فى حيـاته ٠ الاولى عندمـا كان بتونس وقد ترك هذه الزوجة عند انتقاله الى المشرق نهائيا سنة (1912 م٠) لعدم موافقة اهلها لها على مرافقته (1) اما الثانية وهى سورية فقد تزوج بها عندما كان بسوريا ولا نعرف عن حياتها معه وسبب فراقهما شيئا يذكر ٠

أما المرأة الثالثة وهى مصرية الجنسية ، فقد تزوج بها بعد استقراره بالقاهرة سنة 1920 م٠ ، وعاشت معه اكثر من ثلاثين سنة قضياها فى هناء وطمأنينة وانسجام وتوفيت اثر مرض ألم بها سنة 1953 م٠ ، وهو شيـخ للازهر ، وقد تأثر بهذا المصاب تأثرا كبيرا ، ورثاها بقصيـدة من اطـول مرثياته وابلغها عنوانها : « رثاء » (2) تعرض فيها الى خصالهـا الحميـدة العالية ، ومدى مساعدتها له فى كل الظروف وخاصة عند الشدة ، يقـول فى مطلعها :

اعاذل غض الطرف عن جفنى الباكى
فخطب رمى الاكباد منى بأشواك (3)
ولى جـارة اودى بهـا سـقـم الى
نوى دون منئاهـا المحيط بأفـلاك
ايا جارتا عهـد اللقـاء قـد انقضى
وصمتـك اذ ادعـوك آخـر ملقـاك

(1) أ . م . كرو ـ الشيخ محمد الخضر حسين ـ « جريدة العمل » 18 أفريل 1969

(2) ديوان « خواطر الحياة » ص 133 .

(3) البحر : الطويل .

ولم يستطع الرجل البقاء بدون زوجة (1) وهو الشيخ الكبير فى السن ، العاجز عن قضاء بعض شؤونه الخاصة ، الغريب الذى يعيش بعيدا عن أهله وذويه • ولذلك تزوج فتاة من عائلة الزوجة المتوفاة كانت تساعدها فى المنزل من حين الى آخر ، وهى بذلك اقرب النساء لمعرفة حالة هذا الرجل وتفهم حاجياته ، وادراك نفسيته ومزاجه وحسن العناية به •

إستقالته من الأزهر :

واصل الشيخ محمد الخضر نشاطه الادارى والعلمى بمساعدة عدد كبير من العلماء البارزين فى الأزهر الى سنة 1954 م• إذ كثرت أمراضه الجسمية ، وهزلت صحته مما منعه من القيام بمسؤولياته على الوجه الذى يرتضيه ضميره ، أضف الى ذلك رغبته الدائمة فى تسخير أكثر ما يمكن من الوقت للمطالعة والكتابة ، ولذلك قرر هذا العلامة الاستقالة من منصب « مشيخة الأزهر » لأن تلك الخطة « قد حالت دون تلقى العلم وكتابته » (2) وبارح هذا المعهد العلمى الكبير يوم 2 جمادى الاول سنة 1373 هـ• / 8 جانفى سنة 1954 م• ليدخل السنوات الاخيرة من هذه الحياة الثقافية الزاخرة •

الفصل الثالث

* * *

حياته بعد الازهر

بارح الرجل جامع الازهر وسنه تناهز 81 سنة ، وانزوى بمنزله الى كتبه العلمية المحببة الى نفسه ، وقد انهك جسمه الاعياء ، واتعبه حمل هذه

---

(1) أ . م . كرو ــ الشيخ محمد الخضر حسين ــ العمل ــ 18 افريل 1969 .

(2) ذكر لى ذلك الاستاذ البشير الزريبى الذى كان ملازما للشيخ محمد الخضر فى تلك الفترة

السنوات العديدة المليئة بالاعمال الجليلة والخدمات النبيلة لفائدة الاسلام والشعوب الاسلامية ·

ولم يبق له من المهام العلمية الا عضوية المجمع اللغوى التى حافظ عليها وواصل القيام بها الى آخر يوم من حياته ، وكذلك عضوية جمعيـة « كبـار العلماء » التى لم تكن تكلف صاحبها عناء كبيرا · ولم ينقطع الرجل عن كتابة البحوث الدينية والمقالات فى بعض المجلات مثل « لواء الاسلام » التى كان احد المشرفين عليها ومحررا لقسم تفسير القرآن فى هذه المجلة الذى كان عنوانه « اسرار التنزيل » (1) ·

كما واصل الشيخ محمد الخضر مجالساته العلمية المفيدة مع اصدقـائه الادباء والعلماء ، واتصالاته بابناء وطنه الاصلى تونس الذين كانوا يعيشون بالبلاد المصرية ·

اعـانـة التـونسيين :

ان ابتعاد الرجل عن وطنه تونس منذ سنة 1912 م· وزيارتـه لبلـدان عديدة ، وبلوغه درجة عالية فى العلم والثقافة حتى اصبح من وجهاء مصـر وفضلائها لم ينسه وطنه الاصلى ، بل بقى يحن اليه فى كل مناسبة ، ويذكره فى كل مجالسة وحديث ، ويتحسس اخباره لدى كل زائر · وقد خاطب احد الادباء القادمين من تونس قائلا (2) :

أمحدثى ربيـت فى الوطـن الـذى
ربيت تحت سمائه وبلغت رشـدا
وجنيت زهر ثقافة من روضـة (3)
كنت اجتنيت بنفسجا منهـا ووردا

---

(1) لقد جمعت هذه البحوث القرآنية فى كتاب يحمل نفس الاسم .
(2) الديوان ـ ص 72 .
(3) يقصد الجامعة الزيتونية .

هـات الحـديث فاننـى اصبـو الى
انباء تونس من صميم القلب جدا (1)

فقد كان شديد الاهتمام بوطنه ، حريصا على تتبع حالته والاتصال بابنائه واعانتهم فى كل الميادين العلمية والسياسية وحتى الشخصية ، وكانت بيته كعبة للتونسيين القادمين على القاهرة (2) للزيارة اولا ، والاعانة اذا دعت الحاجة الى ذلك ثانيا • كما قدم خدمات جليلة للقضية التونسية ، فسخر مكانته العلمية والثقافية من اجل مساعدة المدافعين عن هذه القضية من حيث التعريف بهم لدى السلطات المصرية والهيآت والمسؤولين العرب العاملين بالقـاهرة •

ولم يقطع الرجل صلاته المتينة باصدقائه العلماء مثل الشيخ الشاذلى النيفر والشيخ على النيفر والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الـذى قـال فى شأنه قصائد شعرية عديدة تبين مدى العلاقة التى كانت تربط بين الرجلين ، وقد سأله بعض الادباء : « كيف كانت صلتكم بالشيخ محمد الطاهر ابن عاشور فى تونس ؟ » فأجابه بأبيات شعرية عنوانها : « الوفـاء بعهـد الصداقة » (3) جاء فيهـا :

أحببتـه مـلء الفـؤاد وانمـا
أحببت من ملأ الوداد فؤاده (4)
فظفرت منه بصاحب ان يدر ما
اشكوه جافى ما شكوت رقـاده
ودريت منه كما درى منى فتى
عرف الوفـاء نجـاده ووهـاده

---

(1) البحر ـ الكامل .
(2) ذكر لنا ذلك الشيخ العلامة الشاذلى النيفر احد اصدقاء الشيخ محمد الخضر الاوفياء .
(3) ديوان ـ خواطر الحياة ـ ص 62 .
(4) البحر : الكامل .

وكتب مقالا للتعريف به وبمكانته العلمية فى مجلة « الهداية الاسلامية » (1) جاء فيه : « انعقدت بينى وبينه سنة 1317 هـ. (2) صداقة بلغت فى صفائهـا ومتانتها الغاية التى ليس بعدها غاية » .

واستمر الشيخ محمد الخضر على هذه الحال يذكر وطنه ، ويشيد بمجده وبرجاله الى آخر لحظة من حياته .

وفـــاتـــه :

اتعب المرض الرجل المسن فى الاسبوع الاخير من شهر جانفى عام 1958م، ولكن ذلك لم يمنعه من حضور جلسة المجمع اللغوى التى انعقدت فى تلك المدة ، ولم يثنه عن كتابة مقال فى مجلة « لواء الاسلام » ، وبعد ظهر يوم الاحد 13 رجب سنة 1377 هـ. / 2 فيفرى 1958 م. انتقل الشيخ محمد الخضر حسين الى جوار ربه ، وما زالت كلماته ترن فى قاعة جلسات المجمع اللغوى ، كما شرع القراء يطالعون مقاله الاخير فى مجلة « لواء الاسلام » لذلك الشهر .

وفى نفس ذلك التاريخ ، وقع الاعلان بمدينتى القاهرة ودمشق عن ميلاد الجمهورية العربية المتحدة وكأن الصدفة ارادت اقتران هذا الحدث السياسى بوفاة رجل كان يدعو طول حياته الى دعم الرابطة الاسلامية وتمتين التعاون والوحدة بين المسلمين .

وقد نعى العالم الاسلامى هذا العلامة الكبير ، وحضر تشييع جثمانه الى مقره الاخير كبار رجال الدولة المصـرية ، وعـدد من علمـاء المشـرق العربى البـارزين .

وقد طلب فخامة رئيس الجمهورية التونسية الرئيس الحبيب بورقيبة من سفير تونس بمصر (3) السعى لدى عائلة الفقيد للموافقة على دفنه فى ارض الوطن

---

(1) مجلة « الهداية » م 5 – ج 5 – ص 226

(2) الموافق سنة 1899 م وهى السنة التى تحصل فيها الشيخ ابن عاشور على شهادة التطويع

(3) هو الاستاذ الطيب السحبانى عضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكى الدستورى حاليا وسفير تونس بيوغسلافيا .

اعترافا بقيمته وعلمه وتقديرا لجهوده ، الا ان المرحوم الشيخ محمد الخضر التونسى الاصل المصرى الجنسية (1) قد ترك وصية خطية طلب فيها دفنه بمقبرة آل تيمور حذو صديقه الاستاذ احمد تيمور باشا الذى وجد منه المساعدة والعون عند قدومه الى مصر سنة 1920 م. ، كما وجد منه النصح والتقدير خلال بقية السنوات . ولذلك تعذر نقله الى تونس فدفن بمصر تاركا شهرة علمية واسعة ، ومكتبة كبيرة نادرة اهداها الى زوجته اذ لم ينجب ابناء طيلة حياته . وبذلك انتهت حياة هذا الرجل العالم فى سن تناهز السادسة والثمانين عاما قضاها صاحبها فى طلب العلم ، والدعوة الى تقوية الاسلام ، واصلاح المجتمع الاسلامى فى مختلف الميادين الدينية والثقافية والسياسية ، وقد تجلت هذه الدعوة فى آثاره الكثيرة التى سنتعرض الى تحليل اهمها فى القسم الثانى من هذا البحث .

---

(1) اصبح الشيخ محمد الخضر مصرى الجنسية سنة 1932 ويبدو انه طلب ذلك للتمكن من بلوغ اعلى الدرجات العلمية التى كانت مخصصة للمصريين .

القسم الثاني

آثاره

تمهيد

قضى الشيخ محمد الخضر حسين حياته فى التعلم والتثقف اولا ثم فى التعليم والتثقيف وتوجيه المجتمع الاسلامى ثانيا متخذا فى ذلك كتابة المقالة والقاء المحاضرة طريقة اساسية للتبليغ ، فاشرف على تحرير مجلات عديدة هى : « السعادة العظمى » و « الهداية الاسلامية » و « نور الاسلام » و « لواء الاسلام » ، وكان يكتب فيها البحوث والمقالات العلمية والادبية، كما كان يكتب ايضا فى عدد من المجلات الاخرى مثل « المنار » ومجلتى « البدر » و « الفجر » التونسيتين ، ومجلة « الفتح » التى كان يشرف عليها صديقه الشيخ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية بالقاهرة .

وقد كان الرجل كثير القراءة والمطالعة كما كان كثير الكتابة . سأله صحفى مصرى بعد ان اصبح شيخا للازهر (1) :

« هل تهوى الكتابة ؟ » فأجاب : « وهل هناك من يجيد القراءة ولا يكتب ؟ » ويكفى ان نذكر ان آخر مقال صدر له بمجلة « لواء الاسلام » كان فى عدد فيفرى سنة 1958 وهو الشهر الذى ادركته فيه المنية ، ولذلك تتمثل اغلب

---

(1) مجلة « المصور » عدد الاسبوع الأخير من شهر سبتمبر سنة 1952 .

آثاره في المحاضرات المنشورة والمقالات والبحوث التى صدرت فى مجلات مختلفة • ويبدو انه كان يقوم بذلك عن قصد لان الغرض الذى كان يهدف اليه من الكتابة هو توضيح تعاليم الدين الاسلامى وتوجيه المسلمين وارشادهم ، والدفاع عن الاسلام لحمايته من تهم الملحدين والزنادقة •• ويقضى ذلك اتباع الوسائل الكثيرة الانتشار حتى تعم الفائدة عددا كبيرا من القراء ، ولا اجدى من استعمال المجلات والصحف (I) لتحقيق هذا الغرض • وهذا ما جعل الرجل لا يؤلف الكتب الا عند نقض كتابى « الاسلام واصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق و « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين مع ملاحظة ان اسلوب هذا الرد لا يختلف كثيرا عن اسلوب البحث القصير او المقالة كما سنبين ذلك فى الابان •

وكان الشيخ محمد الخضر بالاضافة الى ذلك شاعرا وقد جمع قسما من قصائده فى ديوان « خواطر الحياة » اما القسم الآخر فلم يزل موزعا فى المجلات والصحف ينتظر الجمع والتبويب والنشر •

ويتبين لنا مما تقدم ان بحث آثار هذا العلامة ، وتبويبها ، وتحليلها التحليل العلمى الدقيق يتطلب دراسة مستقلة نظرا الى كثرة هذه الآثار وتشعبها وتعدد مواضيعها لكن ذلك لا يمنعنا من تقديم أهمها فى هذا القسم من الدراسة ، والتعريف الموجز بمحتواها وقيمتها حتى نستخلص ابرز افكار الرجل ونظرياته فى القسم الثالث من البحث • ويمكن تبويب هذه الآثار الى ثلاثة أنواع :

1 ـ الباب الأول :

ويحوى المحاضرات المنشورة والمقالات المجموعة فى كتب •

(I) مجلة « نور الاسلام » م I ـ ج ـ ص 5 .

2 ـ الباب الثاني :

ويشمل ما ألفه الرجل من كتب فـي اللغة والادب وخاصة كتابيه فـي « النقض » ٠

3 ـ الباب الثالث :

ويخص آثاره الشعرية ٠

وتجدر الاشارة الى ان هذا التقسيم لم يعتبر العامل التاريخي لتداخل المقالات الموجودة في هذا الميدان ، كما انه لم يعتبر موضوع المقالة او البحث لان قضايا الدين واللغة والاجتماع متداخلة ايضا لدى المؤلف مما يجعل من الصعب على الباحث اعداد تقسيم مضبوط وعلمي ٠ ولذلك وقع اختيارنا على التبويب المذكور الذى اعتمد اطار العمل وشكله بقطع النظر عن محتواه حتى نتجنب اعادة بعض المعاني ، وذكر بعض الآثار في مناسبات عديدة ٠

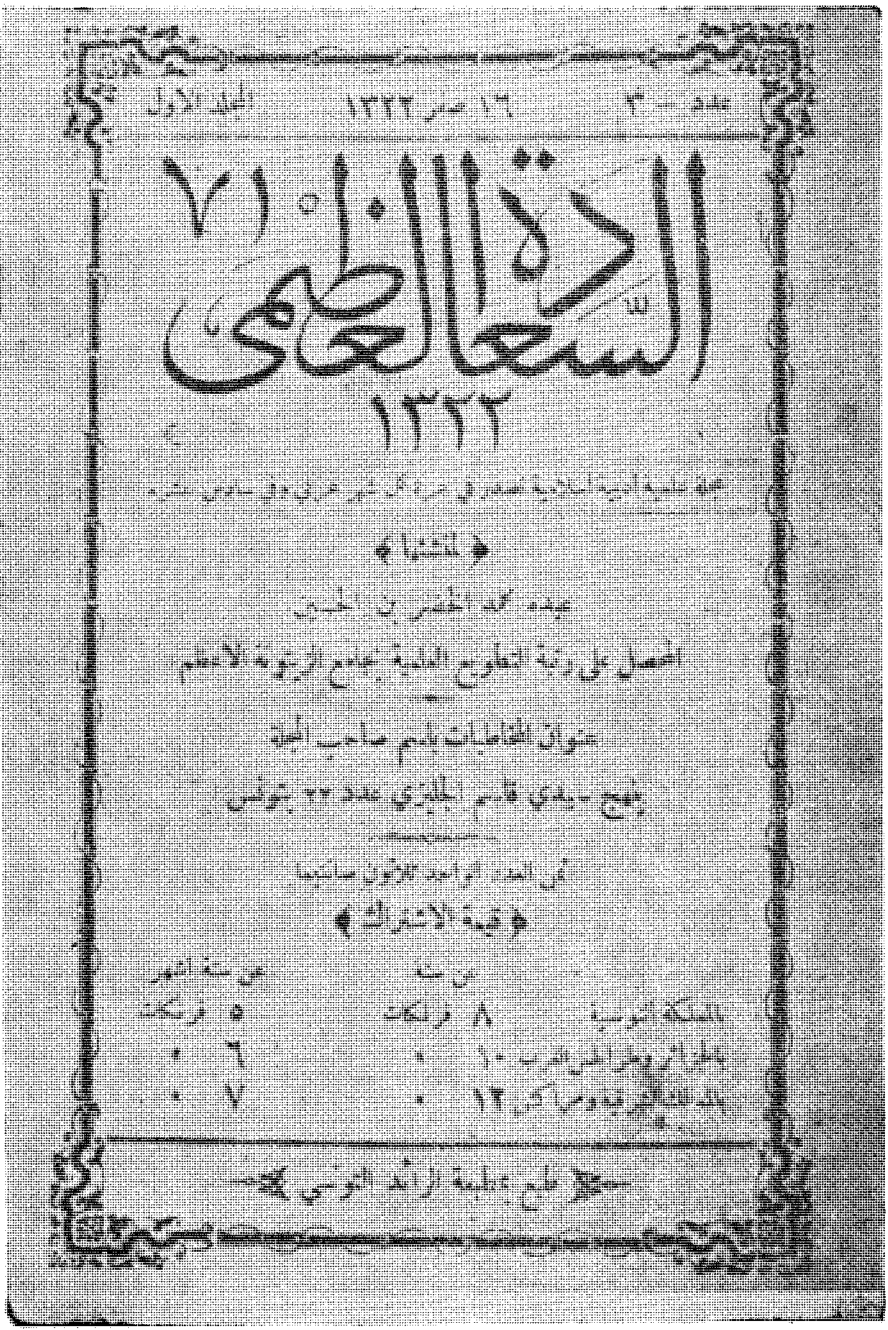

عدد ٣ — ١٦ صفر ١٣٢٢ — المجلد الأول

السعادة العظمى

١٣٢٢

[illegible]

« منشئها »

محمد الخضر بن الحسين

المحصل على رتبة التطويع العلمية بجامع الزيتونة الأعظم

عنوان المخاطبات باسم صاحب المجلة

بنهج سيدي قاسم الجليزي عدد ٢٢ بتونس

ثمن العدد الواحد ثلاثون صانتيما

« قيمة الاشتراك »

	عن سنة	عن ستة أشهر
المملكة التونسية	٨ فرنكات	٥ فرنكات
الجزائر وطرابلس الغرب	١٠ «	٦ «
[illegible]	١٢ «	٧ «

طبع بمطبعة الرائد التونسي

صورة غلاف العدد الثالث من مجلة « السعادة العظمى »

الباب الأول

مقالاته ومحاضراته

القى الشيخ محمد الخضر حسين عدة محاضرات فى الدين واللغة والادب سواء بتونس او بالقاهرة نشرت ووزعت فى مختلف الاقطار الاسلامية ، كما كتب مجموعة كبيرة من المقالات جمع البعض منها فى كتب ، ويقوم فى هذه السنوات ابن اخيه السيد على رضا التونسى المحامى بدمشق بجمع البعض الآخر وتبويبه ونشره • ويمكن تقسيم ما قام به هذا العلامة فى هذا الميدان الى قسمين :

1 ـ الفصل الاول : يتعلق بالمقالات التى جمعت فى كتب •

2 ـ الفصل الثانى : يشمل المحاضرات •

الفصـــل الأول

* * *

مقـــالاتـــه

لقد وقع جمع عدد من المقالات الاجتماعية والدينية والاخلاقية فى كتب صدر البعض منها فى حياة الرجل ، وصدر البعض الآخر بعد وفاته ، واشرف على تبويبها وطبعها ابن اخيه السيد على رضا التونسى المحامى بالعاصمة السورية بمساعدة وتوجيه الشيخ العلامة زين العابدين ابن الحسين المقيم حاليا فى دمشق ، اما النوع الاول منها فيشمل :

- السعادة العظمى .
- رسائل الاصلاح .

ويحوى النوع الثانى :

- بلاغة القرآن .
- تونس وجامع الزيتونة .

وتجدر الاشارة الى ان ابن اخيه قد طبع كتبا اخرى تحوى بحوثا اصدرها عمه مضيفا اليها مجموعة من المقالات تتعلق بنفس الموضوع وسنتعرض الى هذه الكتب عند دراسة البحوث الاصلية .

السعـادة العظمـى :

لقد اشرت الى مجلة « السعادة العظمى » بايجاز عند الحـديث عن حيـاة الشيخ محمد الخضر حسين ، وتجدر الملاحظة الى ان اغلب مقالات هذه المجلة كانت من تحريره (1) ولذلك اعتبرتها تاليفا من تآليفه ، وليست مثل المجلات التى كان يشرف عليها ضمن هيئة تحرير منظمة كمجلتى « الهداية الاسلامية » و « نور الاسلام » .

صدر العدد الاول من هذه المجلة العربية الاولى بتونس فى شهر محرم سنة 1322 هـ / افريل 1904 م ، وكانت تبرز فى اول كل نصف شهـر عـربى

(1) أكد لنا الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ان الشيخ محمد الخضر حسين كان يقوم بجل ما تتطلبه هذه المجلة من أعمال أدبية ومادية .

وتطبع بالمطبعة التونسية الكائنة بسوق البلاط بالعاصمة • اما مقر ادارتها فقد كان قرب نهج القصبة • ويعود سبب تأسيسها الى الحاجة الملحة التى كان يشعر بها المحافظون فى تونس الى لسان يعبر عن نظرياتهم وافكارهم كما كانت مجلة « المنار » بالنسبة الى الحركة الاصلاحية فى جميع البلدان الاسلامية (I) •

لكن الظروف التى احاطت بالمجلة بعد صدور العدد الاول منها اكدت انها لم تكن فقط لسان المحافظين ، ذلك ان البعض منهم قد انكر على صاحبها قوله :«ودعوى ان باب الاجتهاد مغلق لا تسمع الا بدليل ينسخ الأدلة التىانفتح بها اولا » (2) وطلبوا من الوزير محمد العزيز بوعتور توقيفها عن الصدور فرفض شكواهم قائلا : « ان ما تنشره المجلة لا يعارض الشرع ولا القانون » (3) •

وقد شجعه على مواصلة القيام بهذا العمل العلمى عدد كبير من العلماء كانوا ينتمون فى ذلك العهد الى الحركة الاصلاحية منهم الاستاذ سالم بوحاجب الذى خاطبه بقوله : « أقول لك ما قاله ورقة ابن نوفل الى رسول الله : ما اتى احد بمثل ما اتيت به الا عودى » (4) •

تواصل صدور المجلة الى شهر جانفى سنة I905 ، ثم انقطع بعد ذلك ، وقد بلغت 2I عددا تشمل 336 صفحة من الحجم (I6 × 25) • اما سبب هذا الانقطاع فقد عزاه بعض الباحثين (5) الى انتقال الشيخ محمد الخضر الى بنزرت حيث تولى خطة القضاء ، الا اننا نعتقد ان عجز الرجل عن مواصلة هذا العمل من الناحية المالية هو السبب الاصلى لذلك ، ويؤكد هذا ما نلاحظه من الحاح صاحب المجلة في الاعداد الاخيرة منها على المشتركين ليوجهوا مبالغ اشتراكاتهم ويختم الجزء 2I الاخير • « يتأخر عدد 22 الى غرة ذى الحجة لعارضة

(I) انظر ص : 54 .
(2) مجلة ـ س . ع . عدد I ـ 2 ص : II
(3) مجلة « لواء الاسلام » فيفرى I958 .
(4) المصدر السابق .
(5) أ . م . كرو ـ جريدة العمل 2I فيفرى I969 . الشيخ محمد الخضر حسين .

من الضرورات ألجاتنا الى ذلك » (I) عوض ان يصدر العدد المذكور في I6 من الشهر السابق .

وقد حدد الشيخ محمد الخضر محتوى مجلة « السعادة العظمى » في العدد الاول الذى حرر جميع صفحاته ويشمل ستة أغراض وهى :

I ـ المقالة الافتتاحية التى تتناول بعض المواضيع الهامة التى « تقتضيها المحافظة على حياة مجدنا القديم » .

2 ـ المباحث العلمية .

3 ـ الآداب وينشر فى هذا الباب ما يكون « مرقاة للتقدم فى صناعتى الشعر والكتابة » (2) .

4 ـ الاخلاق ، ويبحث فيه « كيف ينحرف مزاجها وبماذا يستقيم اعوجاجها » .

5 ـ الاسئلة والاقتراحات .

6 ـ مسائل شتى .

اما الباب الاول فقد حرر فيه صاحب المجلة عدة ابحاث اهمها ما يتصل بالشريعة الاسلامية وضرورة الاعتصام بها ، والتمسك بعهدها الوثيق حتى يعود للأمة سالف مجدها ، كما كتب مقالات تهدف الى دعوة المسلمين الى الاتحاد والتعاون ، والابتعاد عن الكسل والجمود ، والاهتمام بقضايا العصر ، والسعى الى مسايرتها فى اطار دينى اسلامى ، ومما يقوله فى هذا الميدان : « وان تعجب فعجب ما يتخيله بعض من ربى فى مهد الجمود من ان هذا الدين القيم لم يرشد اخوانه الا الى العبادات المحضة وانه حجاب مسدول بينهم وبين المدنية » (3) .

(I) مجلة س . ع . عدد 2I ص 336 .

(2) مجلة س . ع . عدد I ـ 2 ص 3 .

(3) مجلة س . ع . عدد 5 ص 64 .

ويبدو ان الرجل كان شديد الانشغال بهذا الموضـوع ولـذلك كتب عن « مدنية الاسلام والعلوم العصرية » (1) و « مدنية الاسلام والخطابة » (2) كما انه لم يكتف بالاسلوب النثرى فنشر قصيدة عنوانها « الشعر العصرى » (3) يقول فى مطلعها :

أيعاتب الزمن الذى لا يسعـد
وبنوه فى مهد البطالة هجد (4)
مهلا فما هو بالملوم ومن رمـى
سهـم المـلامة نحـوه فمنفـذ
لو افرغوا فى وسعه ما جل من
عمل لا غـدق فيه عيش أرغـد

ويتعرض فيها الى ماضى المسلمين وحضارتهم ، ويدعو ابناء هذا العصر للقيام بنهضة جديدة ترفع شأن الامة الاسلامية ثم يختم القصيد بقوله :

ان المعـارف والصنائـع عـدة
باب الترقى من سواها موصـد

وقد كتب فى هذه المجلة ابرز العلماء وشيوخ جامع الزيتونة نذكر منهـم بالخصوص : الشيخ محمد الطـاهر بن عـاشور صديق الشيخ محمد الخضر « المخلص ونصيره المؤازر » (5) ، والشيخ محمـد النجـار المفتى المالكى ، والشيخ محمد النخلى، والشيخ بلحسن النجار الذى كتب مجموعة من المقالات رد فيها على صاحب المنار فى قضية « حكم الموقوذة ولبس البرنيطة » (6) ، ويتبين

(1) نفس المصدر عدد 12 ص 177 .
(2) نفس المصدر ـ عدد 13 ص 196 .
(3) نفس المصدر عدد 11 ص 161 . انظر ديوان « خواطر الحياة » ص 73 .
(4) البحر : الكامل .
(5) مجلة س . ع . عدد 3 ص 31 .
(6) نفس المصدر عدد 7 ص 103 .

لنا عند دراسة محتوى « السعـادة العظمـى » ان هذه المجلة لم تكن لسـان المحافظين فى كل القضايا بل كانت منبرا لكل العلماء والكتاب مهما اختلفت مواقفهم من الحركة الاصلاحية • ولذلك كان ظهورهـا فى معمعـة الخلافـات « كطلوع الحكم العادل يلتقى حوله اهل الثقافة العربية فى صعيد الاحتـرام وحسن الادب والتجرد » (1) •

ولا شك ان هذه المجلة العربية الاولى بتونس تمثل وثيقة هامة من الوثائق التى يجدر الرجوع اليها عند دراسة الحركـة الفكرية والاجتماعية بالبـلاد التونسية لذلك العهد •

كتاب رسائل الاصلاح :

اقترح عدد من العلماء سنة 1358 هـ• / 1939 م• على الشيخ محمد الخضر حسين جمع ما كتبه من مقالات فى ميادين الدين والاخلاق والاجتماع فى كتب حتى يسهل على قراء العربية مطالعتها دون عناء ، او مراجعتها دون الرجوع الى المجلات الكثيرة التى نشرت بها فى أول الامر •

فقبل الرجل هذا الاقتراح واخذ فى جمعها واعادة النظر فى بعض عباراتها ثم نشرها فى كتاب يتألف من ثلاثة اجزاء هو : « رسائل الاصلاح » • اما الجزء الاول من هذا الكتاب فقد طبع بمطبعة « الهداية الاسلامية » وهو يحوى 24 موضوعا موزعة على 234 صفحة • وقد اعاد طبعه بدمشق السيد على رضا التونسى سنة 1971 م• وادخل عليه تحويرا فى المحتوى فحذف ثلاث مقالات من النسخة الاصلية ، ثم اضاف 12 مقالا من الجزء الثانى (2) من الكتـاب ، وجمع بذلك الجزئين فى نسخة واحدة • واذا لاحظنا أن ما قام به الناشر يغاير الاساليب العلمية إلا أنه يمكن اعتماد الطبعة الجديدة نظرا الى انها لا تغاير الاتجاه الذى رسمه المؤلف نفسه عند جمع مقالاته •

---

(1) م . ف . ابن عاشور « الحركة الادبية » ص 78 .

(2) لم اعثر على نسخة من الجزء الثانى من الكتاب فى المكتبات الخاصة او العامة التى اعرفها

ويحوى هذا الجزء من « رسائل الاصلاح » على 253 صفحة تشمـل ثـلاثة وثلاثين مقالة يمكن تقسيمها الى مقالات اخلاقية واجتماعية ودينية ٠

وقد اولى الرجل الميدان الاخلاقى اهمية كبيرة ، فخصص له اكثر من ثلثى المقالات المجموعة تناول فيها الخصال التى يجب ان يتحلى بها الفـرد وخاصة العالم ، وما يجب ان تتحلى به الجماعة حتى تسلم من التفكك والانحلال ، فهو يرى ان « شؤون الامم شتى ، وأعز شؤونها مكارم الاخلاق » ، وحقوق الامم على علمائها وزعمائها كثيرة واهم حقوقها القيام على هذه المكارم (I) ٠ وقد ركز الحديث على بعض الخلال مثل « عظم الهمة » (2) واثر ذلك فى حيـاة الفـرد ورفعة الامم ، وضرب امثلة بعلماء دفعهم تحليهم بهذه الصفة الاخلاقية الحميدة الى قول الحق ومناصرته ولو ادى بهم ذلك الى مخالفة ذوى الحكم والسلطة ٠ ويبين فضل هذا الخلق فيقول : « يسمو هذا الخلق بصاحبه فيتوجه بـه الى النهايات من معالى الامور ، فهو الذى ينهض بالضعيف يضطهد او يزدرى فاذا هو عزيز كريم ٠ وهو الذى يرفع القوم من سقوط ويبدلهم بالخمول نباهة ، وبالاضطهاد حرية ، وبالطاعة العمياء شجاعة ادبية»(3) كما تحدث عن الشجاعة وصدق اللهجة ، والعزة والتواضع ، وصدق العزيمة ، وهو فى عرض كل ذلك يستشهد بامثلة تاريخية ودينية وادبية ، ويدعو الى تربية الابناء للتحلى بهذه الخصال قبل ان تنغرس فى نفوسهم وعقولهم صفات اخلاقية سيئة تضربهـم وبالامة التى ينتسبون اليها ٠

ويبدو ان الشيخ محمد الخضر قد كان فى ذلك العهد شديـد الانشغـال بحالة علماء الاسلام من حيث قيامهم بوظيفتهم على الوجه الذى تقتضيه منهم الشريعة الاسلامية ، ولذلك خصص مقالات عديـدة لبحث هـذا الموضـوع بالاضافة الى ما قاله فى عدد كبير من المقالات الاخرى ٠

(I) م . غ . حسين « رسائل الاصلاح » ص 43 .

(2) نفس المصدر .

(3) المصدر السابق – ص 45 .

فهو يعتبر ان علماء المسلمين هم السبب الاول فى تقهقر الامة الاسلامية « فكان انزواؤهم وزهدهم فى منصب الارشاد العام فرصة لظهور الدعايات المنحرفة عن الطريق المستقيم » (I) ·

اما الاخلاق الجماعية فيتعرض لهـا بالتحليل فـى مقالات قليلـة اهمهـا : « اصول سعادة الامة » (2) الذى يقول فيه : « سعادة الامة ان تستنير عقولها وتسمو اخلاقها وتغتبط بالنظم التى تساس بها وترضى عن طريق تطبيقها ، وترتاح الى تنفيذها ، وتأمن ان تمتد يد غريبة الى حق من حقوقها » ويؤكد فى مناسبات مختلفة على ضرورة « التعاون والتعاضد » ففى ذلك بقاء الامـم ودوامها وتطورها ·

وتجدر الاشارة الى ان حديث الشيخ محمد الخضر على الاخـلاق قد كان فى اطـار اجتماعى فان المقالات التى تتعلق بهذا الميدان قليلة لما يوجد من تداخل بينه وبين الميدان السابق · واهم موضوع تعرض اليه فى هذا النطاق هو « الاسلام والمدنية الحديثة » الذى تعرض فيه الى اهمية الدين فى المجتمعات الاسلامية الحديثة ، وضرورة عناية حكوماتها بنشره « وان تستمد قوانينها من تشريعه الواسع النطاق » ·

وقد نشر الرجل مقالات اخرى فى هذا الكتاب تعالج قضايـا اجتمـاعية معاصرة ، او تتصل بالدين والسياسة واهمها فى رأينا موضوع « ضلالة فصل الدين عن السياسة » الذى رد فيه على مقال كتبه صحفى مصرى عنـوانه : « داء الشرق ودواؤه » اشار فيه الى ضرورة فصل قضايا الحكم عن الشؤون الدينية حتى يتمكن العالم الاسلامى من التطور · وقد اجاب الشيخ محمـد الخضر على ذلك بتفصيل مشيرا الى جميع النظريات المتعلقـة بالموضـوع ، ناقدا لابرزها بالاعتماد على ادلة دينية وتاريخية ، ومؤكـدا على ان « ثـلاث

(I) م . خ . حسين ـ رسائل الاصلاح ـ ص 106 .

(2) نفس المصدر ـ ص : III .

حقائق كل واحدة منها شطر من الاسلام ، عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، واشتمال شريعته بنصوصها واصولها على احكام ما لا يتناهى من الوقائع ، وكون هذه الشريعة احكم ما تساس به الامم واصلح ما يقضى به عند التباس المصالح او التنازع فى الحقوق » (1) .

ولا غرابة ان يكتب الرجل ذلك وقد رأينا عند الحديث عن حياته مدى تمسكه بنظرية الرابطة الاسلامية ، ودفاعه عن نظام الخلافة ودعوة المسلمين الى ضرورة المحافظة عليه لان الاسلام دين ودولة . ويتبين لنا من العرض الموجز لكتاب « رسائل الاصلاح » انه من الكتب الهامة التى توضح نظريات هذا العلامة فى ميادين الاخلاق والاجتماع والدين وتعطى صورة واضحة عن ابرز المشاكل التى كان يعانيها المجتمع الاسلامى فى الربع الاول من القرن العشرين ، ذلك لان الرجل قد تعرض فى اغلب مقالاته الى احداث عاشها او شاهدها فى رحلاته وتنقلاته المختلفة .

اما الجزء الثالث من هذا الكتاب فقد صدر ايضا سنة 1358 هـ. / 1939 م. وطبع بمطبعة حسام الدين القدسى وهو يتألف من 161 صفحة تشمل 23 مقالة يتعلق جميعها بقضايا دينية واسلامية . وقد اعاد السيد على رضا التونسى طبع هذا الجزء بالمطبعة التعاونية بدمشق سنة 1971 م. جاعلا اسمه « الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان » وهو عنوان بحث نشره الشيخ محمد الخضر حسين فى اعداد المجلد الاول من مجلة « نور الاسلام » واضافه الناشر الى الكتاب صحبة عدد آخر من المقالات والمحاضرات منها محاضرة « مدارك الشريعة الاسلامية » التى القاها المؤلف سنة 1912 م. بنادى قدماء الصادقية بتونس وهى آخر نشاط ثقافى قام به قبل انتقاله الى الشرق نهائيا .

وبذلك اصبح الكتاب الجديد يشتمل على 224 صفحة تحوى 38 مقالة او بحثا . ويمكن تقسيم هذه المواضيع الدينية الى ثلاثة اصناف : فمنها ما

---

(1) المصدر السابق ـ ص 159 .

يتعرض الى اصول الدين وبيان قيمة الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية ، ومنها ما يتعرض الى الحديث النبوى الشريف من حيث اعتماده فى الشريعة ونقد ما وضعه منه بعض الدخلاء على الاسلام لتشويهه والمس منه ، ومن هذه المقالات ايضا ـ وهى قليلة العدد ـ ما يتناول بعض الامراض الاجتماعية كالجشع والغش فى المعاملات او بعض القضايا الدينية الاجتماعية كتعدد الزوجات الذى يدافع عنه المؤلف مبينا حكمة الدين الاسلامى فى ذلك ٠

ويبدو من دراسة مقالات هذا الكتاب ان الشيخ محمد الخضر يهدف بها الى الدفاع عن الاسلام ، والتأكيد على انه دين صالح لكل زمان ومكان ، وقادر على مسايرة قضايا العصر الحديث فهو يقول : « يقع فى وهم من لا يدرى ما الاسلام ان شريعته لا توافق حال العصر الحاضر ٠ ويبقى توهمه هذا على ان القوانين انما تقوم على رعاية المصالح ومصالح العصور تختلف اختلافا كثيرا٠ فالدعوة الى بقاء احكامها نافذة هى فى نظره دعوة الى خطة غير صالحة ٠ ذلك ما نقصد فى هذا المقال الى تفنيده ، وتفصيل القول فى دفع شبهته حتى يثبت بالدليل المرئى رأى العين ان الشريعة الغراء تساير كل عصر وتحفظ مصالح كل جيل » (I) ٠

كما يتبين لنا من هذا الكتاب ايضا غزارة علم الرجل وسعة اطلاعه فى الشؤون الدينية من فقه وحديث واصول وقدرة حجته العقلية فى مقارعة الخصم وحماسه للدفاع عن الاسلام وصيانته من كل انحراف ٠

وقد قام السيد على رضا التونسى ناشر آثار الشيخ محمد الخضر بجمع عدد من البحوث والمقالات تتعلق بالقرآن الكريم وبالبلاد التونسية فى كتابين هما : « بلاغة القرآن » و « تونس وجامع الزيتونة » ٠

بـلاغـة القـرآن :

صدر هذا الكتاب سنة I97I م٠ ، وهو يحتوى على 220 صفحة تشمل 20

(I) م ٠ خ ٠ حسين « الشريعة الاسلامية » ص : 5 ٠

مقالة وبحثا تتصل بالقرآن يمكن تقسيمها الى ثلاثة اصناف : منها ما يتحدث عن كتاب الله من حيث بيانه ولغته ، ومنها ما يتحدث عن قيمته الادبية ، اما الصنف الثالث من المقالات فهو مجموعة ردود على بعض الكتاب الذين أساؤوا تفسير القرآن وبالغوا – حسب رأى الشيخ محمد الخضر – فى تأويله عن المقصد الاصلى الذى جاءت به الشريعة الاسلامية . وتجدر الاشارة الى أن أغلب مقالات هذا الكتاب قد كتبت ردا على بعض الكتب والبحوث التى صدرت فى ذلك العهد وسنتعرض الى مقالين منها لهما اهمية خاصة سواء من حيث الموضوع او من حيث كاتبه .

اما المقال الاول فهو « حقيقة ضمير الغائب فى القرآن » (1) الذى نقد فيه بحثا قدمه الدكتور طه حسين فى مؤتمر المستشرقين المنعقد بجامعة أكسفورد سنة 1929 م. عنوانه : « ضمير الغائب واستعماله اسم اشارة فى القرآن » . اعتمد الاديب المصرى فى بحثه على قاعدة نحوية وهى : « ان ضمير الغائب يجب ان يعود الى مذكور يتقدمه لفظا ورتبة وان يطابق هذا المذكور فى التذكير والتأنيث وفى الافراد والتثنية والجمع » (2) ثم تعرض الى الحالات الاستثنائية الواردة فى القرآن مستشهدا ببعض الآيات وأقوال عدد من المفسرين والنحاة ، ويختم طه حسين بحثه بنتيجتين هامتين : اولاهما ان النحو العربى القديم لا يعين على تفسير القرآن لما فيه من تضييق وعدم وضوح ، وثانيتهما دعوته الى ضرورة تجديد النحو والمزيد من احكام قواعده وضبطها .

ويتناول الشيخ محمد الخضر هذا البحث بالنقد وفى ذاكرته ما وقع بينه وبين صاحبه سنة 1926 م. عند صدور كتاب « فى الشعر الجاهلى » (3) وكذلك عند التعليق على كتاب « احياء النحو » للاستاذ ابراهيم مصطفى » (4) .

---

(1) م . خ . حسين « بلاغة القرآن » ص 64 .
(2) نفس المصدر ص : 68 .
(3) انظر ص : 94 من هذا الكتاب .
(4) ص : 97 .

فيصف محاضرة مؤتمر المستشرقين بأنها « طائشة الوثبات ، كثيرة العثرات » (I) ثم يرد على جميع ابوابها وفصولها واحدا واحدا بذكر النص الاصلى ثم نقده مبينا فى كثير من الحالات خطأ طه حسين من الناحية النحوية او اللغوية ، ويستعمل للتعبير عن ذلك بعض الصيغ والالفاظ مثل « زعم المحاضر » و « عبارة غير صادقة » و « وضع المحاضر تلك القاعدة الهازلة وعزاها الى النحويين » ، ويختم القسم الاول من نقده بقوله : « استبان لك ان المحاضر (طه حسين) وضع لمحاضرته اساسا خربا ، فكان ما بناه عليه متداعيا للسقوط متخاذلا » (2) .

ثم يتعرض الى النتيجتين اللتين ذكرهما طه حسين بالرد مشيرا الى ان علماء اللغة وفقهاءها لا يوافقون على ذلك ، لانهم يعتقدون ان النحو العربى يعين على تفسير القرآن ، كما ان قواعده تستجيب لحاجات اللغة وضروراتها ، ويبدو الشيخ محمد الخضر فى هذا المقال صاحب نظرة محافظة فى الميدان اللغوى بالاضافة الى ان الخصومة القديمة التى نشبت بينه وبين صاحبه لم تنقطع آثارها فدفعته الى تجاوز حدود النقد العلمى الرصين ـ وهو المعروف بهدوء الطبع ـ واستعمال اسلوب التهجم المتطرف الذى جعله لا يوافق الباحث فى أية قضية من القضايا الا بصورة ضمنية غامضة .

اما المقال الثانى فهو « كتاب يلحد فى آيات الله » (3) الذى نقد فيه كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » لاحد رواد النهضة الاجتماعية بتونس المرحوم الطاهر الحداد ، فقد تعرض الناقد الى الردود العديدة التى قام بها علماء الاسلام فى تونس ضد هذا « الملحد » وموقف نظارة جامع الزيتونة منه ، ثم يقول دون ان يذكر اسم الطاهر الحداد : « نقول هذا بمناسبة الحديث عن كتاب ظهر فى تونس منسوبا الى بعض من لبست نفوسهم من التجافى عن

(I) م . خ . حسين ـ بلاغة القرآن ـ ص : 46 .

(2) نفس المصدر ـ ص 89 .

(3) المصدر السابق ـ ص I32 .

الدين ما لبست نفوس هؤلاء الذين يزعمون انهم انصار المرأة » (1) ويصفه بانه « باطل من القول لغط به نفر من غير المسلمين فى الشرق فوقع فى آذان احداث فى تونس » .

وتجدر الاشارة الى ان الشيخ محمد الخضر قد عارض الحداد فى بعض القضايا التى تتصل بالدين الاسلامى مثل تعدد الزوجات ، والميراث ، وسفور المرأة ، وكذلك فى تأويله الآيات القرآنية تأويلا لا يعتمد قواعد التفسير المتبعة عند العلماء المسلمين خاصة وهو « المتطوع » (2) الذى لم يبلغ درجة الاجتهاد فى الدين ونصوصه . ويتبين من ذلك ان الرجل لا يعترض على تطوير المرأة فى بعض النواحى الاجتماعية ولذلك قال : « لو قصر صاحبه (الكتاب) البحث على تعليم المرأة وتربيتها ، وانكار ما يفعله بعض الرجال من الاستخفاف بحقوقها والمبالغة فى حجابها لقلنا كتاب يدعو الى ناحية من نواحى حياتنا الاجتماعية وكان حظه منا شكرا وتقريظا » (3) .

وجملة القول ان كتاب « بلاغة القرآن » يؤكد لدارسه نظريات الشيخ محمد الخضر المحافظة فى قضايا الدين واللغة مما جعله حاد الاسلوب شديد اللهجة عنيف الرد عند نقده لمن يمس الدين الاسلامى ، او يؤول كتابه تأويلا لا يتماشى ورأى جمهور العلماء من اهل السنة .

تونس وجامع الزيتونة :

بينا عند الحديث عن حياة هذا العلامة مدى اهتمامه بوطنه الاصلى تونس من حيث متابعة اخباره ، والسعى الى التعريف بقضيته ، وبرجاله العظماء وتاريخه المجيد ، حتى انه لا يخلو عدد من اعداد مجلة « الهداية الاسلامية » التى كان يشرف عليها من مقال يتحدث عن هذه البلاد او عن احد علمائها البارزين وشيوخها المشهورين .

---

(1) المصدر السابق ـ ص 132 .

(2) متحصل على شهادة « التطويع » بجامع الزيتونة .

(3) المصدر السابق ـ ص 135 .

وقد جمع ناشر آثار هذا الرجل عددا من المقالات والمحاضرات التى حررها او القاها عن البلاد التونسية وعلمائها فى كتاب سماه « تونس وجامع الزيتونة » صدر سنة 1971 م. وهو يحتوى على 151 صفحة تشمل 23 موضوعا . ويمكن تقسيم هذه المقالات الى نوعين : مقالات تتحدث عن الجوانب التاريخية والعلمية والادبية والسياسية بتونس ، ومقالات – وهى اكثر عددا من القسم الاول – تتناول حياة بعض الشخصيات العلمية الذين أنجبتهم هذه البلاد ، وعدد من الشيوخ والعلماء الذين كانوا يدرسون بجامع الزيتونة فى ذلك العهد . وقد حاول الشيخ محمد الخضر فى جميع هذه المقالات التأكيد على ان لوطنه رجالا يمكن اعتبارهم فى مقدمة العلماء والادباء فى تاريخ الحضارة الاسلامية فيقول عند الحديث عن فقهاء تونس : « فاذا ما تصدى مؤرخ للحديث عن الفقهاء الذين برعوا فى فهم حكمة التشريع وشملوا الحقوق برعاية وصيانة فان كثيرا من فقهاء تونس أهل لان يذكروا فى مقدمة اولئك الفقهاء » (1) ويقول عند الحديث عن شعرائها ايضا : « فلم تتباطأ ان صارت تنافس (نهضة تونس) نهضة الادب فى البلاد الشرقية » (2) .

ويتعرض الكاتب الى التعليم بجامع الزيتونة من حيث تطور هذا المعهد العلمى الكبير منذ الشروع فى تأسيسه على يد حسان بن النعمان سنة 79 هـ. ، وكذلك من حيث البرامج التعليمية التى كانت متبعة ، ونوع الكتب التى تدرس واصناف المدرسين مما يجعل هذا المقال وثيقة من الوثائق التى تمكن الدارس من التعرف على تاريخ التعليم الزيتونى عبر العصور . كما تعرض المؤلف الى حياة عدد من العلماء مثل « ابن خلدون » و « أسد ابن الفرات » والوزير « محمد العزيز بوعتور » الذى كانت تربطه به صلات مودة متينة مما جعله يقول فى شأنه : « ووجود هذا الوزير العلامة على رأس

---

(1) م . خ . حسين « تونس وجامع الزيتونة » ص 10

(2) المصدر السابق – ص 15 .

الوزارة ساعدنى على ان اقتدى بما أقرؤه فى سيرة القضاة الذين لا يخافون فى الحق لومة لائم » (I) ٠

ولا شك ان هذا الكتاب يفيد الدارس فى التعرف عن الحالة العلمية بتونس فى بداية القرن العشرين ، وخاصة عن حياة عدد من العلماء والشيوخ كان لهم دور فعال فى تنشيط الحركة الفكرية بتونس فى ذلك العهد ٠

الفصل الثانى

* * *

محاضراته

القى الشيخ محمد الخضر حسين عددا كبيرا من المحاضرات فى الدين واللغة والادب نشر البعض منها فى كتب ، وما زال بعضها الآخر موزعا فى المجلات التى كان يشرف عليها وخاصة مجلة « الهداية الاسلامية » ٠

وتتميز هذه المحاضرات بمكانة هامة ضمن آثاره لانه كان يعتقد ان المقالة والمحاضرة وسيلتان من أنجع الوسائل لنشر المعرفة وتثقيف المجتمع الاسلامى واصلاحه ٠

اما المحاضرات المطبوعة التى تمكنا من الحصول عليها والتى سنقوم بالتعريف بها وتحليل محتواها بايجاز فهى :

I ـ الحرية فى الاسلام ٠

2 ـ حياة اللغة العربية ٠

3 ـ العظمة ٠

(I) المصدر السابق ـ ص 93 ـ لقد تولى الشيخ محمد الخضر خطة القضاء ببنزرت فى عهد هذا الوزير العالم ٠

4 ـ الخطابة عند العرب ٠

5 ـ علماء الاسلام فى الاندلس ٠

وقد جمع ناشر آثار الشيخ محمد الخضر بعض هذه المحاضرات فى كتب مع مقالات وبحوث تتعلق بنفس الموضوع سنتعرض اليها فى الباب الثانى من هذا القسم ٠

الحرية فى الاسلام :

طلبت جمعية « قدماء الصادقية » من الشيخ محمد الخضر القاضى بمدينة بنزرت القاء مسامرة بناديها عن « الحرية فى الاسلام » فلبى الطلب بعد تردد ، وفى نفسه شوق الى مشاركة اصدقائه حياتهم الفكرية والادبية ، والقى هذه المحاضر ةمساء يوم السبت 17 ربيع الثانى سنة 1324 هـ٠ / سنة 1906 م٠ فى حفل اشرف عليه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور احد اعضاء هيأة الجمعية فنالت اعجاب المثقفين مما دعاه الى طبعها (1) فى رسالة تحوى 68 صفحة سنة 1327 هـ٠ / سنة 1909 م٠ وتوزيعها فى مختلف الاقطار الاسلامية ٠

تحدث المسامر فى اول بحثه عن معانى كلمة « الحرية » اللغوية والعامة اهمها « ان تعيش الامة عيشة راضية تحت ظل ثابت من الامن على قرار مكين من الاطمئنان (2) » ثم اشار الى الخصال التى يجب توفرها فى الافراد حتى يحافظوا عليها مؤكدا على ان الاساس الوحيد الذى تعتمد عليه هو التربية والتعليم ٠ ثم ناقش المحاضر القائلين ان الحرية هى فعل المرء ما يشاء دون النظر الى مصلحة غيره من افراد المجتمع ، مذكرا بمضمون القولة المشهورة : « حريتك تنتهى عند بداية حرية غيرك » ، وتعرض الى عاملين ترتكز عليهما الحرية وهما : الشورى والمساواة ، وحلل كلا منهما بالاعتماد على نظريات

---

(1) طبعت هذه المحاضرة بالمطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد 57 تونس حيث كانت تطبع مجلة « السعادة العظمى » . وقد اعاد نشرها الاستاذ (أ . م . كرو) ضمن منشورات دار المغرب العربى (سلسلة وثائق قومية) فى جانفى سنة 1972 م .

(2) م ٠ خ ٠ حسين « الحرية فى الاسلام » ص 11 .

الشريعة الاسلامية وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين · وقد تحدث المسامر بعد ذلك عن « الحرية فى الاموال » و « الحرية فى الاعراض » و « الحرية فى الدماء » فكان فى كل ذلك رجل الدين ، الموضح لقواعد الفقه الاسلامى ، والقاضى المستشهد ببعض الاحداث التى عرضت له اثناء مباشرته خطته وما جابهها به من صور وحلول ، ويختم الشيخ محمد الخضر مسامرته ببحث موضوعين هامين هما : « الحرية فى خطاب الامراء » و « آثار الاستبداد » · وقد اشار فى الموضوع الاول الى ضرورة مجابهة ذوى السلطة بقول الحق دون خشية او خوف ، مستشهدا بسيرة بعض الخلفاء وبعض القضاة الذين كانوا لا يخشون فى الحق لومة لائم او حكم امير او ملك مثل الشيخ أبى الحسن منذر بن سعيد البلوطى قاضى قرطبة الذى كان يخالف عبد الرحمان الناصر ويرفض شهادته ويدعوه الى الكف عن كثرة الاسراف وبناء القصور لان ذلك يلحق الضرر بالسلطان وبالمسلمين ·

اما الموضوع الثانى فقد اطال فيه المحاضر التحليل ، مبينا خطر الاستبداد على حياة الامم والشعوب قائلا : « اذا نشبت الدولة برعاياها مخالب الاستبداد نزلت عن شامخ عزها لا محالة واشرفت على حضيض التلاشى والفناء » (1) · كما اشار الى ما يسببه ظلم الحكومات من طبع نفوس الافراد على الجبن والرهبة ، وقتل روح العزة والشهامة فيها ، وطمس القرائح والقضاء على الافكار النيرة والمواهب الخلاقة ، ولذلك « فان الارض التى اندرست فيها اطلال الحرية انما تأوى الضعفاء والسفلة ولا تنبت العظماء من الرجال » (2) ·

ان هذه الافكار والملاحظات التى قدمها الشيخ محمد الخضر فى ختام هذه المحاضرة تبين آراءه ونظرياته المتعلقة بحالة البلاد التونسية فى ذلك العهد ، وما كانت تعانيه من فقدان للحرية وما كان يشعر به الرجل والنخبة المثقفة الواعية من مرارة وكبت ولذلك فان قيمة هذه المسامرة التاريخية تبرز بالاضافة

---

(1) المصدر السابق ص 59 ·

(2) نفس المصدر ·

الى محتواها الثرى واهميتها العلمية ولغتها القوية الجزلة ، فى موضوعها الذى انطلق من المفاهيم الاسلامية وطرح قضايا تتعلق بالحالة الاجتماعية والفكرية والسياسية التى كانت تعيشها تونس فى بداية هذا القرن ·

حيــاة اللغــة العــربيــة :

القى الشيخ محمد الخضر مسامرة ثانية بنادى « جمعية قدماء الصادقية » بحث فيها « حياة اللغة العربية » وذلك مساء يوم السبت 11 شــوال سنــة 1327 هـ· / 23 أكتوبر عام 1909 م· وهو وقتئذ مـدرس بجـامع الزيتـونة وبالمدرسة الصادقية · وقد طبعت هذه المحاضرة فى نفس السنــة بالمطبعــة التونسية الكائنة بسوق البلاط بتونس وصدرت فى كتاب يحوى 60 صفحة· ثم اعيد نشرها فى كتاب « دراسات فى العربية وتاريخها » الذى يحوى عدة مقالات وبحوث للمؤلف تتعلق بقضايا اللغة سنقوم بتقديمه فى الباب الثانى من هذا القسم ·

اما الغرض من القاء هذه المسامرة فهو يتمثل فى أمرين : أولهما البحث عن حال اللغة من حيث الفاظها ، والاطوار التى مـرت بهـا ، واتسـاع نطـاقها وارتقاؤها مع المدنية (1) · وثانيهما دحض « الشبـه » التى اوحـى بها بعض المحاضرين القائلين بعجز اللغة العربية عن مسايرة العصر وحاجات المدنية الحـديثة ·

وقد افتتح المحاضرة بالحديث عن الالفاظ ودلالتها وفائدتها التى لا تزيد عن « ضبط الغرض القائم فى النفس وتمييزه عما سواه » (2) ثم اشار الى تأثير اللغة فى الهيئة الاجتماعية باعتبارها اداة اتصال بين افراد المجتمع وعاملا من عوامل وحدته وترابط اجزائه ، ولذلك يقـول : « متى اهملت الامـة لغتها وزهدت فى تعلمها انفصمت عرى جامعتها لا محالة » (3) ·

---

(1) م · خ · حسين « دراسات فى العربية وتاريخها » ص : 115 .

(2) نفس المصدر ــ ص 116 .

(3) نفس المصدر ــ ص 119 .

وتعرض المسامر الى مختلف الاطوار التى مرت بها هذه اللغة واسباب دعمها وارتقائها وخاصة منها القرآن والحديث النبوى الشريف ، او اسباب ضعفها وانتشار التحريف فى تراكيبها وصيغها وسيطرة التزويق والبهرجة اللفظية على اساليبها مما بعث بعض علماء البلاغة مثل عبد القاهر الجرجانى الى المناداة بأن الالفاظ خدم للمعانى وان المعانى مالكة سياسة الالفاظ ٠

ثم تحدث عن فصاحة المفردات اللغوية من حيث تجانس معنى اللفظ مع الصوت ، واعتدال تركيب الكلمات وخاصة الثلاثية منها ، وحكمة ترتيبها بحسب معانيها القائمة فى النفس ، واطال التحليل والبيان فى العوامل التى تجعل اللغة العربية قادرة على الارتقاء والتطور واهمها:تعدد وجوه دلالات الالفاظ واشتقاقها ، وتعدد الاساليب اللغوية واقتباسها من اللغات الاخرى كلمات اجنبية تزيد فى ثروتها وتكسبها قوة وتجددا ، فاشار الى ان غنى العربية بالالفاظ وترادف عدد كبير من هذه الالفاظ نفسها ، والتمييز بين المذكر والمؤنث ، وادوات الربط ، ووجود الكلمات الدخيلة كل ذلك يمكن هذه اللغة من « الارتقاء مع المدنية » المعاصرة كما تطورت مع الحضارات عبر المراحل التاريخية التى مر بها الاسلام والمسلمون ٠

واذا لم يكن الشيخ محمد الخضر محافظا فى نظرته اللغوية من حيث اقتباس اللغة العربية مفردات اجنبية فيقول : « تتلقى العربية ما يرد عليها من الالسنة الاخرى وتقبله بقبول حسن بعد تنقيحه وسبكه فى قالب عربى فلا مانع من ان نقتبس اسماءها الموضوعة لها فى اصطلاح مخترعيها عند استحسانها ونهذبها ثم نحشرها فى زمرة ما هو عربى فصيح » (1) لكنه محافظ فى حديثه عن « لغة العامة » التى يعتبرها لغة عربية محرفة وفى حالة مرض « يجدر السعى الى معالجتها واصلاحها » ٠ ولذلك فهو يذهب الى عدم استعمال هذه اللهجات المنتشرة بالبلدان العربية ، وعدم تدوينها ، والمحافظة على اللغة العربية الفصحى التى لها فى نفس المسلم « موقع عظيم » لانها لغة القرآن ولغة

---

(1) المصدر السابق ص 158 .

الرسول ، مما جعل عددا من علماء المسلمين يعدون «من فروض الكفاية التبحر فى معرفتها وهذا وجه نسبتها الى الاسلام وهو الحصن الذى يتكفل بحفظها وبقائها ما بقى دينه القويم » (1) .

ويختم المسامر كلامه عن حياة اللغة العربية بالدعوة الى العناية بها واصلاح السنة الناشئين حتى تستقيم وتبقى وتتطور قائلا (2) :

لغة قد عقد الدين لها
ذمة يكلؤها كل البشر (3)
او لم تنسج على منوالها
كلم التنزيل فى ارقى سور
يا لقومى لوفاء ان من
نكث العهد أتى احدى الكبر
فأقيموا الوجه فى احيائها
وتلافوا عقد ما كان انتشر

وبذلك يتبين لنا اهتمام الشيخ محمد الخضر بقضايا اللغة العربية ، وتحمسه للدفاع عنها مستجيبا فى ذلك الى تكوينه الدينى ونظرته الاسلامية.

العظمة :

نشر الشيخ على عبد الرازق مقالا فى جريدة « السياسة » يوم 12 ربيع الاول سنة 1346 هـ. بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف تعرض فيه الى معنى العظمة وعبادة الناس للعظماء ، واشار الى ان محمدا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن عظيما حسب المفهوم المتعارف لانه « لم يكن ملكا ولا

---

(1) المصدر السابق ـ ص 161 .

(2) قصيدة « حياة اللغة العربية » للشيخ محمد الخضر نشرت مع المحاضرة ـ انظر ديوان « خواطر الحياة » ص 77 .

(3) البحر : الرمل .

غنيا ولا فيلسوفا ولا فاتحا عظيما ولا مخترعا ولا مكتشفا » (1) وانما تبدو عظمته فى كلمة واحدة جاء بها وهى « لا اله الا الله » .

وقد القى الشيخ محمد الخضر حسين محاضرة عنوانها « العظمة » فى نادى جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية بالقاهرة للرد على صاحب المقال ، وذلك يوم الجمعة 26 ربيع الثانى من نفس السنة / سنة 1928 م. وطبعت هذه المحاضرة بالمطبعة السلفية فى 28 صفحة فى نفس المدة ايضا .

وتجدر الاشارة الى ان الخصومة التى نشبت بين الرجلين حول موضوع الخلافة الاسلامية سنة 1925 م. لم تنطف نارها بعد ولذلك نجد المحاضر يستعمل نفس الاسلوب الذى استعمله للرد على بحث الدكتور طه حسين الذى القاه فى مؤتمر المستشرقين حول « ضمير الغائب فى القرآن » (2) .

يقول فى ابتداء المحاضرة : « ننسى ولا ننسى كاتبا صنع فى العظمة مقالا لا اصفه فى مقامى هذا الا بانه خواطر لم تبلغ من ادب البحث سؤالها » (3) ، كما وصف صاحب المقال بانه من النفر الذين جلسوا على رأس الفتنة التى لا يجب ان يصرف النظر عنها حتى لا تضر بالشبان وتهوى بهم فى هاوية الغواية والضلال .

ثم تحدث المحاضر عن معانى العظمة وما يراد منها عامة ، وخاصة بالنسبة الى الرسول (صلعم) معتمدا على اقوال بعض الكتاب الغربيين فى عظمة النبى (صلعم) ، ومذكرا بنظرة المسلمين اليه واجلالهم له .

وقد حصر نقاشه لمقال الشيخ على عبد الرازق فى موضوعين : الاول منهما تعرضه الى مظاهر عظمة الرسول (صلعم) ضمن الحديث عن مظاهر العظمة

---

(1) م . خ . حسين « العظمة » ص 3 .
(2) انظر ـ ص : 146 من هذا الكتاب .
(3) م . خ . حسين « العظمة » ص : 3 .

في ميادين مختلفة مثل « اللصوصية » وجمال الغواني وفي ذلك « تظاهر بذوق غير مألوف » .

اما الموضوع الثاني فهو اقتصار عظمة النبي محمد (صلعم) على كلمة « لا اله الا الله » اذ يعتبر المحاضر ان هذه العظمة تتمثل بالاضافة الى ذلك في علم محمد (صلعم) ، وخلقه ، واخلاصه ، وحسن بيانه (1) .

ولم يخل هذا النقاش من الاشارة الى القضية الجوهرية التي هي سبب خصومة الرجلين وهي ان الاسلام دين ودولة وان خليفة المسلمين هو المسؤول عن رعاية شؤونهم الدينية والدنيوية .

ويبدو ان الشعور بضرورة مناقشة صاحب المقال هو الذي غمر تفكير المحاضر مما جعله يستعمل الاسلوب الجدلي الذي سيطرت عليه روح السخرية والتحدي وشدة المقارعة .

الخطابة عند العرب :

اهتم الشيخ محمد الخضر بفن الخطابة منذ شبابه لانها مظهر من مظاهر الابداع عند العرب و « عامل من عوامل الاصلاح » فكان لخطبه التأثير البليغ في مناسبات عديدة وخاصة عند تكوين « الجمعية الزيتونية » سنة 1910 م. ، او عندما طالب تلاميذ جامع الزيتونة باصلاح التعليم وتطويره .

وقد القى محاضرة عن هذا الفن وقيمته عند العرب مساء يوم الاربعاء 5 ذي القعدة سنة 1346 هـ. / سنة 1928 م. بنادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، ثم طبعت في 28 صفحة بالمطبعة السلفية في نفس العام .

تعرض في بدء محاضرته الى تعريف الفلاسفة للخطابة باعتبارها ضربا من ضروب القياس يقابلها عندهم البرهان والجدل والشعر والسفسطة ، وقد

---

(1) المصدر السابق ـ ص 23 .

استعمل فى تحليل ذلك صيغ وتعابير رجال المنطق وبعض المفاهيم والمعانى المأخوذة من فلاسفة اليونان وخاصة ارسطو ٠

ثم تطرق الى تعريف الخطابة عند الادباء والبلغاء العرب وقيمتها لديهم باعتبارها وسيلة من وسائل السيادة والزعامة وقد عنى بها الاسلام فشرعها فى مناسبات عديدة مثل الاعياد ، ومواسم الحج ، وايام الجمعة كما حدد شروطا خاصة للخطيب منها النباهة والعلم والاستقامة حتى يكون مثالا لمستمعيه ومرشدا لهم بالقول وبالعمل ٠ ومرت الخطابة باطوار مختلفة انحطت فى بعضها ، وارتقت فى البعض الآخر ٠ ويعود ارتقاؤها الى اسباب ثلاثة : شعور الامة بالحرية ، أو دفاعها عن عقيدة تؤمن وتتحمس لمحتواها ، او شعورها بضرورة تغيير حالتها الاجتماعية والسياسية ، ويشير المحاضر الى ان هذا الفن لا يكتسب بالتضلع فى علوم اللغة وآدابها ، وانما تلين قناته بالدربة والتعلم ٠ وقد كان العرب يعلمون فتيانهم الخطابة حتى يأخذوا بناصيتها ويروضوا ألسنتهم عليها ٠ ثم يذكر اهم العوامل التى تعين الخطيب على التأثير مثل الاشارة والوقوف بمكان مرتفع ، واعطاء الحروف حقها ، وحسن القاء الجمل والتعابير ٠ ويتبين الدارس لهذه المحاضرة ان صاحبها كان يهدف الى حث الشبان على تعلم فن الخطابة وحذقه لان المجتمع الاسلامى فى ذلك العهد فى حاجة الى توجيه وارشاد واصلاح ولذلك يختمها بقوله : « هذا ما سمح المقام بعرضه على اسماع شبابنا الاذكياء وانما قصدنا تذكرتهم بهذا الفن الجليل ، فن الخطابة لعلهم يمنحونه من اقبالهم جانبا فان الحاجة الشديدة اليه قائمة والدواعى الى ترقيته وتوسيع نطاقه متجمعة » (I) ٠

علماء الاسلام فى الاندلس :

قيام علماء الاسلام بدورهم فى توجيه المجتمع وارشاد ذوى السلطة ورعاية الدين موضوع شغل الشيخ محمد الخضر فى مناسبات عديدة نجد آثارها فى

(I) م ٠ خ ٠ حسين « الخطابة عند العرب » ص : 23 .

كثير من المقالات والبحوث التى كتبها فى المجلات والصحف • وقد اهتم بالخصوص بعلماء الاندلس فاستشهد بسير عدد كبير منهم وتأثر بالرحالة والقضاة الاندلسيين سواء فى رحلاته التى قام بها (1) او عند مباشرته خطة القضاء بمدينة بنزرت •

والقى محاضرة عن هؤلاء العلماء فى نادى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة مساء يوم الاربعاء 18 ذى الحجة سنة 1346 هـ• / سنة 1928 م• ثم طبعت فى 25 صفحة بالمطبعة السلفية سنة 1347 هـ• / سنة 1929 م•

وقد تعرض المحاضر الى سبب نهضة العلوم الاسلامية بالاندلس الذى برز فى صحة طرق التعليم التى كانت متبعة ، وفى عناية رجال الدولة بالعلم ، وشعورهم بقيمة العلماء والمصلحين •

وقد اطال الحديث فى مظاهر رعاية الامراء للعلم ورجاله من حيث تبجيلهم ومشورتهم وتنظيم المجالس العلمية والادبية التى يحضرها كبار رجال الدولة ، وكذلك من حيث تشجيع هؤلاء العلماء على الارتحال الى الشرق للتزود بالعلم النافع والعودة الى وطنهم للتأليف والافادة • وقد ساعد ذلك علماء البلاد الاندلسية على بلوغ مكانة بارزة فى العلوم الاسلامية وخاصة فى التفسير والحديث والفقه فكانوا « فى مقدمة من حاربوا الآراء الفاسدة فى تأويل القرآن » (2) ، وقاوموا البدع وألفوا فيها المصنفات الكثيرة • وكان من هؤلاء العلماء من أنس فى نفسه الاجتهاد فاستقل بنظرة فى الاحكام الفقهية مثل القاسم بن محمد بن يسار والقاضى منذر بن سعيد البلوطى ومحمد ابن حزم• وقد ابدى المحاضر اهتماما خاصا بشعور عدد من علماء الاندلس بمكانتهم العلمية وبرسالتهم فى المجتمع الاسلامى من ذلك « ان كثيرا منهم كانوا

---

(1) انظر محاضرته « اثر الرحلة فى الحياة العلمية » مجلة « الهداية الاسلامية » م 10 ـ ج 2 ص : 65 .

(2) م . خ . حسين « علماء الاسلام فى الاندلس » ص : 12 .

يزهدون فى المناصب ولا يقيمون لها وان عظم سلطانها وزنا » (1) مثل محمد بن حزم الذى « خلع طوق الوزارة من عنقه اختيارا » واقبل على البحث والتأليف • كما انهم لا يغضون أبصارهم عما كان يقوم به الولاة والامراء ثم « لا يكتمون النصيحة اذا ابصروا عوجا فى السياسة ، او حيفا فى الحكومة ، أو تبذيرا فى انفاق » (2) •

ولم يقتصر هؤلاء العلماء المصلحون على القيام بهذا الواجب الاسلامى بل تجاوزوه الى المساهمة فى حماية البلاد فرابطوا فى الثغور ، وشهدوا مواقع القتال ، واستشهدوا فى المعارك دفاعا عن الاسلام والمسلمين •

وقد ضرب المحاضر المثل بجهود علماء الاندلس فى الميادين العلمية والسياسية والاجتماعية حتى يقتدى بهم علماء الاسلام المعاصرون والشبان الناهضون للحفاظ على الدين من الانحراف وعلى الامة الاسلامية من الانحطاط والتدهور •

---

(1) المصدر السابق : ص : 22 .

(2) المصدر السابق ـ ص : 23 .

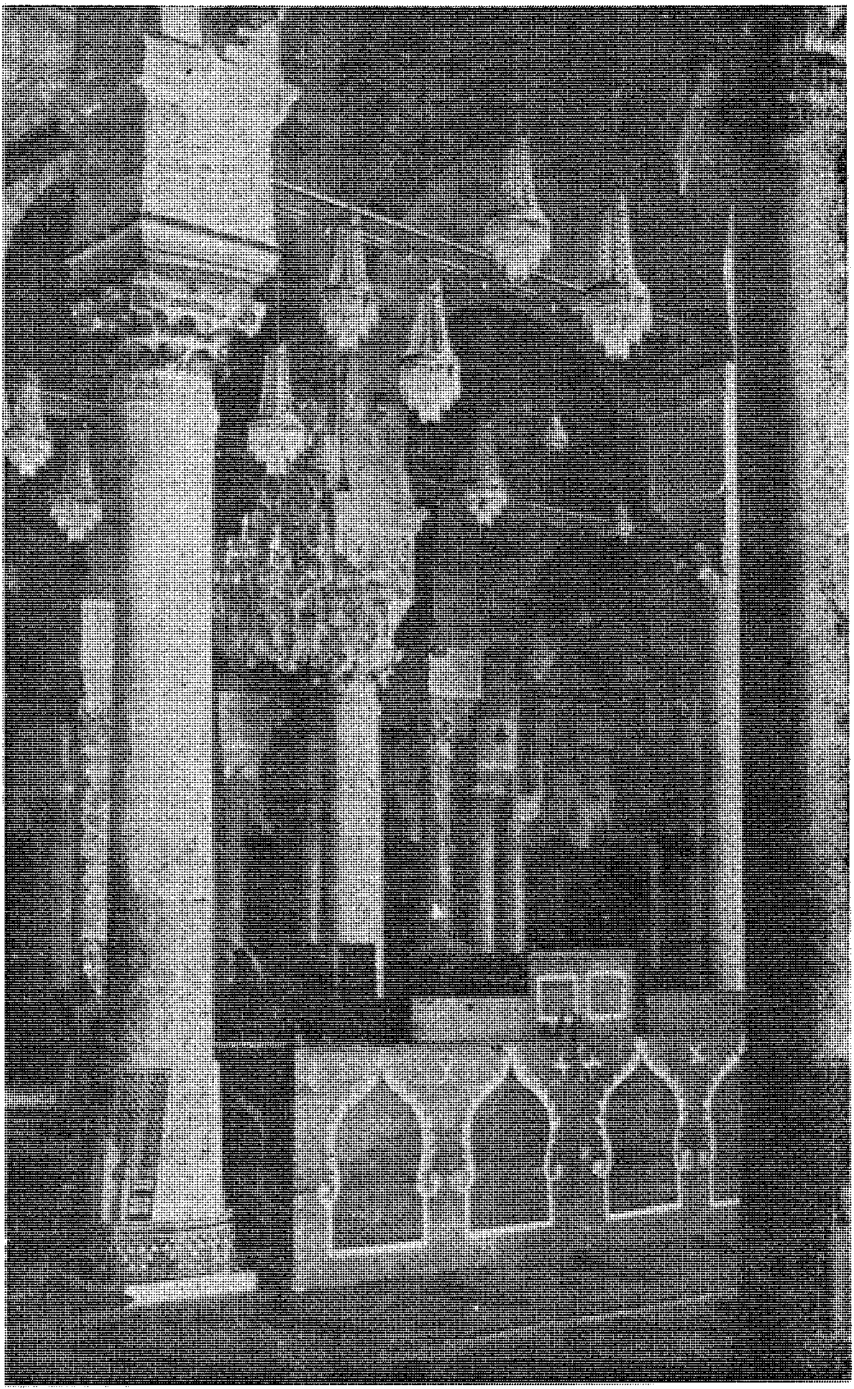

جامع الزيتونة الذى تعلم فيه ودرس به الشيخ محمد الخضر

الباب الثاني

مؤلفاته

ألف الشيخ محمد الخضر حسين عددا من البحوث والرسائل فى مواضيع مختلفة دينية ولغوية وادبية ، كما ألف كتابين يتصلان بالادب والدين والسياسة كان لهما الاثر الكبير فى التعريف بقيمته العلمية والثقافية فى مصر وفى مختلف البلدان العربية والاسلامية ، اما الكتابان فهما :

1 ـ نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم ٠

2 ـ نقض كتاب فى الشعر الجاهلى ٠

وأما البحوث والرسائل فهى :

1 ـ الدعوة الى الاصلاح ٠

2 ـ الخيال فى الشعر العربى ٠

3 ـ القياس فى اللغة العربية ٠

4 ـ محمد رسول الله وخاتم النبيين ٠

وسنقوم بتحليل محتوى الكتابين فى الفصل الاول من هذا الباب نظرا لاهميتهما العلمية والتاريخية ٠ اما الفصل الثانى فسيحوى تقديم بقية التآليف والتعليق عليها ٠

الفصـــل الأول

* * *

كتـابـا النقــض

لقد نشر لهذا الرجل كتابان أحدهما « نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم للشيخ علي عبد الرازق » والثاني « نقض كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين » •

وقد كان لهما دور هام سواء في الرد على الكتابين المذكورين اللذين أحدثا ضجة كبيرة في الاوساط الثقافية والدينية والسياسية في الثلث الاول من هذا القرن ، او في ابراز قيمة الشيخ محمد الخضر الشخصية وغزارة علمه وشمول معارفه •

وقد كان موقف المؤلف من الكتابين موقف الرفض ولـذلك استعمـل كلمة « نقض » التي تفيد تهديم وابطال ما جاء فيهما من افكار ونظريات عوض كلمة « نقد » التي تفيد التمييز بين المحاسن والعيوب وذلك لاعتقاده خطورة محتوى كل من الكتابين على القراء ، وضرورة تجنيب المسلمين والشبان منهم خاصة التأثر بما فيهما من تحريف وضلال •

نقض كتاب الاسلام واصول الحكم :

اصدر الشيخ على عبد الرازق احد علماء الازهر كتاب « الاســلام واصول الحكم » في شهر رمضان سنــة 1343 هـ• / افــريل 1925 م• ويحتــوى هذا التأليف على 103 صفحات تشمــل ثــلاثة كتب وتسعــة ابـواب ، ويبحث في موضوع الخلافة في الاسلام وعلاقة الدين باسلوب الحكم في العالم الاسلامي وما ينبغي ان يكون عليه هذا الاسلوب في العصر الحديث • وقد ذهب المؤلف الى ان نظام الخلافة لا يمت الى الدين الاسلامي بصلة اذ لم ينص عليه القرآن والسنة النبوية كما ان وجوده في هذا العهد غير ضروري لقيــام حكومـات

اسلامية ، وقد اثار هذا الكتاب ضجة لدى رجال الدين والسياسة (1) ، فوقع حجزه من الاسواق ، وابعد صاحبه من جامع الازهر ومن هيأة كبار العلماء ، كما قام عدد من الشيوخ بنقده والرد عليه مثل الشيخ الطاهر ابن عاشور والشيخ محمد الخضر حسين الذى ألف كتابه « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » .

وقد طبع هذا التأليف سنة 1344 هـ / سنة 1926م. بالمطبعة السلفية بالقاهرة ويحتوى على 252 صفحة تشمل ثلاثة كتب وتسعة ابواب وهو نفس التقسيم الذى استعمله الشيخ على عبد الرازق فى كتابه . اهدى الشيخ محمد الخضر هذا الكتاب الى « خزانة حضرة صاحب الجلالة فؤاد الاول ملك مصر المعظم » مبينا له الاسباب التاريخية والعلمية التى دعته الى هجرة وطنه تونس والاستقرار بمصر وما لقيه « على ضفاف وادى النيل » من علم زاخر وادب جم وعناية فائقة بالاسلام ورجاله ، ورعاية الملك لذلك مما جعله « واسطة عقد ملوك الامم الشرقية » .

ان هذا الاهداء وثيقة تاريخية هامة سواء من حيث تاريخ حياة المؤلف او من حيث ابراز الاسباب التى دعت الى تأليف هذا الكتاب وهى « اسلامية وعلمية » وسياسية . فقد كان الرجل يؤمن بفكرة الرابطة الاسلامية ، ونظام الخلافة باعتباره حكما ضروريا لتسيير شؤون المسلمين الدنيوية والدينية وقد كتب المقالات والقى القصائد الشعرية العديدة لتأكيد هذه العقيدة . ولا شك ان هذا الايمان هو الذى حدا بالشيخ محمد الخضر للرد على صاحب « الاسلام واصول الحكم » الا ان ذلك لا يمنعنا من اضافة سبب آخر وهو الاستجابة الى دعوة الملك فؤاد الاول التى قام بها الموالون له ، وذلك بتحريض العلماء والشيوخ على دحض ما جاء فى كتاب الشيخ على عبد الرازق من آراء سعيا الى المحافظة على نظام الخلافة الاسلامية وانتقال مركزها من الاستانة الى

---

(1) انظر ـ ص : 91 من هذا البحث .

القاهرة • وتبدو هذه الاستجابة جلية فى اهداء الكتاب وكـذلك فى امضـاء صاحبه : وهو « المخلص فى الطاعة ـ محمد الخضر حسين » (1) •

ثم قدم المؤلف كتابه ببيان الاسباب التى اضطرته الى الاجـابة « ليميط اللثام عن وجه الصواب فى هذه المباحث الدينية والتاريخية » (2) حتى يبقى كتاب الشيخ على عبد الرازق الفاظا لا تعبر عن معنى ومقدمـات لا تتصـل بنتيجة » (3) • وبين الطريقة التى اتبعها فى النقد وهى ان يقوم بتلخيص كل باب من ابواب الكتاب بذكراهم المسائل والمباحث ثم يتعرض الى مـا يـراه مستحقا للنقاش فيورد النص الاصلى ويتبعه بما يوضح ما فيه من لبس ويزيل ما فيه من غموض او يجتث ما فيه « من زيغ وضلال » • وقد تخير المؤلف هذا الاسلوب « لتكون هذه الصحف قائمة بنفسها ويسهل على القـارىء تحقيـق البحث وفهم ما تدور عليه المناقشة » (4) ثم شرع فى مناقشة الكتاب فقرة فقرة مما يجعل من الصعب على الباحث تلخيص جميع الآراء الـواردة فى النقـاش وتبويبها بصورة تفصيلية الا ضمن دراسة خاصة بآثار المؤلف ولهذا فسنقدم الكتاب بايجاز وذلك ببيان اهم الافكار التى يبدو فيها اختلاف الرجلين شديدا مع التعليق على اسلوب النقاش وطريقته لما لهما من اهمية فى ابـراز قيمـة الكتاب من الناحية العلمية •

تعرض الشيخ عبد الرازق فى الباب الاول من كتابه الى معنى الخلافة ، واورد ما قاله فى تعريفها ابرز علماء الاسلام مثـل ابن خلـدون ثم بين ان المسلمين قد افرطوا فى تعظيم مقام الخليفة وتوسيع سلطانه حتى اصبح بعضهم يذهب الى ان سلطته مستمدة من سلطة الله ، وقوته من قوته ، وقال : « على المسلمين ان يذكروا لنا مصدر تلك القوة التى زعموها للخليفـة انى جـاءته

---

(1) م . خ . حسين « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » اهداء الكتاب .
(2) نفس المصدر ـ ص : 2 .
(3) نفس المصدر ـ ص 3 .
(4) المصدر السابق ـ ص 3 .

ومن الذى حباه بها وافاضها عليه » (1) ويستشهد بأقوال بعض الشعراء التى تظهر هذا الافراط فى التقدير مثل تهنئة جرير للخليفة عمر بن عبد العزيز بقـولـه :

جاء الخلافة او كانت له قدرا
كما اتى ربه موسى على قدر (2)

او قول ابن هانىء للمعز الفاطمى :

ما شئت لا ما شـاءت الاقـدار
فاحكم فانت الواحد القهار (3)

ويرد الشيخ محمد الخضر على ذلك ببيان الاطالة التى قام بها المؤلف عند تحليله اقوال العلماء والمبالغة فى ذلك كما انه لم يقف عندما تحتمله الالفاظ من معانى « كما هو شأن طلاب الحقيقة بانصاف » (4) ، بالاضافة الى ما ادخله من تحريف على هذه الاقوال نفسها مثل قول علماء الاسلام : « تجب طاعـة الخليفة فيما يأمر به من معروف » اصبح عند المؤلف « لـه عليهـم الطـاعة التامة » بحذف شرط الطاعة الذى هو الامر بالمعروف ، واورد عدة امثلة يؤكد بها ما اشار اليه من تحريف ثم يناقش الشواهد الشعرية التى ذكرها المؤلف ملاحظا ان بحث القضايا الدينية والعلمية لا يعتمد فيه على كتب الادب واقوال الشعراء .

اما الباب الثانى فقد تعرض فيه الشيخ عبد الرازق الى حكم الخلافة قائلا : « زعم ابن خلدون ان ذلك العقد بالاجماع » ، ولاحظ انه لا يوجـد دليـل فى القرآن والحديث النبوى يوجب الخلافة كما ناقش الشيـخ رشيـد رضـا فى الاحاديث التى استشهد بها لبيان ذلك الوجوب وأومأ الى ارتيابه فى صحتها.

---

(1) المصدر السابق ـ ص 10 .
(2) البحر : البسيط .
(3) البحر : الرجز .
(4) المصدر السابق ـ ص 5 .

وقد ناقش الشيخ محمد الخضر ما جاء فى هذا الباب من آراء مبينا خطأ المؤلف فى بعض الاسماء التى استشهد بها فأكد بذلك سعة علمه واطلاعه وتفوقه فى هذا الميدان • ولاحظ انه استعمل بعض الالفاظ التى من شأنها ان ترجح ما ذهب اليه فى خصوص اجماع العلماء على الخلافة مثل « زعم » فى حين ان هذا الاجماع حاصل فى كل الكتب التى تحدثت عن الموضوع • ثم بين ان هناك بعض الآيات تدل على وجوب الامامة مثل « واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » وان لم ينص القرآن على كلمة خلافة « فان فى ايدينا من طرق تبيانه السنة والاجماع والقياس والقواعد التى لا يأتيها الريب من بين يديها ولا من خلفها » (I) •

واشار الى ان الأحاديث التى ارتاب فى صحتها المؤلف تثبت هذا الوجوب ، الا انه ذهب فى تأويلها « على وجه غريب » وساق على ذلك امثلة « ليست جارية على قانون المنطق فى كثير ولا قليل » •

ويبدو ان الخلاف بين الرجلين فى هذا الباب قد اقتصر على ذكر بعض الالفاظ وتأويل بعض النصوص التأويل الصحيح •

اما الباب الثالث من الكتاب الاول فقد تعرض فيه الشيخ عبد الرازق الى ان حظ المسلمين فى الشؤون السياسية قليل ، ولذلك لا نجد كتبا وحركات سياسية عندهم رغم توفر اسباب عديدة تدفعهم الى ذلك مثل ولوعهم بما كان عند اليونان من مؤلفات فى مختلف الميادين الثقافية والفكرية ، ثم تحدث عن قيام الخلافة واعتمادها على القوة والقهر قائلا : « اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر وجدنا ان الخلافة فى الاسلام لم ترتكز الا على اساس القوة الرهيبة وان تلك القوة كانت الا فى النادر قوة مسلحة فلم يكن للخليفة ما يحوط مقامه الا الرماح والسيوف » (2) واشار بعد ذلك الى عدم اجماع المسلمين على الخلافة

(I) المصدر السابق – ص 20 .

(2) المصدر السابق – ص 53 .

مستشهدا بحروب اهل الردة التى قامت بعد وفاة الرسول ، ومبايعة أبى بكر وكذلك بالخوارج الذين شقوا عصا الطاعة معلنين عدم خضوعهم للخليفة .

وناقش الشيخ محمد الخضر حسين ما ورد فى هذا الباب مبينا ان المسلمين كانوا على دراية كاملة بالسياسة « ولم يكن حظهم منها اقل من حظ دارسى كتابى الجمهورية والسياسة » (1) واشار الى الكتب التى قام بترجمتها بعض المسلمين فى العلوم السياسية وتشجيع الخلفاء على هذه الترجمة للاستفادة بما عند اليونان من تجارب فى هذا الميدان ويقول : « ولكن كتاب الاسلام واصول الحكم لا يبالى ان يسوق المشكوك فيه مساق المعلوم او يورد المعلوم فى صورة المشكوك فيه » (2) .

وفى رأينا ان الرجل لم يناقش القصد الحقيقى للمؤلف . ذلك لان الشيخ عبد الرازق لم يتحدث عن السياسة فى معناها العام والعلمى فقط بل لاحظ ان المسلمين لم يؤلفوا كتبا تحلل وتنقد الاوضاع السياسية التى كانت سائدة فى عهد الخلفاء ، او تشير الى ظهور نزعات وحركات سياسية مختلفة فى ذلك العهد فهو يقول : « لو وضعنا هذا الكتاب كله فى بيان الضغط الملوكى الاسلامى على كل علم سياسى وكل حركة سياسية او نزعة سياسية لضاق هذا الكتاب » (3) .

ثم تعرض الى قيام الخلافة على القوة والقهر فبين ان التاريخ يبطل ما جاء فى كتاب « الاسلام واصول الحكم » ، وذكر بما وقع من تشاور بين الصحابة لاختيار أبى بكر الصديق فى سقيفة بنى ساعدة واجماع المسلمين على ذلك . اما استناد الخلافة على قوة الجند والسلاح بعد قيامها على قاعدة اختيار الأمة فأمر ينطبق على قوانين العقل بغير تردد ، وحق تهدى اليه الشريعة بحث

---

(1) المصدر السابق — ص : 48 — يقصد كتاب الجمهورية لافلاطون وكتاب السياسة لارسطو
(2) نفس المصدر — ص : 51 .
(3) نفس المصدر — ص : 69 .

وتأكيد » (I) . وفى خصوص اجماع المسلمين على الخلافة فقد اعاد ما ذكره فى الباب الثانى مستشهدا بأحاديث نبوية ومبينا ان حروب اهل الردة والخوارج لا تعتبر نقضا للخلافة ولا هروبا من سلطتها ، وتجدر الاشارة الى ان الحجج والبراهين التى قدمها الرجل لم تكن كلها مقنعة واظن ان ذلك هو الذى دعاه الى استعمال الجمل الحادة مثل قوله : « اختار المؤلف ان يكون كاتب سيئات الخلافة ليقضى حاجة فى نفسه » (2) .

وتناول الشيخ عبد الرازق فى الباب الاول من الكتاب الثانى المتعلق بالحكومة والاسلام موضوع نظام الحكم فى عصر النبوة . فأشار الى ان القضاء وغير القضاء من اعمال الحكومات ووظائفها لم يكن قائما على وجه واضح فى عهد الرسول فلم يكن هناك تنظيم للقضاء والمالية والشرطة وغيرها من المؤسسات. وقد رد الشيخ محمد الخضر على ذلك مستعملا كلمة « نقض » عوض « مناقشة » التى استعملها فى الابواب السابقة وكأنه يشير بهذا الى ضرورة تغيير اسلوب النقد لكثرة اخطاء المؤلف وانغماسه فى الضلال . فتحدث عن حالة العرب عند ظهور الاسلام واهتمام الرسول وصحابته بنشر تعاليم هذا الدين الجديد والاكثار من معتنقيه ، ثم ذكر بعض القضاة الذين عينهم النبى محمد (صلعم) مثل عمر بن الخطاب وكذلك الامراء الذين كان يكلفهم بتسيير شؤون المناطق التى فتحها المسلمون فى جميع الميادين الدينية والدنيوية ، وذكر امثلة تاريخية معتمدا على اقوال بعض علماء الاسلام البارزين مثل ابن تيمية فأكد سعة معارفه فى هذا الباب وقوة حجته ومبالغة صاحب كتاب « الاسلام واصول الحكم » فى ما يريد ان تكون عليه مؤسسات الحكم فى العهد الاسلامى الاول ولذلك قال : « وقد اوجسنا خيفة بعد هذا ان ينظر المؤلف الى كل ما يتصل بالحكومات الغربية او الشرقية من نظام او إدارة ويتخذ عدم وجوده فى عهد النبوة حجة على ان ليس هناك حكومة ونظام » (3) فى عهد الرسول (صلعم) .

(I) نفس المصدر ـ ص : 63 .

(2) نفس المصدر ـ ص : 89 .

(3) نفس المصدر ـ ص : I49 .

اما الباب الثانى فقد تعرض فيه الشيخ عبد الرازق الى « الرسالة والحكم » وبين ان الرسالة غير الملك اذ ان الاولى تهتم بالعقائد والثانى يهتم بالشؤون المادية ثم اشار الى ان رسول الله (صلعم) كان ملكا سياسيا لقيامه ببعض وظائف هذا النظام مثل الجهاد ، وناقش ابن خلدون فى ما ذهب اليه من ان الاسلام دون غيره من الملل الاخرى قد جمع بين العقيدة والتنفيذ وقال : « لا يهولنك ان تسمع ان للنبى صلى الله عليه وسلم عملا كهذا خارجا عن وظيفة الرسالة وان ملكه الذى شيده هو من قبيل العمل الدنيوى الذى لا علاقة لـه بالرسالة » (1) . ووافق الشيخ محمد الخضر رأى صاحب « الاسلام واصول الحكم » القائل بان الرسول جمع بين العقيدة والملك الا انه خالفه فى سبب هذا الجمع الذى يعزوه الى الشرع وان ذلك تقرر بالكتاب والسنة كما اجمع عليه العلماء لان الاسلام عقيدة ونظام اجتماعى وسياسى ، وقيام محمد (صلعم) بتسيير شؤون المسلمين الدنيوية جزء من الرسالة النبوية التى خصـه بها الله وقال : « لا يهول المسلم ان يسمع من مخالف ان عملا كالجهاد والتصرف فى شؤون الزكاة والجزية والغنيمة كان النبى صلى الله عليه وسلم يتولاه من نفسه دون ان يهبط وحى بذلـك ، فان المخالـف لا يصدق بالقـرآن ولا يطمئن لاجماع وانما يهول المسلم ان يسمع رجلا نبت فى بيت اسلامى وشب فى معهد دينى وهو يتشدق بهذا الرأى » (2) .

وقد فصل الشيخ عبد الرازق الحديث عن الرسالة والحكم فى الباب الثالث من الكتاب الثانى لتأليفه فأشار الى ان ولاية الرسول (صلعم) على قومه ولاية روحية « منشؤها ايمان القلـوب » ، وولايـة الملك مـادية تعتمد اخضـاع الاجسـام .

فالاولى زعامة دينية والثانية سياسية « ويا بعد ما بين السياسة والدين » ثم بين المؤلف ان النبى (صلعم) لم يكن له شأن فى الملك السياسى واستشهد

---

(1) نفس المصدر – ص : 149 .

(2) نفس المصدر – ص : 150 .

بعدة آيات قرآنية لاثبات « ان عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان (1) .

ونقض الشيخ محمد الخضر هذه الآراء باسلوب حاد اللهجة ، وبحجج علمية قوية فبين ان الولاية « على القلوب لا تكفي وحدها لصيانة حقوق المسلمين وحفظ نفوسهم ، ولذلك فلا بد ان تساندها ولاية تنفذ « قوانين المعاملات والعقوبات » وهذا ما جعل ولاية الرسول (صلعم) دينية وسياسية وكلاهما من عند الله « ولا بعد بين السياسة والدين الا فى نظر قوم لا يكادون يفقهون » (2) .

ثم تعرض الى الآيات القرآنية التى استشهد بها المؤلف مثل قوله تعالى فى سورة يونس : « وما جعلناك عليهم حفيظا وما انت عليهم بوكيل » فدعاه الى ضرورة اعتبار اسباب النزول عند الاستشهاد بالقرآن ، وبين رأى علماء التفسير والبلاغة فى تلك الآيات ثم ذكر آيات قرآنية اخرى يدعو فيها الله الرسول (صلعم) الى الجهاد والقيام بشؤون المسلمين ، فاوضح بذلك خطأ المؤلف وعدم تعمقه فى العلوم الدينية وقال : « لو التزم احد على وجه المزح ان لا يقول الا خطأ ثم تحدث بمقدار ما تحدث المؤلف فى ذلك الكتاب لسبق لسانه الى الصواب مرارا ، وربما لا يكون خطأه اكثر من خطأ كتاب الاسلام واصول الحكم » (3) .

اما الكتاب الثالث من تأليف الشيخ على عبد الرازق والمتعلق « بالخلافة والحكومة فى التاريخ » فقد تحدث فى الباب الاول منه عن الوحدة الدينية والعرب فأشار الى ان الاسلام وحدة دينية لا صلة لها بمصلحة البشر الدنيوية، ولذلك فلم يغير الرسول (صلعم) شيئا من سياسة القبائل العربية ولا من اساليب الحكم عندها ، كما انه لم يتعرض الى من سيخلفه فى القيام بالدولة

---

(1) المصدر السابق ــ ص : 168 .

(2) نفس المصدر ــ ص : 169 .

(3) نفس المصدر ــ ص : 176 .

من بعده ولذلك انتهت رسالة محمد (صلعم) بموته وانقطعت الصلة « التى كانت تربط بين السماء والارض فى شخصه الكريم » ٠

وقد رد الشيخ محمد الخضر على ذلك فبين ان الاسلام وحدة دينية وسياسية مستشهدا بالتاريخ الاسلامى وخاصة فى عهده الاول ، ثم ذكر بما قام به الرسول (صلعم) من تغيير فى اساليب الحكم عند العرب حسب ما اقتضته تعاليم الدين الجديد فعين القضاة والولاة فى مختلف المناطق لتبليغ ذلك والسهر على تنفيذه ٠ واشار الى ان النبى محمد (صلعم) قد ترك للمسلمين بعد وفاته شريعة لها قواعدها العامة ومبادئها الاساسية التى تسير عليها ، ولم يعين من سيقوم بشؤون الدولة الاسلامية من بعده لتمكين المسلمين من اختيار امامهم بانفسهم حفاظا على وحدتهم وتماسكهم وترابطهم٠ وقد كانت حجج الرجل قوية فى هذا الباب ايضا ، ومقنعة فى الميدانين العلمى والعقلى مما يدعم قيمة هذا النقض ومكانته لدى المثقفين والعلماء ٠

وختم الشيخ عبد الرازق تأليفه ببابين اشار فيهما الى ان زعامة النبى (صلعم) الدينية قد انتهت بموته اما زعامة الخلفاء فهى لا دينية اذ قامت بيعة أبى بكر الصديق على القوة والسيف وقد اختار لقب « خليفة رسول الله » (صلعم) لما فيه من قوة وجاذبية وتأثير حتى تنهض الدولة الحديثة وتسلم من الثورات والتفكك، وانهى بحثه فى موضوع الخلافة الاسلامية بقوله: «والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية كلا ولا القضاء ولا غيرها من وظائف الحكم ومراكز الدولة ٠ وانما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنها وانما تركها لنا لنرجع فيها الى احكام العقل وتجارب الامم وقواعد السياسة ٠٠٠ ولا شىء فى الدين يمنع المسلمين من ان يسابقوا الامم الاخرى فى علوم الاجتماع والسياسة كلها وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذى ذلوا له واستكانوا اليه ، وان يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على احدث ما انتجت العقول البشرية وامتن ما دلت تجارب الامم على انه خير اصول الحكم » (1)

---

(1) نفس المصدر ـ ص : 243 ٠

وقد نقض الشيخ محمد الخضر حسين هذه الآراء متبعا نفس الاسلوب فبين ان بيعة أبى بكر لم تقم على القهر بل على الاختيار والتشاور ، كما ان حكمه كان دينيا ودنيويا طبقا لما دعت اليه الشريعة الاسلامية ونصوصها الثابتة ، وذكر ببعض الاحداث التاريخية وما كان عليه الخلفاء الراشدون من تمسك بالدين وتطبيق لتعاليمه وحثهم الامراء والولاة على السير فى نفس المنهاج حتى تتدعم الدولة الاسلامية الجديدة .

ثم تعرض الى ما قاله صاحب كتاب « الاسلام واصول الحكم » فى الخلافة وهو خلاصة الابواب التى جاءت فى كامل صفحات البحث فذكر بالردود العلمية والعقلية التى قدمها خلال مناقشة الابواب والفقرات ، واكد ان الشريعة الاسلامية حاوية لكل القوانين والقواعد الصالحة لبناء دولة عصرية قوية ، وان المسلمين فى غنى عن الاعتماد على قوانين وضعية اجنبية عن الاسلام وتعاليمه ثم ختم نقضه بوصف كتاب « الاسلام واصول الحكم » بانه « يحمل سموما لو تجرعها المسلمون لتبدلوا الكفر بالايمان والشقاء بالسعادة والذلة بالعزة ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » (1) .

ان الدارس لهذا النقض ليتبين قدرة الرجل العلمية والعقلية على اقامة الحجة وتقديم الدليل المقنع مما يجعل هذا الكتاب وثيقة هامة يرجع اليها المهتمون بقضايا الخلافة وشؤون الحكم فى الاسلام . الا ان ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى ان المؤلف قد بالغ احيانا فى التهجم على صاحب « الاسلام واصول الحكم » باستعمال عبارات حادة وخاصة فى المواضيع التى تتصل بالاسلام وبرسوله وبالخلفاء الراشدين وذلك لسيطرة النزعة الدينية على نفسه وعقله وقوة عقيدته وايمانه ، وشدة حساسيته وغيرته على الدين الحنيف ورجاله وهذا ما جعله يبتعد عن الاعتدال المعهود به عند بحث هذا الموضوع فينقض كل ما جاء فى كتاب الشيخ على عبد الرازق ويهدم محتواه حتى يبقى «ألفاظا لا تعبر عن معنى ومقدمات لا تتصل بنتيجة » .

---

(1) نفس المصدر ــ ص : 245 .

نقض كتاب فى الشعر الجاهلى :

ألف الدكتور طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » سنة 1926 م٠ ، وهو يحتوى على ثلاثة ابواب وستة عشر فصلا بحث فيها المؤلف شعر العرب الجاهليين من حيث تمثيله لحياتهم ، وتقديم صورة واضحة عن المظاهر العقائدية واللغوية والاجتماعية لها ، وقد انتهى المؤلف الى ان اغلب الاشعار الجاهلية لا تعبر عن واقع مجتمعهم وهى منتحلة لاسباب دينية وسياسية وشعوبية ٠

وقد اثار هذا الكتاب ضجة كبيرة لدى المثقفين عامة ورجال الدين خاصة فاتهم صاحبه بالكفر (1) وتناول الرد عليه عدد من علماء الاسلام والادباء منهم الشيخ محمد الخضر حسين الذى ألف كتابه « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » ٠

صدر هذا الكتاب سنة 1345 هـ٠ / 1927 م٠ وعنيت بنشره المطبعة السلفية بالقاهرة وهو يحتوى على 362 صفحة تشمل ثلاثة ابواب وستة عشر فصلا أى نفس التقسيم الذى اتبعه طه حسين فى تأليفه ٠

افتتح المؤلف هذا « النقض » برأى الشيخ عبد الرحمان قراعة مفتى الديار المصرية فى الكتاب الذى اشار فيه الى محاربة الداعين الى معاداة الدين الاسلامى وتهجمهم عليه ومنهم صاحب كتاب « فى الشعر الجاهلى » الذى عرف « بالتعصب لكل ما فيه كيد للاسلام وحط من جلاله وفضائل عظمائه وآله » (2) ثم اثنى على الشيخ محمد الخضر حسين التونسى « حضرة العالم **المحقق والفهامة المدقق » الذى حلل الكتاب تحليلا علميا « نزيها » ودحض ما** فيه من اباطيل وبين ما فيه من شبهات ٠

ان هذا « الرأى » وثيقة هامة تبين ان السبب الاول الذى دعا المؤلف للرد على طه حسين **هو سبب دينى اكثر منه ادبى ولغوى ، كما تبين ايضا قيمة**

---

(1) انظر ـ ص : 94 من هذا البحث .

(2) م . خ . حسين « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » ص : د .

الرجل العلمية وتقدير ابرز شيوخ مصر لكفاءته وسعة معارفه فى ميادين اللغة والادب والدين ٠

ثم قدم الكتاب بالحديث عن المراحل التى مرت بها الحياة الفكرية والاجتماعية فى المشرق واشار الى وجود طائفة « تلهج باسم حرية الفكر » للنيل من الاسلام ورجاله ، والغض من جهادهم فى سبيل اعلاء كلمة الحق والرشاد ٠ وتعرض فى هذه المقدمة الى الطريقة التى اتبعها فى نقض كتاب طه حسين وهى تختلف قليلا عن طريقته فى « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » اذ انه لم يقم بتلخيص الفصول بل اقتصر على ذكر الفقرات ومناقشتها مما يجعل تبويب النقاش بصورة مفصلة صعب المنال الا فى بحث خاص بهذا الكتاب ٠ ولذلك فسأكتفى بالتعرض الى اهم القضايا التى اشتد فيها الخلاف بين الرجلين للتعريف بمحتوى الكتاب بايجاز وتحليل اسلوب المؤلف لما له من اهمية فى بيان نوع النقاش وصيغته ومنهجه ٠

ابتدأ الدكتور طه حسين الفصل الاول من الكتاب بالاشارة الى النوع الجديد من البحث الذى يريد اتباعه لدراسة تاريخ الشعر العربى ، وهو نوع جعله يضع علم المتقدمين كله موضع البحث لانه ليس من انصار القديم الذين اطمأنوا الى ما قاله القدماء ورضوا به بل هو من انصار الجديد الذين لهم عقول تجد « فى الشك لذة وفى القلق والاضطراب رضا » (1) وذكر المؤلف النتيجة التى توصل اليها بعد شك وتفكير ودراسة وهى « ان الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء » (2) ٠

وقد ناقش الشيخ محمد الخضر حسين هذا الفصل باسلوب قوى ، ولهجة حادة ، وكلمات نابئة فى بعض الاحيان ٠ فلاحظ ان قيمة البحث ليست فى نوعه وانما فى طريقته العقلية وفى النتيجة المنطقية التى ينتهى اليها ، وأشار

---

(1) م ٠ خ ٠ حسين « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » ص : 12 ٠

(2) نفس المصدر ــ ص : 17 ٠

الى انه لا يوجد مذهب فى الادب العربى يقيد البحث بقيود ويمنع الباحث من اعمال العقل ، ولذلك فهو لا يعارض المؤلف فى انتهاج الاسلوب الذى يريد شرط ان لا يمس بالدين الاسلامى ويزيغ عن الحقيقة · الا انه لم يكتم غيضه من الكتاب وصاحبه مما جعل عبارات التهجم تبرز فى هذا الفصل الاول فيقول : « يعرف كل من من قرأ كتاب ــ فى الشعر الجاهلى ــ ان ليس فيه ما يثير سخط الناس سوى ما كان طعنا فى الاسلام صراحة او غمزا وما عدا هذا انما هو الخطأ او الشذوذ » ويضيف الى ذلك : « ولو صح ان تعصر هذه العبارات لتقاطر من خلالها قذف فاحش وفسوق كثير » (1) ثم يتهم المؤلف بانه أغار على نظرية المستشرق الانقليزى مرغليوث فى الشك فى الشعر الجاهلى التى نشرها فى مقال بمجلة الدراسات الآسيوية الملكية سنة 1925 م· ونسبها الى نفسه مع تحريف وتزوير ·

اما فى الفصل الثانى فقد تعرض طه حسين الى المنهج الذى سيتبعه لدراسة الشعر الجاهلى وهو منهج ديكارت الذى سيطر على التفكير الغربى فى كل ميادين المعرفة ، ويجدر بالباحثين العرب السير عليه لتخليص التاريخ والادب العربيين مما علق بهما من ركود وزيغ وتزييف نتيجة الخلط بين العاطفة والعقل والتأثر ببعض العوامل الدينية والقومية التى تبعد الباحث عن الحقيقة ·

ورد صاحب « النقض » على ذلك بالاشارة الى ان العرب لديهم أبو حامد الغزالى وابن خلدون اللذان سبقا ديكارت فى القول بالشك ، والدعوة الى تمحيص الاخبار والآراء وفحصها قبل التصديق بها والاعتماد عليها ، ثم اتهم المؤلف بان له دينا آخر غير الاسلام وقومية اخرى مما جعله يدعو الى نسيانهما عند بحث التاريخ والادب العربيين ، وهذا فى رأينا مبالغة وتطرف خاصة وان صاحب « فى الشعر الجاهلى » قد اورد ذلك فى سياق الحديث عن ضرورة تجرد الباحث من كل المؤثرات التى من شأنها ان تمس استقلاله وتجرده الفكريين ·

---

(1) نفس المصدر ــ ص : 17 ·

ثم تحدث طه حسين فى الفصل الثالث من الكتاب عن القرآن من حيث انه « اصدق مرآة للعصر الجاهلى » من الناحية اللغوية والاجتماعية والدينية التى لم يتعرض اليها شعراء ذلك العصر ، فلم يصوروا الجدال العقائدى الذى كان قائما وقتئذ ، ولا صلة العرب بغيرهم من الامم والشعوب ، ولا خشونة الجاهليين و « غباوتهم » • وناقش الشيخ محمد الخضر هذه الآراء فبين ان القرآن لم يتحدث عن جميع مظاهر الحياة الجاهلية لانه لم يكن « مؤرخا ولا مادحا » بل هو كتاب هداية وارشاد ، ولذلك فقد سكت عن بعض هذه المظاهر ، ثم اشار الى ان المستشرق مرغليوث هو الذى لاحظ عدم تصوير الشعر الجاهلى للحياة الدينية الجاهلية فأغار المؤلف على هذه النظرية ونسبها الى نفسه ، والغريب ان الناقد قد اكتفى بذلك ولم يبين لنا رأيه فى صحة هذه النظرية •

ثم تعرض الى الصلات التى كانت تربط العرب بجيرانهم ، وتصوير الشعراء لها مثل عمرو بن كلثوم ، وامرىء القيس ، وأمية ابن أبى الصلت ، والأعشى « الذى كان يفد على ملوك فارس ولذلك كثرت الفلرسية فى شعره » واستشهد ببعض الابيات لهؤلاء الشعراء تبين ان العرب لم يكونوا « أمة منعزلة تعيش فى صحرائها لا تعرف العالم الخارجى » ويختم نقض هذا الفصل بقوله : « اذن لا نكسر ما بأيدينا من مرآة للحياة الجاهلية فان المؤلف وعدنا فأخلفنا ولم يستطع ان يستكشف للحياة الجاهلية صورة ممتعة او مدهشة » (1) •

ولم يكتف الدكتور طه حسين بالاشارة الى ان الشعر الجاهلى لا يصور الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين فأضاف انه لا يمثل لغتهم ايضا مذكرا بالاختلاف الذى كان قائما بين لغة حمير العاربة ولغة عدنان المستعربة ، ومستشهدا بقولة عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » ، ويتعرض الى هجرة سيدنا اسماعيل الى مكة فيقول : « للتوراة ان

---

(1) المصدر السابق ـ ص : 65 .

تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن ان يحدثنا عنهما ايضا ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة » (1) •

وتناول صاحب « النقض » الرد على ما جاء فى هذا الفصل فتحدث عن الاختلاف بين لغة القحطانيين ولغة العدنانيين وبين ان ما ذكره المؤلف فى شأنه قد « استعاره » من المستشرق مرغليوث وهو لا ينازع فى وجود هذا الاختلاف بين اللغتين الذى دلت عليه الآثار المخطوطة التى وقع العثور عليها فى المناطق التى تسكنها هذه القبائل ، الا انه يرى ان ذلك قد سبق عشرات السنين ظهور الدين الاسلامى ونزول القرآن فخف التباين بينهما « وزال منه جانب من الفوارق » واعتمد الشيخ محمد الخضر فى رأيه هذا على نظرية علماء اللغة المتعلقة باندماج اللغات وكيفية اتصال بعضها ببعض ، فلاحظ « ان انقلاب لغة الى اخرى تخالفها فى مفرداتها وقواعد نحوها وصرفها ليس بالامر الميسور حتى يمكن حصوله فى عشرات قليلة من السنين » (2) ، واستشهد بخطب واقوال بعض رجال حمير ليثبت ما ذهب اليه من التقارب والتمازج الذى اصبح موجودا بين اللغتين ، واشار الى ان المؤلف قد حرف قولة عمرو بن العلاء وحقيقتها : « ما لسان حمير واقاصى اليمن لسانا ولا عربيتهم بعربيتنا » ثم ناقشه باسلوب حاد فى قضية هجرة اسماعيل الى مكة مبينا ان ورودها فى القرآن يؤكد وجودها التاريخى الا بالنسبة الى الذين « لم يؤمنوا به » ولم يثقوا فى نص كتاب الله المنزل على رسوله • وقد اثبت الرجل فى هذا الفصل معرفة دقيقة بقضايا اللغة العربية وعلم تطور اللغات عامة وكيفية اتصالها وتمازجها واتحادها عبر السنين والعصور •

اما الفصل الاخير من الباب الاول فقد خصصه الدكتور طه حسين لبحث

---

(1) المصدر السابق ـ ص : 76 .

(2) المصدر السابق ـ ص : 72 .

الشعر الجاهلى واللهجات مشيرا الى أنه يشك فى وجود القبائل العربية وفى انتساب الشعراء الى هذه القبائل ، وتعرض الى اختلاف اللهجات بين القبائل اختلافا بينا وما وجود القراءات السبع فى القرآن الا دليل على ذلك ثم لاحظ ان القصائد الجاهلية الطوال منتحلة ولا يمكن ان توجد الا بوجود لغة واحدة يتكلمها اصحاب هذه المطولات جميعا ، وبين المؤلف ان الابيات الشعرية التى يستشهد بها العلماء عند بحث موضوع يتصل بالقرآن منتحلة ايضا ومصنوعة لذلك الغرض .

وناقش الشيخ محمد الخضر هذا الفصل فأشار الى ان انكار المؤلف اسماء القبائل العربية « لا يمكنك علاجه الا اذا استطعت ان تعالج اصم ينكر ان فى الاصوات مزعجا وآخر لذيذا » (I) وبين اهتمام العرب بالانساب وعنايتهم بها ، فبها يتفاخرون ويتفاضلون وهى مبعث مجدهم وعزتهم ثم تعرض الى اختلاف اللهجات الذى كان فى رأيه جزئيا يتعلق بمعانى بعض الكلمات ، او مخارج بعض الحروف وهيأتها وكل ذلك محفوظ فى كتب اللغة والنحو ، وتحدث عن وجود لغة ادبية واحدة كان الشعراء الجاهليون يلقون بها قصائدهم حتى تفهمها جل القبائل وهى لغة المعلقات والمطولات الشعرية ، ووافق المؤلف فى وجود الابيات الشعرية المنتحلة وتعرض الى ما قام به العلماء لتمييز الشعر المنتحل من غيره قصد التثبت والتحرى حتى تكون شواهدهم اللغوية سليمة وحقيقية ، وقد بدا صاحب « النقض » فى هذا الفصل منطقيا فى نقاشه علميا فى اغلب نظرياته ومواقفه .

اما الباب الثانى من الكتاب فقد بحث فيه المؤلف اسباب انتحال الشعر ، ودعا فى فصله الاول الباحثين العرب الى دراسة تاريخ الرومان واليونان لان التفكير فى حياة الامم العربية والرومانية واليونانية يفضى الى آراء متشابهة « لان مؤثرات واحدة او متقاربة اثرت فى حياة هذه الامم فانتهت الى نتائج واحدة او متقاربة » واكد ضرورة اتباع منهج ديكارت عند دراسة التاريخ والشعر العربيين لان « المستقبل لمنهج ديكارت لا لمنهج القدماء » .

(I) نفس المصدر ـ ص : 97 .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب تناول المؤلف « السياسة وانتحال الشعر » ففصل الحديث عن النزاع الذى كان قائما بين قريش والانصار لعهد النبوة وتجدده لعهد معاوية عندما انهى العرب الفتوحات « وعاد بعضهم الى بعض » ، وقد دفع هذا النزاع السياسى رجال الفريقين وشعراءهم الى انتحال قصائد كثيرة لابراز مجد كل منهما ومفاخره عن الفريق الآخر ·

وناقش الشيخ محمد الخضر ما جاء فى الفصل الاول فبين ان هناك عاملا يفرق بين العرب وغيرهم من الامم من الناحية التاريخية وهو الدين الاسلامى الذى جعلهم ايمانهم به يفتحون البلدان وينتصرون على اعظم الدول واكبرها فى عهدهم رغم قلة عددهم وضعف عدتهم ، ودعا الى التمسك بالثقافة العربية فيها من مناهج قويمة سبقت منهم ديكارت وغيره من المثقفين الغربيين ثم تعرض الى الفصل الثانى فوافق المؤلف فى ظهور العصبية لعهد بنى أمية « ولكنها وجدت مقاوما خفف من ويلاتها وهو ادب الاسلام » وكأن حديث طه حسين عن الدين يثير فى نفسه القلق والاضطراب ولذلك نجده يقول : « لو قدر للمؤلف ان يكتب فى علم الحساب او الهندسة لما طاب له الانصراف عن الحديث حتى يرمى الى ناحية الاسلام او رجال الاسلام بكلمة يمن بها على اوليائه من غير المسلمين » (1) ·

اما بقية فصول هذا الباب فتحدث فيها طه حسين عن اثر الدين والقصص والشعوبية والرواة فى انتحال الشعر واشار الى ان الاشعار الجاهلية التى تعرضت الى النبوة قبل قدومها او حملت معانى جاءت فى الكتاب والسنة هى منتحلة ثم بين دور القصاص فى اختلاق اشعار للاستشهاد بها فى كتبهم مثل ابن اسحاق الذى اضاف ابياتا شعرية كثيرة ليست من الجاهلية فى شىء · اما النزعة الشعوبية التى ظهرت عند اختلاط العرب بعناصر اخرى بعد الفتوحات الاسلامية فقد تسببت فى خلافات شديدة بين هذه الفئات المتعايشة

---

(1) المصدر السابق ــ ص : 139 .

فى ظل الخلافة الاسلامية وخاصة بين العرب وغيرهم من الموالى مما جعل كلا منهم يسعى الى ابراز تفوقه وعلو شأنه عن خصمه فى الميادين الثقافية والعلمية المختلفة • وقد كان الشعر وسيلة من وسائل المفاخرة ولذلك انتحلت اشعار كثيرة سواء منها ما يظهر مجد العرب او ما يظهر عيوبهم والغض من قيمتهم • وساعد الرواة على هذا الانتحال تاثرهم بعوامل عديدة دينية وسياسية وشعوبية ، بالاضافة الى من كان منهم - مثل حماد الراوية وخلف الاحمر - صاحب لهو ومجون وانصراف عن الدين وقواعد الاخلاق • وقد ناقش الشيخ محمد الخضر ما ورد فى هذه الفصول من آراء مستعملا الاسلوب الجدلى فى بعض الاحيان ، ولم ينكر على المؤلف الا تعميمه فى اطلاق الاحكام سواء بالنسبة الى القصاص او الرواة او العلماء والادباء من الموالى ، وبين ان منهم النبهاء الذين لم يمسسهم احد بنقد وتجريح ، ولذلك فان الشعر الذى ينقله او يرويه هؤلاء « نقبله على انه شعر من نسبوه اليه الى ان تقوم على انتحاله بينة » (I) • ويبدو فى رأينا ان صاحب « النقض » قد نحا منهج الاعتدال فى نقد هذه الفصول • وقد تهجم فى بعض الفقرات على المؤلف وخاصة منها ما يتصل بالخلفاء وعلماء الاسلام ، لكنه لم يتطرف فى احكامه ، وحاول ان يبين اعتماد طه حسين على نظريات بعض القدماء او المستشرقين ، والمبالغة فيها والمغالاة فى تحليلها كل ذلك لترجيح نظرية الشك فى الشعر الجاهلى •

اما الباب الثالث من الكتاب فيخصصه طه حسين للحديث عن بعض الشعراء الجاهليين مثل : امرىء القيس ، وعلقمة ، والمهلهل ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة بن العبد ، وحلل تاريخ كل واحد منهم واشعاره وابرز مظاهر الشك التى يمكن للدارس ان يكشفها سواء من خلال المصادر التاريخية ، او من التعمق فى دراسة القصائد الشعرية من الناحية الادبية واللغوية والفنية • وكان موقف الشيخ محمد الخضر فى جميع هذه الفصول الاخيرة من الكتاب الاشارة الى ما يبديه المؤلف من مغالاة وتطرف فى احكامه على هؤلاء الشعراء من

(I) نفس المصدر - ص 284 .

حيث وجودهم فى التاريخ ، او من حيث انتحال الاشعار المنسوبة اليهم ولاحظ ان الباحثين القدماء قد اشاروا الى كثير مما ذكره طه حسين ، وبينوا مواطن الشك فى حياة هؤلاء الشعراء وفى اشعارهم ، فأخذ عنهم وتجاوزهم للمس من تاريخ العرب والمسلمين « ولا عجب ان يتصور المؤلف او يصور تاريخ العرب على غير وجهه الحق ، ولا عجب الا يبصر ما فى حقائق الاسلام من وضاءة وحكمة فانه اصبح غريبا عن العرب والاسلام والغريب – كما يقولون – اعمى • وانما العجب من استاذ الآداب ان ينقد الشعر بما لا ينقده به ذوو الاذواق السليمة » (1) •

وخلاصة القول ان « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » وثيقة هامة مفيدة لدارسى الادب الجاهلى وخاصة منهم المهتمين بقضية الشك فى شعر العرب الجاهليين ، لما قدمه صاحبه من حجج لغوية وتاريخية وفنية خلال نقاشه لكتاب طه حسين ، وما ابداه من اعتدال ونزاهة فى كثير من الفقرات والفصول رغم سيطرة النزعة الدينية عليه واستعمال اللهجة الحادة والعنيفة احيانا •

ولذلك فقد خص هذا الكتاب بتقدير عدد من علماء الاسلام المعاصرين والادباء العرب البارزين منهم الدكتور طه حسين نفسه (2) •

الفصل الثانى

* * *

الرسائل والبحوث

اصدر الشيخ محمد الخضر عددا من الرسائل والبحوث تتعلق ببعض المواضيع الدينية والادبية واللغوية دعمت شهرته العلمية فى الاوساط الثقافية الاسلامية وهى :

(1) المصدر السابق – ص : 330 .

(2) م . ف . ابن عاشور – محاضرته فى اربعينية الشيخ م . خ . حسين – مارس 1958 .

- الدعوة الى الاصلاح ·
- الخيال فى الشعر العربى ·
- القياس فى اللغة العربية
- محمد رسول الله وخاتم النبيين ·

وسنقوم بتقديم محتوى كل رسالة او بحث بايجاز للتعريف به وبيان قيمته ·

الدعوة الى الاصلاح :

اهتم الرجل منذ دخوله الحياة العلمية باصلاح المجتمع الاسلامى ، فكتب المقالات ، والقى المحاضرات فى جميع المظاهر التى تتصل بهذا المجتمع ، منبها الى ما فيها من علل ونقائص ، موجها الى كيفية اصلاحها · ولم يكتف بذلك فنشر رسالة خاصة بالموضوع عنوانها « الدعوة الى الاصلاح » طبعت سنة 1328 هـ· / سنة 1910 م· بالمطبعة الرسمية بتونس « على نفقة » السيد محمد العروسى بن الحسين (1) فى 41 صفحة من الحجم (15 × 23) صم ·

وكان المؤلف فى تلك السنة مدرسا بجامع الزيتونة وبالمدرسة الصادقية· ثم اعيد طبعها بالقاهرة سنة 1346 هـ· / 1928 م· بعناية المطبعة السلفية ومكتبتها فى 83 صفحة من الحجم الصغير (13 × 19 صم) ، بعد ان ادخل عليها صاحبها تحويرا فى التبويب وتنقيحا فى بعض الفقرات والفصول ·

تحتوى هذه الرسالة على ثلاثة عشر فصلا تبحث فى اربعة مواضيع رئيسية وهى : الحاجة الى الدعوة ، وشروط الداعى ، وطريقة الدعوة ، ومضمونها ·

وقد تعرض المؤلف فى المقدمة الى الاسباب التى قعدت بالامم الاسلامية فى خمول وانحطاط حتى سيطرت عليها الدول الغربية واهمها فى رأيه : « يرجع الى تهاون هذه الامم بتعاليم الشريعة ، ونكث ايديهم من المشروعات التى

---

(1) احد اخوة المؤلف - توفى بدمشق سنة 1917 م .

عهدت اليهم بالقيام عليها » (1) ثم تحدث عن الحاجة الى الدعـوة الى الاصلاح فى هذا العصر الذى كثر فيه التضليل والخداع ، كما تعددت فيه الـوسائل التى تشجع على ذلك من صحف ونشريات ونواد وجمعيات وهو ما لم يكـن متوفرا فى العصور القديمة « وهذا ما يجعل الدعوة الـرشيدة من افضـل الواجبات واحمد المساعى » . ويتحمل القيـام بهـذه المهمـة الشـريفة كل المسلمين والعلماء منهم خاصة ، فلا تقتصـر على فـرد دون آخـر ، بل من الضرورى ان تتحملها الجماعة حتى ينتظم امرها ويستقيم طريقها ، ولا تبقى رهينة رغبة الافراد واختيارهم . ثم اشار الى الشروط التى يجب توفرها لدى « الدعاة » واهمها ان يكونوا على بينة مما يقومون به ، وان يكون كل منهـم مستقيما فى سيرته « لان الناس لا يقتدون برأى مـرشد ولا تلين قلـوبهم لموعظة واعظ الا اذا وثقوا بأمانته وابصروا فى حالته الظاهرة مثالا لما ينصحهم به » واكد المؤلف على هذا الشرط فذكر الامثلة والشواهد منها قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » . ولا شك ان خبرته الاجتماعية وسعة تجاربه قد مكنته من مشاهـدة العـدد الكبير من الناس الذين « يقولون ما لا يفعلون » .

وقد خصص اغلب فصول هـذه الـرسالة للحـديث عن طـرق الدعـوة وأساليبها ، لان العبرة ليست فى مهمة الدعاة وانما فى مـدى تأثيـرهم على الناس واقناعهم ، فيشير الى ضرورة مراعاة اذواق المخاطبين باللسان او بالقلم ، ودرجاتهم الثقافية ، واحوالهم النفسية ، ويبسط القول فى تحليـل نفسية الافراد والجماعات والحالات التى تكون فيها اكثر من غيرهـا قابلـة للدعوة والاصلاح ، ثم يذكر الاساليب التى يحسن اتباعها للتأثير والاقناع مثل « ان يضع (الداعى) نفسه بمنزلة السائل المتطلب للحقيقة ، ويقيـم الحجة فى معرض الاسترشاد حتى تعلق باذهان المخاطبين » واستعمال التـدرج كان يبدأ المصلح بما هو ايسر عملا واقرب الى المـألوف لدى الامـة ، وهو

---

(1) م . خ . حسين ـ الدعوة الى الاصلاح ـ ص : 4 .

الاسلوب الذى جاء به القرآن لنشر تعاليم الدين الاسلامى مما جعل احد الصحابة يقول : « لو جاءنا رسول الله بهذا الدين وبالقرآن دفعة لثقلت هذه التكاليف علينا فما كنا ندخل فى الاسلام » .

وتعرض صاحب « الرسالة » بعد ذلك الى الاسباب التى تدعو الى اهمال الدعوة ومنها قلة الصبر على تحمل المكاره ، واستبداد الملوك والرؤساء ، وانتشار المداهنة والخوف وابتغاء رضا السلطة وذوى النفوذ لدى العلماء والقادرين على الاصلاح . وختم حديثه ببيان محتوى الدعوة وهو « محو المزاعم الباطلة ، وربط قلوب الناس بالاعتقاد الصحيح » ومكافحة الرذائل حتى تستقيم الاخلاق الاسلامية وتقوى فى النفوس وبذلك تقوى الامم ، وتسلم من الضلال فتستطيع مسايرة المدنية الحديثة .

وقد اظهر المؤلف فى هذا الكتاب قدرة كبيرة على فهم نفسية الافراد والجماعات وكيفية التأثير عليها لاصلاحها الى الهداية والرشاد مما جعل علماء الاسلام يولونه اهتماما خاصا ويكبرون صاحبه ويجلونه ، وقد قال له الشيخ عبد الفتاح المكاوى احد علماء مصر بعد مطالعة هذه الرسالة : « علمت ان الاسلام لم يعدم انصارا ولم يزل للارشاد دعامة هى خير الدعامات . قلت فبرهنت ودعوت فسددت ... ولا يسعنى الا تهنئة الحاضرة التونسية بك ، بل الاقطار الافريقية ، بل الممالك الشرقية » (1) .

الخيال فى الشعر العربى :

كان الشيخ محمد الخضر شديد الاهتمام بعلم البلاغة منذ تعلمه بجامع الزيتونة ، وقام بتدريسه فى نفس المعهد فكانت دروسه عن « المثل السائر » لابن الاثير مقصد التلاميذ لذلك العهد . كما قام بتدريس كتابى « اسرار البلاغة » و « دلائل للاعجاز » للشيخ عبد القاهر الجرجانى بالمدرسة السلطانية بدمشق ، وقد تأثر شديد التأثر بنظريات هذا العالم الشهير فظهر ذلك جليا فى محاضراته وبحوثه اللغوية والادبية .

(1) انظر الملحق ـ خلاصة الرحلة الشرقية ـ ص : 255 .

ولهذا فلا غرابة ان يهتم الرجل بالخيال فى الشعر العربى ويعتمد فى بحثه على ما قاله القدماء وخاصة صاحب « اسرار البلاغة » ٠

لقد طبع هذا الكتاب بالمطبعة الرحمانية « بنفقة وعناية » المكتبة العربية بدمشق فى شعبان سنة 1340 هـ٠ / افريل عام 1922 م٠ وكان صاحبه قد نشره تباعا فى مجلة « المنار » (1) خلال سنة 1921 م٠ ثم أعاد طبعه السيد على رضا التونسى ناشر آثار الرجل سنة 1972 م٠ فى كتاب يحوى بالاضافة الى ذلك مقالات وبحوثا ومحاضرات كتبها والقاها المؤلف فى مناسبات مختلفة مثل محاضرة « الخطابة » التى قدمناها فى فصل سابق (2) ٠

يحتوى التأليف على 91 صفحة بحث فيها صاحبه تعريف القدماء للشعر والاطوار التى مر بها الخيال فى الشعر العربى ٠

فأشار فى اول الكتاب الى ان تعريف القدماء للشعر قد اقتصر على اللفظ ونسى الروح التى تجعل الكلام شعرا وتميزه عن النثر وهى التخيل ثم تعرض الى مفهوم البلغاء والفلاسفة لهذه القوة النفسية فناقش آراءهم وعرف المتخيلة بأنها « قوة تتصرف فى المعانى لتنتزع منها صورا بديعة » (3) وهى لذلك تعتمد على تداعى هذه المعانى ، وخطورها على الذهن بسهولة ٠ اما الاسباب التى تدعو الى تجمع المعانى والصور وتجاذبها فهى ثلاثة :

1 ـ اقتران معنيين فى الذهن حيث يكون الاحساس بهما فى وقت واحد لارتباطهما بمكان او زمان او حادثة معينة ٠

2 ـ تباين الصور وتضادها مما يجعل بروز بعضها مذكرا بالبعض الآخر مثل الشجاعة والجبن ، والصدق والكذب ٠٠

3 ـ التشابه والتماثل بين المعانى فى أمور خاصة ٠

---

(1) انظر ـ المنار م 22 الاجزاء : 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ 7 ـ 9 ٠

(2) انظر ـ ص : 157 ٠

(3) م ٠ خ ٠ حسين ـ « الخيال فى الشعر العربى » ـ ص : 13 ٠

واشار المؤلف الى ان تداعى المعانى يختلف من شخص الى آخر نظرا الى اختلاف العواطف النفسية وظروف الحياة واطارها الحضارى . ثم تعرض الى « فنون الخيال » فذكر اهمها ومنها : تكثير القليل مثل قول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البـر حتى ضـاق عنـا
وظهر البحر نملأه سفينا (I)

فجعل قبيلته القليلة العدد تملأ البر والبحر . او تكبير الصغير كقـول الشاعر ، واصفا الاسد عندما وقع على الارض :

فخـر مضـرجـا بـدم كأنـى
هدمت بـه بنـاء مشمخرا (2)

ومنها ايضا تصغير الكبير او جعل الموجود بمنزلة المعدوم .

اما اسباب جودة الخيال فيعزوها الى مظهرين بارزين وهما :

I – ان يعيش الشاعر فى اطار حضارى متمدن لما فى ذلك من كثرة الصور وتعدد المناظر فتغزر مادته وتكون « مخيلته اكثر عمـلا فى انشـاء المعانى وابداعها » .

2 – الشعور بالحرية لان الاستبداد المطلق يطبع الناس على الجبن فيضيق خيال الشاعر ، وينحصر نطاق نشاطه (ومن ذا ينكر ان الخيال الذى يسخره صاحبه فى كل غرض ويطلق له العنان فى كل حلبة يكون ابعد مرمى واحكم صنعا من خيال الشاعر الذى حصرته السياسة فى دائرة ورسمت له خطة لا يفوتها » (3) .

ثم تحدث عن التفاضل فى التخييل فبين ان الموازنة بين الشعراء لا يمكن

(I) البحر : الوافر .
(2) البحر : الوافر .
(3) نفس المصدر السابق – ص : 40 .

ان تعقد الا اذا تناول الشاعران معنى واحدا لواقعة واحدة او مختلفة ، او قصدا غرضا واحدا واختلفا فى الصورة المعبرة عنه ، اما تفضيل شاعر على آخر باطلاق « فهذا لا يستقيم الا ممن اتى على معظم شعرهما » والمشهود له بمزية الرجحان فهو من كان شعره « اقل خطورا على الذاكرة ، او اوسع نطاقا فى التخييل ، او ألذ وقعا على الذوق » (I)

وتعرض صاحب البحث الى اغراض التخييل ، ثم اشار الى الاطوار التى مر بها الخيال فى الشعر العربى فلاحظ ان فن التخيل « كسائر الملكات والصنائع » يترقى شيئا فشيئا ، وان العرب فى الجاهلية كانوا لا يشاهدون الا مناظر فطرية كالكواكب والحيوان والصحراء ولذلك كانت أمثلة التخيل الجيد « نادرة فى اشعارهم » ، وتطور هذا الفن بعد الاسلام بنزول القرآن وما اضافه هذا الدين الحنيف من معانى جديدة وصور طريفة ، ثم ترقى الخيال فى العهد العباسى باختلاط العرب بأمم اخرى ، واحتكاكهم بحضارات مغايرة لحضارتهم فازداد الذوق العربى تهذيبا والمعانى غزارة وتنوعا .

وفى خاتمة هذا البحث اشار المؤلف الى تعريف بعض المستشرقين للخيال الذى هو « عقد محاورة او انشاء قصة يسوقها الشاعر لمغزى سياسى او اخلاقى او لغرض التفكه والاطراف بملح الحديث » (2) ولذلك « يرمون الشعر العربى بقلة الحظ ، وقصر الخطا فى مضمار الخيال » وقد قام بنقد ضمنى لهذا الرأى لكن يبدو ان الرجل لم يتعمق فى نظريات الغربيين المتعلقة بهذا الموضوع الشائك مما جعله يقتصر على الاشارة الى ان الشعراء العرب لم يهتموا به .

ويعترف الشيخ محمد الخضر بان هذا الفن لا يستطيع الاجادة فيه « والغوص فى اغواره » « الا من بات فكره فى صفاء وضميره فى ارتياح » (3)

(I) نفس المصدر – ص : 55 .

(2) نفس المصدر – ص : 89 .

(3) نفس المصدر – ص : 9I .

وليست هذه حاله عند كتابة هذا البحث فقد كان يومئذ نزيل مصر « الغريب » الذى لم يستقر قراره بعد (I) •

وان الدارس لهذا البحث ليتبين اعتماد المؤلف على علماء البلاغة القدماء وخاصة الشيخ عبد القاهر الجرجاني سواء بالنسبة الى القضايا المتعلقة بعلم البلاغة عامة او بفن التخيل ، فكان بذلك محافظا فى آرائه وتحاليله واحكامه على ان ذلك لا ينقص من قيمة البحث من ناحية عمقه وشموله واستقصائه • ويذكر بعض المهتمين بموضوع الخيال والشعر العربى ان أبا القاسم الشابى قد رد على هذا البحث بطريقة ضمنية فى محاضرته « الخيال الشعرى عند العرب » الا اننا لم نعثر على صلة واضحة تؤكد هذا الافتراض رغم الاختلاف الذى كان قائما بين الرجلين والتنافر الذى كان يسود العلاقة بينهما (2) .

القياس فى اللغة العربية :

قام المؤلف بتدريس كتاب « مغنى اللبيب » لابن هشام فى النحو بالمدرسة السلطانية بدمشق فتجمعت لديه كثير من الآراء تتعلق بالقياس فى اللغة العربية قدمها الى تلاميذه وناقشها مع بعض من اصدقائه العلماء خلال اقامته بالبلاد السورية • وقد اقترح عليه اولئك وهؤلاء منهم الشيخ بهجة البيطار عضو المجمع العلمى بدمشق (3)جمع هذه الآراء فى كتاب يساعد قراء العربية على معرفة هذا الموضوع الهام ، كما يساعد المهتمين بقضايا اللغة على المزيد من درسه والتعمق فيه •

فاستجاب لهذا الطلب ، وكتب بحثا فى القياس فى اللغة نشره تباعا بمجلة ـ المنار ـ (4) سنة 1922 م . ثم اصدره فى كتاب خاص يحوى 120

(I) انظر ـ ص : 87 من هذا البحث

(2) محمد الحليوى : رسائل الشابى ـ الطبعة الاولى ـ ص : 46 .

(3) م • خ . حسين « دراسات فى العربية وتاريخها » ص : د

(4) مجلة ـ المنار ـ م 23 ـ ج 2 .

صفحة سنة 1353 هـ / 1934 م. وهو نفس البحث الذى قدمه ـ بعد ذلك ـ الى « هيئة كبار العلماء » فقبلته بالاجماع واصبح عضوا فيها سنة 1950 م.

وقد اعاد طبعه السيد على رضا التونسى ناشر آثار الشيخ محمد الخضر فى كتاب « دراسات فى اللغة العربية » الذى شمل عدة بحوث اخرى ودراسات ومحاضرات كتبها والقاها المؤلف فى مناسبات مختلفة حول اللغة العربية مثل محاضرته عن « حياة اللغة العربية » التى بينا محتواها بايجاز فى فصل سابق (1) .

قدم المؤلف بحثه بالحديث عن فضل اللغة العربية ومدى مسايرتها للعلوم والمدنية ، فاعتمد تعريف ابن جنى فى اللغة ، ثم اشار الى اختلاف الفلاسفة واللغويين فى اصل نشأة هذه الصيغة التعبيرية ولاحظ انه من الصعب على الدارس الرصين ان يذهب اى مذهب فى ذلك لانه لا يملك الادلة الكافية لترجيح نظرية من النظريات القائمة فى هذا الموضوع ، وتعرض الى الصلة بين اللغة والفكر ، وتأثير كل منهما فى الآخر ، وتفاعله معه ، ثم تناول ما دعا اليه بعض العلماء من تكوين لغة عالمية واحدة وهى Esperanto وبين ان تحقيق ذلك غير ممكن لاختلاف الشعوب والامم البشرية من حيث ظروف عيشها واحساسها واحوال تفكيرها .

وأشار المؤلف الى سلامة « العربية » واستمرار بقائها لانها لغة الاسلام التى انزل بها القرآن الذى هو « معجزة الرسالة ومطلع الهداية » ، وتعرض الى تباطىء هذه اللغة فى مسايرة العلم والمدنية الحديثة وتأخرها عن بقية اللغات المتقدمة مبينا ان « تأليف مجمع لغوى ينظر فيما تجدد او يتجدد من المعانى » هو الوسيلة التى تنهض بها وترفعها الى مستوى اللغات الراقية .

وفى رأينا ان الرجل قد نظر الى الموضوع من جانبه الشكلى ، ذلك لان تطور اللغات رهن تطور البشر الذى يتكلمها والشعوب التى تستعملها وتعبر بها عن مقاصدها وافكارها .

---

(1) انظر ـ ص : 153 .

ثم تحدث عن آراء الباحثين اللغويين فى القياس واختلافهم فى شأنه ، وبين حاجة اللغة اليه حتى تستطيع تبليغ كل المعانى والخواطر والصور وتعرض الى انواعه وخاصة منها « القياس الاصلى » الذى يكون فيه المقاس عليه لغة من لغات العرب على اختلافها ويحتج فى ذلك بالقرآن وبالحديث الشريف الذى لا يشك فى نصه ويتفق الرواة على صيغته ولفظه ، و « القياس التمثيلى » الذى يراد به الحاق نوع من الكلام « بنوع آخر فى حكم » وذلك اذا انعقد بينهما شبه من جهة المعنى ، او من جهة اللفظ ويسمى « قياس الشبه » ، او اشتركا فى « الصلة التى يقع فى ظنهم ان الحكم قائم عليها » ويسمى « قياس العلة » . وحلل المؤلف انواع القياس مذكرا باقوال النحاة العرب واللغويين ، ومستشهدا بأمثلة نثرية وشعرية تدعم نظرياته فى الموضوع . ثم بين المباحث المشتركة بين النوعين المذكورين من القياس وخاصة فى الاتصال بين الالفاظ وترتيبها ، والفصل بين بعضها بعض سواء باستعمال الادوات مثل حروف الجر او بالاعتماد على العوامل وحالات الاعراب المذكورة فى كتب النحو .

وقد ختم المؤلف هذا البحث اللغوى والنحوى العميق بجواب عن اقتراح الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى بدمشق المتعلق بالكلمات التى يستعملها العرب فى هذا العصر ويستنكف علماء اللغة من ايداعها القواميس العربية . وقد كان ميالا الى استعمال القياس فى كثير من الحالات اللغوية لتطوير اللغة وترقيتها فى هذا العصر لكنه كان محافظا فى هذا الجواب وقال : « ولسنا فى حاجة الى ايقاظ هذه الفوضى وهى نائمة ، ولسنا فى حاجة الى ان ندع اللغة تمشى فى غير نظام » (I) .

محمد رسول الله وخاتم النبيين :

اهتمام الشيخ محمد الخضر بحياة محمد رسول الله وبسيرته ورسالته بين فى كل مراحل حياته ، ومظاهر نشاطه العلمية والدينية . فقد كان

(I) م . خ . حسين « القياس فى اللغة العربية » ص : II5 .

الرجل شديد التعصب للدين الاسلامى والدفاع عنه حتى سخر ايامه ولياليه للقيام بتلك المهمة النبيلة التى يعتبرها فرض عين على كل مسلم ومسلمة وواجبا اكيدا على العلماء ورجال الدين . وقد القى المحاضرات الكثيرة عن النبى العربى فى مناسبات عديدة ، كما كتب المقالات والدراسات فى الموضوع ونشرها بمجلات مختلفة وخاصة منها التى كان يشرف على تحريرها مثل مجلتى « الهداية الاسلامية » و « نور الاسلام » ، ولم يشبع كل ذلك حبه للرسول (صلعم) فألف رسالة عنوانها « محمد رسول الله وخاتم النبيين » فى 47 صفحة طبعت بمطبعة المعاهد الدينية بالقاهرة سنة 1352 هـ . / سنة 1933 م . وقد اعاد السيد على رضا التونسى نشرها فى كتاب سنة 1971 م . يحوى 227 صفحة وأضاف اليه عددا من المحاضرات التى القاها المؤلف والمقالات التى كتبها عن اديان العرب قبل الاسلام ، وعن حياة الرسول (صلعم) وحكمة سياسته ، منها محاضرته « العظمة » التى القاها فى جمعية الشبان المسلمين وتعرضنا اليها بالتحليل فى فصل سابق من هذا الباب (1) .

تحدث الكاتب فى الصفحات الاولى من هذه الرسالة عن حال العرب قبل البعثة النبوية ، فأشار الى اديانهم العديدة كالدهرية والثنوية وعبادة الاصنام والكواكب وغيرها ، ووصف بعض عاداتهم السيئة مثل وأد البنات ، والطواف بالكعبة وهم عراة ، وسفك دماء بعضهم بعضا بغير حق . ثم تعرض الى سيرة النبى محمد (صلعم) قبل نزول الرسالة وما كان يتصف به من خلق كريم مثل الصدق والامانة والصبر على الشدائد مما جعل اشد الناس له عداوة مثل أبى سفيان يشهد له بذلك عندما سأله عنه هرقل ملك الروم ، وبين دلائل النبوة التى من مصادرها القرآن وما جاء فيه من آيات تتعلق بالرسول (صلعم) وبشارات الانبياء التى اخبرت بقدوم هذا النبى (صلعم) الجديد كما ورد فى التوراة والانجيل ، وسيرته النبيلة التى لا تستطيع ان تضع يدك على اسم رجل من اولئك العظماء وتقص علينا سيرته ومزاياه واعماله الجليلة حديثا

---

(1) انظر ـ ص : 155 .

يضاهى او يدانى ما تحدثك به عن هذا الرسول العظيم » (I) ومن دلائل نبوته ايضا المعجزات المحسوسة وخوارق العادات التى شهدها الناس الذين ادركوا عهد البعثة المحمدية مثل اخباره بأمور غريبة وتكثير المال القليل فى بعض الغـزوات .

ثم تحدث المؤلف عن عموم البعثة المحمدية لجميع الامم والشعوب ، واثـر دعوة الرسول العربى فى اصلاح العالم بما جاء به الاسلام من تحرير للعقول ونهضة للهمم وحفز للقرائح حتى تتخلص البشرية من عقالها وتتطور الى ارقى الدرجات وارفعها .

وتجدر الاشارة الى ان الكاتب قد لخص فى هذه الرسالة ابـرز الآراء التى قالها عن الرسول فى مناسبات مختلفة لتكون سهلة المنال للقراء وخاصة منهم الشبان المسلمين .

ويتبين لنا فى خاتمة هذا الباب المتعلق بمؤلفات الرجل قيمة هذه المؤلفات من الناحية العلمية وتنوعها وغزارة محتواها ومادتها فأكدت بذلك مكانة المؤلف الثقافية وسعة معارفه وشمولها .

(I) م . غ . حسين ـ محمد رسول الله ـ ص : 47 .

البابُ الثالِث

شِعْرُه

تذوق الشيخ محمد الخضر الشعر منذ صباه كما بينا ذلك عند الحديث عن حياته ببلدة نفطة ثم بتونس ، وحاول نظم القريظ وسنه لم تتجاوز اثنتى عشرة سنة ، ثم انقطع الى طلب العلم وتغلب ارتياحه له على ارتياحه للادب حتى « زهد فى صناعة النظم » • ولما انتقل الى البلاد الشرقية صرف همته فى « البحث العلمى والعمل للقضية الاسلامية » ولم يقل الشعر الا لتهنئة صديق ، او تذكيره بما يربط بينهما من الصلات ، او لطرق ناحية خلقية او اجتماعية مشاركة منه فى اصلاح المجتمع الاسلامى وتهذيبه . لكن ذلك كله لم يمنعه من ان يقول شعرا كثيرا وخاصة فى السنوات الاخيرة من حياته (I) .

وقد قام الرجل بجمع عدد من قصائده وطبعها فى ديوان « خواطر الحياة » وما زالت قصائد اخرى كثيرة مبعثرة فى بعض المقالات ، او محفوظة لدى زوجته واصدقائه تنتظر الجمع والتبويب والنشر .

ديوان « خواطر الحياة » :

لقد طبع هذا الديوان للمرة الاولى سنة 1366 هـ• / سنة 1946 م• وعلق عليه الشيخ محمد على النجار الاستاذ بكلية اللغة العربية ، وعنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها لصاحبها الشيخ محب الدين الخطيب احد اصدقاء

(I) اخبرنا بذلك الاستاذ البشير الزريبى الذى كانت تربطه بالشيخ محمد الخضر صلات مودة متينة .

الشاعر المخلصين ، واحتوى على 176 صفحه شملت 139 قصيـدة ومقطـوعة شعرية • ثم طبع مرة ثانية سنة 1373 هـ• / سنة 1953 م• عندما كان صاحبه شيخا للجامع الازهر واحتوى على 207 صفحات شملت 187 قصيدة • وقد وقع الاحتفاظ بقصائد الطبعة الاولى التى لم يحدث فيها الشاعـر اى تغييـر الا بالنسبة الى عنوانى القصيدتين « هو الفاروق » (1) و « العاذل والرقيب » (2) اللذين اصبحا « العرب والسياسة » (3) و « فى مجلس أدب بتونس » (4) .

افتتح الشاعر ديوانه بمقدمة تعرض فيها الى اهم فترات حياته بايجـاز ، والبيئة الثقافية التى نشأ فيها ، وانشغاله بطلب العلم وتدريسه والعمـل لصالح القضية الاسلامية • كما اشار الى مدى اهتمامه بنظم الشعـر وابـرز الاغراض التى قال فيها قصائده ومقطوعاته واضاف : « وعمدت الى ما نشر فى بعض الصحف او احتوته بعض المذكرات وضممت بعضه الى بعض مرتبا له على حروف المعجم ومنبهـا على المنـاسبة التى دعـت الى نظـم القصيـدة او المقطعة » (5) .

اما ما نشر فى هذا الديوان فاغلبه من المقطوعات الشعـرية التى تحـوى البيتين او الثلاثة او الستة ابيـات ولا يتجـاوز عـدد القصائـد الطـويلة 70 قصيدة ، فقد كان الرجل قصير النفس فى جل اشعاره الا فيما يتصل ببعض المواضيع الهامة التى يبدو انها كانت توافق مـزاجه مثـل تمجيـد العـرب والاسلام ، وتهنئة الاصدقاء ورثاء الاقارب ، وقد تناول فى شعـره اغـراضا

---

(1) ديوان ـ خواطر الحياة ـ ط 1 ـ ص : 13 .
(2) نفس المصدر ـ ص : 30 .
(3) الديوان ـ ط 1 ـ ص : 14 .
(4) نفس المصدر ـ ص : 30 .
(5) الديوان ـ ص : 6 .

كثيرة اهمها الاخوانيات والقضايا الوطنية والسياسية والرثـاء والـوصف والوجدانيات والاجتماعيات والاسلاميات ٠

وقد نظم فى موضوع « الصداقة والاصدقاء » اكثـر من خمســة عشـر قصيدة تعرض فى بعض منها الى اهمية الصداقة فى حيــاة الانســان ودور الاصدقاء فى النصح والارشاد ، وتعرض فى البعض الآخر الى خصــال بعض اصدقائه وصلاته المتينة بهم وخاصة منهم العلامة الشيخ محمــد الطـاهر ابن عاشور الذى افرد له مقطوعات وقصائد عديدة تبين مدى الود الذى كان يربط بين الرجلين ، والمحبة الخالصة التى كانت تجمع بينهمـا ٠ فقـد قـال فى شأنــه (1) :

احببتــه مـلء الفـؤاد وانمـا
احببت من ملأ الوداد فؤاده (2)
فظفرت منه بصاحب ان يدر ما
اشكوه جافى ما شكوت رقاده
ودريت منه كما درى منى فتى
عرف الوفاء نجـاده وهـاده

كما هنأه عند توليه خطة التدريس بجامع الزيتونــة ، ثم عند توليه خطـة القضاء المالكى بتونس ، وفى مناسبات عديدة ومختلفة ٠

ولم ينس الرجل وطنه الاصلى تونس رغم طول البعاد ، وبقى متابعا لاخباره سائلا عن حالته كما بينا ذلك عند الحديث عن حياته ، وعبر عن حرقته وتألمه لما يقاسيه هذا الوطن من ظلم واضطهاد فى قصائد ومقطوعات كثيرة ، ومما قاله فى هذا الغرض مخاطبا احد الادباء التونسيين الـذى زاره ببيتـه فى القـاهرة (3) :

---

(1) الديوان ـ ص : 62 .
(2) البحر ـ الكامل .
(3) الديوان : ص : 72 .

أمحـدثى ربيـت فى الـوطن الـذى
ربيت تحت سمائه وبلغت رشدا (1)
وجنيت زهر ثقـافة من روضــة (2)
كنت اجتنيت بنفسجـا منهـا ووردا
هـات الحـديـث فاننــى اصبـو الى
انباء تونس من صميـم القلب جـدا

وقد تحدث الشاعر عن قهر المستعمر لابناء وطنه ، ودعاهم الى الثورة على قيوده ، وتكسير اغلاله لارجاع « المجد الضائع » والحرية السليبة :

ردوا الى مجدنا الذكر الـذى ذهبـا
يكفى مضاجعنا نوم دهـا حقبـا (3)
ولا تعـود الى شعـب مـجــادتـه
الا اذا غـامـرت همـاتـه الشهبـا
حيـاكـم اللـه قـومى ان خيلكـم
قد ضمرت والسباق اليوم قد وجبـا

الا ان الحنين الى الوطن هو الذى غلب على الاشعار التى قالها الشيخ محمد الخضر فى هذا الغرض ، ولا غرابة فى ذلك فهو البعيد عنـه ، المفـارق لـه والقائل فى موشح « تحية الوطن » الذى نظمه سنة 1920 م. عندما انتقل من دمشق الى القاهرة للاستقرار بها نهائيا (4) :

مالى لا ألمـح مـن ذى الجمـال — ســوى الخيـال(5)
ألم يكن يدنى قطوف الوصال — بــــلا مـــلال

(1) البحر : الكامل .
(2) روضة ـ يقصد الجامعة الزيتونية .
(3) الديوان ـ ص : 33 ـ البحر : البسيط .
(4) الديوان ـ ص : 145 .
(5) يقصد وطنه تونس .

الشوق القى مهجتى فى نضال ماضى النصال
ماذا ترى والهجر فيما يقال داء عضال

كما نجد هذا الحنين فى قصائد اخرى لا تتحدث عن الوطن وانما تتعلق باصدقائه التونسيين او بعائلته وذويه ، فيذكر بعض الامكنة ، ويشير الى بعض الاحداث والمناسبات ، ويورد معانى وصورا تتصل بهذا الوطن الذى علمه الحب الذى « يدع القلب لدى البين عليلا » •

وقد كان الرجل لا يفرق بين القضية التونسية وقضايا بلدان المغرب العربى الاخرى فى كثير من الاحيان ، وهذا أمر طبيعى منه فهو مؤسس جمعية التعاون بين جاليات بلدان المغرب بمصر ورئيس « رابطة الدفاع عن شمال افريقيا » ايضا بالاضافة الى ان قضية المغرب العربى واحدة فى ذلك العهد وفى غيره من العهود •

اما شعره السياسى فقد تناول فيه بالخصوص موضوع الخلافة الاسلامية وما اصاب العالم الاسلامى من شقاق ، وتشتت وانحطاط تسبب فى سيطرة الاجانب على سيادته وحظوظه من ذلك قصيدته « الخلافة والانقلاب التركى » التى قالها بمناسبة الغاء « أتاتورك » لهذا النظام واعلان « حكومة لادينية » والتى مطلعها (1) :

ما خطب قوم ـ طالما وصلوك
واعتز باسمك عرشهم ـ هجروك (2)
حرسوك احقابا وحلق صيتهم
فى الخافقين لانهم درسوك

(1) الديوان ـ ص : 127 .
(2) البحر : الكامل .

ويقول فيها :

هيـاج الشقـاق وفـت فى غلـوائه
عضـد اتحـاد شعـوبـك المنهـوك
أورى الزنـاد كمـا يقـال عصابـة
فى الغرب خلـف ستـارها المهتـوك

ويختم هذا القصيد بالتذكير بالشريعة الاسلامية وما فيهـا من تعـاليم توحد الصفوف وتزيل الضغائن •

وتعرض الشاعر فى هذا الغرض الى الاستعمار الذى تمكـن من التوغـل والاستيلاء على الحكم فى البلدان العربية ، وابدى تألمه لذلك وحسرته الشديدة على مجد العرب الضائع ، فتناولت قصائد عديدة قضية فلسطين ، وفضـل اللغة العربية ودورها فى تطوير المجتمع ، كل ذلك فى نطاق التغنـى بهـذا المجد والتذكير به وبقيمته التاريخية لاستنهاض الهمم وحفزها الى العمل على ارجاعه وتثبيت دعائمه •

ويبدو ان نفس الشاعر قد كانت مشوبة بحزن وألـم دائمين مما جعلـه يجيد فى الرثاء ويعبر عن احاسيس وعواطف تتجاوز المرثى الى ابعاد اعمق واشمل • فقد رثى خاله الشيخ المكى ابن عـزوز الـذى تـوفى بالاستـانة ، وزوجته (الثالثة) المتوفاة سنة 1953 م• ، ورثى صديقه الحميم احمد تيمور باشا الذى كانت تربطه به صداقة متينة وود مكين ، وابلغ مرثياته فى نظرنا هى التى قالها فى والدته التى توفيت بدمشق سنة 1917 م • وكان وقتئـذ بالبلاد الالمانية ومطلعها : (1)

قطـب الدهـر فابـديت ابتسامـا
وانتفى الخطب فما قلت سلامـا (2)

---

(1) الديوان ـ ص : 157 •
(2) البحر : الرمل •

لست ادرى ان فى كفيك يا
دهر رزءا يملأ العين ظلاما
لست ادرى انك القاذف فى
مهجتى نارا ويذكيها ضراما

فيظهر هذا الحزن الشديد والاسى العميق لفقدها ، ثم يتحدث عن خصالها وما علمته له من المثل النبيلة وتوق الى الحياة العزيزة الكريمة ، وقد اتبع الشاعر اسلوب القدماء فى هذا الغرض وسار على نسق المرثية القديمة فى اغلب القصائد .

اما الغرض الاجتماعى والاخلاقى فقد تناوله الشاعر فى قصائد عديدة ايضا ، وتحدث عن مشاكل المجتمع الاسلامى وما يعانيه الشرق من مفاسد اخلاقية كثيرة ، ودعا الحكم وذوى السلطة الى اصلاح ذلك حتى يعود للبلاد إباؤها واستقامتها . كما بين مساوىء البطالة وخطرها على المجتمع فقال : (1)

لا يرتجى العز شعب ظل فى وسن
من البطالة لا سعيا ولا أملا (2)
فالدر يسمو الى جيد الفتاة وان
حام النعاس على اجفانها نزلا

ودعا الى ضرورة تعليم الصنائع والعلوم للشبان حتى تنهض الامة وتساير المدنية الحديثة . ونجد فى ديوان « خواطر الحياة » قصائد ومقطوعات وجدانية يتحدث فيها صاحبها عن نفسه ، فيناجيها ويدعوها الى التأمل فى هذا الكون وخالقه ، ويورد بعض النفحات والتساؤلات الفلسفية عن الحياة والانسان بصورة ضمنية فيقول فى قصيد : « لماذا يبكى الطفل ساعة ولادته ؟ » : (3)

---

(1) الديوان ـ ص : 150 .
(2) البحر : البسيط .
(3) الديوان ـ ص : 191 .

كم ليـال مضـت ولـم تـك شيـا
فلما صرت نامى الجسـم حيـا ؟ (1)

اكـرمـت نـزلـك الحيـاة وابـدت
لـك يـوم الـولاد وجهـا سنيـا

فـعـلام استقبلتهـا بنحيـب ؟
ان فـى ذا النحيـب سـرا خفيـا

اما الروح الدينية فانها مبثوثة فى جل القصائد والمقطوعات ، ولا غرابة فى الامر فالشاعر رجل دين مصلح يهدف الى تدعيم الشريعة الاسلامية فى النفوس حتى تستقيم وتهتدى الى ما فيه الخير والرشاد وهو القائل : (2)

يعجب النـاس فى الحيـاة واقضـى
عجبى منـك ان ضللـت السبيـلا

انـت ترتـاب ان يـدبـر أمـر الـ
ـكـون مـن جـل ملكـه ان يـزولا

وتخـال الـوجـود وقفـا عـلى مـا
تبصـر العيـن بكـرة واصيـلا (3)

كما نجد للشاعر مقطوعات فى اغراض الفخر والوصف والحكم اجـاد فيها كما اجاد فى الاغراض التى تعرضنا اليها بتفصيل •

ولم يقل الشيخ محمد الخضر شعرا فى المدح والهجاء وهذا يدل على علو اخلاقه ونبل خصاله ورفعة همته كما انه لم يقل شعرا فى الغزل ومرد ذلك الى تكوينه الثقافى والدينى المحافظ •

ويتبين لنا من هذا التقديم الموجز لاشعـار الرجـل ان ديـوان « خـواطر

---

(1) فلما صرت : يريد فلم صرت ؟ ـ البحر : الخفيف .
(2) الديوان ـ ص : 150 .
(3) البحر : الخفيف .

الحياة » وثيقة هامة تفيد الباحث فى التعرف على كثير من المعطيات التاريخية ، والنظريات الثقافية والاجتماعية والسياسية التى كانت تشغل بال هذا العلامة وبال غيره من المثقفين المعاصرين له والمهتمين بشؤون العالم الاسلامى وقضاياه . كما يبين هذا الديوان قيمة صاحبه الشعرية ، ومدى اجادته فى هذا الفن الادبى من حيث اختيار الاطار ، ومن حيث المضمون كما اجاد فى مؤلفاته النثرية .

وتجدر الاشارة فى خاتمة هذا القسم المتعلق بآثار الرجل الى اننا قدمنا هذه الآثار بايجاز قصد التعريف بها ولم نتعمق فى بحثها وتحليل محتواها ومناقشة ما جاء فيها من آراء لان ذلك يتطلب بحثا خاصا بها لتقييمها التقييم الدقيق ومقارنتها بما يماثلها من آثار .

وقد تبين لنا من هذا التقديم الموجز كثرة آثار الشيخ محمد الخضر حسين، وتنوعها ، وغزارة مادتها ، وسيساعدنا ذلك على التعريف بالعناصر الاساسية لشخصيته الثقافية وهو موضوع القسم الثالث والاخير من هذا البحث .

القسم الثالث

شخصية الثقافية

تمهيد

تعرضنا فى القسم الاول من هذا البحث الى حياة الشيخ محمد الخضر حسين والاطوار التى مر بها والظروف التى احاطت بتربيته وتكوينه ثم بنشاطه العلمى والسياسى سـواء بـالبـلاد التونسيـة او بالشرق العربى ، وتبين لنـا من خلال ذلك أن الرجل محب للمعرفة طالب لها ومهتم باصلاح المجتمع الاسلامى ساع اليه فى كل المناسبات والاحوال ٠

ثم تحدثنا فى القسم الثانى عن اثـاره فحللناها بايجاز وعـرفنا بأبـرز محتوياتها فتبين لنا من ذلك غزارة علم الرجل وسعة معارفه وشمول ثقافته فى ميادين الدين والادب واللغة والسياسة وحدة مواقفه فى الدفاع عن الاسلام ونقض ما يوجه اليه والى رجاله من « تهم » و « اباطيـل » او ما يمس ـ فـى رأيه ـ القرآن الكريم والحديث الشريف من تحريف وسوء تأويل او مبالغة فى الشرح والتفسير ٠

وأهم ما يمكن استنتاجه من التعرف عن مراحل حياة الرجل وأثاره ان هناك انسجاما وترابطا متينا بينهما فكانت مؤلفاته النثرية والشعرية صورة صادقة لما كان يؤمن به من افكـار ويعتقده من أراء فى حياته وهذا ما يجعل للرجـل شخصية ثقافية متميزة لها عناصرها الاصلية ومضمونها الجلى ومركباتهـا البارزة .

وأهم هذه العناصر هى فى نظرنا :

- محمد الخضر حسين العالم فى شؤون الدين
- « « الاديب
- « « المصلح
- « « السياسى

وسنتعرض الى تحليل كل منها بايجاز فى فصل خاص اعتمادا على مراحل حياة الرجل وما تركه من مؤلفات حتى نبين قيمة شخصيته الثقافية ومكانتها ضمن الحركة الفكرية الاسلامية .

الفصـــل الأول

* * *

الـرجـــل العـــالـــم

قضى الشيخ محمد الخضر حسين كامل السنوات الاولى من حياته فى اطار يحيط به الدين من كل جانب ، فهذا جده للام الشيخ مصطفى ابن عزوز شيخ الطريقة الرحمانية يجلب العلماء لالقاء الدروس فى الفقه والحديث والتفسير على « الطلبة » الذين يؤمون « الزاوية » ببلدة نفطة (1) وهذا خاله الشيخ محمد المكى ابن عزوز يهتم بتربيته ويلقنه بعضا من هذه العلوم كما يطالبه بحفظ « المتون » (2) ومراجعتها حتى يدرس علوم الشريعة على قواعد سليمة ويلم بأصولها على الوجه الصحيح ، ثم دخـل الرجل جـامع الزيتونـة فدرس امهات الكتب فى الفقه والتفسير وعلم الاصول على ابرز الشيوخ مثل الاستاذ سالم بوحاجب والشيخ محمد النجار والاستاذ عمر بن الشيخ وقام بتدريس بعض هذه العلوم بعد تخرجه من الزيتونة وتعمق فى بحثها وتمحيصها ، ولم يكن فى كل ذلك الناقل لاقوال الايمة والعلماء بـل كان يـورد نظرياتهم ومـا ذهبوا اليه فى اى فن من الفنون ثم يناقشها ويرجع ما يراه اقرب الى المنطق السليم ومسايرا الى روح العصر الذى يعيش فيه وحضارته • وقد تميز الجانب الدينى من شخصية الرجل الثقافية منذ ذلك العهد فسيطر على بقية الجوانب الاخرى وجعلها تابعة له مساعدة على ابراز محتواه ومضمونه •

---

(1) انظر ـ ص 22 من هذا البحث .

(2) متون : جمع متن وهو منظومة فى النحو او الفقه كان على كل طالب علم ان يحفظها قبل دراسة هذه الفنون .

فقد أصدر هذا العلامة مجلة « السعادة العظمى » ليوضح مقاصد الشريعة الاسلامية ويدعو الى الاعتصام بها والتمسك بمبادئها ويبين كنوزها ويرد على من « زاغ بالكلم عن مدلولها وانتزع الفروع من غير اصولها » (1) وقد لاحظ فى عددها الاول « ان هذه المجلة لا تنثر من كنانتها الا ما يشمله نظر الشارع بعنايته (2) » كما القى الدروس الدينية واللغوية بالجامع الاموى بدمشق عند انتقاله اليها سنة 1912 م وأسس الجمعيات الاسلامية بالقاهرة عند استقراره بها سنة 1920 م مثل جمعية « الهداية الاسلامية » وجمعية « الشبان المسلمين » وذلك « للقيام بما يرشد اليه الدين الحنيف من علم نافع وادب رفيع وخلق كريم » (3) ومكافحة الفتنة والادعاء ضد الاسلام .

ولما دخل الرجل جامع الازهر قام بتدريس علم اصول الفقه وكتب البحوث والدراسات فى التفسير والحديث ورد على من مس الدين الاسلامى وشريعته السمحة ، ومن ابرز ردوده « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق و « نقض كتـاب الشك فى الشعر الجاهلى » للدكتور طـه حسين وكان الغرض من ذلك ــ كما بينا فى القسم الثانى من هذا البحث (4) ــ هـو الدفاع عن الاسلام وصيانتة من التحريف والتشويه . وقد اشرنا عند تحليل هذين الكتابين الى اعتدال الرجـل ورصانته فى بحـث القضايا السياسيـة والادبية واللغوية ، وحدة نقاشه وقوة ردوده وتطرفه احيانا عند بحث القضايا التى تتعلق بالاسلام ورجاله مثل الخلفاء الراشدين او بالقرآن والحديث النبوى الشريف .

---

(1) مجلة ــ س . ع . عدد 1 ــ 2 ــ ص : 1 .

(2) نفس المصدر .

(3) مجلة « الهداية الاسلامية » ــ م 1 ــ ج 3 .

(4) انظر ــ ص : 163 ــ 174 .

وقد كانت اغلب آثار الرجل تتصل بالعلوم الدينية مباشرة وتبحث فى أصولها وفروعها أما بقية هذه الاثار فهى تتصل بعلوم وفنون تساعد على فهم الشريعة ونصوصها مثل البحوث اللغوية • وبالاضافة الى الاثار المكتوبة فقد كان الرجل اثناء الرحلات التى قام بها وتحدث عنها سواء الى الجزائر او الى بلاد الشرق ميالا الى الاطلاع على الحياة العلمية والدينية فى المناطق التى زارها والتعرف على علمائها ومؤسساتها الدينية مما جعل « الرحلات » وثائق هامة تبين لدارسها المستوى العلمى والثقافى الذى كانت عليه البلاد الاسلامية لذلك العهد • وقد بلغ الشيخ محمد الخضر درجة علمية كبيرة جعلته يصل الى اعلى خطة يصبو اليها متبحر فى العلوم الدينية وهى مشيخة الجامع الازهر التى ارتقى اليها سنة 1952 م •

وتجدر الاشارة الى ان علم الرجل وتعمقه فى اصوله وفروعه لم يمنعه من النظر الى الدين الاسلامى نظرة معتدلة فلم يكن محافظا شديد المحافظة فى توضيح تعاليم الشريعة الاسلامية وتفسير نصوصها وتأويلها متجاهلا معطيات العصر والمدنية الحديثة ، كما انه لم يكن مجددا مبالغا فى التجديد حتى يحمل هذه الشريعة اكثر مما تتحمل ويعطى لنصوصها معانى تتجاوز قدرة الالفاظ والتعابير •

فقد كان يتشبث بالقرآن والسنة ويعتمد عليهما الاعتماد المطلق ولا يقبل النقاش فى اى موضوع يتصل بهما سواء من حيث المعانى او من حيث المفردات ـ كما اشرنا الى ذلك فى مواطن عديدة عند تقديم اثاره ـ وكان فى نفس الوقت يعارض القائلين بجمود الشريعة الاسلامية وعدم مسايرتها للمدنية الحديثة فيكتب البحوث والدراسات عن اصول هذه الشريعة والاجتهاد فى الاسلام واحكامه واساليبه ليثبت ان هذا الدين صالح لكل زمان ومكان فيقول :

« يقع فى وهم من لا يدرى ما الاسلام ان شريعته لا توافق حال العصر الحاضر ويبنى توهمه هذا على ان القوانين انما تقوم على رعاية المصالح ومصالح

العصور تختلف اختلافا كثيرا فالدعوة الى بقاء احكامها نافذة هى فى نظره دعوة الى خطة غير صالحة • ذلك ما نقصد الى تفنيده وتفصيل القول فى دفع شبهته حتى يثبت بالدليل المرئى رأى العين ان الشريعة الغراء تساير كل عصر وتحفظ مصالح كل جيل » (I) •

ويتبين لنا من هذا التحليل الموجز ان العلوم الدينية هى الطاغية على تكوين شخصية هذا الرجل الثقافية مما يجعل نظرياته وآراءه فى هذا الميدان تستحق بحثا مفصلا لاتسعه هذه الدراسة التعريفية لان من يتعمق بحوثه فى أصول الفقه او تفسير القرآن او شرح الحديث ومناقشة علماء الاسلام فى ذلك يلمس قدرته فى هـذا الباب وطول باعه وسعة اطلاعـه وتبحره ولذلك كـان علماء المشرق يلقبونه « بالاستاذ الكبير » ووصفه لنا العلامة صديقه الشيخ محمد الطاهر ابن عـاشور فى احـدى مجالسه بقوله « انه من افـذاذ علماء الاسلام وقد كان قليل النظير فى مصر » •

(I) م • خ • حسين « الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان » ص : 5 .

الفصل الثاني

* * *

الأديب واللغوي

كان الادب عنصرا من عناصر الثقافة القديمة فى العهود السابقة وفى العهد الذى نشأ فيه الشيخ محمد الخضر حسين • والدارس لعلوم الشريعة لا يمكن له ان لا يطلع على ما قاله القدماء فى فنى النثر والنظم ويحفظ شيئا منه لما فيهما من معانى وتعابير تساعد على فهم النصوص الاسلامية والتعمق فى مدلولاتها وفحواها • ولذلك كان « للادب المنظوم والمنثور » فى البيئة التى تربى فيها « نفحات تهب فى مجالس علمائها » وكان عدد من اقاربه يقول الشعر « فتذوق طعم الادب » منذ صباه وحاول نظم الشعر وهو فى السنة الثانية عشرة من عمره » (I) •

وقد كان الرجل ـ كما تشهد بذلك آثاره ـ كاتبا وشاعرا ولغويا • اما فن الكتابة فقد كان يميل الى ما يسمى « بالنثر العلمى » ويجيد فيه وخاصة فى بسط التاريخ وتحليل امجاد العرب والمسلمين واحيائها وتناول المواضيع الاجتماعية والدينية والعقلية (2) ، وكان اسلوبه جزلا والفاظه قوية وتعابيره متينة متأثرا بالادباء القدامى ومناهجهم فى التعبير ، وقد قام بتدريس بعض كتبهم ومصنفاتهم مثل « الكامل » للمبرد و « المثل السائر » لابن الاثير و « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر الجرجانى مما جعل آراء هؤلاء الادباء والبلغاء تبرز فى كثير من مقالاته وكتبه • كما كان يستعمل السجع فى بعض مقالاته وخاصة منها التى كتبها فى السنوات الاولى من نشاطه العلمى والادبى فنجده يقول فى العدد الاول من مجلة « السعادة العظمى » :

(I) م • خ • حسين « خواطر الحياة » ـ ص : 5 •

(2) م • ف • ابن عاشور « الحركة الادبية » ـ ص 94 •

« اما العقل الذى يقدر الاشياء حق قدرها ويسير بمعيار التدبر والانصاف بعد غورها فلا ينسج الا على منوالها ولا يرسم حركاته الا على اشكالها » (I) ثم تدرج اسلوبه بعد ذلك الى السهولة واتباع التسلسل المنطقى فى تناول المعانى لانه سخر قلمه لتوجيه المسلمين وارشادهم وذلك يتطلب منه الابتعاد عن الاساليب والتعابير الصعبة المعقدة حتى يفهمه القراء ويستسيغـوا آراءه ونظرياته على ان لا يؤدى به ذلك الى الابتذال والسخف .. وهذا ما جعل اغلب المقالات التى كتبها الرجل فى الصحف والمجلات سهلة المنـال قريبة المأخذ بعيدة عن كل التواء وخاصةمنها التى تناول فيها المواضيع الاجتماعية والاخلاقية .

وتبدو قدرة الرجل فى فن الكتابة وتحكمه فى استعمال الاساليب النثرية فى حسن ملائمته بين الاسلـوب والموضوع فيستعمـل الكلمات والتعابيـر النحوية عند بحث مسألة لغوية ويستعمـل الكلمات والتعابير الـدينية عند دراسة موضوع ديني سواء كان فى التفسير او الحديث او اصول الفقه .

وقد برع قلمه فى « أدب الرحلات » فكان يعد من ابرز الكتاب فى هـــذا الفن فى عهده مـع الاديبين اللامعين محمد بن الخوجـة وعلى الـوردانى (2) ، وكانت مقالاته الوصفية عن رحلاته وثائق تاريخية ذكر فيها الاماكن التى زارها والمعالم التى اطلع عليها والعلماء والادباء الـذين اتصل بهم وما كان له معهم من محاورات ومجالس كما تعرض الى ما قاله من اشعار وما عن له من ملاحظات وأفكار تتصل بالحالة الاجتماعية والنشاط الثقافى والعلمى الذى كان موجودا فى تلك البلدان والامصار فى الربع الاول من هذا القرن ، وقد تحدث الرجل عن كل ذلك بأسلوب سهل وتعابير شيقة تجـذب القارىء الى مطـالعتهـــا والاستفادة بما فيها من معلومات ومعانى واخبار . وقد اعجب باسلوب هـذا الرجل النثرى كل من طالع مقالاته ودرس آثاره منهم المرحوم الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور الذى وصف صاحبه بانه : « كاتب بليغ ذو طابع خاص

(I) مجلة س . ع . ـ عدد I ـ 2 ـ ص : 3 .

(2) م . ف . ابن عاشور ـ الحركة الادبية ـ ص : 9I .

واسلوب قوى فصيح العبارة بليغ التركيب ينزع الى طرائق كتاب الترسل الاولين من أهل العصر العباسى وقد بلغ قمة الاجادة الفنية فى نثره » (1)

أما شعره فقد تعرضنا الى تحليل شيء منه عند تقديم ديوان « خواطر الحياة » فلم يتناول فيه صاحبه المدح والهجاء والغزل لسمو اخلاقه ونظرته الى الحياة وكذلك لطبعه الهادىء وثقافته الدينية العميقة ، بل عبر فيه عن خواطره فى شؤون المجتمع الاسلامى وصلة الاصدقاء وتوادده ورثى بعض أفراد عائلته واحبائه . وكان الشاعر فى اغلب الاحيان يستعمل البحور الشعرية الملائمة للاغراض التى نظم فيها مثل البحر الكامل والبسيط والمتقارب . ففى قصيد « اهابة » (2) التى قالها سنة 1911 م . عند قيام الحرب الليبية الايطالية لدعوة المواطنين التونسيين الى اعانة بعثة الهلال الاحمر التركية وتحريضهم على مقارعة ظلم المستعمر والثورة عليه نجده يبدؤها بفعل أمر ويجعل قافيتها حرف « الباء » الذى هو حرف شفوى قوى كما يختار لها البحر البسيط والالفاظ الشعرية الملائمة للموضوع مثل « مجد » « غامر » « همة » فيقول :

ردوا الى مجدنا الذكر الذى ذهبا
يكفى مضاجعنا نوم دها حقبا
ولا تعود الى شعب مجادته
الا اذا غامرت هماته الشهبا

وقد اتبع فى قصائده الابنية الشعرية القديمة مع سهولة فى اللفظ ودقة فى التعبير عن المعنى او الصورة . الا ان الرجل كان يعتبر من المجددين فى ذلك العهد فهو من اوائل الشعراء الذين نظموا فى « الشعر العصرى » الذى اطلقته الصحافة الشرقية وقتئذ على الشعر الاجتماعى والحكمى لا سيما الذى

(1) نفس المصدر السابق .
(2) م . غ . حسين « خواطر الحياة » ـ 33 .

يقصد الى التذكير بالمجد والتوجيه الى مسالك النهضة والتحرر والتجدد » (1) فنظم الشيخ محمد النخلي اول قصيدة في هذا النوع « الجديد » نشرت بجريدة « الحاضرة » سنة 1901 م • ثم نظم الشيخ محمد الخضر قصيدة عنوانها « الشعر العصري » نشرها في مجلة « السعادة العظمى » (2) واعيد نشرها في ديوان « خواطر الحياة » بعنوان « المعارف والصنائع » (3) ومطلعها :

ايعاتب الزمن الذي لا يسعد
وبنوه في مهد البطالة هجد (4)
مهلا فما هو بالملوم ومن رمى
سهم الملامة نحوه فمفند
لو افرغوا في وسعه ما جل من
عمل لاغدق فيه عيش ارغد

ويذكر الشاعر في هذا القصيد بماضي المسلمين التليد ومجدهم وعظمتهم ثم يدعو الى النهضة بالامة الاسلامية حتى تستعيد مكانتها وذلك بنشر التعليم وتزويد الابناء بالمعارف والصنائع :

ان المعارف والصنائع عدة
باب الترقي من سواها موصد

ولكل ذلك فقد عده معاصروه (5) من ابرز الشعراء وابرعهم لانه عبر عن مشاعرهم واحاسيسهم وافكارهم اصدق تعبير في اطار شعري سهل وبلغة بعيدة عن الغموض • وكان الرجل بالاضافة الى اجادته في فني النثر والنظم

---

(1) م . ف . ابن عاشور ـ الحركة الادبية ـ ص : 96 .
(2) مجلة ـ س . ع . عدد 11 ـ ص : 161 .
(3) الديوان ـ ص : 73 .
(4) البحر : الكامل .
(5) ذكر لنا ذلك فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور عند الحديث عن شعر الشيخ م . خ . حسين .

فى اغلب الاحيان محاضرا وخطيبا بليغا وخاصة فى الميدان العلمى وقد بدا ذلك جليا فى محاضرته عن « الخطابة عند العرب » (I) التى بينت معرفته بهذا الفن واساليبه ، كما اشرنا الى خطبه فى اجتماعات الطلبة الزيتونيين سواء عند المطالبة باصلاح التعليم او عند تأسيس « الجمعية الزيتونية » وان لم تصلنا نصوص بعض هذه الخطب لدراستها وبيان قيمتها فان ما القاه فى هذا الميدان بالمشرق وخاصة فى المناسبات الدينية قد نشر فى مجلة « الهداية الاسلامية » وبين براعته فى تقديم المواضيع وتحليلها وتبسيطها مستعملا فى ذلك اسلوب الحوار والاشارة والتلميح والاقناع . كما اجاد فى فن المحاضرة الذى اولاه عناية خاصة ضمن نشاطه الثقافى والعلمى لانه وسيلة من وسائل الارشاد والتوجيه والاصلاح . وقد بينا عند تحليل محاضراته فى القسم الثانى من هذا البحث مدى قيمة هذه الاثار من الناحية العلمية من حيث غزارة محتواها وتنوع مادتها مع حسن اسلوب واستشهاد بما يلائم الموضوع من شعر ونثر قصد التوضيح والافهام . اما مكانة الرجل اللغوية وما قام به من جهود لبيان قيمة اللغة العربية وفضلها والعمل على تطويرها حتى تساير المدنية الحديثة فقد اشرنا اليه فى مناسبات مختلفة من هذا البحث ويجدر التأكيد على ان اهتمامه بهذا الميدان قد كان بدافع دينى ذلك لان « العربية » لغة كتاب الله والرسول ، واتقانها واجادتها يساعدان العالم فى الشؤون الدينية على فهم مقاصد الشريعة الاسلامية وادراك مراميها حتى يستطيع التصرف فيها وتبليغها الى المسلمين على وجهها الصحيح ويتمكن من حسن التأويل والاجتهاد وبذلك تبقى هذه الشريعة مسايرة للعصر «صالحة لكل زمان ومكان» وقد قال فى محاضرته عن « حياة اللغة العربية » ما يلى :

« ولما علم المحققون ان استنباط الاحكام التفصيلية عند الحاجة اليها يجب ان يقوم به طائفة من الامة والاحكام انما تؤخذ من القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلاهما وارد بلسان العرب عدوا من فروض الكفاية التبحر

(I) انظر ـ ص : I57 من هذا البحث .

فى معرفة العربية وهذا وجه نسبتها الى الاسلام وهـو الحصن الذى يتكفـل بحفظها وبقائها ما بقى دينه القويم » (I) ٠

وقد تبين لنا من خلال تقديم « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » (2) وتحليل بحث « القياس فى اللغة العربية » (3) مدى اطلاع الرجل على نظريات الباحثين فى علم اللغات وسعة تعمقه فى آراء علماء النحو واللغويين العرب القدمـاء وخاصة ابن جنى وادراكه لقيمة هذه الاراء من حيث مسايرتها لحاجات العصر الحديث وضروراتـه ، ولم يكن محافظا فى نظرياته اللغويـة فكان يدعـو الى الاستفادة بالقياس وبغيره من الوسائل لتطوير اللغة العربية ويبدو ذلـك واضحا فى موقفه من « القياس عـلى الشاذ » الـذى منعه عدد من النحـاة واللغويين العرب واقره (4) فى بعض الحـالات مخالفا اولئك العلماء ومـا لديهم من حجج وبراهين ٠ كما دعا الى ضرورة ادخال بعض الالفـاظ والمصطلحات العصرية الجديدة الى العربية بعد تهذيبها وجعلها منسجمة مع الصيغ والذوق العربيين الا انه لم يتساهل فى ذلك حتى لا ينتشر الابتذال والتحريف فـى لغة القرآن فتبتعد عن فصاحتها وبيانها الاصليين ولذلك نجده يدعو الى عدم استعمال اللغات العامية (5) ٠ كما يعارض اقتراح الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمي بدمشق الداعى الى ادخـال « الكلمـات غير القاموسية » التى يستعملهـا المـواطنون العرب فى لغتهم الى القواميس فيقول « لسنـا في حاجة الى ايقاظ هذه الفوضى وهى نائمة ولسنا فى حاجة الى ان ندع اللغة تمشى فى غير نظام » (6) اما نظرياته المتعلقة بعلم النحو فيبدو فيها محافظـا شديد المحافظة وتجلى لنا ذلك فى نقاشه الحاد للاستاذ ابراهيم مصطفى فـى

(I) م ٠ خ ٠ حسين « دراسات فى اللغة العربية وتاريخها » ص : I6I .

(2) انظر ـ ص : I74 من هذا البحث .

(3) انظر ـ ص : I89 .

(4) م ٠ خ ٠ حسين « القياس فى اللغة العربية » ص : 44 .

(5) م ٠ خ ٠ حسين « دراسات فى العربية وتاريخها » ص : I60 .

(6) م ٠ خ ٠ حسين « القياس فى اللغة العربية » ـ ص : II5 .

كتابه « احياء النحو » (I) وكذلك فى رده على بحث الدكتور طه حسين الذى القاه فى مؤتمر المستشرقين والمتعلق « بضمير الغائب واستعماله اسم اشارة فى القرآن » (2) •

وخلاصة القول ان الرجل اديب أجاد فى اغلب ما كتبه من نثر وما قاله من شعر ولغوى معتدل ونحوى محافظ اهتم بالادب وتذوقه منذ نشأته وتعمق فى العلوم اللغوية حتى يتمكن من فهم نصوص الشريعة الاسلامية ويكون قادرا على استنباط الاحكام والاجتهاد فيها عند الحاجة •

(I) انظر ـ ص : 97 من هذا الكتاب .

(2) م . خ . حسين « بلاغة القرآن » ص : 64 ـ

الفصل الثالث

* * *

المصلح

سيطر اتجاه الاصلاح الدينى والاجتماعى على الحركة الفكرية بتونس خلال السنوات الاولى من القرن العشرين كما بينا ذلك فى القسم الاول من هذا البحث (1) ، وقام انصار الاستاذ الامام محمد عبده بحركة نشيطة لنشر هذا الاتجاه فى النخبة المثقفة التونسية وكان من اكبر روادهم الشيخ سالم بوحاجب والاستاذ بشير صفر ، اما لسانهم المعبر عن نظرياتهم وآرائهم فهو مجلة ـ المنار ـ المصرية لصاحبها الشيخ رشيد رضا . ويقابل هذا الاتجاه المحافظون الذين تزعمهم الشيخ محمد النجار المفتى المالكى الذى كان يرد على الاصلاحيين فى دروسه ومحاضراته ومجالسه الادبية والعلمية ، ويناقش مقالاتهم ومواقفهم صحبة عدد من شيوخ جامع الزيتونة وطلبتها وبعض الموظفين.

وقد سعى هؤلاء الى اصدار مجلة تعبر عن نظرياتهم ، فوجدوا فى الشيخ محمد الخضر حسين العالم الكفء والكاتب البليغ ، وفى « السعادة العظمى » الوسيلة الثقافية القادرة على القيام بهذه المهمة الدينية السامية . فهل كان هذا الرجل محافظا متطرفا ؟ وما هى صلته بكل من الاتجاهين وموقفه منهما ؟ لقد بينا فى فصل سابق (2) ان المحافظين ساعدوا الشيخ محمد الخضر على انشاء مجلته حتى تكون المعبر عن مضمون حركتهم من حيث توضيح نظرياتها او مناقشة من يخطىء فى تأويل الشريعة ويخالف راى جمهور العلماء ، لكن هذه الصلة لم تستمر طويلا فخالفه عدد منهم اثر صدور العدد الاول من هذه

---

(1) انظر ـ ص : 50 .

(2) انظر ـ ص : 54 .

المجلة وطالبوا الوزير بوعتور بتوقيفها لان صاحبها يدعو الى الاجتهاد فـي الدين (1) • وقد شجعه على مواصلة العمل بعض اصدقائه مثل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، وعدد من اساتذته وخاصة منهم الشيخ سالم بوحاجب واستمرت المجلة فى الصدور كما تحدثنا عن ذلك بتفصيل فى القسم الثانى من هـذا البحث ، وكـان من بين كتابها والمحررين فيها علمـاء ينتمـون الى حركة المحافظين مثل الشيخ بلحسن النجار الذى ناقش مجلة ـ المنار ـ فى الفتوى الترنسفالية • وبالاضافة الى ذلك فان صاحب المجلة نفسه قد رد على ـ المنـار ـ بقوله « اما من انفرد بمضيق فى بنيات الطريق فزاغ بالكلم عـن مدلولها ، وانتزع الفروع من غير اصولها ، فاليك ايابه وعليك حسابـه » (2) كما نجد فى ابواب عديدة من المجلة ردودا غير مباشرة تبين ان الرجل لم يكن على رأى الاصلاحيين فى كثير من المواضيع •

وقد بقى خلافه مع هؤلاء كامنا ، ولم يمنعه ذلك من الاتفاق معهم فـي بعض القضايا مثل علاقة اللغة العربية بالدين الاسلامى وقد نشر فى هـذا الغرض بحثه عن « الخيال فى الشعر » ودراسته عن « القياس فى اللغة العربية» بمجلة ـ المنار ـ كما كان له معهم نفس الموقف فى قضية « الخلافة الاسلامية » وقد اشرنا الى ما قام به الشيخ رشيد رضا من تقريظ وتنويه بكتاب « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » وبصاحبه « العلامة التونسى » (3) • لكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد قامت خصومة شديدة بين ـ صاحب المنار ـ والشيخ محمد الخضر اثر صدور العدد الاول من مجلة ـ نـور الاسـلام ـ (4) ، فقـد تعرض رئيس تحرير هذه المجلة الى الظروف التى مرت بتاسيسها ، والعلماء الذيـن اهتموا بها ، ولم يذكر الشيخ مصطفى المراغى الـذى كان رئيسـا للمجلس

---

(1) انظر ـ ص : 137 من هذا البحث .

(2) مجلة ـ س . ع . عدد 1 ص 1 ـ لقد بين لنا ذلك الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور عنـد الحديث عن هذه المجلة .

(3) انظر ـ ص : 108 .

(4) انظر ـ ص : 104 .

الاعلى للازهر عند اقتراح ودراسة مشـروع التأسيس ، وذكر الشيـخ احمد الظواهرى شيخ الازهر الـذى صدرت فى عهـده هذه المجلة • واذا بـدت الخصومة بسيطة من حيث منطلقها الا انهـا تجاوزت ذلك وقد اشرنا اليهـا بتفصيل فى القسم الاول من هذا البحث (I) •

وتجدر الاشـارة الى ان صاحب ـ المنار ـ لم يهتم بذكـر الاسماء بدافـع تاريخى فقط ليتعرف القراء على دور كل من الرجلين وما قـام به من جهـد لاصدار مجلة الازهر التى انتظرها المثقفون وعلماء الدين وابتهجوا بتأسيسها ، وانما اهتم بذلك واشتد غيضه لان الشيخ المراغى كان من انصار الاستاذ الامام محمد عبده ، والعاملين على نشر الحركة الاصلاحية فى جميع الميادين ، اما الشيخ احمد الظواهرى فقد تتلمذ على الاستاذ الامام الا انه كان معروفا بنزعته المحافظة ، وبعدم تاييده لاستاذه ومناصرته له • وبذلك انقلبت هذه الخصومة من اطار شخصى الى اطار دينى واجتماعي ، واصبحت خلافا شديدا واضحا بين الاصلاحيين الذين تزعمهم الشيخ رشيد رضا وبين المحافظيـن الذين تزعمهم الشيخ محمد الخضر حسين ثم الشيخ يوسف الدجوى ثم شيخ الجامع الازهر وابرز علمائه فى ذلك العهد • ولم ينته هذا الخلاف بين الرجل واصحاب الحركة الاصلاحية فى مصر ، بموت صاحب المنار سنة 1935 م بل استمر وتطور خلال سنوات عديدة •

ونستنتج مما تقدم ان الرجل لم يكن مناصرا للمحافظين فى كل شىء ، ولا مخالفـا للاصلاحيين فى كـل شىء ، فقد كـان يوافق الاولين فى ضرورة التمسك بما جاء به السلف الصالح من نصوص وتعاليم ، وكان يخالفهم فى فتح باب الاجتهاد والاستفادة به حتى تتمكن الشريعة الاسلامية من مسايرة العصر ، وتستجيب لحاجيات المدنية الحديثة • لكنـه لا يتطرف فى هـذه المسايرة ، ولا يغالى فيها حتى « لا يزيغ بالكلم عن مدلولهـا ولا ينتزع الفروع من غير اصولها » وهذا ما يخالف فيه انصار الاصلاح الدينى ، بينما يرى

(I) انظر ـ ص : I04 .

رايهم فى اسلوب اصلاح المجتمع الذى يعتمد على التعليم والتربية ومكافحة البدع •

ويتبين لنا من هذا التحليل الموجز ومن حياة الرجل وآثاره انه كان شغوفا باصلاح المجتمع الاسلامى فسخر قلمه ولسانه لتحقيق ذلك الغرض النبيل الهادف « الى محو المزاعم الباطلة وربط قلوب الناس بالاعتقاد الصحيح » (1) مع الاستفادة بحضارة العصر الحديث ومدنيته • وقد تعرض الشيخ محمد الخضر الى هذا الراى فى مواطن عديدة من مؤلفاته ، وخاصة فى كتابه « رسائل الاصلاح » فيقول : « نود من صميم قلوبنا ان تكون نهضتنا المدنية راسخة البناء رائعة الطلاء محمودة العاقبة ، ولا يرسخ بناؤها ويروع طلاؤها وتحمد عاقبتها الا ان تكون موصولة بنظم الدين مصبوغة بآدابه » (2) وأشار الى ان سبب انحطاط المسلمين وضعف حالهم هو اهمالهم تعاليم الشريعة الاسلامية واصولها ، وتهاون العلماء والحكام فى التمسك بذلك والاخذ به فى رعاية شؤون الامة ومصالحها • وقد ابدى اهتماما كبيرا بالتعليم وخاصة بالتعليم الدينى فكتب المقالات فى مجلة « السعادة العظمى » وفي غيرها من المجلات التى اشرف على تحريرها مبينا ان سعادة الامة لا تتوفر الا به ، ولا يمكن ان ترقى أمة اغلب ابنائها غير متعلمين لانه « يصعب على قادتها متى ارادوا توجيهها نحو الحياة الصالحة ان يجدوها لينة القيادة خفيفة الخطا » (3) ، كما اهتم بموضوع الاخلاق فساهم فى تأسيس « جمعية مكارم الاخلاق » بالقاهرة والقى المسامرات ، وكتب المقالات عن « عظم الهمة » و « الشجاعة » و « فضيلة الاخلاص » و « صدق اللهجة » و « العزة والتواضع » ودعا الى مكافحة الرذائل والمفاسد حتى تستقيم حياة الامة فتنهض وتتطور • وقد اشار الى دور التعليم والاخلاق الفاضلة فى تحقيق سعادة الامة فى مناسبات عديدة منها قوله : « سعادة الامة ان تستنير عقولها وتسمو اخلاقها . . . اما استنارة عقولها

---

(1) م . خ . حسين ـ « الدعوة الى الاصلاح » ص : 78 .

(2) م . خ . حسين ـ « رسائل الاصلاح » ـ ص : 99 .

(3) المصدر السابق ـ ص : 111 .

فباقامة معاهد كافية للتعليم ... واما سمو اخلاقها فلتستقيم اعمالها وتنتظم المعاملات بينها » (1) .

اما مقاومة البدع والمظاهر والعادات الشاذة عن الاسلام فقد كتب فى شأنها مقالات عديدة واهمها فى نظرنا « طرق الصوفية والاصلاح » الذى نشره بمجلة - البدر - التونسية (2) فقد تعرض فى هذا المقال الى اخطار بعض هذه « الطرق » وما تبثه فى المجتمع الاسلامى من افكار ونظريات غريبة عن الشريعة الاسلامية مما جعل « المسألة خطرة وتبعة السكوت عنها غير هينة » واشار الى ظهورهم فى ازياء مزرية ، وقيامهم ببعض الاعمال المشينة مما يمس بالدين الاسلامى ويلصق به وصمة تجعل بينه وبين الجاهلين به حجابا كثيفا » (3) ثم دعا الى تنقية هذه « الطرق » و « زواياها » من هذه المظاهر الخاجة عن « رسوم الشريعة » .

وخلاصة القول ان الشيخ محمد الخضر حسين كان من دعاة الاصلاح الدينى والاجتماعى البارزين الا انه كان متميز الشخصية فلم يجار المحافظين فى كل آرائهم ومواقفهم ، ولم يخالف الاصلاحيين فى كل ما اتوا به من نظريات فأخذ بعض الشىء من اولئك وهؤلاء مما جعل مجلة « السعادة العظمى » « مركزا للحركة الفكرية وقوة توجيه متصلة بجميع أهل الثقافة العربية يجتمع تحتها شقان متباعدان فى صعيد الاحترام وحسن الادب والتجرد » (4) ، وجعل صاحبها بحكم هدوء طبعه وتوازن مزاجه وقوة ثقافته من « **حزب المصلحين المعتدلين** » كما وصفه صاحب المنار والعلامة التونسى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، فهل بعث الرجل مدرسة مستقلة فى ميدان الاصلاح ؟ ذلك ما يمكن ان يؤكده ويوضح اسسه او ينفيه الباحث المجرد والدارس المتعمق فى هذا الميدان .

---

(1) نفس المصدر .
(2) مجلة - البدر - م . 3 - ج 4 - ص - 121 .
(3) المصدر السابق - ص : 125 .
(4) م . ف . ابن عاشور - الحركة الفكرية - ص : 79 .

الفصـــل الـــرابع

* * *

السيــــاســــى

قامت مجلة ـ المصور ـ المصرية باجراء حديث صحفى مع الشيخ محمـد الخضر بعد اسبوع من توليه مشيخة جامع الازهر ومما قاله لمبعوثها « ولعلكم تنظرون الى نظرتكم الى رجل عجوز هرم ولكن هـذه الشيخوخة البادية هـى نتيجة الكفاح السياسى ٠٠٠ اما القلب والرأس فمازالا فتيين » (1) فما هى نظرياته السياسية وما قام به من كفاح فى هذا الميدان ؟ ٠ :

ان الوثائق التى تتصل بالموضوع قليلة جدا لا تمكننا مـن تقديم صـورة واضحة عن نشاط هذا الرجل السياسى ، لكن ذلك لا يمنعنا من تحليل مـا تجمع لدينا من معلومات من حياته وآثاره واستخلاص صورة تقريبية نرجو ان تزداد جلاء عند الحصول على وثائق اخرى هى الان لدى بعض اصدقائه وخاصة عن نشاطه بالبلاد المصرية (2) .

لقد برزت « حركة الشباب التونسى » التى تزعمها المرحوم على باش حامبة سنة 1907 م واصدرت جريـدة « التونسى » لسانها المعبـر عن اتجاهها ، وبرامج نشاطها ، ونظريات اصحابها وافكارهم السياسية ٠ وقد مرت هـذه الحركة باطوار مختلفة وآخرها المساهمة فى اعداد حوادث « الترامواى » التى وقعت بين التونسيين والايطاليين كانت نتيجتهـا محاكمة عـدد كبير مـن الوطنيين ، وابعاد زعيم « الحركة » المرحوم على باش حامبة الى الخارج فى مارس 1912 م ٠ وقد سبق هذه الحوادث اصطدامات بمقبرة الزلاج سنة 1911 م

---

(1) مجلة ـ المصور ـ الاسبوع الاخير ـ سبتمبر 1952 ٠

(2) اخبرنا الاستاذ البشير الزريبى انه يملك هذه الوثائق وسيقوم بنشرها فى المستقبل ٠

وكان الشيخ محمد الخضر خلال سنتى 1911 م ـ 1912 م بالبلاد التونسية ولم يبارحها الا فى شهر جويلية من السنة الاخيرة ، ثم عاد اليها فى شهر نوفمبر من نفس السنة ، ثم بارحها نهائيا بعد اسابيع قليلة الى المشرق العربى ، على أننا لا نعرف مشاركة عملية للرجل في هذه الاحداث . وتجدر الاشارة الى ان احد الاسباب التى شجعته على الهجرة هو ما اصبح يعانيه الشعب التونسى من كبت ، وما سلط عليه من قهر وارهاب فى الاشهر الاخيرة من سنة 1912 م ، وادمى فؤاده ان يرى الحريات تطمس فى بلاده :

وارى سياسة امتى
فى قبضة الخصم العنيد (1)

ويبدو ان الرجل قد كان متأثرا بتيار الاصلاح الدينى والاجتماعى اكثر من التيار السياسى شأنه فى ذلك العهد شأن اغلب شيوخ جامع الزيتونة وطلبتها . ولم يبق على تلك الحال بعد انتقاله الى الشرق ، فتقلد منصب محرر عربى بوزارة الحربية التركية خلال الحرب العالمية الاولى ، ثم قام ببعض المهمات السياسية بالمانيا منها الاتصال باسرى الحرب المغاربة وتوجيههم للمشاركة فى تنظيم ثورة مسلحة فى شمال افريقيا ضد الاستعمار الفرنسى ، وكان فى كل ذلك يتعاون مع بعض الوطنيين التونسيين الذين هاجروا الى تركيا والمانيا وخاصة الزعيم على باش حامبة الذى استقر بالاستانة واخيه محمد باش حامبة والشيخ اسماعيل الصفايحى القاضى الحنفى السابق بتونس والشيخ صالح الشريف احد علماء جامع الزيتونة ، وقد راينا ان الرجل تجاوز هذه المشاركة السياسية العملية الى امضاء اللوائح التى وجهتها « اللجنة التونسية الجزائرية » الى مؤتمر الصلح الذى انعقد بفرنسا سنة 1917 م وبينت فيها ما كان يقاسيه الشعبان التونسى والجزائرى من ظلم وعسف واضطهاد .

اما فى القاهرة فقد قام بتأسيس « رابطة الدفاع عن شمال افريقيا » التى ساهمت مساهمة فعالة فى التعريف بقضايا المغرب العربى وبابطاله وزعمائه

---

(1) ديوان « خواطر الحياة » ص : 61 . البحر : مجزوء الكامل .

الوطنيين ، كما وجهت المذكرات الى عدد من المنظمات العربية والعالمية لبيان واقع بلدان شمال افريقيا الاستعماري .

وقد ساعد الشيخ محمد الخضر عددا من الوطنيين التونسيين وخاصة الزعيم الحبيب بورقيبة الكاتب العام للحزب الحر الدستوري التونسي عند سفره الى الشرق العربي سنة 1945 م للتعريف بالقضية الوطنية التونسية لدى الشعوب والدول بالشرق وجلب عطفها ومساعدتها (1) ، كما وجد منه أعضاء مكتب « المغرب العربي » بالقاهرة عونا مستمرا ورعاية دائمة مسخرا من اجل ذلك « كل ما كان يتمتع به في البلاد المصرية من مكانة وتقدير فائقين (2) » .

ويبدو ان نشاط الرجل في هذه الفترة من حياته قد اقتصر على توجيه « برقيات الاحتجاج والشكوى واللوائح » باسم « الرابطة » التي كان يرأسها الى المنظمات العربية والاوروبية والعالمية ، ولم يقم بنشاط سياسي عملي كما فعل ذلك بالمانيا بل كانت اغلب جهوده موجهة الى الاصلاح الديني والاجتماعي والاخلاقي مثلما بينا ذلك في الفصل السابق . ويمكن ان نقول انه ابتعد عن الكفاح السياسي ويؤكد ذلك عدم طرق مجلتي « الهداية الاسلامية » و « نور الاسلام » للقضايا السياسية كما اشار الى ذلك في افتتاحية العدد الاول لكل منهما خوفا من الدخول في النزاعات السياسية « التي تفسد كل عمل » ارتبطت به . وقد وقعت احداث سياسية هامة في تونس خلال العقد الرابع من هذا القرن لا نجد لها صدى بارزا في هاتين المجلتين ، ومن هذه الاحداث « المؤتمر الافخارستي » الذي انعقد بتونس سنة 1930 م وحضره سبعة آلاف من رجال الكنيسة المسيحيين ، وخمسة آلاف شاب مسيحي . وقد اقيم هذا المؤتمر في بلاد اسلامية تحديا للدين ورجاله ، وتذكيرا بالحروب الصليبية . ورغم

---

(1) حديث فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة الى الوفد البرلماني المصري ـ العمل ـ .

(2) اخبرنا بذلك السيد يوسف الرويسي عضو مجلس الأمة الحالي بتونس الذي كان عضوا قارا بهذا المكتب صحبة المرحوم الدكتور الحبيب ثامر

اهمية هذا الحدث من الناحيتين الدينية والسياسية فان الشيخ محمد الخضر لم يتعرض له فى احدى المجلتين واكتفى بنشر رسالة صغيرة فى « الهداية الاسلامية » (I) بعنوان « مؤتمر كاثوليكى بقرطاجنة » بعثها احد المواطنين من تونس دون ان يصحبها بتعليق او مقال يبين خطورة الموضوع على الاسلام والمسلمين • اما الحدث الثانى فهو الاصطدامات التى وقعت بمناسبة « دفن المتجنسين فى المقابر الاسلامية » سنة 1933 م بين التونسيين والسلطة الفرنسية لتشجيع المواطنين على التجنيس بالجنسية الفرنسية ، وفى ذلك قضاء على الشخصية الوطنية وادماج العنصر التونسى فى المجتمع الفرنسى بصورة تدريجية ، ولم يشر الرجل الى هذا الحدث الدينى والسياسى رغم اهميته من الناحية الاسلامية وقد بين صاحب ـ المنار ـ تقصير الشيخ محمد الخضر وعدم اهتمامه بالقضايا السياسية التى تتصل بالعالم الاسلامى وخاصة بالمغرب العربى اثناء الخصومة التى وقعت بينهما واشرنا اليها بتفصيل فى فصل سابق (2) •

اما افكار الرجل السياسية فقد بينا بعضها فى مناسبات سابقة ، وهى تتمثل فى ايمانه بالرابطة الاسلامية وضرورة اتحاد المسلمين فى نظام دينى وسياسى هو نظام الخلافة ، وقد حللنا هذه الاراء عند تقديم كتابه : « نقض كتاب الاسلام واصول الحكم » كما كان يؤمن بالمغرب العربى ووحدة قضيته ومصيره وقد تبين لنا ذلك من اهتمامه بالجاليات المغربية بالمشرق ، ثم بتأسيس « رابطة الدفاع عن شمال افريقيا » وبما كان يوليه لهذا الجزء من العالم العربى ولزعمائه من رعاية خاصة وتعبير صادق عن واقعه ومطامحه • فقد قال فى قصيد « صرخة المغرب » : (3) :

(I) مجلة ـ « الهداية الاسلامية » م 2 ـ عدد 4 .

(2) انظر ـ ص : I07 من هذا البحث .

(3) ديوان « خواطر الحياة » ـ ص : I23 .

يصـرخ المغـرب غيظـا واحتـراقـا
صرخـة الناهض للمـوت اشتياقـا (I)
لا تلـومـوه اذا خـاض الـوغـى
ورايتـم دمـه الغـض مـراقـا
هـو يلتـذ الـردى اذ يسكـب الضيـ
ـم فـى اكـؤسـه مـاء زعـاقـا

أما آراؤه السياسية الوطنية فقد كـان الرجل وطنيا مخلصا محبا لبلاده ، ذاكرا لها متتبعا لاخبارها وقد تبين لنا عند تقديم ديوان « خواطر الحياة » ان الحنين الى الوطن شمل قصائد عديدة ومقطوعات شعرية مختلفة مما جعل هذا الغرض من أهم اغراض الديوان . اما من الناحية السياسية فقد كانت تربطه صلات متينة بالشيخ عبد العزيز الثعالبى (رئيس الحزب الدستورى القديم) وبالشيخ محى الدين القليبى – احد اعضاء هذا الحزب البارزين – والذى اقام فى بيته بالقاهرة عند زيارته لها سنة 1947 م ونشط فى « رابطة الدفاع عن شمال افريقيا كما كتب مقالا او مقالين بمجلة « الهداية الاسلامية » ، ولا شك ان هذه الصلات قد جعلت الرجل يميل الى طـرق هذا الحـزب واساليبـه السياسية اكثر من ميله الى « الحزب الجديد » الذى انبعث فى المؤتمر المنعقد ببلدة قصر هلال فى 2 مـارس 1934 م . والذى يؤكد هذا الافتراض عدم تعرض الشيخ محمد الخضر الى هذه « الحركة السياسية الجديدة » وما حققته من نتائج فى المذكرة التى وجهها سنة 1946 الى دول العالم للتعريف بالقضية التونسية وما مرت به من مراحل واطوار (2) ، فيتحدث فيها عن الحزب الحـر الدستورى » وما قدمه من مطالب الى الحكومة الفرنسية ، وموقف المستعمرين منها ثم يقول : « وما زالت الحركات السياسية الوطنية فى تونس تنهض مرة بعد اخرى ، وتردد مطالبها على آذان الحكومة وتعقد المظاهرات وتقدم احتجاجات

(I) البحر : الرمل .
(2) م . خ . حسين « تونس وجامع الزيتونة » ص : I28 .

عند كل تشريع او تصريح يجحف بحقوق الامة حتى غشيتها هذه الحـرب القائمة » (I) . ولم يذكـر اسم « الحـزب الحـر الدستورى الجديد » الذى قاد المظاهرات ، وقدم الاحتجاجات التى اشار اليها · واعتقد انه فعل ذلك عن قصد لميله الى الحزب « القديم » وصلته بابرز قادته واعضائه ·

وتجدر الاشارة الى ان الاسلوب السياسى الذى اتبعه الرجل فى تونس وفى البلاد المصرية هو نفس الاسلوب الذى كان يسير عليه هذا الحزب وهو ما يفسر تناسب مزاجه ونظرته الى العمل السياسى مع نظرة اعضاء « اللجنـة التنفيذية » (2) .

ويتبين لنا مما تقدم ان الشيخ محمد الخضر حسين قد قام بنشاط سياسى هام في مراحل عديدة من حياته ، وكان يؤمن بفكرة الجامعة الاسلامية نتيجة ثقافته وتكوينه الدينى ، وبوحدة قضية بلدان المغرب العربى ، كما ساعد عددا من الزعماء والوطنيين التونسيين وكان يبدى ميلا الى «الحزب الحر الدستورى» القديم نظرا لمزاجه وصلاته الثقافية والشخصية بعدد من قواده واعضائه ·

وقد برزت لنا من خلال الفصول الاربعة الاخيرة العناصر الاساسية لشخصية هذا العلامة الثقافية ، وهى فى تنوعها وتداخلها ، وغزارة محتواها ، تبين قوة هذه الشخصية وعمقها ووضوحها مما جعل صاحبها يتمتع بمكانـة ممتازة فى العالم العربى ، ويقوم بدور فعال فى توجيه الحركة الفكرية الاسلامية واثرائها .

(I) نفس المصدر ـ ص : I44 .

(2) الاسم الذى يطلق على المكتب التنفيذى للحزب الدستورى القديـم ويقابله « الديـوان السياسى » فى « الحزب الدستورى الجديد » .

الخاتمة

تعرضنا فى القسم الاول من هذا البحث الى المراحل والاطوار التى مرت بها حياة الشيخ محمد الخضر حسين ، وبينا انه نشأ فى بيئة علم وورع ، وفى عائلة دين وتقوى ، فأثر ذلك فى تكوين شخصيته ووجهها وجهة معينة جعلته رجلا محبا للتعلم والتعليم والتثقف والتثقيف فى كامل سنى حياته ، سواء منها التى قضاها بالبلاد التونسية او التى قضاها بالمشرق العربى . فقد كان طالبا للمعرفة فى كل ذلك ، وعاملا على خدمة القضية الاسلامية وتوجيه المسلمين واصلاحهم ومدافعا عن الدين الاسلامى لحمايته من اى تحريف وسوء تأويل .

وقد سيطرت هذه الروح الدينية القوية على آثاره المتنوعة التى تناولت العلوم الاسلامية واللغوية وبعض القضايا السياسية التى كان يعيشها المجتمع الاسلامى فى النصف الاول من هذا القرن ، كما برزت فى اشعاره العديدة ومحاضراته وخطبه ، وكذلك فى نشاطه فى المجمع العلمى بدمشق والمجمع اللغوى بالقاهرة ، وفى كل المقالات التى ملات المجلات والصحف فى بلدان عربية عديدة .

ولذلك فقد تبين لنا من الاقسام الثلاثة التى احتواها هذا البحث ان الشيخ محمد الخضر حسين علم من اعلام الفكر الاسلامى ، ساهم مساهمة فعالة فى تغذيته واثرائه وتوجيهه ، كما كان له دور كبير فى اصلاح المجتمع ودعوته الى التمسك بالشريعة الاسلامية مع مسايرة الحضارة الحديثة والاستفادة بما فيها من علوم ومعارف .

وقد قام بكل ذلك فى اعتدال ، وهدوء طبع ، وقوة شخصية ، ودماثة خلق ، وغزارة علم وسعة وادراك .

ولا يسعنا فى خاتمة هذا البحث الا ان نؤكد ان ما قمنا به للتعريف بهذا الرجل وآثاره ليس الا عملا تمهيديا نرجو ان يساعد على دراسة هذا العلامة دراسة عميقة وشاملة للمزيد من توضيح نظرياته وآرائه وتحديد اتجاهه الاصلاحى .

المُلحق

تمهيـــــد

★ ★ ★

اهتم الشيخ محمد الخضر حسين بميدان الرحلات منذ شبابه كما بينا ذلك فى القسم الاول من هذا البحث ، وقد كان هذا الاهتمام ناتجا عن شعوره بفائدة الرحلة سواء بالنسبة الى القائم بها من حيث تكوين شخصيته الثقافية والعلمية وتوسيع مداركه وخبراته ، او بالنسبة الى المجتمع الاسلامى من حيث النشاط الذى يقوم به الرحالة فى المناطق التى يزورها بالقاء المسامرات العلمية والخطب التوجيهية والمحاورات الادبية .

وقد قام هذا الرجل بعدة رحلات فى حياتـه زار خلالها البـلاد الجزائريـة وبلدان المشرق العربى وبلدان اوروبية مختلفة . ثم كتب مقالات وصفية عن بعض هذه الرحلات نشرها فى المجلات والصحف كنا قد بينا قيمتها الادبية والتاريخية والاجتماعية فى مناسبات عديدة من هذا البحث .

وقد بقيت هذه « الرحلات » موزعة مما يحمل الباحث جهدا كبيرا عنـد الرجوع اليها لدراستها او للاستفادة بمحتواها . ولذلك قمنا بجمعها والتعليق عليها حتى نساهم فى تقريبها من المثقفين عامة والدارسين خاصة ، كما نمكن القارىء من الاطلاع على آراء الرجل وافكاره بالاعتماد على نصوص من تحريره بالاضافة الى ما أوردنـاه فى شأنه فى هذه الدراسة . وتجدر الاشـارة الى ان الشيخ محمد الخضر قد كتب مقالا وصفيا عن رحلته الى المانيا صدر بجريدة « البلاغ » البيروتية سنة 1918 م وقد حاولنا الحصول على هذا النص لنشره فى هذا الملحق الا اننا لم نتمكن مـن ذلك . اما النصـوص التى قمنـا بجمعهـا والتعليق عليها فهى :

1 ــ «الرحلة الجزائرية» التى نشرت فى مجلة « السعادة العظمى عدد 19 وعدد 20 و 21 .

2 ــ « خلاصة الرحلة الشرقيـة » التى نشرت فـى جريـدة ــ الزهرة ــ (مارس ــ افريل سنة 1913 م) .

3 ــ « حديث عن رحلتى الى دمشق » الذى نشر بمجلة «الهداية الاسلامية»

وقد اعترضتنا صعوبة كبيرة فى التعريف ببعض الاعلام المذكورين فى هذه الرحلات وخاصة فى « خلاصة الرحلة الشرقية » وقد تمكنا من التعريف بالبعض منها وبقى عدد آخر لم نتمكن من التعريف به .

الرحلة الجزائرية

لصاحب المجلة (1)

كنت اسعفت فيما سلف من الزمان باجراء سياحة فى اطراف المملكة الجزائرية ، وبقيت النفس مستشرفة الى اعادتها تارة اخرى الى مدينة الجزائر نفسها لنكون على بينة من مقدار ما تبلغ اليه حالتها العلمية وجلية من امر اخلاق اهلها الغالبة ، وعاداتها العامة فان لسان العيان افصح من لسان البيان . وما برحت هذه الامنية تتمثل فى الخيال وتجول فى العقل حتى مكنتنا الفرصة من توطيدها وإبرازها الى حيز الوجود فى شهر رمضان المعظم من هذه السنة.

ولما استقر بنا النوى من حيث ابتدا ، وصقل الاياب مرآة الصدور مما مسها به البعاد من الصدا قبضت قبضة من آثار سفرنا هذا ونبذتها فى صحائف هاته المجلة عسى ان يعتبرها مطالعوها الكرام بمثابة فصل انتزعت شذوره من مجلد ضخم فى انباء الامة الجزائرية من جهة معارفها واخلاقها (2) .

سوق اهراس

عقدت العزيمة على الضعن فى الساعة الثامنة صباحا من اليوم الخامس من

(1) « السعادة العظمى » عدد 19 و 20 ص : 289 .

(2) لم يهتم الرجل بالجانب السياسى وما كان يعانيه الشعب الجزائرى من عسف وقهر من الاستعمار الفرنسى .

الشهر المذكور (شهر رمضان) سنة 1322 هـ (1) واتخذت سبيلي في البر لانه اجمل منظرا واقل خطرا فانسحب بنا القطار وهو يطوى البيد طيا ، ويجوب من المفاوز الفسيحة مكانا قصيا الى ان نفخ نفخة الغيور الكريم ثم سار سيرا رويدا واستوى على محطته الواقعة على جناح من بلد سوق اهراس في الساعة الرابعة مساء .

فهبطت متدليا الى المنزل الذى اعد لنا وبعد ان نفثت نقع ما علق بنا من النصب ، تطوفنا فى اغلب مناهجها المتسعة وفسحنا الخاطر فى بناآتها المتناسبة ولعدم كبر ساحتها يمكن الاحاطة بها فى مدة وجيزة . وعند مغيب الشفق توجهت الى مسجد لاغتنام فضيلة الجماعة ، وبعد ان قضيت الصلاة وتاهبنا للانصراف قام من الجماعة رجل تلوح على وجهه سمة اهل العلم ودنا منى وسلم على سلام ذى معرفة ثم مسك بيدى وتقدم بى الى محراب المسجد وأومأ الى بالجلوس ثم استدارت الجماعة على هيئة درس ورايت فى يد احدهم سفرا فالتفت الى ذلك الفاضل وقلت له « هل لكم درس فى هاته الساعة » فقال « نعم درس فى التوحيد ولكن نريد ان نعوضه بمسامرة علمية معكم » . فجرت على بساط المسامرة مسائل بعضها فى العبادات وبعضها فى غير ذلك منها قول بعض المسترشدين هل كان النبى صلى الله عليه وسلم يحلق راسه ام لا ، وما حكم عدم الحلق فكان الجواب ان الاثار الصحيحة تدل على انه صلى الله عليه وسلم لم يحلق لغير نسك فيحتمل ان يكون ترك الحلق من باب ترك الاخذ بالعرف والجرى على ما هو العادة عند قومه ، وعلى هذا فمن جرى عرف قومه بالحلق كان الاولى فى حقه العمل على مقتضاه ويحتمل ان يكون على وجه التشريع فيكون سنة وهو ما فهمه ابو الوليد الطرطوشى (2) وابن العربى (3)

---

(1) يوم السبت الموافق ليوم 12 نوفمبر سنة 1904 م .

(2) ابو الوليد الطرطوشى (1059 ـ 1126 م) فقيه ، من مؤلفاته « سراج الملوك » والحوادث والبدع .

(3) هو ابو بكر محمد بن عبد الله بن العربى متوفى (546 هـ. 1151 م) محدث اندلسى وقاضى قضاة اشبيلية من أشهر كتبه « المسالك فى موطأ مالك » .

وصرحا بان حلق الرأس لغير نسك بدعة ، والذى يقوى فى النظر ان ترك الحلق هو من باب العادة فلا يعد الحالق مبتدعا وقد يقال لا تثريب على من ترك حلق رأسه بقصد التاسى بالنبى صلى الله عليه وسلم فان الصحابة والسلف الصالح كانوا يحافظون على الأسوة به فى العادات كما يحافظون عليها فى السنن فيعارض بأن الشارع قد أمر بموافقة ما جرى به العرف فى غير ما شرعه . وبعد ان ختمت السامرة وانفضت الجماعة تجاذبنا مع ذلك المدرس محادثة خاصة فاستجلينا من خلالها انه الشيخ محمد الصالــح بن الشايب العدل بالمحكمــة القضائية . ومما جرى فى خاتمة المجلس لفظ (منطاد) فقلنا هو الالة التى تطير فى الهواء المسماة بالبالون وهو لفظ عربى فى القاموس (1) الانطياد : الارتفاع فى الهواء صعدا ، والمنطــاد ، البنــاء المرتفع . ويوجد فى هــذه البلد مدرس اخر وهو الشيخ عبد المجيد كنت فى السنة الفائتة اتيت المسجد الذى يدرس فيه المختصر الخليلى (2) وقــد سبقت لنا معرفتــه بالحاضرة فرحب بنا واحسن لقاءنا ثم سعى بنا الى محل الدرس فجلس عن يسارنا ، وشرع فــى تقريره بطريقة مقتصدة خالية عن التطويل ، بعيدة عن الاختصار وطالع الدرس قول صاحب المختصر « وعفى عما يعسر » وباثر انقضائه عقدنا معهم مسامرة اشتمل غالبها على تفسير قوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » الاية وعلقنا عليها ما حضرنا فى فضل التعليم والتعلم .

تبســـــه

وفى الساعة الخامسة صباحا (3) سافرت الى تبسة فوصلناها بعد مسير القطار نحو خمس ساعات ، وبعد ان ازحنا بالاستراحة ما سامنا من عناء السفر

---

(1) القاموس المحيط .

(2) كتاب مشهور فى الفقه المالكى الفه الشيخ خليل ابن اسحاق المتوفى سنة 1374 م .

(3) يوم الاحد 5 رمضان سنة 1322 هـ / 13 نوفمبر سنة 1904 .

خرجنا نتدرج بانحاء البلاد الى ان استقصينا غالب مناهجها جولانا . والفيناها منفوضة الجراب من ءاثار التعليم ســوى ان بعض المتخرجين بالجامع الاعظم (1) من اهالى الجريد (2) يجاور بها نحو خمسة اشهر فى السنة يلقى فيها دروسا من الكتب الابتدائية .

وبعد صلاة التراويح زارنا جماعة من اعيان تجارها لهم عناية اكيدة بالمسائل التى تعرض لهم فى أمور التجارة وهو من اعظم الأدلة على متانة الديانة والتوقى من الشبهات منها قول بعضهم : « ما تقولون فى رجل اقترض مالا من عند آخر واشترى به اشياء تجب فيها الزكاة وعنده ملك آخر يفى بخلاص ذلك الدين فهل تجب فيها الزكاة فيما اشتراه بمال القرض ان مر عليه الحول او لاتجب لانــه مدين » فكان الجواب ان المدين الذى لاتجب عليه الزكاة هو الــذى ليس له من الملك ما يمد به خلة ما عليه من الدين اما اذا كان مالكا لما يجعله فى مقابلة ذلك الدين فلا يعد الدين مسقطا للزكاة كما فى الموطا (3) .

عيــــن البيضــــاء

ومن الغد (4) قصدت عين البيضاء فى الساعــة السادسة مســاء . فركبت عربة يجرها اربع جياد لعدم ارتباط البلدتين بسكة حديد فوصلنا فى الساعة الخامسة صباحا (5) وبعد ان اخذناسنة من النوم افاضت علينا من الاستراحة شيئا يسيرا ، وفد علينا بعض أهل العلم مثل الشيخ محمد العربى بن قشوط

(1) المقصود هو جامع الزيتونة .

(2) الجريد منطقة توجد بالجنوب الغربى من الجمهورية التونسية وهى على الحدود الجزائرية اشتهرت بواحات نخيلها وباهميتها التاريخية لها كثير من العلماء والادباء كما ان أهلها كثيرو الزيارة للبلاد الجزائرية .

(3) الموطأ : كتاب فى الفقه الفه مالك بن انس المتوفى سنة 179 هـ 795 م .

(4) يوم الاثنين 7 رمضان الموافق ليوم 14 نوفمبر .

(5) يوم الثلاثاء 8 رمضان الموافق ليوم 15 نوفمبر .

والشيخ المسعود بن علي ، والشيخ احمد بن ناجي فاستنارت صدورنا تانسا بمحاورتهم العلمية فى سائر ذلك اليوم . ومن المسائل التى طرحت بيننا مسألة الفرق بين الكل والكلية فقررنا ان قوله صلى الله عليه وسلم « كل ذلك لم يكن » لما قال له ذو اليدين « اقصرت الصلاة يا رسول الله ام نسيت؟» هو من باب الكلية لا من باب الكل كما يقول بعض المصنفين بدليل قول ذى اليدين «قد كان بعض ذلك يا رسول الله » وقوله فى الرواية الاخرى«ما قصرت الصلاة وما نسيت » وان المعنى كل ذلك لم يكن فى ظنى فيكون مطابقا للواقع والاعتقاد ولا داعى الى تأويل الحديث بتوجيه النفى الى المجموع بل لا يصح تخريجه على ذلك .

وبعد صلاة التراويح دعانا الشيخ احمد بن ناجي الى المسجد الذى يدرس فيه المختصر الخليلى ، فلما وافينا المسجد وجدناه غاصا بتلامذة ذلك الدرس وغيرهم ففسحوا لنا مقعدا فى المحراب ثم قام رجل منهم ووزع اجزاء نسخة قرآن على الحاضرين وهذه عادتهم فى كل ليلة جمعة ، وبعد ختامها انتدب منا ذلك الشيخ ان نذاكرهم بتقرير بعض الاحاديث فوقع اختيارنا على حديث (سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله امام عادل الـخ) الحديث ، فاملينا بعض ما نعهده فى شرحه ، واسبغنا المقال فى شان التوادد والتعاون عند قوله « ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليه » وشاهدنا من الحاضرين رغبة مفرطة واقبالا زائدا على تلقى التعاليم الدينية .

قسنطينة

بارحت عين البيضاء فى الساعة السادسة صباحا (1) ، فوصلنا قسنطينة بعد مسير الرتل ست ساعات تقريبا ، واعدنا الاستطلاع على بعض معالمها الدينية واثارها القديمة والحديثة . بهذه المدينة مدرسة اسلامية معدة

(1) يوم الاربعاء 9 رمضان الموافق ليوم 16 نوفمبر .

لتخريج القضاة والعدول . وثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة : الجامع الكبير ، والجامع الاخضر ، والاخر يسمى بجامع سيدى الكتانى وفى هـذا الجامع منبر من الرخام مرقوم فيه بيت من الشعر يتضمن اسم مؤسسة وتاريخ تأسيسه وهـو :

بنى منبرا بالعز والنصر صالـــح له سبل الخيرات تاريخه رشـد (I)

واسس الجامع الاخضر سنة 1256 هـ . وبها مكتبة عمومية تحتوى على عـدد من الكتب المطبوعة المتداولة . والتقينا باشهر علمائها الشيخ حمدان بن الونيسى الذى كان زار الحاضرة منذ عهد قريب ، والعالم الشيخ احمد بن الحبيبات وهو رجل عليه سمة اهل الخير والصلاح ولما حان وقت صلاة العشاء ذهبت الى الجامع الكبير وبعد انقضاء الصلاة رايت جماعة مستديرة فى جانـب من الجامع والناس يستبقون نحوها زمرا فاخبرنى بعض من معى بان للشيخ درسا فى التفسير فدنوت منه واصغيت اليه فاذا هو يقرى فى قوله تعالى : « ما ننسخ من آية » الاية بتفسير الخازن (2) .

وبعد ان تم الدرس تقدم الينا بعض الطلبة الذين سبقـت لهم بنا معرفة مسترشدا عن مسائل منها كيف يجمع بين قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وقوله تعالى : « ولا تزروا زرة وزرى أخرى » فكان الجواب ان الله لا يؤاخذ احـدا بزلة احد وانما يستحق العقوبة صاحب الذنب الا ان الله فرض على كل مسلم راى منكرا ان يغيره فاذا لم يفعل ما استطاع من تغييره وسكت كان عاصيا فينخرط مع صاحب الذنب فى العقوبة احدهما بفعله والاخر برضاه قال تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » فالفتنة فى الواقع لا تصيب الا صاحب الذنب كما قال عمر (3) رضى الله عنه ان الله لا

(I) البحر الطويل ـ كلمة رشد مجموع حروفها بحساب الجمل عند المغاربة يساوى ر 200 + ش 1000 + د 4 = 1204 .

(2) هو علاء الدين الخازن الصوفى البغدادى (1269 ـ 1340 م) له كتاب (الباب التاويل فى معانى التنزيل) الذى يعرف بتفسير الخازن .

(3) عمر بن الخطاب : ثانى الخلفاء الراشدين . قتل سنة 22 هـ / 644 م .

يعذب العامة بذنب الخاصة ولكن اذا عملوا المنكر جهـارا استحقوا العقوبـة .

واجتمعنا باحد الثقاة من بلد المسيلة ، فحكى لنا ان بعض الطلبة فى تلك الجهة يعمل فى صيامه بقواعد الحساب تارة وتارة يؤم الناس فى صلاة العيد وهو صايم فقلنا ورد قوله صلى الله عليه وسلم « فـاذا غم عليكم فاقدروا له » فذهب مطرف بن عبد الله احد التابعين الى ان معنى اقدروا له احسبوا لـه بحساب المنجمين ، واستدل بقوله تعالى : « وبالنجم هم يهتدون » فاكملوا العدد الثلاثين ثم ان الشرع مبنى على ما تعلمه الجماهير ، وامر الحساب لا يعرفه الا قليل من الناس ولو كان الحساب طريقا يعتد به فى ثبوت الشهر لعلمه النبى صلى الله عليه وسلم للصحابة كما كانوا يعملون اوقات الصلوات ويرد استدلال مطرف بان المراد من الاية الاهتداء فى طريق البر والبحر ٠

يبلغ عدد سكان هذه المدينة نحو 55 ألف نسمة نصفهم من المسلمين واربعة آلاف من اليهود والباقى من الافرنج ٠

باتنــــة

ثم التقيت بابن عمنا الشيخ الحسن فربطنـا النية على المرافقـة فى السفر فتوجهنـا الى باتنة فوصلنا فى الساعة الثامنة مساء (1) . وبعد ان وضعنـا اوزار الاتعاب تجولنا فى غالب شوارعها فاذا هى فسيحة العرض متناسقة البناء منورة بالكهربائى وفى اثناء المطاف قال لى رفيقنا المذكور انى اعرف هنا رجلا من اهل العلم والادب ، فقلت تلك الضالة التى ننشدها فى مثل هاته الليلة ، اسع بنا الى ان نروح الخواطر باسماره ٠ فمضينا حتى انتهينا الى محل معد للتجارة فوجدنا جماعة جالسين عـلى شكل نصـف دائرة ، فلما راونـا انتفضوا قائمين وعلى وجوههم نظرة البشر والابتهاج وعلى تحيتهم طلاوة الادب واللطافة فكان ذلك براعة استهلال لما ينبغى ملاحظته فى ذلك المنتدى واتفق

(1) يوم الخميس 10 رمضان الموافق لـ 17 نوفمبر .

ان كان من زمرة هؤلاء الفضلاء الشيخ احمد البوعونى المشار اليه والشيخ ابراهيم بن السلمى ولكل منهما فصاحة منطق وسجية نزاعة للادب ولأولهما شعر جيد ، فقضينا فى السمر مقدار ثلاث ساعات كانت لتلك الليلة نطاقا جميلا ولما ازمعنا الانصراف ، ووقفنا موقف الوداع تكدرت خواطرهم لانصداع ايوان تلك المؤانسة وتقطع اسبابها فالقوا على مسامعنا عبارات يتمشى التحسر والتاسف فى مناكبها فقلنا لهم العود احمد وانشدنا لهم :

لا تاس يا قلب من وداع   فان قلب الوداع عادا (I)

عاصمة الجزائر

وفى الساعة الخامسة صباحا (2) تحرك بنا القطار من باتنة ، ولم يزل يخب ويضع ويحمل ويضع حتى ضرب سواد الليل اطنابه وفى الساعة الثامنة اشرفنا على عاصمة الجزائر فتراءت لنا مصابيح انوارها بمنظر انيق واشكال متناسقة وذلك لان المدينة قائمة على اكمة مرتفعة يبتدى العمران من اعلاها ثم يمتد متدليا الى شافة البحر فيبصر الداخل عند استقبال شوارعها المنورة وهى طبقات بعضها فوق بعض رونقا مليحا ٠

وبعد ان اصطفينا محلا لمقامنا ووضع متاعنا ، وتناولنا من الراحة جزءا يسيرا ، تكفانا نجول فى بعض النواحى فالتقينا بالسيد على بن الحداد احد اعيان تجارها الافاضل فبسط علينا من الحفاوة والترحاب رداء ضافيا ٠ ولهذا الفاضل محل تجارى يتسامر فيه جماعة من اعيان العلماء والفضلاء تعارفنا مع بعضهم فى تلك الليلة ٠ ومن الغد (3) تشرفنا بزيارة الولى الصالح

(I) البحر : مخلع البسيط ـ ٠
(2) يوم الجمعة II رمضان الموافق لـ I8 نوفمبر ٠
(3) يوم السبت I2 رمضان الموافق لـ I9 نوفمبر ٠

الشيخ سيدى عبد الرحمان الثعالبى (1) ، وزرنا بازائه المدرسة الثعالبية التى تم بناؤها فى هذه السنة ، وافتتحت باحتفال رسمى يوم الاثنين 17 اكتوبر واسست هذه المدرسة لتعليم الوطنيين العلوم العقلية والنقلية ومنها يتخرج القضاة والعدول • ثم بعد الزوال بساعة ذهبت الى الجامع الجديد ويقال له الجامع الصغير ، فوجدت العالم الفاضل الشيخ بوقندورة المفتى الحنفى جالسا فى زاوية منه ، وحوله جماعة من الطلبة على شكل دائرة يتناوبون سرد صحيح الامام البخارى (2) واحدا بعد واحد والشيخ مصغ اليهم فاذا ناب احدهم خطا استرده الى ما هو الصواب وهذه عادتهم فى سائر ايام رمضان .

وبعد صلاة الظهر تنقلنا الى الجامع الكبير ، فالتقينا بالشيخ عبد الحليم بن سماية (3) فغمرنا بنفحات خلقه الناضر ، واختلب البابنا بفصاحة لسانه الساحر ، ولم نلبث معه عند هذه الملاقاة الا مدة قصيرة لامر عارض حال بيننا وبين استطالة الجلسة •

وفى ذلك اليوم دعانا السيد على بن الحداد لزيارة منزله وقت الغروب ، وبعد ان تناولنا معه الفطور توجهنا الى ضريح الشيخ سيدى عبد الرحمان الثعالبى بقصد الحضور بدرس الشيخ على ابن الحاج موسى فمكثنا غير بعيد حتى دخل الشيخ وهو محفوف بسكينة ووقار وجلس بالمحراب ، ثم رفع يديه بقراءة الفاتحة قبل افتتاح الدرس وبعد ذلك أخذ فى تقرير مبحث صفة الكلام من كتاب الصغرى للشيخ السنوسى (4) بصوت جهوري فوضح معناها ثم اقام

---

(1) عبد الرحمان الثعالبى (1386 م - 1468 م) ولد بالجزائر وتوفى بها من علماء التفسير له كتاب « الجواهر الحسان فى تفسير القرآن »

(2) ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة 256 هـ / 870 م له كتاب مشهور فى الحديث « الصحيح » فاق كل المصنفات القديمة .

(3) عبد الحليم بن سماية : من افاضل علماء الجزائر - كان مدرسا بالمدرسة الثعالبية - توفى سنة 1351 هـ ونعاه الشيخ محمد الخضر حسين فى مجلة الهداية الاسلامية المجلد 5 . ج . 6 .

(4) هو ابو عبد الله محمد السنوسى المتوفى سنة 1490 م عاش فى تلمسان ونبغ فى العلوم الاسلامية من مؤلفاته « ام البراهين فى العقائد » أو « السنوسية الصغرى » وهو مختصر لعقائد التوحيد .

عليها الدليل ثانيا ، وتعرض فى اثناء ذلك الى جلب مسائل لها تعلق بالمبحث كتنبيه على ان الحدوث الذى وصف به القرآن فى بعض الايات كقوله تعالى (ما ياتيهم من ذكر من ربهم محدث) هو عائد الى الالفاظ التى نتلوها لا الى المعنى الذى هو قائم بالذات العلية • ومما يدل على صلاح حال هذا الرجل ، وصفاء سريرته ، انه ما جرى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم على لسانه الا ارتعد صوته وفاضت دموعه ثم أقيمت صلاة العشاء فتقدم ذلك الشيخ وصلى بالجماعة اماما وقرا في الركعة الاولى بسورة القارعة فلما بلغ الى قوله تعالى (وما أدراك ما هيه) اخذتــه عبرة شديدة • وسمعته يجهر بالتأمين بعد الفاتحة فى الصلاة فعجبت من مخالفته للرواية المشهورة وهى عدم تأمين الامام فى الجهر ، وبلغنى انه خوطب فى ذلك فاجاب بانه يختار رواية المدنيين لترجحها بالحديث الصحيح . يريد بذلك قوله عليه الصلاة والسلام « اذا آمن الامام فامنوا » وهو ظاهر فى تأمين الامام فى الصلاة الجهريــة والمتمسكــون برواية المصــريين المشهورة يؤولون (امن) على بلغ موضع التأمين كانجد اذا بلغ نجدا بدليل حديث (اذا قال الامام ولا الضالين فقولوا آمين) ولعل الشيخ ممن يستبعد ذلك التأويل ولا يرى الحديث الاخير ظاهر الدلالة على عدم تأمين الامام •

وعرجنا فى ايابنا على محل السيد احمد بــن مراد المعد لبيــع الكتــب ، فالتقينا بالشيخ محمد بن شنب احد المدرسين بالمدرسة الثعالبية فاخذنا معه اطراف محاورة اطلعتنا على ما له من النباهة التامة ، والتفقه فى الامور الحديثة زيادة عما له من التفنن • ثم انصرفنا وصحبنا احد الفضلاء فذكر لفظ «مجلة» فاستنبانا عن معناه لغة فسقنا اليه عبارة القاموس مجلة بالفتح الصحيفة فيها الحكمة او كل كتاب •

وفى اليوم الثانى (1) من ايام اقامتنا دعانا الشيخ عبد الحليم بن سماية الى زورة محله فى الساعة الخامسة مساء وكان منزله فى اقصى المدينة واعلاها فصعدنا اليه على السيارة الكهربائية سارت بنا فــى خطها الحديــدى نحو 20

(1) يوم الاحد 13 رمضان الموافق لـ 20 نوفمبر .

دقيقة ووقفت امام ضريح الولى الكامل الشيخ سيدى محمد بن عبد الرحمان الازهري المتوفى سنة 1208 هـ فنزلنـا هناك ، ووجدنـا الشيخ عبد الحليم فى انتظارنا فذهب بنا الى داره ، وارتقـى بنا الى طبقتها العليـا وتنفست مدة المسامرة فتواصلت حلقاتها نحو ست ساعات .

جرتنا المناسبة الى الخوض فى شؤون المدرسين فقلنا ليس المدرس حقيقة من يلقى المسائل على حسب ما تحويه الاوراق جيدها على رديها من غير ان يعرضها على محك النقد ويزنها بمعيار النظر ، فان من المسائل ما لم تحط التآليف بتحقيقاتها واستخراج خباياها فقـال لى الشيخ مثال ذلـك من فـن البيان الاستخدام فان البيانيين يعدونه من المحسنات المعنوية ولا يبينون كيف يعود حسنه الى المعنى ثم استرسل فى بيان رجوعه الى المعنى بكلام يشهـد لصاحبه بسلامة الذوق والولوع بالكشف عن اسرار المسائـل دون الاكتفـاء بتصوراتها المجردة ، ثم استطردنا ان الاستخدام لا يختص بالضمير كما نص عليه الشهاب الخفاجى (1) فى حواشى البيضاوى بل يكون بغيره كالاستثنـا نحو ابدا حديثى ليس بالمنسوخ الا فى الدفاتـر والتمييز نحو اخث الغزالـة اشراقا وملتفتا والعطف وعليه خرج قوله تعالى (ولا جنبا الا عابرى سبيل) . فالمراد من الصلاة معناها الشرعى ووقع عطف (ولا جنبا) باعتبار معناها المجازى وهو المسجد . واطلعنى على صـدر مقالة له فصيحة المبانـى ، شريفة الموضوع مفرغة في قالب الانشاء العصرى ، ووعدنا بارسالها عند استكمالها (2)

وكان هذا الفاضل زار الحاضرة قديما ، واقام بها ثمانية ايام اخذ فيها المقولات العشر تدريسا عن الشيخ محمد بن عيسى الجزايـرى رحمه اللـه ، والتقينا بالعالم الشهير الشيخ عبد القادر المجاوى (3) بعد شهودنا مجلس درسه

---

(1) احمد الخفاجى (1069 هـ ـ 1659 م) فقيه من اهم مؤلفاته « عناية القاضى » وهو شرح على تفسير البيضاوى .

(2) يبدو ان الشيخ محمد الخضر حسين كان اثناء رحلته يعرف بمجلة « السعادة العظمى » التى كان يصدرها فى تلك الفترة كما كان يدعو العلماء للمساهمة فى تحريرها بمقالاتهم وابحاثهم .

(3) المتوفى يوم 6 أكتوبر سنة 1914 م بقسنطينة .

جوهرة التوحيد بمسجد سيدى محمد الشريف فحيانا بتحيات اكدت للتعارف القديم ميثاقا ، وصبغت علينا شيمه الشريفة من المؤانسة كاسا دهاقا ، وحين ما عزمنا على الانصراف ، اخذ علينا عهدا على تجديد الزيارة فى الليلة القادمة فعقبنا ذلك العهد بالوفاء ، وبعد صلاة التراويح ذهب الشيخ ونحن فى صحبته الى جامع الشريف واقرا به درسه الاعتيادى من الاربعين النورية (I) فى مجمع عظيم من الخاصة والعامة ، وكان حديث تلك الليلة (الدين النصيحة) ، ثم عدنا الى السمر ومعنا جماعة من التلامذة • نستحسن من دروس هذا الشيخ اقتصاره فى كل فن على تقرير مسائله التى يشملهـا موضوعه وعـدم خلط بعضها ببعض • وقد كنت عفاكم الله ممن ابتـلى درسه باستجـلاب المسائـل المختلفة الفنون ، واتوكا فى ذلك على ادنى مناسبة حتى افضى الامر الى ان لا اتجاوز فى الدرس شطر بيت من الفية ابن مـالك (2) مثلا ثم ادركت انهـا طريقة منحرفة المزاج ، عقيمة عن الانتاج ، ونرجو ان تكون توبتنا من سلوكها توبة نصوحا •

ولهذا الشيخ ايضا خلق عظيم نحمده عليه ، وهو سلوكه فى معاملة التلامذة طريقا وسطا لا ينحط عن مكانة عزة النفس ، ولا يرتفع عن سماحة التواضع تحمله عواطف النسب العلمى على العناية بشؤونهم وبذل الوسع فى قضاء مآربهم ، ويصده علو الهمة عن مجاراتهم فيما يزرى بخطته الشريفة •

أأغرسه عزا واجنيه ذلة   اذا فاتباع الجهل قد كان احزما (3)

ولعل هذا الخلق الذى لا ينبل الرجل الا به هو الذى غرس له فى قلوب الجمهور مودة واحتراما • وغالب القضاة وعدول المملكة الجزائرية تخرجوا على يديه لانه كان درس بقسنطينة ايضا سنين متطاولة •

(I) هو كتاب « الاربعون حديثا » لصاحبه محيى الدين أبى زكرياء النووى المتوفى سنة 1277 م

(2) منظومة فى النحو الفها ابو عبد الله محمد بن مالك المتوفى سنة 1273 م •

(3) البحر الطويل •

وشهدت مجلس ختم العالم الفاضل الشيخ السعيد لصغرى السنوسى بجامع سيدى رمضان بحضرة جماعة من العلماء وجم غفير من غيرهم ، فقرع الاسماع بمواعظ حسنة ونصائح مفيدة ودبجها بمسائل شتى من النحو والبيان والبديع ، وساق فى اثنائها احاديث فضل التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم « محمد » ، وفى صبيحة تلك الليلة اجتمعنا ببعض المنتسبين للعلم فسؤلنا عن رتبة تلك الاحاديث فقلنا قد نقلها جماعة من المحدثين ولم يتعقبوها بشىء والى ذلك استند الشيخ فى ايرادها ثم ذكرنا له ما نعهده لملا على قارى فى شانها وهو من علامات وضع الحديث مناقضة لما جاءت به الشريعة مناقضة ظاهرة ، ومن ذلك احاديث من اسمه محمد او احمد وان كل من تسمى بهذا الاسم لم يدخل النار فهذا يناقض ما علم من الدين ان النار لا يجار منها بالاسماء والالقاب وانما النجاة منها بالايمان والاعمال الصالحة .

واجتمعنا بالعالم البارع الشيخ محمد بن مصطفى خوجة بدكان السيد احمد ابن مراد فمد علينا من الملاطفة رواقا ، وفتح علينا رياض انس كانت مغلقة ابوابها اغلاقا فنظم فى سلك المسامرة فرائد ، وانشدنا من بنات افكاره قلائد ثم ختمنا بالتعريج على ما هو الاحسن فى طرق التعليم فابديت ما نراه الطريقة المثلى فى هذا الموضوع خلاصته هو ان الرتبة الابتدائية والرتبة الوسطى ينبغى للمعلم الاقتصار فيها على تقرير المسائل مجردة عن ذكر الخلافات والادلة الطويلة الذيل ، حتى اذا اقتصر المتعلم على احدى الرتبتين ، او عاقته دون الترقى لما بعدها عوائق فقد نال ما فيه كفاية من غير ان يخفق مدة من حياته فيما لا فائدة فيه لمثله . اما الرتبة العليا التى لا يقصدها الا من طمحت همته الى ان يكون عالما معلما فلا بد فيها من تتبع عروق المسائل واستقصاء آثارها وحث مطية الفكر فى انجادها واغوارها على شريطة ان لا يلتفت المعلم الى المباحث المتعلقة بعبارات المصنفين فانها داعية الى خلط الفنون بعضها ببعض من غير كبير فائدة ، والاشتغال بتحرير اصل من اصول العلم افيد للطالب واجدى ويستغنى فى تقوية الملكة وتشحيذ الذهن بالمباحث المتعلقة بنفس المسائل .

ودعانا السيد مصطفى بن الاكحل الى منزله ، وهو من افاضل القوم لا يحل بالبلد غريب ولا سيما ان كان من اهل العلم الا واكرم مثواه واحسن ضيافته ، وحضر تلك المادبة جماعة من اعيان العلماء مثل العالم الفاضل الشيخ بوقندورة ، والشيخ عبد الحليم ، والشيخ محمد بن مصطفى خوجة فنضحوا بماء لطافتهم عن صدورنا وحشة الاغتراب ، وتساقط من بين مذاكرتهم العلمية ما تلذه عيون الالباب .

وجرت بمناسبة قول بعض الجماعة « أنا لا آكل لحما وقد آكل حوتا » مسألة من حلف أن لا يأكل لحما هل يحنث بأكل الحوت ام لا فقال اولئك السادة لا يحنث رعاية للعرف بمقتضى المذهب المتمسكين به مذهب ابى حنيفة (1) فسقنا نحن ما قاله ابن كمال باشا فى تفسيره من ان سفيان الثورى (3) انكر ذلك على أبى حنيفة محتجا بآية « ومن كل تأكلون لحما طريا » فقال ابو حنيفة لرجل « اسال سفيان عمن حلف لا يجلس على بساط وجلس على الارض هل يحنث أم لا فان قال لا يحنث فقل له قال تعالى والارض بساطا » فلما سأله واجابه بعدم الحنث واورد عليه الاية علم ان ذلك تلقين من ابى حنيفة . وذهب المالكية الى الحنث تمسكا بالاية وهو عند تحقق العرف بعدم تسمية الحوت لحما مشكل لقاعدة ان العرف مقدم على القصد اللغوى ، ولم يحضرنى حينئذ الا انه فرع مشهور بنى على قول ضعيف ، وهو ان القصد اللغوى يقدم على العرف او العمل بقاعدة ان الحنث بأقل الوجوه بخلاف البر فقاعدته أنه لا يقع الا بأكمل الوجوه فمن حلف ليسافر لا يبر فى يمينه الا اذا سافر مسافة القصر ، وان سمي ما دونها سفرا عرفا ولغة ومن حلف لا يسافر حنث بسفره دون مسافة القصر .

وبعد طى بساط ذلك المجلس ، ذهبنا الى المسجد الذى اسسه السيد مصطفى بن الاكحل فشهدنا مجلس ختم الشيخ عبد الحليم لكتاب فى التوحيد

---

(1) ابو حنيفة : النعمان بن ثابت احد الائمة الاربعة المشهورين توفى سنة 150 هـ 767 م .

(2) من ائمة الحديث وعلم الكلام فى العراق توفى سنة 161 هـ / 773 م من مؤلفاته « الجامع الكبير » .

لا اتذكر الان ما هو ، لان الشيخ انما قرر ما يتعلق بسورة الاخلاص وبين كيف ينتزع منها العقائد الدينية بطريقة استحسنتها جدا حتى انى كنت من المحرضين له على اقراء درس فى التفسير زيادة عما هو بصدد اقرائه مثل درس السعد على التخليص .

ثم عدنا الى السمر ، وتناولنا اطراف البحث فى مسائل منها مسألة اشتراط الولى لعقد نكاح المرأة ، فافادنا الشيخ محمد بن مصطفى خوجة ان ابا يوسف (1) ومحمد بن الحسن (2) يقولان باشتراط الولى ، وهو قول عامة الفقهاء واسند ذلك الى عقود الجواهر المنيفة ثم مال بنا الكلام الى ان الواجب على العلماء ان يسعوا فى بيان احكام الشريعة وبث تعاليمها فى صدور الناس وان يسألوا عن ذلك . فنقل لنا ذلك الشيخ عن ابن العربى ما يؤيد هذا وهو ان المسائل الدينية يجب على العالم تعليمها ولو بدون سؤال بخلاف غيرها فلا يطالب بتعليمها الا عند السؤال . واخذ الجماعة فى استحسان السفر ، وبيان فوائد الرحلة فقلنا تاييد ذلك ان ابن العربى بعد ان حقق اباحة الاستياك للصائم بالنقل عن القاضى سيف الدين فى كتاب للعارضة قال : ويوم حصلت هذه المسألة قلت الحمد لله الذى افادنى هذه فى الرحلة وعلمت انى لو لم احصل غيرها لكفتنى . وقال فى الاحكام عند قوله تعالى (فلما تغشاها حملت حملا خفيفا) اختلف علماؤنا فى راكب البحر هل حكمه حكم الصحيح او الحامل فقال ابن قاسم (3) حكمه حكم الصحيح ، وقال اشهب (4) حكمه حكم الحامل اذا بلغت ستة اشهر ، وابن القاسم لم يركب البحر ولو عاين ما يشاهده المسافر فيه لكان رايه كرأى أشهب .

---

(1) هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الانصارى ويكنى ابا يوسف توفى سنة 182 هـ / 798 م من ابرز تلاميذ ابى حنيفة .

(2) محمد بن الحسن الشيبانى المتوفى سنة 189 هـ / 804 م تلميذ ابى حنيفة ثم لابى يوسف واشتهر مع هذا الاخير بصاحبى ابى حنيفة .

(3) ابو عبد الله عبد الرحمان بن القاسم المتوفى سنة 191 هـ / 806 م اشهر تلاميذ مالك بن انس .

(4) اشهب بن عبد العزيز روى عن مالك بن انس وكان شديد المعارضة لابن القاسم .

والتقينا (1) بالفاضل البارع السيد يوسف بن سماية ، فوقفنا معه موقف التسليم والوداع امدا لم يتجاوز 20 دقيقة وقد لاح لنا على خطاباته ملاطفة جميلة تشف عن جودة فكرة وحلاوة فى الاخلاق •

استطلع راينا فى تفسير قوله تعالى « شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن » على معنى ابتدىء فيه نزول القرآن فقلنا ذلك التفسير صحيح ونسبه المفسرون الى ابن اسحاق (2) والاحاديث الدالة على انزال القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا وان كانت صحيحة لا يتعين حمل الاية على معناها •

ودفعتنا المناسبة الى الكلام على العمل بالحديث الضعيف فقلنا قال الفقهاء ان الحديث الضعيف لا يمل به فى احكام الحلال والحرام مطلقا ، ويعمل به فى فضائل الاعمال بثلاثة شروط ان لا يكون شديد الضعف ، ولا يعتقد العامة نبوته لئلا ينسب الى النبى صلى الله عليه وسلم ما لم يقله ، وان يندرج بمعناه تحت قاعدة كلية من قواعد الشريعة. وذهب أبو بكر ابن العربى الى ان الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقا وسامرنا بدكان السيد على بن الحداد الشيخ مصطفى بن الطالب احد علماء تلمسان والمتولى خطة الافتاء بصور الغزلان (3) وكان له ميل شديد الى المباحثات العلمية ، ويحب التطلع على علل المسائل ، وربما هجم على ابداء ما يلوح له من ذلك •

حاول فى اثناء المذاكرة ان يفرق بين الكفارة والحد فى عرف الشريعة بان الكفارة تستعمل فى عقوبة ما هو حق لله ، والحد يطلق على عقوبة ما فيه حق لمخلوق ، فنازعه بعض من الحاضرين بان عقوبة الزنى تقع على ما هو حق لله وتسمى حدا فقلنا ان كثيرا من الفقهاء يطلقون القول بان الحق فى الزنى لله ويبنون على هذا انه ان تاب برئت ذمته ، والتحقيق ان لاقارب المراة

---

(1) « السعادة العظمى » عدد 21 ص 332 .

(2) محمد بن اسحاق محدث له كتاب « المبتدأ » و « المغازى » توفى سنة 150 هـ / 767 م

(3) صور الغزلان : بلدة بالجزائر معروفة بآثارها الرومانية .

المزنى بها فى ذلك حق ايضا لما يلحقهم من العار وهتك الحرمة وذلك مما لا تغفره التوبة كسائر الحقوق المتعلقة بالمخلوقين والامثل ان يقال ان الحدود تستعمل فى العقوبات الخالصة والكفارة يغلب اطلاقها على الطاعات التى تقع فى مقابلة جناية .

وانجر بنا البحث الى مسألة تقديم الكفارة على الحنث ، وذكر الخلاف فى اجزائها فقلنا ذهب ابو حنيفة الى أن سبب الكفارة هو الحنث وعليه فلا يجزى التكفير قبله وراى ان الكفارة بدل عن البر فلزم ان يكون موضعها عدم المبدل منه ، وذهب مالك الى ان سبب الكفارة هو اليمين والدليل عليه قوله تعالى : « ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم » فان المعانى انما تضاف الى اسبابها وعليه فيجزى التكفير ولا يلزم عليه تقدم الحكم على شرطه لان الحنث انما هو شرط فى انحتام الكفارة من غير تخيير لا شرط فى اصل وجوبها ، وحدثنا الشيخ مصطفى المذكور انه كان قرر درسا بمحضر بعض الافرنج وقال فى خلاله ان العرب هم سكان الحاضرة وان كانوا اعاجم والاعراب هم سكان البادية وان لم يكونوا من العرب ، فعارضه بعض الحاضرين بان المتعارف ان العرب اسم الجيل المخصوص سواء سكنوا البادية او الحاضرة ، والاعراب اسم لمن يسكن البادية من ذلك الجيل فطالعنا عندئذ بعض الكتب فى اللغة فعثرنا فيها على شبهة فيما قرره الشيخ فى المصباح (1) واما الاعراب بالفتح فاهل البدو من العرب ، الواحد اعرابى وزاد الازهرى (2) فقال سواء كان من العرب ومن مواليهم قال فمن نزل البادية وجاور الباديين وظعن بظعنهم فهم اعراب ، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمى الى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء ، وذكر حديث « احب العرب لثلاث لانى عربى والقرآن عربى وكلام اهل الجنة عربى » فقال الشيخ مصطفى « هذا الحديث

---

(1) المصباح فى النحو الفه المطرزى المتوفى سنة 596 هـ ـ 1213 م .

(2) ابو منصور محمد الازهرى المتوفى سنة 363 / 980 م من علماء اللغة له كتاب «التهذيب»

تكلم فيه » بيان ما اشار اليه ان الحديث رواه البيهقى (I) فى الشعب والحاكم فى المستدرك والطبرانى فى معجمه ، كلهم من طريق يحى بن بريد وهو ممن يروى المقلوبات وضعفه احمد وغيره ، وتابع يحى على رواية هذا الحديث محمد بن الفضل بن عطية ، ومحمد بن الفضل متفق على ضعفه واتهامه بالكذب فلا يصح للمتابعات ولكن للحديث شاهد رواه الطبرانى فى معجمه الاوسط من رواية شبل بن العلا عن ابيه عن جده عن ابى هريرة (2) مرفوعا انا عربى والقرآن عربى وكلام اهل الجنة عربى ، وهذا الحديث ضعيف فقط لا صحيح ولا موضوع ولا يثبت به ان كلام اهل الجنة عربى اذ الاحاديث الضعيفة لا يكتفى بها فى العلميات •

وزرنا المكتبة العمومية ، فراينا فيها عدة من الكتب الغريبة مثل القبس على موطا مالك ابن انس وترتيب المسالك على موطا مالك (3) هجت اسفا على انى لم اتمكن من زيارتها الا فى آخر يوم من ايام اقامتنا حتى انى لم استوف مطالعة انموذج الكتب بتمامه •

(يتبع)

(I) احمد البيهقى متوفى سنة 449 هـ / 1066 م محدث وفقيه شافعى له كتاب « السنن والآثار » .

(2) صحابى لازم الرسول وروى عنه الاحاديث توفى سنة 59 هـ 676 م .

(4) لابى بكر ابن العربى .

خلاصة الرحلة الشرقية (1)

اقترح على جماعة من الفضلاء ان احرر خلاصة فى آثار رحلتنا الشرقية، فعطفت عنان القلم لمساعفة اقتراحهم بعد ان رسمت له الوجهة العلمية والادبية سبيلا لا يحيد عن السير في مناكبها، ولئن لم يلتقط الناظر منها درة علمية فائقة، فانها لا تخلو من ان تنبسط له بملحمة ادبية رائعة واليك التحرير :

سنح لى باعث على الرحلة الى بلاد الشام وهو زيارة الاهل (2) وفاء بحق صلة الرحم، فامتطيت الباخرة يوم الخميس الرابع من شعبان سنة 1330 (3) وعندما اقلعت من مرساها، واخذت المبانى التونسية تتوارى عن ابصارنا، اخذ الحنو الى الوطن يتزايد وحر الاسف لمفارقة الاصحاب يتصاعد، حتى اصغيت الى نفسى وهى تخاطب رائد السفينة بقولها :

حادى سفينتنا اطرح من حمولتها
زاد الوقود فما فى طرحه خطر
وخذ اذا خمدت انفاس مرجلها
من لوعة البين مقياسا فتستعر (4)

---

(1) جريدة الزهرة يوم الثلاثاء 17 ربيع الثانى سنة 1331 هـ / 25 مارس 1913 م .

(2) سافر اخوا الشيخ محمد الخضر حسين وهما : زين العابدين والمكى الى دمشق سنة 1911 وقد استقر بها الشيخ زين العابدين وهو من علمائها البارزين، اما الشيخ المكى فقد بقى بها عدة سنوات ثم رجع الى تونس .

(3) يوم الخميس 4 شعبان سنة 1330 هـ / 18 جويلية سنة 1912 م

(4) البحر ـ البسيط .

واني لادرك فى مثل هذا الموطن دقة نظر امـام الحرمين (1) حين قيل لـه « لم كان السفر قطعة من العذاب ؟ »فاجاب على الفور بقوله « لان فيه فراق الاحبة » .

رست الباخرة على جزيرة مالطة (2) عند مغرب يوم الجمعة (3) ، ولم نـر من فائدة فى نزولنا والليل ضرب اطنابه فقضينا ليلتنا على متن البحر وانحدرنا صباحا الى المدينة التى هى مقر حكومتها وتسمى (فاليتا) (4) ، فتجولنا فى مناهجها المتناسقة ، وشهدنا من خطاباتهم كيف تنحط العربية وتندرس اطلال فصاحتها بين الامة التى تجهل مكانتها ، وتزهد فى تعاليمها الى ان تلتحم باخلاط من لغة اخرى ، فان لغة اهل هذه الجزيرة عربية محرفة ، واكثر ما تخللها قطع من اللغة الطليانية وانما انساقت اليها العربية حين استولى عليها ابو الغرانيق محمد بن الاغلب (5) سنة 255 هـ .

ويشعرك بانتشار العربية وآدابها بينهم لذلك العهد ، ما قصه المؤرخون من ان ملك مالطة صنع له بعض مهندسى بلده تمثال جارية ينعرف بها اوقات الصلاة وكانت تومى ببنادق على الصنج (قصاع الابنوس) فقال ابو القاسم بن رمضان المالطى احـد شعرائها لعبد الله بن السمنطى المالطـى (6) وكـانت له براعة فى صناعة الشعر ، أجز هذا المصراع :

« جـاريـة ترمـى الصنـج »

فقـال لـه : بـهـا القـلـوب تبتهـج

(1) لقب العالم الففيه عبد الملك النيسابورى المتوفى سنة ــ 1085 م . من مؤلفاته فى الفقه : « نهاية الطلب فى دراية الذهب » .

(2) جزيرة فى البحر الابيض المتوسط توجد بين صقلية وتونس . فتحها العرب سنة 255 هـ ــ 870 م لغة أهلها مزيج بين اللغتين العربية والايطالية .

(3) الموافق لـ 5 شعبان سنة 1330 ــ 19 جويلية 1912 م .

(4) فاليتا : عاصمة جزيرة مالطة جزيرة مالطة واسمها الحقيقى لافاليت La valette

(5) من ملوك الأغالبة بافريقية ــ متوفى سنة 261 هـ / 875 م .

(6) شاعران مالطيان ، لم اعثر على ترجمة لهما .

كـــأن مـــن احكمهـــا
الـــى السميـــاء قـــد عـــرج
وطـــالـــع الافـــلاك عـــن
ســـر البـــروج والـــدرج (1)

ثم عدنا الى الباخرة حيث ازف رحيلها ، وجعلت انظر الى زوارقها المزخرفة وهي تحوم حولنا واردة وصادرة ، فوقع بصرى على زورق يطوف به على جوانب السفينة سائل مقعد فاراني احدى رجليـه نحيفة ملتوية فقذفت له مسكوكـا فالتقطه وهو يقول « بالسلامة بالسلامة » وحيث لم يتعرض لى قبل هذا سائل فى زورق قلت :

عهـدت الـذى يسعـى عـلى متـن زورق
الـى الـرزق يـدلى نحـوه شـرك الصيـد
وذا قـانص فـى اليـم يـرمـى الى العـلا
حبـالـة اقـوال فتظفـر بالقصـد (2)

بارحنا مالطة عند الزوال يوم السبت (3) ، واسترسلت السفينة على بحر صامت ما عدا نسمات لينة تخطر علينا غسق الليل واطراف النهار حتى قدمت على مرسى الاسكندرية ضحوة يوم الاربعاء (4) فنزلنا منزلا القينا فيه رحلنا ، وبعد ان طفئت حرارة الهاجرة ، خرجت صحبة رفيق يعرف شعاب المدينة الى ان وافينا باب مسجد فجزته لاداء صلاة الظهر ، واثر ما قضيت الصلاة جلس إمام المسجد مستندا الى اسطوانة ودنا له طائفة من الناس فقرأ لهم نبذة من كتاب الشفا لعياض (5) مع بعض بيانات تدل على انه ذو حـظ من علـوم

---

(1) البحر : السريع .
(2) البحر : الطويل .
(3) يوم الست 6 شعبان الموافق لـ 20 جويلية من السنتين المذكورتين .
(4) الموافق لـ 10 شعبان و 24 جويلية من السنتين المذكورتين هـ و م .
(5) القاضى عياض : فقيه مالكى شهير توفى سنة : 1149 م له كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » .

الدين ، ثم حان وقت العصر وبعد ان انصرف من صلاتها القى على السلام متعرفا لاثرى ، وعرض على المبيت بمنزله فى طرف البلد فاعتذرت له بقصر مدة الاقامة ، وقصد الاستطلاع على مناظر البلد ومعاهدها العلمية .

امتطيت عربة اتت بنا على مكتبتها القائمة بازاء الادارة البلدية ، فطالعت صحائف متفرقة من نموذج كتبها ولم يقع بصرى فيما طالعته على كتاب نادر يستحق ان نذكره ، ثم اجتزنا الى متحف يقال له (عمود السوارى) يحتوى على تماثيل عتيقة وعلى عمود قائم ذكر لنا الدليل المكلف باستطلاع الغرباء على المتحف ان ارتفاعه يبلغ ستا واربعين ذراعا ، وذكر المقريزى (1) فى الخطط ان ارتفاعه سبعون ذراعا ، وقال المقريزى ايضا ويذكر ان هذا العمود من جملة اعمدة كانت تحمل رواق ارسطاطاليس (2) الذى يدرس الحكمة .

وقصدنا لزيارة مقام الشيخ الابوصيرى ثم مقام استاذه ابى العباس المرسى (3) ويتجمع حول هذين المقامين عدد وافر من الطائفة الظاهرة فى زي المجاذيب .

التقينا بالسيد حسن بن عياد من اهالى جربة القاطنين بتلك المدينة وذهب بنا الى ناد حافل يقال له (المنشية) فقضينا به جانبا من الليل فى اسمار مونسة واستطلاع على مجامع متنوعة وهيآت من الملابس مختلفة ، فان هذا النادى يأوى اليه السائحون من بلاد الشرق ، ولا تتجافى عنه الطبقة العالية من الاهالى ، ومما يذود عن جفنك الكرى هنا ، ان باعة الجرائد يخترقون الصفوف والمجامع وهم يصرخون باسمائها وايدى القوم تتلقفها واحدة عقب واحدة .

---

(1) المقريزى : مؤرخ من مؤلفاته « الخطط المقريزية » توفى سنة 1443 م .

(2) ارسطاطاليس (384 ـ 322 ق . م) فيلسوف يونانى شهير يعد من كبار مفكرى البشرية .

(3) احمد بن عمر شهاب الدين ـ فقيه متصوف متوفى سنة 686 هـ / 1287 م .

وابث الاسف هنا حيث لم يتمهد لنا التعارف بفضيلة العالم الاستاذ الشيخ السيد عبد الفتاح المكاوى (I) احد العلماء بمشيخة الاسكندرية قبل مقدمى هذا حتى احظى بسعادة لقائه ، فانه بعث لى رسالة بعد وانا حينئذ بدمشق خاطبنى فيها على ان اوجه له بنسخة من رسالتنا (الدعوة الى الاصلاح) (2) فما لبثت ان قدمتها لفضيلته بواسطة البريد ، فطالعها بعين الكرم وتفضل حفظه الله بالكتاب الذى قصرت اليراعة ان تبسط باعها بما يستوجبه من الشكر ونصه بعد الديباجة :

« فقد تلقيت خطابك السامي ورسالتك الداعية الى الاصلاح والخير والفلاح وبمطالعتها علمت ان الاسلام لم يعدم انصارا ولم يزل للارشاد دعامة هي خير الدعامات ، قلت فبرهنت ودعوت فسددت واحييت سنة الخلفاء والمصلحين فربطت بهذا آخر العالم الاسلامى بأوله ، ولا يسعنى الا تهنئة الحاضرة التونسية بك بل الاقطار الافريقية بل الممالك الشرقية ، وانى وايم الله لقد امتلأ قلبى سرورا وافعم فرحا من تعاليم جامع الزيتونة حيث انتجت مفكرا وعالما دينيا بصيرا مثلك ، ولقد ضاقت على سبل الشكران ، أأشكرك على ما قدمته للاسلام والمسلمين من براهينك الساطعة وحججك الدامغة أم أشكرك على ما اهديته للحركة الفكرية العصرية مما تلقته البصائر بالاجلال والاعظام او على عنايتك الكبرى بتبديد الخرافات التى علقت بافئدة سواد كثير من المسلمين ، او على شجاعتك المتناهية فى ازالة سحب الجهالات التى اخرتنا الى الوراء اميالا ليست بقليلة ، او اشكرك على اهدائك لى ما اعده ذكرا حسنا واثرا خالدا » .

باكرنا يوم الخميس (3) الى القطار المصرى فانطلق يهرع ما بين اشجار وانهار ومزارع وقرى منها دمنهور وطنطا ومنها العسل . واسماء الاماكن التى

(I) عالم مصرى .

(2) الدعوة الى الاصلاح ـ رسالة ألفها الشيخ محمد الخضر سنة I9I0 م .

(3) الموافق لـ II شعبان و 25 جويلية من السنتين المذكورتين هـ و م .

يقف عندها القطار مرسومة بالقلم العربى ، وباعة الصحف والمتكففون يلجون عربات الرتل ويتجولون فيها المسافة البعيدة مجانا •

وصلنا (I) الى مصر وتبوأت بيتا فى قصر يسمى (الكلوب المصرى) ، ثم هويت من المنزل يرافقنى السيد محمد القديدى القيروانى ، ودرجنا الى مسجد سيدنا الحسين (2) رضى الله عنه وفيه منفذ للمكان الذى اشتهر انه مشهد راسه الشريف ، ورايت زوار المسجد وزائراته كيف يزدحمون على بابه ما بين وارد وصادر • وللعلماء بالروايات مقال فى هذا المشهد الحافل فان منهم من يقول ان مدفن رأس الحسين رضى الله عنه بعسقلان (3) ولعلنا نقص اثر هذا المطلب فى مقام آخر •

ثم توجهت الى زيارة المعهد العلمى الشهير بالازهر (4) ، ولما وافيته نهض لى زمرة من التلامذة تونسيين وجزائريين وكان بعضهم ممن تقدم له الحضور بالدروس التى نلقيها بالمعهد الزيتونى ، فطافوا بنا فى زوايا الجامع وحوانيته ثم جلسنا برواق المغاربة (5) مدة وجيزة وازمعت تخلصا من متاعب السفر فالتمسوا منى العود لزيارتهم مساء • وجنح بنا السبيل الى منزل صديقنا السيد الشريف ابن حمودة (6) فلما وقع بصره على رؤيتنا انطلق لسانه

(I) الزهرة 26 مارس 1913 .

(2) الحسين بن على بن ابى طالب ، قتل فى واقعة كربلاء (قرب الكوفة بالعراق) . سنة 61 هـ 680 م .

(3) عسقلان . مدينة واقعة على ساحل فلسطين اشتهرت فى الحروب الصليبية .

(4) الازهر : مسجد وجامع بالقاهرة من اعظم المؤسسات العلمية فى العالم الاسلامى بناه جوهر الصقلى سنة : 361 هـ 972 م . سمى بالازهر اشارة الى الزهراء وهى فاطمة (حسب قول بعضهم) .

(5) مكان بجامع الازهر يلتقى فيه (ومنهم من يسكن) الطلبة الوافدون من بلدان شمال افريقيا وتجدر الاشارة الى ان كلمة « مغربى » تدل عند أهل المشرق على كل وافد من شمال افريقيا بقطع النظر عن البلاد التى ينتمى اليها .

(6) تونسى استوطن مصر . وقد اتصل الشيخ محمد الخضر الحسين بعدد كبير من التونسيين ذكر البعض منهم فى هذه الخلاصة .

بعبارات الترحاب والاعجاب ، فلبثنا لديه ساعة انس خففت عنا معظم ما مسنا من النصب ثم آويت الى محل الاقامة .

اكتفيت بحظ من الراحة يسير ، وانصرفت لانجاز الموعد الذى اخذه منى التلامذة ، فقضينا امدا فى محاورة علمية بحسب ما تجذب اليه المناسبة ، ثم ذهبنا نتجول فى المناهج والاسواق ومن رفقائنا الشيخ محمد الصالح الشواشى والسيد محمود بن رشيد التونسى حتى برزنا الى جسر ممدود على وادى النيل وعبرناه الى حديقة ناضرة فذكرت قول صلاح الدين الصفدى:

رأيت فى أرض مصر مذ حللت بها
عجائبا ما رآها الناس فى جيل (1)
تسود فى عينى الدنيا فلم أرها
تبيض الا اذا ما كنت فى النيل

وقلت :

عبرت على جسر ارى النيل تحته
الى روضة فاشتقت منهل زغوان
صراط وفردوس وسلسال كوثر
وما قيظ اشواقى سوى وهج نيران (2)

شهدت صلاة الجمعة (3) بالجامع الازهر والخطيب من ابناء الشيخ السقا (4) صاحب الخطب الشهيرة ، فكان موضوع الخطبة فضل ليلة النصف من شعبان ولكنه القاها بصوت جهير فى هيأة مرتجل دون ان يمسك فى يده ورقة

---

(1) البحر : البسيط .

(2) زغوان : بلدة جميلة تبعد عن العاصمة التونسية مسافة 90 كلم اشتهرت بمياهها العذبة وقد تحدث عنها الشيخ محمد الخضر حسين فى مناسبات عديدة وخاصة فى شعره .

(3) الموافق لـ 12 شعبان و 26 جويلية .

(4) خطيب من فقهاء مصر ـ المتوفى سنة 1291 هـ / 1881 م .

وحينما شرع فى دعاء الخطبة الثانية اخذ ينزل من موقفه الاعلى فانتهى من الدعاء عند الدرجة السفلى من المنبر ٠

اجبنا دعوة الشيخ محمد عبان القيرواني ، وناولنا كؤوسا من الشاهى وهو يلتمس العذر كانه يعد نفسه مقصرا فى الضيافة فانشدته قول الصاحب ابن عباد (I) .

نسائلكم هل من قرى لنزيلكم
بملء جفون لا بملء جفان (2)

التقينا مساء هذا اليوم باساتذة ازهريين احدهم الشيخ الزنتاتى من طرابلس الغرب وأتى فى المذاكرة الحديث عن الشيخ ابن عرفة (3) فقال ذلك الاستاذ ان الفخر به لاهل طرابلس لان قبيلة الشيخ لذلك العهد كانت من ملحقات طرابلس فقلت له انما يعود فخره الى التونسيين لان نشأته الادبية وحياته العلمية انما كانت فى تونس ٠

وجرى فى المحادثة لفظة (صلاعة) على معنى الاستراحة من التعليم ، فقلنا هى كلمة فى اصلها عربية قال فى القاموس (4) (صلاع الشمس ككتاب حرها) وايام الاستراحة هى اوقات الحر غالبا ٠

والكلمة الشائعة فى معنى الاستراحة من التعليم عند كثير من أهل الجزائر ولا سيما المتخرجين من المدارس هى لفظ (فكانس) وهى حرف فرنسوى

دعانا الشيخ ابراهيم صمادح احد المجاورين بالازهر للسمر عنده ليلة يوم

(I) المتوفى سنة 385 هـ .

(2) البحر : الطويل .

(3) ابن عرفة : فقيه من ورغمة بالجنوب التونسى المتوفى 803 هـ / I40I م .

(4) للفيروزابادى .

السبت (1) ، فقضينا نصف هذه الليلة فى اسمار علمية ومحاورات ادبية ممن جاذبنا اطرافها الشيخ احمد امين الشنقيطى (2) احد العلماء الذين تجولوا فى بلاد الشام والحجاز والشيخ عبد المعطى السقا احد المدرسين بالازهر. وفيما طرح من المباحث بمناسبة خطبة ذلك اليوم تفسير قوله تعالى « انا ازلناه فى ليلة مباركة » حيث ساق بعض الخطباء الاية فـى فضائل ليلة النصف مـن شعبان كما ينقله بعض المفسرين عن عكرمة (3) ، واردنا فى هذه المذاكرة انكار ابى بكر ابن العربى لهذا التفسير وتحقيقه ان المراد من الليلة المباركة ليلة القدر وهى التى يفرق فيها كل امر حكيم ، واتصل الكلام بالبحث فى البدعة وسقنا تحرير ابى اسحاق الشاطبى (4) فى ضابطها وهو ان يكون السبب الذى استند اليه العامل قائما زمن شرع الاحكام ويسكت عنه الشرع ولا يقرر له حكما .

ويصح ان يضرب المثل لهذا بصلاة الغائب فقد الف الشيخ عز الدين بن عبد السلام (5) رسالة وضح فيها انها بدعة . وهذا مما لا تدخله الريبة فانه اذا ثبت ان الحديث الذى يروى فى شانها موضوع كما حقق ذلك ابن الفرج ابن الجوزى (6) انطبق عليها انهـا عمل لم يحدث له موجب ولا ورد فيه اثـر عن صاحب الشريعة ، وهذا بخلاف ما يكون السبب الموجب له طارئا بعد زمن الوحى كتدوين علم العربية وجمع القرآن فى المصاحـف . سايرنى بعـد ان انتثر عقد المجلس بعض التلامذة ، واقترحوا على اقراء درس من التفسير وحكوا ان لغيرهم من أهل العلم حرصا اكيدا على هذا الاقتراح فبسطت بمعذرة انى قد ربطت العزم على الرحيل صبيحة يوم الاحد ، فقالوا يمكن ان نعين لميقات

---

(1) الموافق لـ 13 شعبان و 27 جويلية من السنتين المذكورتين هـ و م .

(2) المتوفى سنة 1331 هـ .

(3) عكرمة بن عبد الله : كان مولى عبد اللـه بن عباس ومن اعلم الناس بالتفسيـر توفـى سنة 105 هـ ـ 723 م .

(4) المتوفى 790 هـ / 1388 م من مؤلفاته « الموافقات فى أصول الأحكام » .

(5) فقيه شافعى بلغ رتبة الاجتهاد ـ توفى سنة 660 هـ / 1262 م . من مؤلفاته « التفسير الكبير » .

(6) المتوفى سنة 656 هـ .

الدرس عشية غد ونكتفى بالمقدار الذى يتيسر جمعه وبيانه والغرض انما هو المحافظة على سنة الكثير من اهل العلم حيث يمرون بالازهر ، فما وسعنى الا ان ساعدت مرغوبهم فاحضروا تفسير القاضى البيضاوى (I) ووقع الاختيار على ان يكون موضوع الدرس قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » الخ الآية .

افتكرت فى المنهج الذى نتبعه فى تحرير الدرس فسبق لى استحسان ابرازه فى الاسلوب المتعارف فى جامع الزيتونة ، فلا اسل يدي من تقرير ما يناسب من مباحث عربية او اصولية او احكام فرعية لان المقترحين للدرس ازهريون . اتينا صباح يوم السبت على المسجد الذى ابتدعه عبد الرحمان ابن الشيخ عليش رحمه الله ، وشاهدنا باعيننا ما رسمه فى اعلى مفتحه بالقلمين الافرنجى والعربى وانكره عليه علماء الاسلام .

ثم مضينا للوفاء بموعد الشيخ عبد المعطى السقا فجاز بنا الى داخل منزله واهدانى كتابا حافلا الفه فضيلة جده المنعم فى فضل عمارة المساجد ، وللشيخ عبد المعطى عناية كبرى بالفحص عن التآليف النادرة والسعى الحثيث فى تحصيل ما نشرته المطابع فى البلاد القاصية . وقد تفضل على برد الزيارة فاتفق ان كنت خارج المنزل فكتب بطاقة يشعرنى فيها بزيارته ويتأسف لعدم الملاقاة واودعها لدى ناظر (الكلوب) .

ذهبت الى الجامع الازهر لاذان العصر وانتدبت للتحية مكاناً بين مجمعين لتعليم القرآن ، فانشق صدرى اسفا لاحد المعلمين اذ كان لا يضع العصا من يده ولا يفتر ان يقرع بها جنوب الاطفال وظهورهم بما ملكت يده من القوة وربما قفز الصبى آبقا من وجع الضرب الذى لا يستطيع له صبرا ، فيثب فى اثره بخطوات سريعة ويجلده بالمقرعة جلدا قاسيا حتى قلت لازهرى كان بجنبى « من جلس ازاء هذه المزعجات فقد ظلم نفسه » وذكرت انى كنت القيت

(I) المتوفى سنة 468 هـ / 1076 م .

خطبة فى ادب تعليم الصبيان ببلد بنزرت (I) حالما كنت قاضيا بها فادرجت فيها ما قرره صاحب المدخل من الرفق بالصبى ، وعدم زيادة المعلم ان اضطر الى ضربه على ثلاث اسواط ، وتحذيره من اتخاذ آلة للضرب مثل عصا اللوز اليابس والفلقة . ولما خطبت فى هذه الاداب ارسل لى بعض المعلمين كتابا على طريق البريد يعترض فيه على نشر هذه الاداب ويقول ان هذا مما ينبه قلوب التلامذة للجسارة علينا . وكان امامى فى هذه الجلسة تلميذان يتفاهمان كتابا فى العربية يطالعانه ، بمقربة منهم تلميذ ثالث حتى اتيا على قول الشاعر « على ان فاها كالسلافة او احلى » فقال احد التلميذين السلافة الخمر فقال له ذلك التلميذ الذى هو بمعزل عنهما ، السلافة حيوان فاعاد عليه الاول القول بانها الخمر وكرر الاخر القول بانها حيوان ، فقال له صاحبه منبها له على وجه خطأه (او احلى) (او الى) فرجع وقال السلافة شىء ضيق قال هذا ليلائم تشبيه الفم بها ، واظنه اشتبه عليه اولا لفظ السلافة بالسلحفاة .

سبق فى ظنى ان مقترحى الدرس قصدوا ان يكون اقراؤها برواق المغاربة فانصرفت بعد صلاة العصر متوجها لذلك الرواق فانبأونى بانهم اختاروا ان يكون بوسط الجامع وعرضوا على منصة بعض الاساتذة فلم يسعنى الا ان اجلس حيث عزموا .

اقبلت قبل الشروع فى تقرير الدرس على تلميذ اعرفه بحفظ القرآن وصرف الهمة فى تجويده ، واقترحت عليه ان يجهر بتلاوة الاية ليسمعها الحاضرون فمنعه الحياء وتقدم تلميذ آخر فرفع بها قراءته ورتلها ترتيلا .

ونودع (2) فى هذه الخلاصة جملة من المباحث التى اوردناها فى تفسير الاية عسى ان تكون انظار بعض القارئين قد طمحت الى الالمام بمقاصدها .

قررنا فى فاتحة الدرس قول الشيخ ابن عرفة : من الناس من ينظر فى

(I) تولى الشيخ محمد الخضر خطة القضاء بمدينة بنزرت سنة 1905 والتدريس بجامعها الكبير
(2) الزهرة 27 مارس 1913 .

وجه المناسبة بين الاية وما قبلها كابن الخطيب ومنهم من لا يلتزمه فى كل اية كالزمخشرى وابن عطية ، ومنهم من يمنع النظر فى ذلك ويحرمه لئلا يعتقد ان المناسبة من اعجاز القرآن ، فاذا لم تظهر المناسبة للناظر وهم فى دينه ، ووقع له خلل فى معتقده وعلقنا عليه ان هذا الاختلاف انما يقع لهم فى الايات التى لم تقترن بنحو حرف العطف اذ يمكن الاكتفاء فى بعضها بان اتصال الاية بما قبلها معتبر فيه الترتيب بينهما فى النزول الوارد على حسب الوقائع والحاجات ، اما اذا اتصل بها حرف الوصل كهذه الاية فتطلب المناسبة متعين لان رعايتها حينئذ داخلة فى حقيقة البلاغة التى هى الركن الاعظم فى الاعجاز . ثم اتينا على عقد المناسبة بين هذه الاية وما قبلها .

ثم انتقلنا الى بيان قول القاضى فى تفسير الاية : « لا يستقيم للمؤمنين ان ينفروا جميعا لنحو غزو او طلب علم ، كما لا يستقيم لهم ان يتشبطوا جميعا فانه يخل بامر المعاش » والبيان اما خطر انصراف الناس قاطبة الى اجتناء ثمر العلوم واخلاله بمطالب حياتهم فلان الانسان يفتقر فى تحصيل معاشه ووسائل بقائه الى مساعدة ابناء جنسه ولا يستطيع احد ان يقوم بها وحده وان بلغ اشده فى استقامة البنية وسعة الفكر ، فاذا نفر الشعب بحذافرهم وولوا وجوههم شطر الارتواء من العلم ضاعت واجبات اجتماعهم وانتفضت عليهم قواعد العمران من زراعة وصناعة وتجارة .

واما تخلفهم جميعا وقعودهم عن الرحلة فى طلب العلم فانه يخل بنظام العيش من جهة ان جهل القبيلة بما ارشدت اليه الشريعة من العقائد والاخلاق وخلوها عما فصلته من قوانين الاجتماع وضروب السياسات يفضى الى انتشار المفاسد واشتعال نار الفتن مثلما كانت عليه حال العرب فى جاهليتها ، ولا تخالجنا الريبة فى هذه الحقيقة متى شاهدنا انتظام شؤون العمران وتوفر اسباب الراحة لدى بعض الامم العارية عن الصبغة الدينية فانها ما وصلت الى تلك التراتيب التى ضربت بها اطناب الامن والسكينة الا بعد ان فتحت اعينها فى نظامات الشرائع السماوية او اقتدت على آثار الامم المتدينة .

وفضائل العبادات ايضا لها مدخل فى انتظام العيش بمعنى قرار النفس ورضاها عما سخر الله لها من العيش ، وهذا يعتبره الانسان من نفسه متى نظر الى حالته وهو ملتفت بقلبه الى زخارف الدنيا وقاسها بحالته اذا اقبل بسريرته على ما يقربه الى فاطر السماوات والارض ، فانه يجد فى هذه الحالة من لذة اليقين وراحة الخاطر ما يكشف عن كدر كان يمازج قلبه ، وحزازة هى اثر القساوة والاعراض بجانبه عن الطاعة فيرى ان العيش المنتظم على الحقيقة انما هو عيش الفائزين بهداية الدين علما وعملا .

وعبر فى الاية بالمؤمنين دون الناس لان الاية مسوقة للحث على القيام بعمل ، والاعمال انما يرجى الامتثال فيها من المؤمنين ولو كان الامر هنا بواجب من العقائد لناسبه التعبير بنحو الناس . وقد قرر بعض المفسرين فيما اعهد ان من عادة القرآن التعبير بمثل (يايها الناس) اذا كان المخاطب به مما يرجع الى اصل من اصول الدين ، فاذا كان المأمور به فرعا من الفروع صدر الخطاب بنحو (يايها الذين أمنوا) .

او يقال ان ذكر المكلفين هنا بوصف الايمان لتقوية داعيتهم واغرائها على العمل باسلوب لطيف فان فى تسميتهم بالمؤمنين تلويحا الى ان صفة الايمان بالله من شانها ان تبعث على حسن الطاعة والمسارعة الى امتثال اوامره ، وتعرضنا عقب هذا الى البحث فى لفظة (كافة) فقررنا ان ابن هشام (1) ذهب فى « مغنى اللبيب » الى انها من الاسماء التى لا تخرج عن النصب على الحال وخطا الزمخشرى فى قوله بخطبة المفصل (محيطا بكافة الابواب) وقد صحح الشهاب (2) فى شرح درة الغواص انها لا تلزم النصب على الحالية ، ومما استشهد به القائلون بانفصالها على الحالية قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « قد جعلت لآل بنى كاهلة على كافة بيت مال المسلمين لكل عام مائتى

---

(1) أبو محمد جمال الدين المتوفى سنة 761 هـ / 1306 م .

(2) الشهاب الخفاجى — من كتبه شرح درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى — توفى 1069 هـ / 1659 م .

مثقال ذهبا ابريزا » . قــال الدمامينى (I) ان صح هذا سقط القول بملازمتها للنصب على الحالية .

وتعليق الدمامينى مفارقة (كــافة) للحالية على صحة الاثــر مما جرى فيه على سنن التحقيق . فعند المحرر فى الاصول العالية لعلم العربية ان الكلمة اذا وردت فى محل ولم يسمع استعمالها فى غيره فانما تطرد فى الموضع الذى سمعت فيه ولا يقاس عليه غيره من المواضع ، ومن هذا تخصيصهم فل ولو مان ونومان بالنداء ونحو قط وعوض يختصان بالنظر فيه ، وبنى على هذا الشيخ ابــن الحــاجــب (2) ان لفظــة كــل اذا اضيفت الى الضمير لم تستعمــل فى كلامهم الا توكيدا او مبتدأ فيمتنع جعلها مفعولا به او فاعلا .

ثم قلنا (3) ويندرج فى التفقه فى الديــن تعلم ما يرجــع اليــه من احكــام وعقائد واخلاق ، واما اطلاق الفقه على معرفة الفروع خاصة فعرف حادث بعد نزول القرآن فلا يصح تفسير الاية به فان القرآن انزل بلسان عربى ليتمكن العرب من فهمه فينتفعوا بالعلم به فى انفسهم ويبلغوه الى غيرهم من الامم لعلهم يتذكرون ، وهذه الحكمة تستدعى ان يكون الكتاب جاريا فى سائر استعمالاته على المعانى المالوفة لهم فى موضوعات لسانهم واساليب كلامهم ، واذا القى اليهم قولا مجملا او كلمة لم يسبق لهم علم بمدلولها لم يتمادوا على الجهل بها وتعلموا بيانها عن رسوله صلى الله عليه وسلم . فاذا لم تكن الكلمة معهودة الاستعمال فى معنى وقت الوحى ولم يعينه صاحب الشريعة فى بيانها امتنع حملها عليه وبهذا يظهر عدم صحة ما قاله بعض البيانيين فى قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة » الخ الاية من ان استعمال لو فى الاستدلال بامتناع الفساد

(I) محمد بن أبى بكر المتوفى سنة : 827 هـ / 1424 م . .

(2) ابن الحاجب : من ائمة النحويين من مؤلفاته « الكافية » فى النحو و « الشافية » فــى الصرف توفى سنة 646 هـ ـ 1249 م .

(3) الزهرة : الجمعة 20 ربيع الثانى سنة 1331 الموافق لـ 28 مارس 1913 .

على امتناع تعدد الالهة وارد على قاعدة اهل المعقول ، والصحيح ما قاله الشيخ ابن الحاجب من انــه استعمال عربى فصيح كما لا يستقيم قول بعض الكاتبين على قوله تعالى (وما علمناه الشعر) ان المراد الشعر الذى هو احد اقسام القياس وقد أنكر الشيخ ابن تيمية (1) على من فهم التاويل فى قوله تعالى (وما يعلم تأويلــه) على معنى صرف اللفظ عن المعنى الــراجع لدليل يقترن به لانه معنى اصطلح عليه طوائف من المتاخرين ولم يكن معروفــا للسلف بهذا الــوضع بل مسمى التاويل فى لغة القرآن هــو نفس المراد بالكلام من الامور المــوجودة فى الخارج .

ثم قررنا تفاوت العلوم فى الشرق واستطردنا ان الاقبال على العلم افضل من الاشتغال بالعبادة لوجهين ، احدهما ان مصلحة العبادة خاصة ومصلحة التعليم عامة وما له مصلحة عامة اشرف مما مصلحته خاصة ، ثانيهما ان فى التعليم درء مفسدة وفى العبادة جلب مصلحة ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ولاسيمــا ما يــدرء الخلل فى الــدين قــال ابن جماعــة (2) فى كشف المعانى عند قوله تعالى (قل اعوذ برب الناس) المستعاذ به فى هذه ثلاث صفات والمستعاذ منه شيء واحد وهو الوسوسة والمستعاذ به فى السورة قبلها صفة فالمستعاذ منه اربعة أشياء لان المطلوب فى سورة الناس (3) سلامة الدين من الوسوسة القادحة فيه ، والمطلوب فى سورة الفلق (4) سلامة النفس والبدن والمال وسلامة الدين اعظم واهم ومضرته اعظم من مضرة الدنيا فموقع الــدين من النفوس شديد ولهذا كان تأثيرها للاستحقاق بشأنه اوتحريف بعض حقائقه فوق كل تأثير ، وانظروا الى فرعون لما اراد صرف وجوه القوم عن اتباع موسى عليه السلام كيف قدم لهم التخوف منه على تبديل دينهم فقال (انى اخاف ان

---

(1) تقى الدين احمد ابن تيمية ـ متوفى سنة 728 هـ ـ 1328 م . فقيه حنبلى من مؤلفاتــه « السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية » .

(2) محمد بن ابراهيم بن جماعة متوفى سنة 733 هـ / 1333 م فقيه من مؤلفاته « كشف المعانى »

(3) الناس : السورة 114 من القرآن مكية اياتها . 6

(4) الفلق : السورة 113 من القرآن مكية اياتها . 5 .

يبدل دينكم) هذا فى دين يفتضح صاحبه لاول كلمة ترمى لابطالــه فما بالكم بدين كشف عن صفاء فطرته كتاب حكيم وخضع لسطوته كل فكر مستقيم .

ثم اوردنا بعد تقرير ما امرت به الاية من تعلم احكام الدين قول العضد فى خطبة المواقف ناقلا عن بعض الائمة ان المــراد من الاختــلاف فى حديــث (اختلاف امتى رحمة) اختلاف هممهم فى العلوم فهمة واحد فى الفقه وهمة آخر فى الكلام ، كما اختلفت همم اصحاب الحرف ليقوم كل واحد بحرفه فيتم النظام وعلقنا عليه ان الذى يحمل الحديث على هذا المعنى يقصد التباعد من فهم الاثر على معنى اختلاف الامة فى آرائها ولا يرضيه ان تدخل الرحمة من ناحية اختلاف الاراء ولو فى الفروع لان نصوص الشريعة طافحة بالنهى عن الاختلاف باطلاق وذوو الاجتهاد ماورون ببذل الوسع فى ازالته والتلاقى فى مذهب واحد كما قال تعالى : (فان تنازعتم فى شيء) الخ الاية ولكنهم اذا افرغوا جهدهم فى البحث عن الادلة وامعنوا النظر فيها بقصد الوصول الى ما هو حق ثم ادراكهم العجز عن الانفاق فالعذر قائم وباب العفو مفتوح ، والعفو لهم عن هذا الاختلاف وعدم مؤاخذتهم عليه لا يقتضى ان فى الخلاف رحمة وانه اصلح من الوفاق واسعد من تضافر الاراء على مذهب ٠

نقلت قول القاضى (I) ان فى الاية ايماء الى انه ينبغى ان يكون غرض المتعلم من العلم ان يستقيم ويقيم غيره ، وتخلصنا منه الى ان اعظم درجات الانسان واشرفها ان يكون كاملا فى نفسه ومنبعا يتدفق منه الاصلاح والكمال الى غيره ووصلنا هذا بنكتة لطيفة اعهدها لبعض المفسرين عند قوله تعالى (وسراجا منيرا) وهى انه وقع تشبيه النبيء صلى الله عليه وسلم بالسراج دون ان يمثله بنحو القمر الذى هو اغزر نورا لان القمر يضيء فى نفسه ولا يمكن ان يستمد من ضوئه عدة اجرام تكون مضيئة فى نفسها بخلاف السراج فانه

(I) القاضى البيضاوى صاحب التفسير .

يضيء فى ذاته ويمكن ان يقتبس منه سرج لا يشملها الاحصاء فالتمثيل به اولى بالمراد واقرب مطابقة لحاله عليه الصلاة والسلام ٠

اتينا هنا على ان المنذر يتعين عليه ان يتحرى فى انذاره بحيث لا يستند فيه الا الى علم صحيح من آية او حديث ثابت او نص من يقتدى به من الائمة وخرجنا منه الى جريمة الحكم بغير ما انزل الله وقررنا ما نعهده للرازى (I) فى آية(ومن لم يحكم)وفيما نقلناه من الاجوبة عن آية (فأولئك هم الكافرون) ان المشار اليهم بالكفر هنا من حكموا بغير ما انزل الله معتقدين ان ما قضوا به اوفق بالسداد واحفظ للمصالح ٠ وادرجنا هنا دقيقة للشيخ ابن عرفة وهى ان اسلوب الاية ابلغ من ان لو قيل (ومن حكم بغير ما انزل الله) فان هذه العبارة لا تتناول من تقدم اليه الخصمان بقضية فاهملها وهو يستطيع فصلها بخلاف الاية فانها تتناول من حكم فى القضية بالباطل ومن ابى الحكم فيها بما انزل الله وسكت وهو منتصب فى مقام الفصل بين الناس ٠

انتقلنا الى ان للانذار بالقرآن تاثيرا بالغا على النفوس بحيث لا يقوم كلام البشر مقامه وان ارتقى من البلاغة ذروة سامية ٠ واستطردنا مقالة نفيسة لصاحب المنهاج وهى ان الله تعالى خص القرآن بانه دعوة وحجة ولم يكن مثل هذا لنبى قط انما كان لكل واحد منهم دعوة ثم يكون له حجة غيرها وقد جمعها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القرآن فهو دعوة بمعانيه حجة بالفاظه ، وقلنا عقب هذا ان القرآن حجة بمعانيه ايضا فان استقامة سائر ما احتوى عليه من القضايا وانطباقها بجملتها وتفاصيلها على مناهج الحكمة ورسوم السياسة العادلة يدل دلالة مثل فلق الصبح على انه وحى سماوى وانه يمكن للعجم الذين لا يحسنون العربية ان يدركوا وجها من اعجازه متى نقلت لهم معانيه الاولية بترجمة محررة ٠

(I) فخر الدين الرازى متوفى سنة : 1208 م . فقيه ومحدث من مؤلفاته مفاتيح الغيب المشهور « بالتفسير الكبير » .

ثم قررنا (1) عند قوله (قومهم) ان اضافة القوم هنا للعموم ، ومعلوم ان الجمع المضاف من صيغ العموم فتفيد الاية انهم ينذرون بما تعلموه من الفقه كل فرد من افراد قومهم فيبطل ما يزعمه بعضهم عن ان لاهل التصوف احكاما خاصة يتلقونها بطرق الباطن قال ابو اسحاق الشاطبى (2) لم يشرع الله الا ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وتلقاه منـه الصحابـة ثم العلمـاء . والتصريح بابطال ان يكون للعارفين بالله احكام تخصهم فيه سد لباب الخروج عن تقاليد الشريعة زيادة على كشفه عن الحقيقة ، فان فتح هذا الباب يقضى الى ان ينبذ كثير من الناس الجادة بدعوى انهم بلغوا درجة الولاية وانهم متعبدون باحكـام باطنة واهـل التصوف الخالص انفسهم يصرحون بهذا . قـال الامـام الجنيد (3) حسبما نقله الـزركشى (4) فى شرح جمع الجـوامع من لم يحفظ القرآن ويكتب الاحاديث لن يقتدى به فى هذا الامر لان علمنا مقيد بالكتاب والسنة . ذكرنـا استدلالهم بالايـة على ان خبر الاحاد حجة ، ثم قلنا اشتهـر بين الاصوليين ان خبر الاحاد حجة فـى العمليات واما المسائـل العلمية فـلا يتمسك فيها الا بقاطع قال الامام فى المحصول ان ورد خبر الاحاد فى مسألة علمية وليس فى الادلة القاطعة ما يعضده رد والا قبل . واختار الشيخ ابـن عرفة ان المسائل العلمية التى لا ترجع الى العقائد يكتفى فيهـا بالادلـة الظنية كخبر الاحاد وانما يشترط القطع فى العمليات الراجعة الى العقائد الايمانية . واستطردنا هنا مسألة اعتراض خبر الاحاد لقاعدة كلية واوردنا فى مساقها ما ذكره ابو بكر بن العربى فى تفصيل مذاهب الائمة الثلاثة وهو قوله اذا جاء خبر الاحاد معارضا لقاعدة من قواعد الشرع هل يجوز العمل به اولا فقال ابو

---

(1) الزهرة يوم السبت 21 ربيع الثانى سنة 1331 هـ / 29 مارس 1913 .

(2) ابو اسحاق ابراهيم الشاطبى ـ عالم بالاصول والفقه والحديث والتفسير ـ له كتاب « الاعتصام » فى تعريف البدع واحكامها ـ توفى سنة 790 هـ 1388 م .

(3) ابو القاسم الجنيد توفى سنة 414 هـ / 1023 م فقيه ومتصوف .

(4) بدر الدين محمد بن بهادر الزركشى المتوفى سنة 1391 م . فقيه من مؤلفاتـه « لقطـة العجلان » .

حنيفة (1) لا يجوز العمل به وقال الشافعي (2) يجوز وتردد مالك (3) في المسألة ومشهور قوله والذي عليه المعول ان الحديث ان عضدته قاعدة اخرى قال به وان كان وحده تركه كحديث العرايا فانه صادمته قاعدة الرب وعاضدته قاعدة المعروف .

واتى بنا سؤال من احد الحاضرين الى معنى القاعدة وماخذها ، فقلنا هي قضية تنتزع من دلائل متفرقة في الشريعة حتى تكون قطعية في نفس من استقراها من المجتهدين كقاعدة ارتكاب اخف الضررين ، فمن مأخذها قوله تعالى : « فاردت ان اعيبها » فان اعابة السفينة ضرر ولكنه اخف من اخذ الملك لها بسلطة غاصبة ، ومن منازعها حديث الاعرابي الذي جعل يبول في المسجد وزجره بعض الصحابة فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم لا تزرموه ، فان بوله في المسجد ضرر الا انه اخف من الضرر الذي ينشأ من امساكه عن البول قبل فراغه .

وجئنا في تفسير (لعلهم يحذرون) على اختلافهم في حرف الترجي الواقع في كلام الله تعالى فان منهم من يخرجه على معنى التعليل كما ذكره ابن هشام (4) في مغني اللبيب ومنهم من يصرفه الى المخاطبين كما نقله صاحب الاتقان (5) عن سبويه (6) حيث قال في معنى قوله تعالى (لعله يتذكر) اذ هبا على رجائكما وطمعكما . ويجرى على هذا كل ما فيه حرف ترج نحو قوله لعلكم تفلحون . وكان بعض التلامذة حين شرعت في اقراء الدرس قائمين على اقدامهم

---

(1) ابو حنيفة : احد الايمة الاربعة توفي سنة 150 هـ / 767 م .

(2) محمد بن ادريس الشافعي ـ احد الايمة الاربعة توفي سنة 204 هـ / 820 م .

(3) مالك بن أنس توفي سنة 179 هـ / 795 م .

(4) جمال الدين عبد الله ابن هشام الانصاري متوفى سنة : 761 / 1306 م عالم نحوي من مؤلفاته « مغني اللبيب » .

(5) الاتفاق في علوم القرآن كتاب في التفسير للعالم جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 909 هـ / 1505 م .

(6) سيبويه هو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر النحوي صاحب « الكتاب » في علم النحو توفي سنة 177 هـ 793 م .

من ورائى يوردون اسئلة ويطلبون اعادة بعض التقارير وما لبثوا ان انقلبوا الى سكينة الاصفياء وكانوا يلهجون عند الاستحسان بكلمة (كويس) تصغير كيس •

رافقنى بعد انفصالنا عن الدرس طائفة من التلامذة فمررنا بمنزل كان احد الجلساء به الاستاذ الشيخ الزنتاتى ، فوقف موقف التحية وحدثه احد الرفقاء بما كنا بصدده من قراءة التفسير فتوجه لى وقال لى قد احييت سنة الشيخ ابن عرفة فذكر له ذلك الرفيق ان الدرس ايضا يحتوى على مباحث متعددة منقولة عن الشيخ ابن عرفة •

تفضل على بالزيارة فى هذا المساء السيد شرف احد الاعيان فى عائلة اشراف مكة المحترمة فمثل لنا بعلو همته وسلاسة اخلاقه كيف تكون همم بنى هاشم وآدابهم ، ثم اخذ بيدى حتى امتطينا عربة سارت بنا لاجابة دعوة السيد الشريف بن حمودة ولما انقضت المسافة ضرب كل منا بيده الى كيسه ليتولى خلاص اجر الركوب عن سائر الجماعة فكانت يد السيد شرف اسرع فى فتح الكيس ومناولة الدراهم لسائق العربة واكد علينا ان نرد الى الاكياس بضائعها فقال له الشيخ محمد الصالح الشواشى على وجه الدعابة ، لا تقسم علينا ايها الشريف متطاولا فنحن اشراف ايضا فتبسم منبسطا لهذه الجسارة المشعرة بسلامة الضمير وحريته وقد تذكرت بهذه المداعبة ما كتبه الشريف الرضى (1) الى الامام القادر بالله (2) وهو :

عطفا امير المؤمنين فاننا
في رتبة العلياء لا نتفرق (3)

ما بيننا يوم الفخار تفاوت
ابدا كلانا فى المعالى معرق

---

(1) محمد بن الحسين الطاهر الملقب بالشريف الرضى لغوى وشاعر توفى سنة 406 هـ 1016 م .

(2) خليفة عباسى توفى سنة 421 هـ 1031 م .

(3) البحر الكامل

الا الخـلافـة قلـــدتـــك فـانـنـــى
انا عاطـل منهـا وانت مطـــوق (I)

مضى لنا مع الشرف والشريف مجلس انس يحاكى نسيم الاصحار اذا جاءت مغتنمة بنفحات الازهار ، ولكننا مررنا عند ايابنا بامراة جالسة بقارعة الطريق والناس ملتفة حولها وهى تتلو القرآن بصوت رخيم · اخذ منى الاسف ماخذه لما قدمت على المعهد الازهرى حين طويت منه محاضر الدروس وبرز اسـاتذتـه العظام لقضاء امد الراحة الصيفية فى اماكن الرياضة ومهاب النسيم ولم يتفق لى ان اشاهد محضرة درس بهذا الجامع العظيم وانبانـى التلامذة بـان سائر دروس الجامع معطلة ولا يقرأ به فى هذه الايام ولو درس واحد ·

سافرت صباح يوم الاحد (2) الى برت سعيد (3) ومررنا على جانب من فتحة السويس التى وصلت البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط وحق لى عندما بلغت الى مجمع هذين البحرين ان اذكر بيتين كان العلامة البليغ صاحبنا الشيخ السيد محمد الطاهر بن عاشور (4) قد ارسلهما الى فى بطاقة يدعونى بها الى زيارته حيث حل بحضرته اثنان من اولى العلم والادب وهما :

تألقـت الاداب كالبـدر فـى السحـــر
وقـد لفظ البحـران مـن موجهـا الـدرر
فمـا لى أرى منطيقهـــا الآن غـائبـا
وفى مجمع البحرين لا يفقد الخضر (5)

(I) الزهرة يوم الاحد 22 ربيع الثانى سنة I33I / 30 مارس I9I3 .

(2) يوم الاحد I4 شعبان سنة I330 هـ / 28 جويلية سنة I9I2 .

(3) مدينة بور سعيد الموجودة قرب قناة السويس .

(4) الشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة المعظم والمفتى المالكى بتونس سابقا هو من أعز أصدقاء الشيخ محمد الخضر حسين وقد بينا ذلك عند الحديث عن حياة الشيخ الخضر فى الدراسة .

(5) البحر : الطويل .

شان القرآن فى سرد القصص وضربها امثلة الاكتفاء بماله مدخل فى الموعظة والاعتبار فتجده فى الغالب لا يصرح باسماء الاماكن التى تجرى فيها الوقائع كقصة ملاقاة موسى للخضر (1) عليهمـا السلام فانه لم يعين المـراد بمجمع البحرين حيث لا ينبنى على التعيين فائدة فى الارشاد لان الحكمة من مساق هذه القصة التذكير بما اشتملت عليه من المحامد والاداب كسفر الحالم للازدياد فى العلم وتكبده المشاق فى السير له ولو بعدت المسافة سنين فان موسى عليه السلام يقول (او امضى حقبا) والايماء الى ان التوكل اعتماد القلب على الله لا فى نكث اليد من الاسباب فانه عليه السلام حمل معه الزاد ودل على هذا بقوله (آتنا غداءنا) الى غير هذا من الفوائد ولكن بعض المفسرين كثيرا مـا يسردون اقوالا فى اسماء ما جاء مبهما فى القرآن كاختلافهم هنا فى المراد من البحرين ، فقيل هو بحر فـارس والـروم وقيل بحر القلزم (2) وبحر الاردن ومجمع البحرين عند طنجة او بافـريقيا ، وقيل هـو بحر الاندلس والبحـر المحيط ، والتعيين فى مثل هذا لا يعول عليه الا اذا جاء به حديث صحيح ومن العجائب قول بعضهم كما نقله الابى (3) ففى التفسير انه يقع فى نفسى ان مجمع البحرين هو مجتمع البحر المالح ووادى مجردة عند الدرسة وهو الذى يقال له حرق الجسرين والصخرة صخرة ابى ربيعة والجدار فى (المحمدية) .

امتطينا الباخرة الخديوية مساء هذا اليوم (4) وتعارفنا فيها بالشيخ عبـد القادر بن الشيخ زاده احـد علماء طرطـوس (5) فارانـا السكينـة فى احسن تقويم ، وما برحنا نروح الخاطر بمحادثته الى ان رست الباخرة امام بلد (يافا) (6)فغرب عنا بدر فضله بعد ان اعطانا ملء صدورنا انسا .

---

(1) الخضر ، احد اولياء المسلمين رفعه القرآن فوق الانبياء باعتباره الدليل المعهود اليه بارشاد موسى يحظى عند الصوفيين بعناية خاصة وكثيرا ما ادعوا الاتصال المباشر به .

(2) بحر القلزم : البحر الاحمر .
القلزم : مرفا قديم على البحر الاحمر يرجع الى عهد الفراعنة .

(3) منصور بن الحسين المتوفي سنة 421 هـ ـ 1030 م

(4) الاحد 28 جويلية 1912 .

(5) طرسوس : مدينة فى تركيا .

(6) يافا : مرفا ومدينة فى فلسطين (المحتلة) .

وصعد الى الباخرة من بلد (يافا) الفاضلان السيد المختار بوهاشم التونسى والشيخ موسى البديرى احد المدرسين بجامع القدس وهو عالم استقى من الازهر ثم من مدارس الاستانة وقد صحبنا صحبة ذى عهد قديم وجاملنا مجاملة الصديق الحميم . نزلنا رفيقين الى بلد حيفا (1) لما ارست الباخرة تجاهها ، وتجولنا يمينا وشمالا ثم آوينا الى جامعها الكبير ووقفنا على مشكاة يذكرون ان بها شعرات من آثار الحضرة النبوية ، ورااينا فى هذا الجامع اربع معلقات مقررا فيها فرائض الصلاة وسننها ومستحباتها ومكروهاتها ومبطلاتها كل معلقة مرسومة على مذهب امام من المذاهب الاربعة .

لبثنا فى حيفا مقدار اربع ساعات ثم ودعت رفقائى الفضلاء السيد مسعود المحيرصى واخاه السيد عثمان والسيد محمد القديدى وانقلبنا الى الباخرة .

كنت اسمع كثيرا من الناس يذكرون الصخرة بالقدس (2) ويعتقدون بأنها قائمة فى الهواء ولكن بعض الامراء بنى حذاءها جدارا ملاصقا لها سترا لشأنها العجيب لئلا يفتتن بها الناس ، وقد رايت هذا فى بعض الرحلات ايضا وفى ظنى انها رحلة خالد بن عيسى البلوى (3) وطالما يجرى بينى وبين من يعتقد صحة هذا مناقشة . ولما نبأنى الشيخ موسى انه يقوم بالتدريس عند فنائها حادثته بقصتها فحدثنى بانها موضوعة على بناء راسخ فى الارض وان هذه خرافة افتراها بعض الدجالين هناك ثم اخذ خلفهم يلقونها الى الواردين البسطاء لغرض واضح .

بلغنا الى بيروت يوم الاربعاء (4) واقمت بها نحو ساعتين ثم توجهت الى محطة الرتل فاخذت فى بعض بيوته مقعدا وسار الرتل متدرجا من بطاح بيروت الى جبل لبنان وكان احد الجلساء عارفا باسماء المواقع وله ذوق فى الادب

---

(1) مرفا ومدينة فى فلسطين (المحتلة) .
(2) قبة الصخرة فى القدس بنيت سنة 691 م .
(3) قاضى أندلسى توفى سنة 765 هـ / 1364 م .
(4) يوم الاربعاء 17 شعبان سنة 1330 / 31 جويلية 1912 .

فاستفدت من تعاريفه حتى انحدرنا على الرياض المتصلة بدمشق وقد انشات فى هذا الحال :

لـج القطـــار بنـــا والنـــار تسحبـــه
مـــا بيـــن رائـق اشجـــار وانهـــار
ومـن عجائـب مـا تدريـــه فـــى سفـر
قـوم تقـاد الـى الجنـات بالنـار (1)

وصل القطار الى مدينة دمشق بعد الساعة العاشرة مساء ، وحيث لم اكن على خبرة مفصلة بالمنزل الذى حلته عائلتنا عمدت الى بيت فى احد القصور (2) المعدة للغربـاء واسترحت بهـــا بقية سواد الليل ومـــا انصرفت الى مسكن العائلة حتى مطلع الفجر .

جاء لنا طائفة من فضلاء المدينة وعلمائها بزيارة التسليم ، ولا قونا بحفاوة بالغة حين غشيت منازلهم زائرين وفى مقدمة هؤلاء الكرام المفتى الجليل الشيخ محمد ابو الخير بن عابدين من عائلـة الشيخ ابن العابدين (3) الحنفـى الشهير ، والشيخ السيد اديب نقيب الاشـراف والامير عبد الله بن الاميـر عبد القادر (4) ، والاساتذة الشيخ يوسف النبهائى (5) الشهير والشيخ عارف منير والشيخ حسن الاسطوانى والشيخ عطاء الكسم والشيخ مصطفى طنطاوى والشيخ رضا مفتى الاى وابنه الشيخ يحى المكتبى والشيخ محمود والشيخ السعيد الجزائرى .

---

(1) البحر : البسيط .

(2) يقصد : النزل .

(3) محمد امين بن عابدين ــ فقيه من مؤلفاته « الحاشية » توفى سنة 1256 هـ ــ 1836 م .

(4) الامير عبد القادر الجزائرى ولد بالجزائر وتوفى بدمشق سنة 1300 هـ ــ 1883 م قاوم الفرنسيين مقاومة عنيفة .

(5) يوسف النبهانى عالم فقيه زار عدة بلدان عربية واسلامية تولى رئاسة محكمة بيروت توفى سنة 1345 هـ ــ 1926 م .

زرت مسجدها الشهير بالجامع الاموى (I) ، وشاهدت من تنميقه واتساع اركانه ما يعز نظيره فيما رأيت من المساجد الجامعة ، ولم نلف به لذلك الحين سوى درسين احدهما فى الوعظ يقوم به احد المشائخ الصادرين عن الجامع الازهر ، وثانيهما فى الفقه المالكى يتولى قراءته الشيخ عبد القادر من فقهاء الجزائــر ٠

شهدت به صلاة الجمعة فكان مــع هذه السعة فى الطول والعرض غاصــا بالمصلين وحدثنى الشيخ السعيد الجـزائــرى وقــد التقيت بــه عقب الصلاة ان بعض الباحثين قدر المصلين به فى مثل هذا اليوم بحساب محرر فبلــغ عددهم سبعة آلاف ٠

اما خطباؤه فانهم يلقون الخطب بلهجة صادعة واسلوب مؤثر ، ولا ترى بيد واحد منهم عند الخطبة ورقة فهم يمثلون هيأة الخطابة عند العرب ويحفظون اثرا من آثار الفصاحة بمعنى طلاقة اللســان والنطق بالحروف متمكنة مــن مخارجها ٠

وقصدت الى مقام الاستــاذ الشهير الشيخ محى الدين بن عربى (2) رضى الله عنه فى بناءات تسمى (الصالحية) تتصل بطرف دمشق ، وقرأت علــى ضريحه رسما به بيتان يحتوى ثانيهما على تاريخ وفاته وهو :

(I) الجامع الاموى : مسجد كبير تاريخى بدمشق تلقى فيه دروس فى العلوم الدينية واللغوية كان قصل الاسلام كنيسة جدد بناءه وكبره وزينه الوليد بن عبد الملك المتوفى سنة 7I5 م

(2) محى الدين ابن عربى الاندلسى توفى بدمشق سنة 638 هـ ـ I240 صوفى من مؤلفاته « الفتوحات المكية » .

ان سـألتـم متـى تـوفى حميـدا
قلت أرخـت مـات قطب همـام (1)

638

ويرى الزائر بجانب منه ضريح الامير عبد القادر الجزائرى قد رسمت عليه اربعة ابيات تشتمل على تاريخ وفاته اولها :

لله افـق صـار مشـرق دارتـى
قمـرين هـلا مـن بـلاد المغـرب

وآخرهـا :

مـن نـال مـع اعـلى رفيـق ارخـو
ازكى مقامات الشهـود الاقـرب (2)

1300

وكان لهذا الامير صبابة بفتوحات (3) الشيخ ابن عربى حتى انه ارسل عالمين من علماء دمشق الى (قونية) لتصحيح نسخة الفتوحات ومقابلتها على النسخة التى حفظت هناك وعليها خط يد المؤلف نفسه •

وكنت ازور مكتبة الملك الظاهر (4) ، وهى مكتبة حافلة وفيما رايته من

---

(1) البحر : الخفيف .
فى عجز البيت : مات قطب همام بحساب الجمل تساوى : مات = 40 + 1 + 400 = 441
قطب = 100 + 9 + 2 = 111 .
همام = 5 + 40 + 1 + 40 = 86 .
المجموع : 441 + 111 + 86 = 638 وهى سنة وفاة ابن عربى الهجرية .

(2) البحر : الكامـل .
عجز البيت بحساب الجمل يساوى :
أزكى = 1 + 7 + 20 + 10 = 38 .
مقامات = : 40 + 100 + 1 + 40 + 1 + 400 = 582 .
الشهود : = 1 + 30 + 300 + 5 + 6 + 4 = 346 .
الأقرب = 1 + 30 + 1 + 100 + 200 + 2 = 334
المجموع : = 38 + 582 + 346 + 334 = 1300 وهى السنة الهجرية التى توفى فيها الامير عبد القادر .

(3) « الفتوحات المكية » لمحى الدين ابن عربى .

(4) المتوفى سنة 613 هـ / 1216 م تسمى هذه المكتبة الى الان بالمكتبة الظاهرية .

كتبها تفسير البقاعى (I) الذى اخـذ على قلمه وشرط على نفسه ان يحرر فيه المناسبات بين الايات ودخل ابو المحاسن الشيخ يوسف النبهانى المؤلف الشهير يوما واوصى حافظ المكتبة برعايتنا وقال له ان هؤلاء من بيوت الفضل بتونس . وزرت مدرسـة دار الحـديث التى انشـأهـا الملـك الاشـرف وفوض تدريسها الى الشيخ تقى الدين (2) المعروف بابن الصلاح ثم تولى مشيختها الامـامـان النووى وتقى الـدين ابن السبكى وهى التى يقول فيهـا ابن السبكى :

وفـى دار الحـديـث لطيـف معنـى
عـلى بسـط لهـا اصبـو وآوى
عسـى انـى امـس بحـر وجهـى
مكانـا مسـه قـدم النـواوى (3)

ويشير بالبسط فى البيت الى بساط رسم عليه الملك الاشرف وهو واقف المدرسة اسمه وبسطه فى ارضها قال تاج الدين السبكى (4) فى الطبقات وكان يجلس عليه والدى (تقى الدين) (5) وقت الدرس ، ولقيت فى هذه المدرسة فضيلة العالم المحدث الشيخ بدر الديـن وجلسنا لديه حينا فكانـت عمارة الجلسة بحث الاستاذ عما يـوجد فى الديار التونسية من الكتب الغريبة مثـل

(I) ابراهيم بن عمر المتوفى سنة 885 هـ / I480 م .

(2) تقى الدين ابو عمر عثمان ابن الصلاح المتوفى سنة 64I هـ ـ I243 م . عالم فى الحديث من مؤلفاته « مقدمة ابن صلاح » فى الحديث .

(3) البحر : الوافر .

(4) تاج الدين بن السبكى المتوفى سنة 767 هـ ـ I369 م . عالم شافعى ، قاضى القضاة بالشام من مؤلفاته « معين النعم ومبيد النقم » و « طبقات الشافعية » .

(5) تقى الدين السبكى المتوفى سنة 753 هـ ـ I355 من أكبر علماء الشافعية تولى خطة القضاء بمصر ودمشق .

شرح الامام المازرى (I) لبرهان امام الحرمين وحاشية الشيخ معاوية على مختصر السعد ، والحواشى التى علقت على مختصر ابن الحاجب فى الاصول ، ولهذا الاستاذ درس فى صحيح البخارى يقرئه فى الجامع الاموى يوم الجمعة فقط ، يشرع فى قراءته عقب صلاة الجمعة والجوامع كلها تصلى لوقت الزوال وينتهى لوقت العصر ، شهدت هذا الاستاذ وهو يلقى الدرس بترسل ويملى ما يبسطه الكاتبون على الحديث ، واذا استطرد حديثا ساقه بسنده ، وله دروس اخرى يقرئها بمدرسة دار الحديث فان مشيختها اليوم بيده • وزارنا الشيخ عبد الرحمان بن سلام احد علماء بيروت والسيد عبد النبى احد معلمى المدارس الاميرية ومعرب جريدة سوريا الرسمية ، ونثر الشيخ على اسماعنا نبذة من جواهر اشعاره وهو من الادباء الذين يحذون فى نطقهم الاعتيادى حذو العربية الصحيحة ومما قاله فى حاكى الصدى :

انا الفنغراف مهما قلن اقبله
ان شئت قل حسنا او شئت قل خشنا
لكنه سوف يدرى من يخاطبنى
انى لسان الذى قد ظنني اذنا (2)

وقال وقد سافر الى بعلبك (3) ولم تتبرج له تبرج البلاد الرائعة :

اتيت لبعلبك ومراتاها
يرى لديارها شيئا عجيبا
كان بيوتها ابيات شعرى
فلا حشوا تضم ولا غريبا (4)

(I) محمد بن على . من فقهاء المالكية ـ توفى سنة 536 هـ / II4I م .
(2) البحر : البسيط .
(3) بلدة بلبنان كبيرة بها آثار من العهد الرومانى .
(4) البحر : الوافر .

وزرنا المدرسة التجارية ، فتلقانا مديرها الشيخ مصطفى طنطاوى واحد مدرسيها الشيخ محمود بكامل المبرة وعرفنا الشيخ مصطفى بنموذج تعليمها • وبمناسبة ذكر اللغة الفارسية فى جملة اللغات التى تدرس بها قلنا ان للغة الفارسية مزية ولهذا اجاز ابو حنيفة رضى الله عنه القراءة بها فى الصلاة لمن عجز على العربية ، فقال لى بل الامام يجيز القراءة باى لسان اتفق ولا يخص هذا الحكم بالفارسية ، وقد كنت طالعت هذه المسألة مقيدة بالفارسية فى كتاب الاحكام لابى بكر بن العربى ثم اعدت النظر فى بعض كتب المذهب الحنفى فوجدت احد الفقهاء وهو الشيخ البرادعى (1) نص على تخصيص الحكم بالفارسية ولعل الراجح فى المذهب خلافه .

ومما اورده فى المحادثة ان الحريق الذى حدث بدمشق لهذه السنة قد احاط بساحة المدرسة من جهاتها الاربع ولم يتناول من مبانيها فتيلا ، فقلت له (واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض) فوقعت لديه موقع الارتياح .

ودار على البساط حكم العلوم الرياضية والطبيعية فى نظر الاسلام ، ومما ادرجناه فى هذه المحاورة قول القرافى (2) فى فروقه قد يغمض على الفقيه والحاكم الحق فى كثير من المسائل بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة فينبغى لذوى الهمم العلية ان لا يتركوا للاطلاع على العلوم ما امكنهم وتجاذبنا خلاصة ما حققه الامام ابو حامد الغزالى (3) فى كتاب المنقذ من الضلال عند بحثه عن علم الطبيعيات • ونصه « اما علم الطبيعيات فهو بحث عن اجسام العالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الاجسام المفردة كالماء والهواء والتراب والنار ومن الاجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وما تحتها وعلى اسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها وذلك يضاهى بحث الطبيب عن

---

(1) احمد بن الحسين البرادعى ابو سعيد الحنفى قتله القرامطة لما حج سنة 317 هـ 929 م

(2) شهاب الدين احمد القرافى توفى سنة : 683 هـ ـ 1285 م من اشهر فقهاء المالكية .

(3) ابو حامد الغزالى المتوفى سنة 505 هـ ـ 1111 م . فيلسوف عربى من مؤلفاته « المنقذ من الضلال » و « احياء علوم الدين » .

جسم الانسان واعضائه الرئيسية والخادمة واسباب استحالة مزاجها وكما ليس من شروط الدين انكار علم الطب فليس من شروطه انكار ذلك العلم الا فى مسائل معينة ذكرناها فى تهافت الفلاسفة » (1) ثم قال « واصل جملتها ان يعلم ان الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها بل هى مستعملة من جهة فاطرها فالشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره لا فعل لشىء منه بذاته عن ذاته (2) » .

فهذا التقرير من امام عرف شعاب هذه العلوم بعد ان رسخ فى العلم بمقاصد الشريعة الاسلامية يشهد شهادة عادلة بان الاسلام يسع صدره لكل ما يتدرج فى حقيقة العلم ما لم يتحقق ضرره كعلم السحر .

ودعانا هذا الشيخ الى احتفال اقامه فى هذه المدرسة لتوزيع الشهادات على تلامذتها وكان النادى يحتوى على ما يناهز خمسمائة نسمة فيهم العلماء وارباب المناصب العالية فوضعوا فى صدره منصة شامخة وصعد عليها فريق من التلامذة ، والقوا خطبا من محفوظاتهم باللغات الثلاث العربية ثم التركية ثم الفرنسية وبعد هذا قام غلام على المنصة والقى على التلامذة خطابا اودع فى ضمنه ان هذه الشهادات التى سيبسطون ايديهم لتناولها انما منحوا بها محاباة وانهم سيتقلدونها عن غير استحقاق ، فنهض احد التلامذة واجابه عن ذلك الخطاب بمقال اومأ فيه الى كفاءتهم واوسع له المجال فى اختبارهم فاجرى ذلك التلميذ عليهم الاختبار واحدا عقب آخر وعرض عليهم اسئلة فى العلوم التى تزاول بالمدرسة كالحساب والهندسة والجغرافيا والنحو والصرف والتوحيد والفقه والفرائض ولكن السؤال فى هذا الفن الاخير كان من قبيل المسائل التى يوردها الفرضيون فى قالب الالغاز ، ويتخلل هذا الاحتفال فترات يترنم فيها التلامذة باناشيد وطنية .

---

(1) تهافت الفلاسفة : كتاب للامام الغزالى .

(2) المنقذ من الضلال ص : 67 ـ طبعة مكتبة الأنجلو المصرية سنة 1952

ومن تواصل بيننا وبينهم اللقاء المحامي الاديب السيد رشيد الرافعي من العائلة الرافعية الشهيرة بطرابلس الشام ، وهو احد الاذكياء الذين استقوا معارفهم من الازهر وعكفوا على التحرير بالجرائد • جلسنا يوما بدكان لشراء متاع فقص علينا بعض الاميين انه يوجد خضاب للشيب يبقى سائرا لبياضه سنين فالتفت الى السيد رشيد مستطلعا رايى فى هذا الحديث فسقت لهم من « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء والفضلاء ببجاية » (1) ذكرى في ترجمة ابى العباس الجدلى انه وصل الى افريقية فى خلافة المستنصر بالله (2) وساله عن البلاد التى دخلها والغرائب التى اطلع عليها فمن جملة ما ذكر انه راى ببلاد الهند صبغة اذا خضب بها الخاضب يقيم الثلاثين سنة لا يفتقر الى خضاب ، وكان من جملة الحاضرين بالمجلس (المروزى) من فضلاء الاطباء فانكر هذه القضية وانكرها الخليفة لان هذا اما ان يمنع نمو الشعر ، او يحيل الطبيعة بان يؤثر هذا الصبغ فى الشعر الذى ينبت من بعده ولم يتفق له اجتماع بعد ذلك بالخليفة وهكذا ينبغى للرجل ان لا يفتح سمعه لقبول الروايات الا بعد ان يضعها على محك النظر والاعتبار ، ثم التفت السيد الرشيد الى ذلك الرجل واعاد عليه القصة بعبارات يفهمها • شهدت درس الاستاذ الشيخ عبد القادر الخطيب لصحيح الامام البخارى بالجامع الاموى وكان الدرس لذلك اليوم اول حديث من كتاب الصوم ، فعجبنا بفصاحته وكثرة ما يجلب مما كتب فى شرح الحديث • ومن سنتهم ان يتقدم قبل اخذ الاستاذ فى تقرير الدرس احد القائمين بتجويد القرآن ويتلو منه بعض آيات بترتيل • وليس من المكروه فى عادتهم ان يقوم الجالس بحلقة الدرس وينطلق الى درس آخر ثم يحن الى الدرس الاول فيعود اليه او يقف قبالة الاستاذ لينظر اليه ماذا يقرر او ليقتنص منه فائدة ويفارقه الى درس آخر ثم اذا شاء انقلب اليه

---

(1) لصاحبه ابى العباس الغبرينى المتوفى سنة 704 هـ / 1304 م .

(2) المستنصر بالله : خليفة فاطمى توفى سنة : 487 هـ / هـ - 1094 م

ودعانا الشيخ رضا مفتي الاى الى منزله وصعد بنا الى بيت نضد فيه من الكتب ما جعله مكتبة حافلة ومما اطلعنا عليه تأليف لطائفة الدروز (1) بثوا فيها عقائدهم السرية وقد انساقت اليه هذه الكتب حين خرج صحبة سامى باشا لتمهيد ثورتهم • ومن اصول عقائدهم التصديق بألوهية الحاكم بامر الله المتوفى قتيلا بمصر سنة 411 هـ • بعثنى ما شاهدته من اقبال العامة واحتفالهم بدروس الوعظ ان القى دروسا بالجامع الاموى ، فالقيت نحو اثنى عشر درسا فى احاديث جامعة وكانت الاسئلة فى الدروس عندهم نادرة فانى حضرت بمقربة من دروس متعددة ولم يتفق ان اسمع باحثا يتفاهم مع استاذ ومما جرى لنا فى الدرس الاول ان احد المستمعين الذين لهم صلة بالقراءة القى بحثا فى موضوع كنت آخذا فى تقريره فتعرض له بعض الحاضرين فاومات اليه بعدم التعرض وقلت له ان التفاهم فى خلال الدروس مما لا بد منه • وجاريت السائل ولكنه تشعب فى المجادلة الى ان شعرت بان مباحثته مبنية على ان الموعظة التى كنت بصدد بثها لم تلتئم بما تهواه نفسه ويوافق غرضه فذكرت قول المتنبى (2)

انما تنجح المقالة فى المرء

اذا صادفت هوى فى الفؤاد (3)

ثم ارسلت له عبارة مقنعة فى الجواب ومضيت فى تقرير مطلب آخر ، وبعد انقضاء الدرس دنا الى والتمس الاغضاء عما فرط منه فقلت له انا متعودون بالبحث وتوسيع المجال للتفاهم • اخذت يوما فى اقراء حديث العرباض بن سارية رضى الله عنه المسوق فى اتباع سنته عليه الصلاة والسلام وسنة

---

(1) الدروز : فرقة أسسها درزى (من دعاة الباطنية) ومن انصار الحاكم بأمر الله الفاطمى توفى سنة 409 هـ - 1019 م . استوطنت بلبنان ويوجد عدد منهم فى سوريا ومن المناطق التى يسكنونها جبل حوران الذى يسمى بجبل الدروز .

(2) ابو الطيب المتنبى المتوفى سنة 354 هـ - 965 م .

(3) البحر = الخفيف .

الخلفاء الراشدين من بعده ، فاقبل جماعة من العلماء وتفضلوا بالحضور في حلقة الدرس منهم الشيخ المفتى ابو الخير والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ اديب نقيب الاشراف والشيخ السعيد الجزائرى ، وجرت بيننا وبين هؤلاء الاساتذة فى اثناء الدرس مباحثات لطيفة . وقد تحلى علماء دمشق بهذا الخلق العالى وهو حضورهم بدروس الحديث من تلقاء انفسهم استمدادا لبركة الحديث ومجاملة لمن انتصب لتدريسه . وبسطنا هنا المقال فى البدعة ، واتينا على تقسيم القرافى لها الى خمسة اقسام . وتعقبناه بحصر ابى اسحاق الشاطبى لها فى قسمين فقط المحرمة والمكروهة واورد بعض الشيوخ على هذا الحصر قول سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى شان صلاة التراويح (نعمت البدعة) فقلت ذلك الاطلاق ملاحظا فيه المفهوم اللغوى وهو معنى المحدث ، وابو اسحاق الشاطبى يراعى البدعة فى مقصد الشارع وقد عرف بعض المحققين البدعة بأنها ما يفعله الانسان على انه قربة مع عدم ثبوته عن الشارع وذلك لان الفعل انما يصير طاعة بامرين احدهما النية الفاضلة ، والثانى موافقته لوضع الشرع وشرطه فاذا تجرد عن الامر الاول كان عبثا واذا اختل فيه الامر الثانى بان اصدره صاحبه في اسلوب لم يثبت عن الشارع كان بدعة . وبعضهم يتسامح للعامة في كثير من المحدثات ياتونها ويلتمس لهم المعذرة بان نواياهم صالحة وبما تقرر فى تعريف البدعة تسقط هذه المعذرة ، ويتضح ان القصد الجميل وحده لا يقلب العمل طاعة ونضرب المثل لهذا بما رايته بعينى من بعض زائرى المقام الذى اشتهر انه يضم قبر خالد بن سنان (1) عليه السلام حيث يرى الناظر افواجا من العامة يطوفون بشجرة جوار ذلك المقام كما يطوف الحاج ببيت الله الحرام .

واذكر انى حللت ببعض البلاد ، فرايتهم اذا بلغ الصبى سورة البقرة احضروا بقرة ووضعوا عليها زينة من الحلى وتتجول بها جماعة فى الطرقات العامة وهم يقتفون اثرها بالدفوف والاذكار ، فالقيت عليهم خطبة فى البدع

---

(1) حكيم من أنبياء العرب فى الجاهلية .

ونصصت فيها على هذه المحدثة فتلقاها الفضلاء واهـل العلم بالاستحسـان لانهم يشعرون بسماجة هـذه البدعة قبل ان اخطب وقـال طائفة من العامة لو كان هذا امرا بدعة لنهانا عنه الشيخ فلان او الشيخ فلان رحمهما الله ·

واستطردنا (1) بمناسبة التعرض لفضيلة ابى بكر الصديق رضى الله عنه حديث اذن النبى صلى الله عليه وسلم له فى الصلاة بالجماعة واشارته اليه بعد خروجه عليه السلام من حجرته الشريفة بالبقاء فى مكان الامامة ، ودرج بنا التقرير على قاعدة تقديم الادب او الامتثال وفصلنا مجمل ما قاله الشيخ ابن حجر (2) فى فتح البارى وهو ان سيدنا ابا بكر انما تأخر ولم يقف عندما اشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم بالبقاء لانه فهم ان ايماءه عليه السلام له بالمكث فى مكان الامام من قبيل مجاملة شخصه واظهار عاطفة محبته وحرمته، واذا كان الامر من هذا الوجه فاذا امتثل الصديق فانما يستوفى حقا يعود عليه بالفضيلة وحده ، واذا تأخر فانما يسقط حقا من حقوقه الخاصة بحيث اصبح الامر بمنزلة الاوامر الواردة للاباحة فاختـار الصديق التأخر ايثـارا لجانب الادب وليست هذه الواقعة كقصة امتناع سيدنا على ابن ابى طالب من محو لفظ رسول الله من صحيفة صلح الحديبية (3) حين ابى كفار قريش كتابتها فان الاستدلال بتقديم الادب على الامتثال هنا ظاهر لان الامر بالمحو ليست فيه فائدة تعود على ابن ابى طالب وحـده حتى يكون عدم امتثاله من قبيـل اسقاط ما هو حق له · قررت هذا فقال لى احد الاساتذة من اين فهم ابو بكر رضى الله عنه ان الامر انما صدر على وجه الاجلال له واظهار فضيلته دون ان يكون الباعث على الامر وجه آخر ؟ ولم يسنح لى فى الجواب وقتئذ سوى ان الدال على ذلك قرينة المقام فان امره بالاستمرار على موقف الامامة والامام الاعظم بالحضرة لا يظهر له وجه سوى الاعلان بكرامته ·

---

(1) الزهرة ـ يوم الاربعاء 25 ربيع الثانى سنة 1331 / 2 افريل 1913 ·

(2) ابن حجر العسقلانى : متوفى سنة 1449 م حجة فى الحديث ، مؤرخ وفقيه شافعى مـن مؤلفاته « فتح البارى فى شرح البخارى »

(3) الحديبية : واد قرب مكة .
صلح الحديبية : وقع فى هذا المكان بين الرسول وقريش ·

انتهينا من الدرس لصلاة العصر ، واثر الصلاة تالفت حلقة لاستاذ مصرى يقرى ازاء المكان الذى كنت ادرس فيه ، وتاخر ذلك الاستاذ عن وقته المتعارف مهلة فقال بعض اهل العلم هناك للمتجمعين ان الاستاذ المصرى ليس من عادته التدريس فى هذا اليوم الجمعة ثم التفت الى وقال لى لا يتفرق هذا الجمع عن غير فائدة وعندما سمعه اولئك المتجمعون وهو يقترح على ان أقوم لهم مقام ذلك الاستاذ انقلبوا الى واكدوا رغبتهم فى سماع بعض الاحاديث ، فوقفت وقفة المتردد حتى تقدم الاديب السيد السعيد احد الشبان الذين صدروا من مدارس الاستانة وقال لى مخافتا انى اعرف الاستاذ المصرى يقرىء يوم الجمعة فكان هذا الاعلام عذرا فاصلا للتخلص من حرصهم الشديد .

واجهت ناظم باشا وهو الوالى بالشام فى ذلك الحين للتفاهم معه فى حاجة تخص العائلة ، فكانت التحية بيننا اولا اشارة باليد ثم تقدم الفاضل السيد محمد بن شطه الجزائرى ليترجم بينى وبينه وكانت المخاطبة بينهما باللسان الفرنساوى اذ كان لا يحسن النطق بالعربية وذكروا انه يقرأ بها ويفهم جيدا وقال له السيد محمد بن شطه فى التعريف بشأنى : هذا مؤلف رسالة (الحرية فى الاسلام) (1) واخبرنى انه كان قد اطلع عليها فنهض قائما ومد يده لمصافحتى واعطى عبارة فى الشكر على تأليفها .

حضرنا حفلة وداع التلامذة محى الدين القضمانى وسعدى اعرابى وسعيد الرشاش حين عزموا على الرحلة للتعلم ، فافتتح السيد محمد على بخطاب بين فيه الغرض من الاحتفال وتلاه الامين عارف الشهابى بخطبة أتى فيها على فوائد البعثات العلمية ، ثم خطب تلميذ يقال له (مردم) فى التعليم بمدارس (سويسرة) ، ثم خطب السيد مصطفى أخو الامير عارف فى الزراعة ومنافعها ثم القى أخونا المكى بن الحسين (2) قصيدة فى فضل العلم ومما قاله فيها :

---

(1) « الحرية فى الاسلام » محاضرة القاها الشيخ محمد الخضر حسين سنة 1906 وطبعت بتونس 1909 م .

(2) المكى بن الحسين : أخو الشيخ محمد الخضر اشتهر ببحوثه اللغوية وباشعاره ، ارتحل الى دمشق سنة 1911 م . ثم عاد بعد سنوات الى تونس واستقر بها توفي سنة : 1963 م

ومن برح الاوطـان فى طلـب العـلا
لدى الناظر السامى هو الرجل الحر
بنى الشعب هبـوا للمعـارف انهـا
فخـاركم الاعـلى فـلا عـدم الفخـر
وتلـك كنـوز لا من التبـر صنعهـا
وهل ساد عن علم يزين الورى تبـر
كذا الجهل وزر فى الانام وان زهـت
معارفهم يومـا فقد وضـع الـوزر (1)

وتلاه السيد صبحى الحسيبى وخطب فى العلم والاغنياء ، ثم قام الشيخ عبد الرحمان القصار وتلا قصيدة جيدة يقول فيها :

رد منهل العلـم الصحيـح لترتـوى
واصدره كى يـروى بـك الضمـآن
فالعلـم غصـن والمـدارس جنـة
تـزهـو وانـت بروضهـا رضـوان
يـأيهـا التلميـذ جـد غـدا تكـو
ن معلمـا تـرقى بـك الفتيـان (2)

ثم ارتقى احد الحاضرين الى مرتقى الخطابة ، واوهم انه سيقوم بخطبة كما قام الخطباء قبله حتى التفت الى التلامذة وقص عليهم انه كان رأى فى جريدة كذا ان ملك الجابـون (3) ارسل طائفة من التلامذة ليتعلمـوا بأروبا ، فلمـا عادوا الى وطنهم إقترح عليهم الملك ان ينشئوا له باخرة فنظر بعضهم الى بعض فكرر عليهم عبارة الاقتراح فقالوا لايمكننا صنع البواخر الابحضور احد اساتذتنا

(1) البحر : الطويـل .
(2) البحر : الكامل .
(3) بـلاد اليابـان .

فأمر بصلبهم ليكونوا عبرة لغيرهم من التلامذة فلا يرجعون من تعليمهم حتى يبلغوا ما بلغت الاساتذة ، ثم اقبل على التلامذة الثلاثة وقال لهم وانتم ايضا ان عدتم الينا غير قادرين على العمل فانا نشنقكم ونزل فاهتز النادى ضحكا .

ودعينا (1) الى الحضور باحتفال فى مدرسة قرب الجامع الاموى اقاموه لتفريق الشهادات على تلامذتها . حضر هذا الاحتفال خلق كثير وطائفة من العلماء وارباب المناصب مثل الشيخ القاضى والشيخ المفتى أبو الخير والسيد نقيب الاشراف ، وكان على جانب اليمين منى الشيخ صادق الميدانى احد العلماء الاذكياء يجاذبنى المحادثة والملاحظة فى مظاهر الاحتفال ويعرب لى بعض ما يلقونه من الخطب والمحاورات باللغة التركية .

القى التلامذة خطبا بالعربية ثم التركية ثم الفرنسوية وانشدوا قصائد حماسية كقصيدة ابن سناء الملك (2) التى يقول فى طالعها :

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا (3)

ثم عقدوا محاورات طريفة منها محاورة جرت بين تلميذين فى التفاضل بين العلم والمال ونصبوا تلميذا ثالثا ينظر فى حججهما ويتولى فصل الخلاف بينهما ، وبعد ان نفض كل منهما ما فى كنانته قضى بتفضيل العلم على المال فان المال من نتائج المعارف ، ومن اللطائف فى هذه المحاورة ان التلميذ الذى كان يفاضل عن المال قال لمفضل العلم بعد فصل القضية استمنح منك العفو فقد كنت انازعك وانا على خطا فقال له التلميذ الحاكم لا تسأله العفو فان المجادلة لم تكن بين شخصيكما وانما كانت جارية بين الحق والباطل .

---

(1) الزهرة يوم الخميس 26 ربيع الثانى سنة 1331 هـ - / 3 أفريل 1913 م .
(2) شاعر مصرى توفى سنة : 608 هـ / 1212 م .
(3) البحر : الطويل .

ومنها محاورة انعقدت بين تلميذين فى المفاضلة بين السيف والقلم ، احدهما ينطق بلسان القلم ، والآخر يفاخر بلسان السيف ، وبعد ان توسعوا فى اطراف المحاورة بجلب الادلة والشواهد كقول الناطق بلسان القلم :

ولى قلم فى أنملى ان هززته
فما ضرنى الا اهز المهندا (1)

وقول المفاخر بلسان السيف :

السيف أصدق انباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب (2)

فصل الحاكم المفاخرة بتفضيل القلم على السيف وقال تنفيذا للحكومة قم أيها السيف وقبل رأس القلم . ووقعت بعد هذا محاورة باللسان التركى بين تلميذين مثلا فيها اساليب التعليم العتيقة والحديثة .

وممن لقيناه من الادباء فتهلل منبسطا لهذا اللقاء الفاضل المهذب السيد أحمد كرد على صاحب جريدة المقتبس الزاهرة ، وقد نشرت هذه الجريدة تقريضا مطنبا فى الرسائل « الحرية فى الاسلام » و « الدعوة الى الاصلاح » و « حياة اللغة العربية » (3) وقالت فى صدر هذا التقريظ : « تنم معظم تآليف التونسيين الاخيرة على فضل علم وأدب ، وان خاصتهم لا يؤلفون فى الغالب الا اذا اعتقدوا واعتقد الناس فيهم الكفاءة العلمية الخ » . وممن زارنا وزرناه العالم الشيخ السيد عبد الباقى المفتى المالكى وقد جذبتنا طبيعة الاجتماع به الى الخوض فى اثر حياة الامير عبد القادر رحمه الله حيث كان هذا

---

(1) البحر : الطويل .
(2) البحر : البسيط هذا البيت لابى تمام المتوفى سنة 231 هـ .
(3) « الحرية فى الاسلام » و « الدعوة الى الاصلاح » و « حياة اللغة العربية » ثلاث محاضرات القاها الشيخ محمد الخضر حسين ونشرت مفصلة سنة 1909 م .

الفاضل من اصهاره ، ومررنا فى حديثنا على ان هذا الامير قد ساعده القدر على ان توفر لديه من الشهرة بخصال كاملة ما عز ان يتفق لغيره من فضلاء عصره ، فترى له كتائب ومجالس تنظمه فى سلك العلماء وسخاء يقف به فى صف ذوى السماح ومصانعة تنظر منها الى مقدار غوصه فى غامض السياسة ، ومواقع يدخل منها الى فضيلة الاقدام وقريض يرفع فى نوادى الادب ذكرا ٠ ونثرنا فى هذا البساط جوهرة قوله فى مقام الحماسة :

ومن عادة السادات بالجيش تحتمى
وبى يحتمى جيش وتحرس ابطـال (I)

ولوحظ فى هذا انه وارد على خلاف النظامات الجـارية فى الحـروب ، فان الرئيس لا يضع نفسه فى موقع امام الجيش حـذرا من ان تصيبـه القـاضية فيختل النظام بعده وينتشر فى عظام قومه الفشل ولكن ميدان الحماسة والفخر اوسع مجالا من ميدان الحروب وتدابيرها ٠

حضرت (2) فى اليوم الثامن والعشرين من رمضان (3) لدرس القاه أخونـا زين العابدين بن الحسين ختم به دراسة كتـاب الاربعين النـووية بجـامع (التوبة) ، وحضر من الاساتذة الشيخ عطاء الكسم والشيخ يحيى القلعى والشيخ محمود ، وكان هؤلاء الاساتذة قائمين فى العشرة الاخيرة من شهر الصوم بسنة الاعتكاف فى هذا الجامع ، وقال لهم احد الفضلاء فى محاورة بعد الدرس قد شغلناكم وانتم عاكفون فقلت له يقول أبـو بكـر ابن العـربى ان المذاكرة فى المسائل العلمية من قبيل الطاعات الملائمة لمقصد الاعتكاف ، وكان هذا الجامع كما قال ابن خلكان خانا يعرف بابن الزنجارى وقد جمع اسباب الملاذ ويجرى فيه الفسوق والفجور فقالوا للملك الاشرف ان مثل هذا لا يليق

(I) البحر : الطويـل .

(2) الزهرة الجمعة 27 ربيع الثانى سنة I33I / 4 أفريل I9I3 .

(3) يوم الاثنين 28 رمضان سنة I330 / 9 سبتمبر I9I2 .

ان يكون فى بلاد المسلمين فهدمه وعمره مسجدا جامعا ، وسماه الناس جامع التوبة كانه تاب مما كان فيه .

ومن المسائل التى تعرض لها صاحب الختم حكم القيام للوارد على المجلس لانه عادة يبالغ اهل المشرق فى الاحتفاظ بها الى ان يعيدوا القيام للرجل الواحد فى المجلس الواحد ما تكرر دخوله ، وقرر ما بسطه القرافى فى فروقه وانفصل على ان القيام قد يتعين اذا ادى تركه الى انكسار خاطر وانصداع شمل ألفة . وأنا أعهد لأبى بكر ابن العربى فى كتاب الاحكام تفصيلا آخر فانه بعد ان ساق الاحاديث الواقعة فى هذا الغرض قال وهذا راجع الى حال الرجل ونيته فان انتظر ذلك واعتقده لنفسه منع ، وان كان على طريق البشاشة والوصلة فانه جائز وخاصة عند الاسباب كالقدوم من السفر ونحوه.

كنت جالسا ليلة العيد (1) بالمنزل يسامرنى واخوتى بعض الفضلاء فذكر احدهم قول الخطباء فى العيد « ليس العيد لمن لبس الجديد وانما العيد لمن خاف يوم الوعيد » فنظمت لهم فى هذا الغرض بيتين وحشروهما فى زمرة محفوظاتهم وهما :

ما العيد للشعب فى تنميق اثواب
ولا ملاقاة اخوان واصحاب
وانما العيد ان تحيى بصائرهم
بنور هدى وعرفان وآداب (2)

اتفق (3) لنا السمر ليلة بمنزل الامير على باشا ولاقينا من ابنه الامير عبد القادر تجلة فائقة ، ولم يقنع بجلوسنا فى المنزل الذى يتلقى فيه عامة الضيوف حتى تجاوز بنا الى دار بعده واطلعنا على آثار للامير جده رحمه

---

(1) يوم الاربعاء 30 رمضان سنة 1330 / 11 سبتمبر 1913 .

(2) البحر : البسيط .

(3) الزهرة السبت 28 ربيع الثانى سنة 1331 / 5 أفريل 1913 .

الله ، ولما نهضنا للرواح وسايرنا مودعا اعترضنا احد القـراء واردا منـزل الامير ليتلو لهم كعادته مـا تيسر من القرآن فرغب منا هـذا الامير الرجـوع لسماع تلاوته فرتل ذلك الحافظ نصيبا من الآيات بلهجة مؤثرة جدا .

زرنا يوم العيد (I) الامير عبد الله ابن الامير عبد القادر واحتفل المجلس بطائفة من اهل العلم فجرت محادثات علمية دينية بأخذ اطرافها ، نظر ذلك الامير الفاضل وقرر الشيخ السعيد الزواوى فى هذا المجلس ان فيما يظهر له من دلائل النبوءة قوله عليه الصلاة والسلام : (لا نبى بعدى) وذلك لانه ثبت انه عليه السلام فى انهى درجة من الحكمة ، وهذا يعترف به كل من القى نظرة فى اقواله وسيرته ولو لم يعتقد برسالته ، والرجل الحكيم يتحاشى ان يقضى على المستقبل بعبارة قاطعة اذ لا يدرى ما تلده الايام ، وتبرزه للناس من تصرفات الاقـدار التى ربما تنكث اقوالـه وتحل عقد ما تنظمه من الشيعة والاتباع . فاقدامه عليه الصلاة والسلام على هذه العبارة الفاصلة مع ما مر من تلك القرون المتطاولة ولم يظهر فى الوجود ما ينقضها بحيث لم يدع احد منصب النبوءة وله شبهة فى ادعائه دليل على انه انما ينطق عن وحى سماوى ينزل به الروح الامين على قلبه المنير .

فقلت له وانا ايضا مما اعضد به ايمانى ما جاء فى القرآن من التشابه ، فانى كثيرا ما اقول فى نفسى لو كان هذا القرآن من بشر يـزعم الـرسالة لتحرى فيه العبارات الصريحة فى العقائد التى يدعو اليها ، واحتفظ غـاية جهده ان يسوق فيه ما يشتبه على الانظار ولا يصح الاعتقاد بظاهره فـورود الآيات المتشابهات فى اثناء المحكمات انما يكون لحكم غـامضة لا تخطـر فى عقول البشر .

والعلماء الذين بسطوا شيئا من تفاصيلها كالفخر الرازى انما اهتدوا الى البحث فيها بعد ان اطلعوا على المتشابه واعتقدوا بانه لا يأتى فى كلام الله الا

(I) يوم الخميس غرة شوال الموافق I2 سبتمبر .

لاسرار بديعة ، ولو لم ترد هذه النصوص المتشابهة لما خطر على عقولهم تلك الحكم المقتضية لاندماجها فى سلك المحكمات ·

وقد قرروا فى جملة هذه الحكم ان من مقاصد الاسلام الاذن للعقول ان تسرح فى النظر وتنبسط فى الاعتبار ، فكان من وسائل هذا ان وردت فى الشريعة اقوال لا يفهم المراد منها لاول سماعها حتى يضطر السامع لعمل البحث واجالة الفكر فى الوصول الى ما يراد منها ، وفى هذا تمرين للعقول على النظر والاتساع فى الفكر واذا تعودت العقول بطبيعة التفكر والنظر عافت الجمود واسقذرت التقليد فى معتقداتها ·

وجرى فى هذا المجلس حديث (كما تكونون يولى عليكم) فسقنا على هذا ان أبا بكر الطرطوشى قال بلغنى هذا الحديث فاخذت افحص عنه من جهة السند فمر على وانا اتلو قوله تعالى : (وكذلك يولى بعض الظالمين بعضا) الآية ، فاكتفيت بها عن الحديث · وهذا الحديث ذكره السيوطى فى الفتاوى الحديثية وقال رواه ابن جميع (1) فى معجمه ، وذكر ابن الانبارى (2) فى بعض كتبه ان الرواية (كما تكونوا) بحذف النون وتكلم هنالك على وجه اعرابه ·

ومن عوائد الشام انك ترى زائرات القبور يوم العيد يحملن غصونا ذات اوراق طرية ليضعنها على القبور باعتقاد انها تنفع الموتى كما تنفعهم الصدقات ، ويستندون فى هذا الى حديث غرز النبىء عليه الصلاة والسلام عودين من جريد على قبر من لا يستتر من بوله ومن كان يمشى بنميمة وقوله لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا .

وقد فاوضنى فى هذه العادة احد الفضلاء من الارناؤوط يوم العيد ، وذكر الحديث فقلت له ان غرز النبىء صلى الله عليه وسلم للعود الرطب لداع غيبى

---

(1) ابن جميع : أبو الحسن محمد بن احمد المتوفى سنة 402 هـ / 1012 م ·

(2) القاسم الانبارى ـ من علماء الحديث توفى سنة 328 هـ 940 م ·

ومعنى يختص به مثل ان تكون مدة بقاء الطراوة فيه غاية لما وقع فيه الطلب من تخفيف العذاب عنهما · وما يفعله عليه الصلاة والسلام لعلة غائبة عن ابصارنا لا ينبغى لنا ان نقدم الى فعل مثله فان العلة غير متحققة بالنسبة لنا ، ونظير هذا حديث نزوله عليه الصلاة والسلام والصحابة معه بالوادى واستمرار القوم بهم الى ان طلعت الشمس فانه عليه الصلاة والسلام امر بالرحيل وقال ان هذا واد به شيطان فلا يصح لنا ان نقيس عليه حالتنا حتى اذا طلعت الشمس علينا ونحن بواد تحاشينا ان نصلى فيه لان العلة التى استند عليها عليه الصلاة والسلام لا طريق لنا الى معرفتها كما قال أبو الوليد الباجى (1) ، وبعد هذه المفاوضة اطلعت على انكار أبى بكر الطرطوشى لهذه العادة ومتابعة صاحب المدخل له على هذا الانكار ·

ومن ادباء (2) دمشق الشاعر المجيد السيد خير الدين الزركلى (3) رايته ينحو فى شعره نحو فلسفة المعرى فخاطبته بقولى :

يا محضرا فى برد شعر للنهى
روح المعرى كى تغازل بالحكم
من علم الشعراء ان يستحضروا
روحا تردى جسمها ثوب العدم (4)

فأجابنى بقصيدة من شعره البليغ تحتوى على نحو ثلاثين بيتا يقول فى طالعها :

من للقريض اذا دعوت وللقلم
والشرق صار به السبات الى العدم

---

(1) فقيه ومحدث ـ توفى سنة 474 هـ / 1081 م .
(2) الزهرة الاحد 29 ربيع الثانى سنة 1331 هـ / 6 أفريل 1913 .
(3) لغوى واديب سورى صاحب كتاب « الاعلام » .
(4) البحر : الكامل .

ألــف السهــاد النــائمون بــه كمــا
ألــف العــلاء النــاهضون من الامــم

ثم يقول :

ولــرب ذى خطــل يلقــب عصرنــا
عصر الرقى صحا فانكــر مــا زعــم

ثم قال :

لــو ان فيــه أبــا العــلاء تحطمــت
اقــلامــه ولمــا شــدا ولمــا نظــم (1)

اهدى الى الشيخ عطاء الكسم من تاليفه رسالة فى التوسل ، وكتابة جمع فيها اصول المذهب الحنفى باسلوب وجيز ، وهذا الفاضل من اشهــر علمــاء دمشق ، وكان قد ابتدأ قراءة صحيح الامام البخارى دراية وانخرط فى سلك درسه اخونا العروسى بن الحسين (2) وقدم له ابياتا يقول فى طالعها :

بشــرى فشمــس الهــدى تجلــت
للفكـــــر فـــى حلـــة الجمـــــال (3)

واطلعنى احد الادباء فى مجلة شرقية على رسالــة للخليل بن احمد (4) فى تفسير حروف الهجاء عند العرب نقلت من مجموعة فى العراق فانشدته ابياتا من قصيدة لابى عبد الله الهوارى الاندلسى (5) فى تسمية هــذه الحروف كنت ظفرت بها من مجموعة فى رحلتى للجزائر سنة 1321 (6) ، وحيث كــانت هذه

---

(1) البحر : الكامــــل .
(2) الأخو الاصغر للشيخ محمد الخضر حسين توفى سنة 1917 م بدمشق .
(3) البحر : مخلع البسيط .
(4) ابو عبد الرحمان الخليل بن احمد الفراهيدى استاذ سيبويه ، مبتكر علم العروض توفى سنة 175 هـ ـ 791 .
(5) المتوفى سنة 401 هـ .
(6) رحلته الاولى للجزائر التى قام بها سنة 1321 هـ ـ 1903 م .

الرسالة من التآليف النادرة وتشتمل على بعض معان لم نعثر عليها فى كتاب القاموس (I) ولا فى لسان العرب (2) ننقل ملخصها هنا واليك التلخيص :

(الالف) الرجل الفرد • (الباء) الرجل الكثير الجماع • (التاء) البقرة تجلب • (الثاء) العين من كل شيء • (الجيم) الجمل المغتلم • (الحاء) المراة السليط (3) . (الخاء) شعر الاست . (الدال) المرأة السمينة . (الذال) عرف الديك • (الراء) القراد الصغير • (الزاى) الرجل الاكول • (السين) الرجل كثير التنحنح • (الشين) الرجل الكثير النكاح • (الصاد) الديك المتمرغ فى التراب• (الضاد) الهدهد يرفع رأسه ويصيح• (الطاء) الرجل الشيخ الكثير الجماع • (الظاء) ثدى المرأة اذا انثنى • (العين) سنام البعير • (الغين) الابل الواردة • (الفاء) زبد البحر • (القاف) المستغنى عن الناس • (الكاف) الرجل المصلح للامور • (اللام) الشجرة الناضرة • (الميم) النبيذ • (النون) السمك والدواة • (الهاء) اثر اللطمة فى خد الظبى • (الواو) البعير ذو السنام • (الياء) النار •

وفى الجزء الثانى من ادب اللغة العربية لجرجى زيدان (4) من الكتب التى تنسب للخليل كتاب فى معانى الحروف فى مكتبة ليدن ومكتبة برلين •

اما قصيدة أبى عبد الله الهوارى فنقتطف منها ابياتا ليظهر ان هذه الرسالة كالشرح لها واليك المقتطف :

(الباء) (5)

واحرص على المجد حرص الباء حين يرى
حسناء تفتنه بالمنظر الحسن (6)

(I) القاموس للفيروزابادى .

(2) لسان العرب لابن منظور المتوفى سنة 7II هـ ـ I3II م .

(3) امراة سليط : طويلة اللسان كثيرة الصخب وهو ذم لها .

(4) جرجى زيدان من رجال النهضة فى البلاد العربية توفى سنة I9I4 م له مؤلفات عديدة منها « تاريخ التمدن الاسلامى » و « تاريخ اداب اللغة العربية » .

(5) الزهرة الاثنين غرة جمادى الاولى الموافق لـ 7 افريل .

(6) البحر : البسيط .

(الثاء)

وابحث على الثاء فى كل الامور فمن
رأى الحقائق امسى وهو ذو فطن

(الجيم)

وكن اذا الخطب مثل الجيم جدبه
طول المسير ولم يتعب ولم يهن

(الحاء)

لا تخدعنك حاء لا حياء لها
فانما هى كالخضراء فى الدمن

(الدال)

وانما الحسن فى دال منعمة
حبيبة زانها صمت على لسن

(الذال)

لا تخل نفسك من مجد تماز به
فالديك لولا وجود الذال لم يبن

(الزاى)

واقنع ولاتك مثل الزاى من رجل
اذا راى الاكل يسعى سعى مفتتن

(الشين)

وانهل الى الخير مثل الشين لاح له
وجه وقد كمثل البدر والغصن

(الصاد)

وكن مع الدهر مثل الصاد يقنعه
عفر التراب ولقط الحب فى الدمن

(القـــاف)

والزم غنى النفس ان القاف شـرفه
غنـاه عما بايـدى النـاس من منــن

(الكـــاف)

ما اسعد الكاف بين الناس من رجل
يـراقب اللـه فـى سـر وفى علـن

(الميـــم)

فان دنيـاك مثل الميـم تسكـر من
صبا اليهـا وان امسى أخـا فطـن

(الهــــاء)

وأدب النفس لـولا اللطـم فى أدب
لم يزه بالهاء خد الشـادن الحســن

(اليـــاء)

لا تـركنـن ليـاء لا امـان لهـا
واطلب جنـاب كريم النفس مـؤتمن

ولاقينا من فضلاء المدينة الناهضين السيد شكرى العسلى (I) احد مبعوثيها والامير الطاهر حفيد الامير عبد القادر ، والسيد محمد عابدين المعاون بهيأة المحاسبة ، فكشف لنا لقاؤهم عن كرم خلق والمعية مهذبة وقد زارنا الاخير فى احدى ليالى رمضان ومما دار فى السهر هذه الليلة ان المناظرة فى فروع الدين مع من لا يعتقد بصحة اصوله ليس لها كبير فائدة ، وانها تبدأ المناظرة مع من ارادها فى الاصول والعقائد فانه يجد فيهـا النـاظر الاداة المبكتـة والبراهين المسكتة فـان لم تقع موقع التسليم كـانت المباحثة فى الفروع غير

(I) شكرى العسلى (1868 ـ 1916) من زعماء النهضة العربية الحديثة . نائب فى مجلس المبعوثان (مجلس النواب التركى) .

مجدية ، واذا اخذت من نفسه مكانا راسخا ذعن بعد ذلك لكل ما جاءت به الشريعة من التكاليف ووضعها على كاهل الطاعة ، ولهذا لا نجد نصوص الشريعة تتبسط فى حكم التكاليف العملية واسرارها كما تنبه على دلائل العقائد الواجبة بل تلقيها الى المكلفين مجردة عن حكمتها فى الغالب فان من يعتقد بانها تنزيل من حكيم حميد يلزمه الامتثال لامرها ولا يتوقف عن العمل بها الى ان يدرك ثمرتها كما قال تعالى فى الرد على من قالوا انما البيع مثل الربا (واحل الله البيع وحرم الربا) فلم يزد على ان نسب تحريم الربا اليه دون ان يذكر له حكمة تفرق بينه وبين البيع وفيه ايماء الى ان معرفة الحكمة من الاحكام التى تضعها الشريعة السماوية غير لازمة ، وليس القصد من هذا التقرير سد باب النظر فى الحكمة من قوانين الشريعة فان الاطلاع على ذلك مما يزداد به القلب اطمئنانا ويقوى به اليقين ارتباطا ولكن الغرض الذى نرمى اليه انها على فرض ان نبحث عن حكمة عمل شرعه الدين ولم يظهر لنا سره واضحا فانا نفوض العلم بحكمته الى شارعه الذى قام الدليل على انه عزيز حكيم ، ولا يكون عدم اطلاعنا على الحكمة خادشا فى الاعتقاد بصحته وانطباقه على رسم الصواب . فاذا ناظرنا اجنبى عن الدين فى عمل مشروع فلا يأخذنا الخجل او تحوم حول قلوبنا الشبيهة اذا قصرنا ان نكشف له عن حكمة جليلة تقع لديه موقع القبول .

عزمت على السفر من دمشق يوم الاثنين (I) فى شوال وزارنا قبل ان أبارح المنزل بساعة الفاضل الامير عبد الله يرافقه السيد الصادق المحمودى التونسى وكان هذا الاجتماع آخر عهد بلقاء اولئك الفضلاء .

امتطيت الرتل فأخذ يرغو ويضع ويحمل ويضع وكان فراق العائلة قد اخذ يلسع الحشاشة بذبالة ناره حتى قلت :

لئن صعدت حراء انفاس راحل
رمى شمله قوس من البين راشق

(I) يوم الجمعة 2 شوال سنة 1330 / 13 سبتمبر 1912 .

فمالى اراك اليـوم يـا رتـل ناحبـا
وشملك اذ تطوى الفلا متناسق (1)

وحيث غادرنا دمشق وما برح بعض الامراض يتعهدها قضينا اربعة ايام فى (المريجات) (2) بلد من جبل لبنان اتخذت محجرا صحيا لمن يـرد من نواحى دمشق ولـو انى لبثت هـذه المدة عن داعية خاطر منى لحسبتها فى ايام الارتياض بمشاهدة المناظر الزاهرة .

وممن قاسمنى فى هذه الاقامة وقد سبقنى اليها بيوم الذكى السيد ابراهيم المستنطق بعدلية بيروت وكان يسايرنى فى شعاب هذه القرية التى هى على قمة جبل ، ويطوف بى على ما حولها من الرياض الـرائقة والانهـار الـدافقة وربما جلسنا على ربوة مطلة على مظاهر لا تسأم العيون من التمتـع بمرآهـا الجميل ، وكان فى خلال ذلك المطاف يطارحنى الادب وينشـدنى من شعـره باللسانين العربى والتركى وقلت فى هذه الاقامة :

بين (المريجات) ما تحلو منـاظره
للطرف لكـن نفسى سامهـا ضجـر
والنفس تضجـر من دار المقـام على
رغم وان كان من سمارها القمر (3)

انطلقنا من المريجات يوم الجمعة ، وصعد من بعض مواقف الرتل رجل من أهالى لبنان يقارب فى نطقه العربية الصحيحـة وكان هـذا الرجـل يلاحظ عباراتى ويتفقدها من حيث الاعراب حتى قال لى فى آخر المحادثة عندما ازمع على الانصراف : (هل جميع التونسيين يلفظون بالعربية ؟) ، فقلت له : (يتفاوتون فى قرب ألسنتهم منها وانما الذين ينسجون على منوالها ويتحرون أساليبها هم طوائف اهل العلم والادب) .

---

(1) البحر = الطويـل .
(2) قرية بلبنـان .
(3) البحر : البسيط .

وصل الرتل (1) الى محطة بيروت فالفيت السيد ابراهيم الذى كان يصاحبنا بالمريجات فى انتظارنا فقصدنا الى خان يسمى (قصر البحر) وهذا القصر من اجمل المنازل من حيث التنسيق والموقع ، ومن اهم ما روعى فى مرافقه بيت فسيح فيه زرابى مبثوثة اعد لاداء الصلوات وطالعت فى احد جدران مقعده العام معلقة رسمت بها قصيدة للشاعر الشهير السيد معروف الرصافى (2) فى وصف هذا القصر يقول فى طالعها :

لعمرك ان قصر البحر قصر
به يسلو مواطنه الغريب (3)
وتمتلىء العيون به ابتهاجا
اذا نظرت وتنشرح القلوب

ثم قال :

كأن الموج فى الدلتا رجال
وهذا القصر بينهم خطيب
تخاطبهم مبانيه فيعلو
من الامواج تصفيق مهيب
وما انفردت به بيروت حسنا
ولكن القصور بها ضروب

اعلمنى السيد ابراهيم بان السيد شفيق بك المؤيد (4) سيلقى محاضرة فى هذه الليلة بنادى جمعية (الحرية والائتلاف) فذهبنا عند وقتها المحدود يرافقنا السيد محمد صبحى ابن الشيخ عبد الرزاق العطار فتبوأنا مكانا فى

---

(1) الزهرة الجمعة 12 جمادى الاولى سنة 1331 / 18 افريل 1913 .
(2) شاعر واديب عراقى كان عضوا بمجلس المبعوثان (النواب) فى استنبول توفى سنة 1945
(3) البحر : الوافر .
(4) شفيق بن احمد المؤيد المتوفى سنة 1334 هـ - 1916 م من رواد النهضة السياسية فى سوريا كان نائب دمشق فى مجلس النواب التركى ومعارضا للاتحاديين .

الطبقة العليا من النادى ، وأخـذ الناس ينسلـون فـرادى وزمرا الى ان افعموا الطبقتين وغص بهم المجلس على سعته فاقبل السيد المحاضر تحف به طائفة يترنمون بانشودة حماسية من نظم السيد سليم الجزائرى (1) الى ان ارتقى على منصة الخطابة فتقدم السيد عبد الغنى العروسى صـاحب جريدة الائتـلاف العثمانى ، والقى خطابا اعلن فيه بموضوع المحاضرة وادبج فيـه نبـذة فى التعريف بشأن المحاضر ، ومن جملة ما قصه فى حقه انه كان احد مبعوثى (2) الشام ، وانه خرج يوما من مجلس « المبعوثان » بالاستانة فبسط اليه احـد الرجال يده ليصافحه فقبض يده وقال له : (لا اصافح يدا خانت أمتها) .

كـان موضوع المحـاضرة الدعوة الى حـزب الائتلافيين (3) ونكث الـيد من حزب الاتحاديين (4) وقد تذكرت فى هذا المقام قول معروف الرصافى :

فهـم كالبحـر يعطـب راكبـوه
ويسلم منـه من لـزم الضفافـا (5)

ولكنه أتى فيها على تفاصيل ، وضرب لها امثالا من التاريخ ، فانبأت بسعة اطلاعه فى الاحوال الداخلة والخارجة .

زارنى الى قصر الـبحر فضيلـة العالم الشيخ السيد مصطفى نجـا المفتـى ببيروت يصاحبه بعض اهل العلم ، ودارت فى هذا المجتمع مسائل جرنا اليها

---

(1) سليم بن محمد الجزائرى المتوفى سنة 1334 هـ ـ 1916 . قائد عسكرى ومفكر نابـغ أصله من الجزائر ومولده بدمشق تولى خطة التدريس بالمدرسة الحربية بالاستانة كـان خطيبا بارعا وله عدة اناشيد وطنية منتشرة الى الان فى سوريا والعراق .

(2) احد مبعوثى الشام : احد نواب سوريا فى مجلس « المبعوثان » الذى هو مجلس النواب التركـى .

(3) جمعية « الحرية » والائتلاف » .

(4) جمعية « الاتحاد والترقى » .

(5) البحر : الوافـر .

سؤال بعض الحاضرين من ذوى التجارة منها حكم التعاقد مع شركة تأمين البضائع ، فصرح الشيخ المفتى بان الشريعة الاسلامية لا تبيح الدخول فى هذه العقدة اذ لا شبهة انها من قبل اكل اموال الناس بالباطل فقد لا يطرأ على البضاعة تلف فيكون المال الذى يدفعه صاحبها قد ضاع عنه بغير عوض واذا وقعت فى متلفة يكون قد اخذ قدرا من المال عن غير مقابل ، وهذا هو الغرر البين والربا الفاحش الذى حرمته الشريعة تحريما مغلظا .

وقص علينا الشيخ المفتى نبذة من وقائع قصد بعض الرجال ان يخرقوا بها سياج المروءة والدين فقام الشيخ الى من بيده الامر وخاطبه خطاب الرجل الغيور فكان لحمايته عن حرم المروءة والانسانية فائدة وتأثير .

وذكرت لهم بمناسبة ما قص الشيخ المفتى ان على باشا (I) احد الامراء بتونس كان يستدعى الى مجلسه اعيان العلماء وفى زمرتهم الشيخ حمودة الريكلى احد علماء ذلك العصر ، فقال لهم الباشا يوما : انى اكرم مثوى العلماء وارفع مقامهم ان يسوم حقوقهم خسف كما كان يلحقهم فيما سلف فشكر له بعض الحاضرين هذه الميزة ، ولم يستطع الشيخ حمودة الريكلى ان يطوى حقيقة خطرت على ضميره الحر فقال له : الوجه فى هذا ان من تقدم من العلماء كانوا يعترضون الامراء فيما يسوقهم اليه عامل الاستبداد فيطفئونهم حتى لا تكون حياتهم نورا يكشف عن مساوى اعمالهم ، ونحن ايها العلماء قد القينا السلم وتغاضينا عن كل سيئة فبأى عذر تهضم حقوقنا او تنتهب أعمارنا. وقد وقع لهذه الموعظة اثر بالغ فى نفس الباشا فجازى الشيخ بالمكرمة واعاده الى منزله على مركبه الخاص به وعدت هذه الواقعة منقبة فائقة للعالم والامير .

(I) هو على بن محمد بن على ابن أخى الحسين بن على مؤسس العرش الحسينى بتونس سنة 1705 م تسلم العرش يوم 7 سبتمبر سنة 1735 م وقتل يوم 25 سبتمبر 1756 م .

ومن احتبك به هذا المجلس واخذ بطرف المحاورة فيه عن فكرة متنبهة السيد نصوحى بك العظم (I) من بيوت الفضل بدمشق وله اقامات بمصر وعلاقات مالية ، وكان قد شهد بعض دروسنا التى نلقيها بالجامع الأموى وحدث الشيخ المفتى بانه يراها دروسا مفيدة حيث كانت تتحرى فى بيان مقاصد الشريعة الطريقة المعتدلة .

ولاقيت الشيخ راغب بن مصطفى التميمى احد الاعيان بنابلس (2) وكان هذا الشيخ قاضيا بمسراته ، ومر على الحاضرة منذ سنتين كما لقيت ابنه زكى الدين فى طائفة من وجهاء نابلس واقاموا لنا من مجاملتهم وثنائهم على صديقنا السيد محمد الصادق الجبالى التونسى دليلا صادقا على ما يتردد على اسماعنا من ان اهل هاتيك البلاد يلاقون الغريب بوجوه منبسطة وصدور راضية .

دخلت الى مطعم يرافقنى السيد صبحى العطار ، فجلسنا حول السفرة وكان بمقربة منا شيخ متعمم يحادث صاحب المطعم ويلاحظنا احيانا ولما وقفنا للانصراف قام ذلك الشيخ وناجى رفيقى مستكشفا عن اثرى فاعطاه خبره فاقبل على مسلما وقال لى : كنت اصغى الى حديثكما فراقنى بساط المحادثة فهممت ان ادنو منكما ولكنى خشيت ان لا يقع دخولى فى بساط حديثكما موقع الارتياح لديكما حيث لم يسبق رابط التعارف ثم عقد موعدا على زيارتنا مساء بعد ان عرفنى رفيقى بانه الشيخ عرفات المصرى احد المعلمين بمدرسة فى رأس بيروت .

دعيت للحضور بحفلة فى احدى المدارس لتفريق الشهادات على التلامذة وكان رفيقاى فى الذهاب والحضور الشيخ عرفات والسيد ابراهيم المستنطق بالعدلية ، ولم يقع فى هذا الاحتفال سوى ان شخص التلامذة رواية تضرب

(I) عائلة العظم من العائلات الشهيرة فى سوريا منها خالد العظم رئيس جمهورية سوريا السابق .

(2) نابلس : مدينة فى فلسطين المحتلة .

المثل لرذيلة الاستبداد المطلق وفضيلة العدل وقد ضحك الحاضرون لكل من الدورين ففكرت فى سر انبساطهم لتمثيل الاضطهاد والتعسف وشأن النفوس الحرة ان تقطب لمنظرها الفظيع فلاح لى فى وجه ذلك انهم قد تصوروا من خاتمة الرواية انقلاب ذلك المشهد التعيس الى نظام وعدالة ، وكذلك الرجل يشاهد الباطل يعبث فى مجمع من مجامع الحقيقة وقد بصر يناصر الحق حين التفت اليه وتأهب لدرئه عن مكان الجد فانه ينبسط ضاحكا مما سيدحض هذا الباطل حتى يستفيق من سكرة المتصابى او غشية المختبل ٠

كنت امر فى مناهج البلد ومما اراه مرسوما على بعض جدرانها لفظ « الى العلم » ودخلت الى جامع قرب محل الحكومة فرأيت معلقة بازاء محرابه كتب فيها بخط متسع (اطلبوا العلم) ٠

جاذبنى السيد ابراهيم الى البحث فى الحرية فقلت : الحرية يتطوع بها الرؤساء العادلون اذا عافت نفوسهم استعباد من ولدتهم أمهاتهم احرارا ، وقد تتبرج الامة فى بردها الشريف حين يستولى عليها الشعور وتتغلب عليها المعرفة بواجباتها سنة الله فى سير الامم فان العلم والادب يثبت فى نفوسهم كبر الهمة واباية الاضطهاد ، ويرفعها الى مكانة واحترام فى نظر الماسكين على امرهم فيعتدلون فى سياستهم ويغلون يد من يعمد الى جرح عواطفهم محافظة على ان تكون قلوب رعيتهم الواقية ماسكة بطاعتها ، راضية عن الاقامة تحت سلطتها ٠

تجولت مع (I) الاديب السيد ابراهيم فى بعض بساتين ذات اشجار وانهار وما برحنا نتطارح الآداب التى لها مساس بمقام الاشجار حتى ذكرت له انى كنت سمعت فى دروس بعض اساتذتنا ايام التعلم بيتين وهما :

عذ بالخمول ولذ بالذل معتصما
بالله تنج كما اهل النهى سلموا (2)

(I) الزهرة السبت I3 جمادى الاولى سنة I33I هـ / I9 افريل I9I3 ٠

(2) البحر = البسيط .

فالريح تحطم ان هبت عواصفها
دوح الثمار وينجو الشيح والرتم

فحولتها بعد انتهاء الدرس الى قولى :

ذر الخمول ولذ بالعز معتصما
بالله كى تتوقى جيدك القدم
فالشيخ يحطمه دوس الثعالب اذ
لم يعل هاما وينجو الضال والسلم

فاهتز لهما قائلا : تحطيم الرياح ولا وطآت الثعالب .

اطلعنى من يد الشيخ عبد الرحمان احد علماء بيروت على رسالة للشيخ البوسى فى الفرق بين العرضى والذاتى بقلم مغربى فاذا هى جامعة فى الموضوع ، واول ما قابلنى منها ان تعريف الانسان بقولهم الحيوان الناطق للفلاسفة وهم لا يقولون بوجود الملك فلا يرد عن التعريف ان فصله غير مانع من دخول الملائكة .

كان خالنا العلامة القدوة الاستاذ الشيخ سيدى محمد المكى ابن عزوز قد كتب لى كتابا من الاستانة بث فى مطويه الشوق الى اللقاء وقد مضى لنا فى مدة فراق فضيلته خمس عشرة سنة (1) فانتفض الفؤاد اشتياقا الى زيارته المؤكدة بواجب القربى وحق الدروس التى كان قد ملأ اسماعنا بجواهرها الثمينة (2) .

عزمت على ان اعرج فى ايابى على الاستانة فعمدت الى باخرة روسية وفى حين ما صعدت على متنها لقيت رجلا عليه زى علماء الازهر وفى يده سفر

---

(1) انتقل الشيخ محمد المكى ابن عزوز الى الشرق سنة 1313 هـ / 1898 م .

(2) الشيخ محمد المكى بن عزوز هو الاستاذ الاول لابن اخته محمد الخضر حسين وقد اثر فى تكوينه تاثيرا كبيرا .

فقلت له : ما هذا الكتاب الذى تنظر فيه ؟ فقال لى : ديوان شاعر يقال له مسلم بن الوليد (I) فقلت له : اول من افسد الشعر العربى أبو تمام (2) ومسلم بن الوليد ؟ فقال لى : لعلك صاحب ادب • فقلت له : (وفى بعض الاحيان يجيش به صدرى) . فانعقد التعارف بيننا واستمرت المرافقة الى الاستآنة وهو الشيخ احمد بن كمال الغزى اللبابيدى قرأ بالازهر نحو سبع سنين وتولى التدريس بمدرسة الكمال والنجاح فى مصر وحرر مقالات اخلاقية وعمرانية فى جرائد كثيرة •

جمعت هذه الباخرة طائفة عظيمة من اهل العلم ما بين اساتذة وتلامذة فحصل لنا من محاضرتهم ولطفهم ما يكشف ضجر الاغتراب ، ويسلى النفس عن معاهد انسها فمن هؤلاء الفضلاء الشيخ راغب التميمى وابنه السيد زكى الدين والسيد عبد الهادى من بلد الخليل (3) والسيد على بن صالح من بلد احدى القرى السورية •

وهذان الاديبان استقيا معارفهما من الازهر ثم من مدارس الاستانة ولهما ذوق جيد فى الشعر العربى وفيما يصحبهما من الكتب ديوان المتنبى فكانا كثيرا ما ينشدان من قصائده ويجرى بيننا التفاهم فى بعض ابياتها وربما امليت بعض انتقادات علقت عليهما من قبل كقوله فى بعض ابياتها :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى
عدوا له ما من صداقته بد

فان لفظ الصداقة هنا ركب فى غير نظمه اذ الانسان انما يضطر فى معاملة عدوه الى مداراته لا الى صداقته التى يؤخذ فى معناها الاخلاص

(I) مسلم بن الوليد الانصارى الملقب بصريع الغوانى توفى سنة 208 هـ ـ 823 م .

(2) ابو تمام حبيب بن اوس الطائى توفى سنة 231 هـ ـ 846 م

(3) مدينة فى فلسطين المحتلة .

بالضمير فكان التعبير بالمداجاة اشد التئاما بالمراد . كنت جالسا على طرف من الضابور فجاءني رجل عليه سمة اهل العلم ، وخاطبني خطاب من سبقت له معرفتي وقال لي : اني متشوق الى لقائكم حيث حدثني بخبركم الشيخ عرفات ببيروت وهذا الرجل هو الشيخ كمال الدين بن كامل المغربي اعلمني بان جده تونسي ، وانه من عائلة درغوث الشهيرة بالحاضرة ، وقد اخذ هذا الشيخ معارفة من الازهر واستولى خطة القضاء بالسويده من ولاية الشام ثم في القطيف من ولاية البصرة ، ويقيم الآن بعيدا ويرافقه في السفر اخوه السيد محمود بقصد استكمال معلوماته في الاستانة .

ونثر في بعض المحاضرات الكلام على اللؤلؤ واطلعنا احد الرفقاء على كناية لبعض المتأخرين في التعريف بنشأته فاقتبست منها ما يأتي : قال القدماء ان اللؤلؤ متكون من مطر ينزل في شهر نيسان (1) فتتلقى بعض قطراته الحيات ويقع بعضها في الاصداف فما وقع في افواه الحيات صار سما ناقعا وما وقع في الاصداف تبلور وصار لؤلؤا وقد عقد الشاعر العربي هذا المعنى بقوله :

اری الاحسان عند الحر دينا
وعند النذل منقصة وذما (2)
كقطر الماء في الاصداف در
وفي جوف الافاعي صار سما

وقال المحدثون (3) في تكوين اللؤلؤ على ما ورد للعلامة الحوراني (4) في كتابه الآيات البينات انه يستخرج من اصداف حيوانات عجيبة الصنع

---

(1) الموافق شهر افريل .
(2) البحر : الوافر .
(3) الزهرة يوم الاحد 14 جمادى الاولى سنة 1331 هـ / 20 افريل 1913 .
(4) ابراهيم الحوراني المتوفى سنة 1333 هـ - 1915 م . كان يدرس العربية في مدرسة البنات في بيروت من مؤلفاته « الايات البينات في غرائب الارض والسماوات » .

والتركيب تعوم فى اول نشأتها على وجه الماء وتغتذى ثم تهبط الاعماق • تسكن هنالك وتحمل اليها اللجة الهواء والغذاء ويتكون عليها الصدف من المواد الكلسية للوقاية من الاخطار والدر متولد فى لحمها من مادة اصدافها عينها واعمقه مغاصا اكبره حجما . والجمهور اليوم على انه ينشأ من تجمع رمل او حيوانات ضارة تدخل الصدفة قسرا فيفرز حيوانها مادة لزجة يغطيها بها ثم تجمد وتتحجر •

ويذهب بعض العارفين ان السبب الصحيح لاحداث اللؤلؤ انما هو مرض يأخذ الحلز بدليل انه متى كان المغاص حسنا تنمو فيه المحار كثيرا وتبلغ حجما عظيما وهى نقية ليس لسطحها الخارجى درن ولا ثؤلول ولا نقوب تحدثها الديدان بل تراه ملسا جميلا يدل مجمع حاله على تمتع الحلز بالعافية متى كان ذلك ترى اللؤلؤ نادرا قليلا واما اذا كانت الاصداف مشوهة الظاهر متضخمة عند اسفلها ملأى بالعقد والادران فهذه هى الاصداف الملأى باللآلى الفاخرة والدرر النادرة •

وقد وجد المحار اللؤلؤى فى كثير من الانهار المنحدرة من جبال بريطانيا وكندا ولكنه دون اللآلى البحرية جنسا وقدرا •

واشهر مغاص واقع عند ثغور الخليج الفارسى والبحر الاحمر وشواطىء جزيرة العرب والبحر الهندى واوستراليا وبناما وكليفورنيا وفينيزويلا وجزيرة مرغريتا يختلف ذوق الناس فى لونه فالاوروبيون يؤثرون الاحمر والهنود وسائر من جاورهم يستحسنون الاصفر وغيرهم وغيرهم •

عرض الكلام فى شأن العلم وكيف ادركت الامم الشاعرة قيمته فذكر بعضهم ان امرأة امركانية الفت رواية فاشتراها منها احد اصحاب المطابع الامريكانيين بثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين جنيها وكذلك كانت الأمة الاسلامية قبل هذا تشعر بحقيقة العلم وتمهد العقبات المعترضة فى سبيل الطالبين فقد حكى ابن السبكى فى الطبقات ان أبا نعيم الاصبهانى المتوفى فى

محرم سنة 430 هـ • (1) لما صنف كتاب الحلية وحمل الى نيسابور (2) حال حياته اشتروه باربعمائة دينار • ذكرنا لهم ان الشيخ ابن عرفة حكى فى درس تفسيره ان احمد بن يوسف السلمى الكتانى قال : قلت لشيخنا ابن عصفور (3) : لم أكثرت من الشواهد فى شرحك للايضاح على (كاين) قال : لانى دخلت على الامير أبى عبد الله المنتصر فالفيت ابن هشام خارجا من عنده فاخبرنى انه سأله عما يحفظ من الشواهد على قراءة كاين فلم يستحضر غير بيت الايضاح :

وكاين بالاباطح من صديق
يرانى لو اصبت هو المصابا (4)

قال ابن عصفور : فلما سألنى انا ، قلت : احفظ فيها خمسين بيتا ، فلما انشدته نحو العشرة ، قال : حسبك ، ثم اعطانى خمسين دينارا • فمحاضرة هذا الامير لاهل العربية فى دقائقها واحدا بعد واحد ومكافأته فى مثل انشاد البيت الواحد بخمسة دنانير مما يتوجه بعزائم قومه الى التسابق فى طرق التعليم ويشد رغبتهم فى الاستقاء من موارده العالية •

ومما عرض فى المذاكرة ان بيت المقدس كان عند نزول قوله تعالى : (الى المسجد الاقصى) خرب ، وقال ابن عساكر (5) فى تاريخه : ان بيت المقدس حين فتحت كانت منقوضة وان عمر (6) هو الذى أمر ببناء المسجد . وكان

---

(1) ابو نعيم الاصفهانى : متوفى سنة 430 هـ ـ 1038 م محدث شافعى له كتاب « حلية الاولياء وطبقات الاصفياء » .

(2) عاصمة خراسان ، من اعظم المدن الاسلامية فى القرون الوسطى .

(3) فقيه ونحوى لغوى توفى سنة 663 هـ / 1265 م

(4) البحر = الوافر .

(5) على بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة 568 هـ 1176 م له كتاب « تاريخ دمشق » .

(6) ابن الخطاب .

الجواب عن الآية : ان المسجد اسم للمكان الذى اعد للسجود وليس من شرط اطلاق المسجد على المكــان ان يكون محاطا ببناء وعلى ارخاء العنـــان وتسليـم اعتبار شرط البناء فى هذا الاطلاق فباب المجاز مفتوح فقد كان قبل نزول الآية ذا بناء كما صار امره بعد نزولها الى اقامة جدرانه ٠

وقفت الباخرة بمرأى من طرابلس الشام (1) ، وفاتنا ان ننزل الى داخل البلد لما سبق فى ظننا ان الباخرة لا تلبث المدة الكافية للتجول بها ولكنهـا اقامت عشية وضحاها ٠

سارت الباخرة الى ان مرساها ازاء اسكندرونة (2) فنزلنـا للاستطـلاع عليها ولبثنا فيها نحو ثلاث ساعات ثم عدنا الى الباخرة وهذه البلـد يحيط بها الجبل من جهة البر ولغة أهلها العربية والتركية .

جلسنا على سطح الباخرة قبل ان تقلع فطلع القمر من رأس الجبل وبسط شعاعه على البحر فانفذ لنا منظر يهز القرائح لنسج القريض فانشأ الشيـخ أحمد الغزى شطرا فى الغزل وطلب منى اجازته فأجزتـه واستمرت المساجلة الى ان تألف منها نحو ستة او سبعة ابيات رسمها ذلك الاديب بورقة بقيت عنده ومما قاله فى هيأة القمر حين اخذ فى الطلوع وظهر نصغه فوق الجبل :

لاح شطـر البــدر من فــوق الربـا
ولــه فــى البحـر تمثـال اغـر (3)
فاطمـــأن الــيـــوم قلبــى اذ رأى
رأى عيــن كيــف ينشــق القمـــر

ورأيت الباخرة الحديوية قادمة الى المرسى والجبل امامها فقلت :

---

(1) مدينة ومرفأ بلبنان .

(2) ميناء فى تركيا على البحر الابيض المتوسط .

(3) البحر : الرمـل

هذى السفينة تفرى الموج جارية
لمستقر لها كى تدرأ الكللا (1)
فاذكرتنى بمسراها الى جبل
قول الخليفة يا سارية الجبلا

بلغنا (2) الى مرسين (3) ، فنزلتها رفيقا للشيخ مصطفى راغب والشيخ سالم بن عثمان احد علماء يافا والسيد محمود درغوث فطفنا بأكثر مناهجها وبعض مساجدها ثم آوينا الى جامعها الكبير لاداء صلاة الجمعة فأخذ قارىء مصرى يرتل القرآن باسلوب يستنبط الدمع من الاماق ثم صعد الخطيب المنبر فاحسن الخطابة ومن جملة ما نطق به فى الخطبة قوله : ايها المسلمون ما بال الاسلام فى نزول وغيره فى صعود وما بال المسلمين فى نحوس وغيرهم فى سعود وما بال الشرع فى عدم وغيره فى وجود الخ ...

ركب الباخرة من مرسين طائفة من العلماء منهم الشيخ احمد بن محمد شكرى والشيخ ولى الدين ابن والى والشيخ على رضا فتعززت بهم اجتماعاتنا العلمية وازدادت بهم رنة الادب نغمات لذيذة .

دار الكلام على التعصب للمذهب والذين يطلقون ألسنتهم فى الازدراء بالمذاهب التى لا يتقلدونها هذا انما يقع فى الغالب ممن اكتفى بقراءة الفروع فى مذهبه فهو لجهله بغيره من المذاهب يحملها على ضعف المدرك والرمى بها على غير بينة اما من طالع جملة فى شرح الحديث والتفسير ونظر فى كتب الخلاف فانه يقف على مدارك الائمة ويراهم كيف يتحرون مقصد الشريعة ويستندون فيما يقررونه من الاحكام الى الدلائل المنصوبة من قبل الشارع واذا سبق له ان هذا قد احكم الاستدلال فى قضية فقد يظهر له ان الآخر قد اصاب المفصل فى قضية اخرى .

---

(1) البحر : البسيط .
(2) الزهرة الاثنين 15 جمادى الاولى سنة 1331 هـ - 21 افريل 1913 .
(3) مرفا فى تركيا .

رست الباخرة على ازمير (1) فسألت طائفة من رفقائنا : هل سبقت لهم معرفة بدخولها فذكر بعضهم انه اتى عليها مرتين او ثلاثا ولم يتفق له النزول الى داخلها فقلت : ننزل قضاء لحق الجغرافيا فانحدرنا فى زورق ، وتجولنا بها مقدار ساعتين ثم انقلبنا الى الباخرة وصاحبنا فى الزورق عند معادنا احد المدرسين بقرية قريبة من ازمير فخاطبه رفيق تركى بلغته وقال له مشيرا لى : هذا يتكلم بالعربية ، فنطق ذلك المدرس بلسان عربى قائلا : (انا لا افهمه الا اذا خاطبنى بالعربية الفصحى) فتجاذبنا طرف الحديث الى ان وصلنا الى الباخرة .

عرجت الباخرة على جزيرة رودس (2) ، واقامت تجاهها نحو ثلاث ساعات ثم اقامت وسارت الى ان ولجت بوغاز الدردانيل (3) فسبحت فيه ليلة ونصف يوم الى الاستانة وألقت مراسيها قريبا من الرصيف فانحدرنا فى زورق الى استانبول فلقينا فضيلة المحقق الهمام الشيخ سيدى محمد المكى ابن عزوز فى انتظارنا وأقمنا بمحل حضرته باشكاطاش .

زرت جامع اية صوفيا وشهدت به درسين يقرران باللسان التركى احدهما فى التفسير والآخر فى الفقه .

ثم زرت جامع بايزد وشهدت به دروسا ايضا باللسان التركى ويقال ان الشيخ الفنارى (4) الذى كان قاضيا بالاستانة عاتب السلطان بايزيد على عدم حضور الصلاة فى الجامع فانشأ هذا الجامع ليحرز فيه صلاة الجماعة .

---

(1) مرفا فى تركيا على بحر الارخبيل (ايجه) .

(2) جزيرة شرقى الارخبيل اليونانى .

(3) مضيق فى تركيا بين بحر مرمره وبحر ايجه .

(4) محمد بن حمزة بن محمد الفنارى او الفنرى المتوفى سنة 834 هـ - 1431 م . عالم بالمنطق من كتبه « شرح ايساغوجى » و «تفسير الفاتحة » .

وزرت مكتبة راغب باشا (1) فلقيت بها الشيخ احمد باى احد علماء بغداد اخبرني انه طالع الفتوحات المكية (2) سلكات عديدة ، وزاول الكتب العالية في الاصول والحكمة والبلاغة ، واتفق ان لم يبسط في هـذا المجلس سـوى الكلام على الحلول والاتحاد الذى ينسب للصوفية ، وقـال : ان المعترضين لم يفهموا مرادهم ، واخذ يقرر محاضرين باللسان التركى فالتفت نحوى احدهم وقال لى : مالك لا تتكلم فى هذه المسألة فقررت حينئذ ما اعهده للشيخ أبى عبد الله محمد بن قاسم البكى فى شرح عقيدة أبى الحاجب وذلك اقرب ما يفهم واوجز ما علق بذهنى فى هذا المطلب ، وهـو ان من النـاس من ينسب القول بالاتحاد والحلول الى الصوفية بل الى الكل منهم كما وقع ذلك للشيخ أبى حامد (3) فى كتبه اخذا من ظاهر كلام الاشياخ كأبى يزيد البسطامى (4) ، وهذا انما يتوهمه فيهم من ليس له اطلاع على احوالهم على انـه لم يـرد فى اصطلاح القوم شيء من اطلاق الحلول والاتحاد الا ما وقع فى صطلاح المتأخرين كالشيخ ابن الفارض (5) ومن معه من اطلاق لفظ الاتحاد واما الحلول فلم يطلقه احدومراد الشيخ ابن الفارض بالاتحاد ما ذكره بعض المتأخرين في الاصطلاحوهو شهود اتحاد تعلق الموجودات كلها به جل وعلا اذ هى به موجودة لا بنفسهـا وهذا هو المسمى عندهم بالفناء فى التوحيد كما صرح به الشيخ أبـو حامـد الغزالى فى كتاب الصبر من احيائه · ولا يبعد ان تكون طائفة قد انتمت الى الاسلام ظاهرا واستعارت لباس الصوفية لما علمت من مكانتهم فى معتقد الأمة واخذت تبث هذه المقالات الناقصة لأساس الدين وهذا الشيخ محيى الدين بن

(1) من ابرز رجال السياسة فى الدولة العثمانية اوقف للعلماء فى استنبول مكتبته الشهيرة من مؤلفاته « سفينة الراغب ودفينة الطالب » توفى سنة : 1762 م .

(2) للعلامة محيى الدين بن عربى .

(3) الغـزالى .

(4) عبد الرحمان البسطامى صوفى من مؤلفاته « الفواتح المسكية فى الفواتح المكية » توفى سنة 1454 م .

(5) عمر بن الفارض المتوفى سنة : 632 هـ 1234 م . من مفكـرى الاسلام المتصوفين مـن آثاره ديوان شعر .

عربى الذى هو ابعد الصوفية مرمى فى هذا المقام يقول فى صحيفة 39 من اول فتوحاته : (تعالى الله ان تحله الحوادث او يحل فى الحوادث) ٠

وحدثنى (1) خالنا الاستاذ ان راغب باشا لما انشأ هذه المكتبة فكر ليضع لها تاريخا ففطنت به امرأة عارفة فقالت : (فيها كتب قيمة) (2) فكانت هذه الجملة تاريخ تأسيس المكتبة وقد رسموها فى لوح معلق الآن فى ناحية بابها ٠

شهدت الجمعة بالجامع الذى انشأه السلطان عبد الحميد (3) ازاء قصر يلدز (4) ثم جامع آية صوفية ثم جامع الشيخ ظافر . لايبسط الخطباء من الترك فى الموعظة وانما يأتى الخطيب بالديباجة من حمد وصلاة ورضا عن الصحابة ثم يلقى جملة فيها امر بالتقوى ويضيف اليها حديثا او آية وذاكرت فى هذا احد الاساتذة وقلت : لعلهم يراعون ان غالب الحاضرين لا يفهمون العربية فيقتصرون على القدر الذى يتم به نصاب الخطبة ، فقال ، كان هذا من اثر العصر السالف حيث يخشى من استطالة الخطبة ان تبث فيها آراء سياسية ٠

زرت فضيلة العلامة الهمام الاستاذ الشيخ سيد اسماعيل الصفايحى (5) بمنزله القريب من السراى فبذل لنا من المبرة والابتهاج باللقاء ما لا يسع اللسان شكره ٠

زرت هذا الاستاذ مرة وجاوزت الحديقة الى البيت الذى يلاقى فيه الزائرين فالفيته مستقبل القبلة وهو يقرأ صحيح البخارى بلهجته الطيبة فجلست

---

(1) الزهرة الثلاثاء 16 جمادى الاولى سنة 1331 الموافق 22 افريل 1913 .

(2) تساوى هذه الجملة بحساب الجمل : فيها = 80 + 10 + 5 + 1 = 96 .
كتب = 20 + 400 + 2 = 422 .
قيمة = 100 + 10 + 40 + 400 = 550 .
فيكون تاريخ تأسيس مكتبة راغب باشا = 1068 هـ .

(3) المتوفى سنة 1908 م .

(4) يلدز : كلمة تركية معناها النجمة . قصر يلدز : قصر السلطان العثمانى باستنبول تحول الى متحف ومكتبة غنية بالمخطوطات .

(5) اسماعيل الصفائحى : قاض حنفى تونسى هاجر الى الاستانة .

بكرسى على جانب منه ولم اشعره بحضورى فى البيت ليستمر على القراءة ما شاء ولكنه لحظنى فقرأ بعد ذلك حديثا او حديثين ثم اطبق السفر وختم بالدعاء واقبل على بالترحاب •

زرت فى صحبة فضيلته الزكى الفاضل السيد أليفى شيخ مشائخ الطرق وتناول حضرة الاستاذ (1) الى ان ألقى فى تقديمى الى الشيخ وتعريفه بحالى عبارات صاغها خلوص ضميره ورقة عواطفه على فقد كنت كلفا بأساليب تعليمه ومعظم ما ادركت فى التعلم من دروسه • وبينما نحن جالسون الى حضرة هذا الشيخ ورد على المجلس شيخان احدهما عربى والآخر تركى فأخذ الاول يتكلم فى اصطلاحات صوفية كالفرق بين المظهر والتجلى ثم قدم الى شيخ الشيوخ اجازة ليطالعها •

مما اعلمنى به فضيلة خالنا الاستاذ ان الشيخ محمود الشنقيطى (2) انتقد على القاضى عياض (3) رحمه الله تسمية كتابه بالشفا ، وقال : ان الشفا ممدود ولا يسوغ قصره الا لضرورة الشعر وهى مفقودة فى وضع هذا الاسم وقال الشيخ الاستاذ : كنت اجبت عن هذا بان اسم الشفا قد وقع موقع الوقف حيث اتى خاتمة فاصلة والممدود يوقف عليه بالقصر كما هو مقرر فى علم القراءة • فذكرت فى هذا المجلس ان الامام ابن عرفة نقل عن الشهاب القرافى اعتراضه على الامام المازرى فى تسمية كتابه بالمحصول ، وقال : ان المحصول اسم مفعول وفعله قاصر فالصواب ان يسمى المحصول فيه ، قال الشيخ ابن عرفة : وهذا غير لازم فانه علم والاعلام لا تجرى تحت ضابط ، وقد قال تعالى : (سدرة المنتهى) ، ولو كانت مراعاة القاعدة لازمة هنا ،

---

(1) يقصد خاله الشيخ محمد المكى ابن عزوز .

(2) محمد محمود الشنقيطى المتوفى سنة 1322 هـ - 1904 م عنى بتصحيح كتاب الاغانى كلفه السلطان عبد الحميد بالبحث عن الكتب وجلبها .

(3) المتوفى سنة . 1149 م . قاض فقيه مالكى صاحب كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى »

لقال : المنتهى اليها • فيصح ان يقتبس من هذا التقرير جواب ثان عن التسمية بالشفا ، فقال الاستاذ : وهذا ايضا جواب يحل الاعتراض •

خرجت ليلة صحبة فضيلته لزيارة احد الاصدقاء والسبل وعرة والمطر يرشح فكنت اقتفى اثره واتمهل فى الانحدار ، فقال لى : سر على اثرى وقد قرىء قوله تعالى : (على اثرى) بسكون الثاء وفتحها ، فقلت : يؤخذ من الآية ان الانسان يخبر بما يظنه واقعا ولا حرج عليه ان يبرز الخبر فى صورة القطع فان سيدنا موسى عليه السلام كان يظن ان قوله فى اثره والقى الخبر وذلك من غير ان يسنده الى ظن ، فقال الشيخ الاستاذ : هذا حسن ورتب عليه قول الفقهاء واعتمد البات على ظن قوي •

زار فضيلة الاستاذ منزل الزكى السيد محمد بلكباش التونسى عائدا له فلم يوافق حضوره فى البيت فلما حدثنى الاستاذ بذلك انشدت البيت :

واعجب شىء سمعنا به
مريض يعاد فلا يوجد (I)

فقال حفظه الله : قد ذكرت هذا البيت واضفت اليه بيتا آخر وانا نازل فى درج السيد المعاد وهو (ولكن يدل على برئه) ثم كرر هذا الصدر ليتذكر العجز ، فقلت : (وذلك غاية ما يقصد) ، فقال : بل قلت : (فمن اجل ذا ربنا نحمد) ، وهكذا كانت مجالسه فائضة بالفوائد والآداب •

كنت مارا رفيق ذلك الاستاذ على الجسر الذى يصل استانبول بغلطة (2) فلقينا السيد وجيه من ابناء الشيخ الجبلى رضى الله عنه واحد الكتاب بباب المشيخة ومما ذكر الاستاذ فى التعريف بشأنه انه ينظم الشعر باللغات العربية والتركية والفارسية •

(I) البحر : المتقارب .

(2) حى من احياء استنبول فى الضفة الاوروبية يقيم فيه التجار وخاصة الاجانب .

ركبت (1) فى بعض الايام الباخرة التى تتردد ما بين باشكطاش واستنبول وكان جلوسى بجنب رجل من الاهالى ، فبعد ان خطب معرفتى بسط فى الثناء على فضيلة الاستاذ الشيخ سيدى اسماعيل وحدثنى بانـه كان يتضلـع فى دروسه فى الحديث وهذا الرجل هو السيد حسن فورى احد الكتاب بالبـاب العالى وقد سألنى فى هذا المجلس عن خبر المهدى (2) فذكرت فى جوابه خلاصة ما فى رسالة السيوطى المسماة العرف الوردى ، وما قاله ابن خلدون (3) من الخدش فى تلك الاحاديث وذكر حديث (لا مهدى الا عيسى) فذكرت له مـا اعهده لابن السبكى فى الطبقات فانه قال فى ترجمة يونس بن عبد الاعلى بن حيـان وتكلم جمـاعة فى هـذا الحـديث والصحيح فيـه ان محمد بن خـالد الجندى تفرد به وذكر أبو عبد الله الحاكم ان الجندى رجـل مجهـول .

لقيت العالم الشيخ عبد العزيز جاويش (4) بعد ايابه من مصر وثبـوت براءته مما ألصقوه به من التهمة بحادثة الاوراق فانشدته عندما ظهـر عليه الاسف من حال السجن على وجه التسلية وترويج الخاطر قول ابن الجهم (5) :

قالوا حبســت فقلت ليس بضائــرى
حبســى واى مهنـــد لا يغمـــد (6)
والحبــس مـا لـم تغشــه لـدنيـة
شنعــاء نعــم المنــزل المتــورد

---

(1) الزهرة يوم الاربعاء 17 جمادى الاولى سنة 1331 هـ الوافق 23 افريل 1913 م .

(2) محمد بن الحسن المتوفى سنة 275 هـ 888 م . آخر الائمة الاثنى عشر عند فرقة الامامية وهو المعروف عندهم بالمهدى .

(3) عبد الرحمان المتوفى سنة 808 هـ 1406 م . صاحب المقدمة .

(4) خطيب له علم بالادب والتفسير من رجال الحركة الوطنية بمصر من أصل تونسى توفى سنة 1347 هـ / 1929 م

(5) المتوفى سنة 249 هـ / 863 م .

(6) البحر : الكامل .

وقد نظم له الشاعر الرصافى قصيدة فى هذا الغرض يقول فى طالعها :

انـى عهـدتـك لا تكـون بـؤوسـا
مهما لقيـت مصائبـا ونحـوسـا (1)

كم قد صدمت النـائبـات بهمـة
جعلت لهـا الصبـر الجميـل لبوسـا

الى ان يقول :

جـارت سيـاستهم عليـك فأغضبت
اهـل العـدالـة سائسـا ومسوسـا

ولـو ان اخـلاق الرجـال صحيحـة
مـا كـان حقـك عنـدهم مبخـوسا

ان يظلمـوك فـان حبـك لـم يـزل
فـى قلـب كـل موحـد مغـروسـا

والشمس تشهد ان فضلـك مثلهـا
تحيـى النفـوس وتقتـل الخنـديسا

ولـئن لقيـت اذى فكـم من مصلـح
لقـى الاذاة مفجعـا متعـوسـا

ضحكت وجـوه الترهات ولـم يـزل
وجـه الحقيقـة فى الانـام عبـوسـا

وجدته حين لقيته يفسر قوله تعالى : « واذا اردنا ان نهلك قرية » الآية ... على معنى جعلنا مترفيها امراء ففسقوا باتباع الهوى واجتياز المنافع لاشخاصهم بدون احترام للحقوق ولا مبـالاة بسـوء العاقبة فقلت له ، ومن وجـوه تفسير الآية انها واردة على معنى امرناهم بالعدل وما فيه تقوى ففسقوا بالجور واتباع الشهوات ، فقال : نعم قيل هذا ولكنى افضل الوجـه الاول فى التفسير ، والوجه الذى ذكرناه صدر به الرازى ونسبه الى الاكثر .

---

(1) البحر : الكامـل .

جذبني الى الكلام فى فضيلة الاتحاد ، فقلت : ان الاختلاف طبيعة بشرية لا تخلو عنه هيأة مجتمعة ، فان اسبابه من الاعراض اللازمة للهيئات الاجتماعية وترجع هذه الاسباب الى امرين احدهما تفاوت الانظار فى ادراك الحقائق فقد تبصر هذه الطائفة الصلاح فى عمل فتقبل عليه بسعى حثيث ويقصر عنه نظر طائفة اخرى فتغمض عنه اجفانها وتأخذ بيد غيرها الى الادبار عنه .

ثانيهما تفرق الاهواء فقد تستوى انظار الطائفتين فى العلم بالمصلحة ولكن تبتلى احداهما بهوى غالب يطيش بها الى لذة خاصة ويقطعها عن الاخذ بالمصالح المشتركة .

واذا كانت اسباب الخلاف فى الآراء والمساعى طبيعة بشرية فالساعى الى الاتحاد لا يقصد بدعوته ان ترضى الامة عن كل رأى ينشر او تلتئم مع كل جمعية تؤلف بحيث ترخى ذيل التغاضى عما يعرض فى الآراء من الخطا او توسع قبولها لكل ما يصدر عن الجمعيات من الاعمال وانما يريد فيما ينصح ان تتحرى الامة العمل على شاكلة الوفاق واذا (فتهم) طبيعة اختلاف العقول او تغلب الاهواء فى شعبة وقفوا عند حد لا يشرف بهم على خاتمة سيئة .

زرت (1) مكتبة عاشر ومما الفيته فى كتبها النادرة تفسير لمجد الدين (2) صاحب القاموس وطالعت منه نبذة فاذا هو من احسن التفاسير ولكنه لا يكتب فى كل آية .

وزرت مكتبة قرب بنى جامع فالفيت بها تآليف نادرة منها شرح ابن جنى (3) على ديوان الحماسة (4) وارشاف الضرب لابى حيان (5) وشروح

---

(1) الزهرة يوم الخميس 18 جمادى الاولى سنة 1331 هـ / 24 افريل 1913 م .
(2) الفيروز ابادى .
(3) ابو الفتح عثمان ، نحوى ولغوى توفى سنة 392 هـ ـ 1002 م .
(4) لابى تمام الطائى المتوفى سنة 231 هـ ـ 846 م .
(5) التوحيدى المتوفى سنة 400 هـ 1010 م . من مؤلفاته « المقابسات » و « الاشارات الالاهية »

ناصر الدين الترمذى (1) وسلطان شاه وحسام الدين الموذنى وعماد الدين الكاشى على كتاب المفتاح وزرت مكتبة بايزيد ومما طالعته فى كتبها النادرة كتاب الصناعة لابن جنى ، وكتاب القول السديد فى التقليد وذكر فى خاتمته ان للامام ابن عرفة المتأخر كتابا اسماه ايثار الحق عن الخلق . وهذا الكتاب لا نعرفه للشيخ ابن عرفة قبل هذا . ومنها شرح للشيخ على قارى (2) على كتاب عين العلم الذى انتخب فيه مؤلفه الاحياء للامام الغزالى وهذا المنتخب قيل لبعض الفضلاء من الهند على ما قاله العلامة ابن حجر (3) فى شرح مقدمته وقيل انه منسوب الى بعض العلماء ببلخ (4) ولقيت فى هذه المكتبة الشيخ شرف الدين احد المدرسين الاذكياء واول خطاب توجه به الى انه راى فى يدى بعض شروح الشفا للشيخ ابن سينا (5) اخذته لمطالعة بعض المباحث فقال لى : تنظر كتاب الشفا هذا الكتاب وامثاله من الفلسفة القديمة التى لا فائدة فى الاشتغال بها ومطالعة الكتب الحديثة فى هذا العلم اعظم فائدة واغنى ، فقلت : نطالع التآليف الحديثة ولا ينكث ايدينا من القديم وهنا تمادت بنا المحادثة الى التعارف واخذ الموعد على اللقاء .

بسط هذا الشيخ فى اللائمة على اصحاب الافكار الواقفة ممن ينتسب الى علماء الاسلام ، فقلت : لا انكر ان يكون فيمن ينتمى الى العلم طائفة لم تسرح انظارها فى مجال متسع فقد تكلم بعضهم بحرمة اشياء لم يرد عن الشارع فى مثلها كراهية والقواعد التى اقرها الايمة المجتهدون تقتضى الاخذ بمصالحها والعمل على شاكلتها ولكنى لا اتطرف فادخل فى حزبهم المعتدلين مثلما يفعل

---

(1) المتوفى سنة 279 هـ .

(2) على بن محمد قارى المتوفى سنة 1014 هـ 1606 م . من مؤلفاته « شرح الشفا » و « تفسير القرآن » .

(3) احمد بن على بن حجر المتوفى سنة 852 هـ – 1449 م . من مؤلفاته « تهذيب التهذيب » و « الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة » .

(4) مركز ثقافى ودينى بخراسان .

(5) الحسين بن عبد الله – الفيلسوف الرئيس المتوفى سنة 428 هـ – 1037 م . من مؤلفاته « الشفا » و « الاشارات » .

المتطرفون وكثيرا ما تصدر المقالات المتغالية عن عدم استكشاف الفقيه لحال ما افتى به ومن امثلة هذا انى سمعت بعض العلماء الوافدين على الحاضرة يقول : المخابرة فى التلغراف غير جائزة ظنا منه انه من قبيل السحر او التكهن حتى اخبره احد الحاضرين : بانه مقام على قواعد وعلم يدرس وان اعماله ظاهرة يباشرها كل احد ادرك صناعته فرجع وقال : فهو حينئذ حسن فهذا الفقيه لم يكن واقف الفكر ولكن فاته الاطلاع على حقيقة تلك الآلة قبل ان يتكلم فى حكمها .

وذكرت بهذا المقام ثلاثة ابيات للشيخ عبد الرحمان بن سلام العالم البيروتى انشد فيها حين زار منزلنا بدمشق وقد ضل من ذاكرتى الآن بعض الفاظها ومعناها ان الافكار القابلة للتصرف والنماء انما تقذف بنتائجها وتلمع ببروق افهامها اذا نقر عليها الجامدون وقدحوها بزناد ما يصنعون كما ان نغمات الوتر لا تنتشر الا اذا جسها العود الجامد بضرباته والبيت الثالث منها:

فالجمع بينهما لا بد منه اذا
فالعود لولاه لم تطرب بصوت وتر (1)

زرت (2) مكتبة كوبرلى ولم اتمكن من مطالعة شىء من كتبها لما يباشر فيها من الاصلاح لذلك الحين ويوجد فى هذه المكتبة كتاب المحلى لابن حزم (3) الذى قال فى حقه عز الدين بن عبد السلام لم يؤلف مثله فى الاسلام .

وزرت مكتبة آية صوفيا اياما ولم اوافق اوقات انفتاحها ويوجد فى هذه المكتبة تسعة اجزاء من كتاب التمهيد لابن عبد البر (4) ولم اظفر به فيما عرفت من المكاتب العامة او الخاصة .

---

(1) البحر : البسيط .

(2) الزهرة يوم الجمعة 19 جمادى الاولى سنة 1331 هـ / 25 افريل 1913 م .

(3) على بن احمد المتوفى سنة 456 هـ عالم اندلسى من ائمة الاسلام من مؤلفاته « المحلى » فى الفقه و « طوق الحمامة » .

(4) فقيه مصرى شافعى توفى سنة 777 هـ / 1375 م .

- زرت صحبة خالنا الاستاذ منزل الفاضل الشيخ السيد ابراهيم ظافر فتلقانا هذا الشيخ وأخوه الفاضل السيد حسن ظافر بمجاملة فطرية وآداب مهذبة •

عند اول اجتماعنا بالسيد حسن ظافر قال له حضرة الاستاذ (I) على وجه التواضع والتنازل : هذا ابن أختى قرأ على ولكنه صار الآن أرقى رتبة ، فقال له السيد حسن : نحن لا يمكننا ان نعتقد بان يبلغ شاوك احد فضلا ان يفوقك ، وهذه العبارة تشعر بان العائلة الظافرية تقدر مقام ذلك الاستاذ حق قدره •

زرت مدرسة الواعظين ، وشهدت احد الشيوخ يدرس باللسان التركى فاصغيت اليه فاذا هو يقرر فى مبحث تكوين السحاب والرعد والمطر وانما عرفت المبحث لكثرة ما يتخلل اللغة التركية من الفاظ العربية حتى قدرها بعض من تصدى لاحصائها بنسبة سبعين فى المائة اى المائة كلمة فى اللسان التركى يكون نحو السبعين منها عربيا •

بعد انتهاء الدرس نهض احد التلامذة للسلام على وكان مرافقا لنا من مرسين الى الاستانة واعلمنى بان هذا المدرس هو الشيخ عبد اللطيف الخربوتى معلم علم الكلام فى دار الفنون ومدرسة الواعظين والكتاب الذى كان بصدد دراسته من مؤلفاته ويسمى علم الكلام فى عقائد اهل الاسلام اطلعت من يد هذا التلميذ على نسخة منه طبعت بالأستانة فرأيته مؤلفا باللسانين اعلى الصحيفة عربى واسفلها تركى بينهما خط فاصل •

وكانت فى يد هذا التلميذ اوراق من تأليف فى الادب للسيد معروف الرصافى وجميعه باللسان التركى ما عدا القصائد والابيات فانها عربية وحدثنى التلميذ بان صاحب هذا التأليف له درس فى الادب العربى بهذه المدرسة •

(I) يقصد الشيخ محمد المكى ابن عزوز .

زار احد التلامذة من بنى غازى منزل خالنا الاستاذ فحدثنى الشيخ ان هذا التلميذ كان رافقه من بنى غازى الى الاستانة فرأى عنده ما يلبس فى اليد لوقاية البرد ، قال : فسألته عن اسمه باللسان التركى ثم عن اسمه باللسان الفرنساوى ، فأجابنى بهما ، وسألته : عن اسمه عند العرب ، فأجاب : بعدم المعرفة ، فقلت له : ان جهلك باسم الشىء فى لغة قومك مع علمك باسمه فى لغة اخرى مما يلصق بك نقيصة ويجر اليك ملامة ثم اعلمته بان اسمه فى العربية (قفازا) .

اتخذ اهل الاستانة يوم الثلاثاء يوم استراحة من التعليم زيادة على يوم الجمعة ، ويذكرون فى سبب هذا ان الشيخ الفنرى كان يترك الدراسة به ليشتغل التلامذة بالنسخ فبقيت البطالة فيه الى اليوم عادة مستمرة .

ومن عوائدهم فى المراسلات بل عادة الشرق فيما رأيت ان يصدروها بكلمة (الحمد لله) فقط ومنهم من لا يكتب فى طالع المكتوب شيئا .

كنت اطلعت فى رحلتى الى الجزائر سنة 1324 (1) على قصيدة تسمى « نفيسة الجمان فى فتح ثغر وهران » وهذه القصيدة وشرحها للشيخ محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس ، ومما ذكر فى هذا الشرح ان النبىء صلى الله عليه وسلم كان يكتب فى اول الرسائل البسملة فقط واستمر الامر على ذلك الى ان ولى السفاح (2) اول ملوك بنى العباس فزاد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم واستمر الامر على هذا الى ان بويع يوسف بن عبد المؤمن (3) فجعل مكان البسملة الحمد لله وعليه العمل اليوم .

---

(1) التاريخ الصحيح هو سنة 1322 هـ الموافق سنة 1904 م وهو تاريخ رحلته الثانية الى الجزائر .

(2) أبو العباس .

(3) من ملوك دولة الموحدين بمراكش توفى سنة 580 هـ / 1184 م .

وممن (1) يزورنا ونزوره الفاضل الاديب السيد أحمد باي ابن الامير فضل وقد اهداني رسالة حافلة ألفها في فضل الاتحاد واطلعني على بعض منظومات له جيدة ولهذا الذكي ولع بالبحث في الشؤون العامة والاستطلاع على دقائق الادب .

طاف بي في المقعد الذي اعده للزائرين على معلقات يشتمل بعضها على قصائد من انشائه حتى انتهينا الى معلقة فيها مثال راية سوداء فانشدته :

اعلامه السود اعلام بسودده
كانهن بخد الملك خيلان (2)

جذبني الى الكلام في حال الدول بوجه عام فقلت من شأن الدولة الراسخة الدعائم ان تكون لها اصول مقررة وصبغة معروفة بحيث يكاد الممارس لسياستها يحكم في اعمالها المستقبلة ويتخرص للقضايا التي ستجريها في الحوادث وان لم يكن لها في امثالها قوانين مفصلة سواء بقي الامر بيد هيأة واحدة او استحال الى غيرها فان الهيأة الحاكمة في الدول القائمة اذا تجددت انما تخالف ما قبلها في سن بعض القوانين او ادخال بعض اصلاحات تدريجية ولا تقلب سياسة الهيأة السالفة من اسفلها الى اعلاها الا اذا لم يكن للدولة في اصلها نظام كلي وسياسة متأصلة او كانت افراد تلك الهيأة الحادثة غير قائمة بتعاليم السياسة المقررة للدولة بحيث تكون أساليبها مصبوبة في مداركهم كالملكات تصدر عنها الاعمال المطابقة بسهولة .

دعانا الفاضلان السيد الحبيب بن الشيخ والسيد المختار بن الشيخ التونسيان لزيارة منزلهما وانتظم المجلس بفضيلة خالنا الاستاذ والسيد حسن ظافر ، وعندما اخذنا نقتطف ازهار الحديث ادركني خفقان في القلب وضعف بالغ لا اعرفه فيما سلف وكان الوجع يطالبني بالتأوه فأحافظ على

---

(1) الزهرة ـ السبت 20 جمادى الاولى سنة 1331 / 26 افريل 1913 .
(2) البحر : البسيط .

السكينة حتى سقطت على الـوسادة ، ومن مســاعدة القدر ان حضر الـطبيب العارف السيد رجب بقصد السمر فجس النبض واستجلب الدواء فاستفقت من الغاشية ، ولا انسى انى لقيت من هذه العائلة اشفاقا خالصا ومبرة عاطفة حتى مطلع الشمس ٠

جئت يوما رفيقا لخالنا الاستاذ الى الباخرة التى تسير من استــانبول الى باشكطاش فالتقيت بالفاضل السيد محمد ابن الشيخ يـوسف الاسيـر وكـان أبوه من علماء بيروت وهو ناظم مجمع الامثال للميدانى (1) فقرأنا من محادثته شهامة وكرم اخلاق ٠ سأله حضرة الاستاذ عند موقف الـوداع عن العــدد المرسوم على باب منزله عسى ان تدعو اليه الزيارة فقال عدد 14 اربعة عشر فلاحظ له الشيخ ان هذا العدد يشير الى كمال صاحب المنزل لانه عدد الليلة التى استوفى فيها البدر ضياءه كاملا وذكر له قول المفسرين فى قــوله تعالى : (طه) ان الطاء تسعة والهــاء خمسة والمجموع أربعة عشر فكــان المعنى بأمن وجهه كالقمر ليلة اربعة عشر ما انزلنا عليه القرآن لتشقى ٠ وممن يزورنـا ونزوره الفاضلان الشريفان الشيخ السيد ابراهيم والشيخ السيد أبو السعود ابنا السيد اسعد المدنى فشهدنا فى بساط محاضرتهما ادبا عاليا وانسا خالصا٠

وزرت صحبة فضيلة الاستاذ الشيخ سيدى اسماعيل الصفائحى منـزل الفاضل الشيخ يونس وكان هذا الشيخ قاضياً بالعسكر فاهدانى رسالة ألفهـا فى اسرار بعض العبادات وسماها (درر الحكم) وفى اثناء المجلس دخل ابنه وهو ضابط فى الجيش وودعه قاصدا الخروج الى موقع الحرب ٠

التقيت (2) فى مكتبة بايزيد بالرحــالة الشيخ خليل الخــالدى (3) فحدثنى انه زار تونس سنة 1311 هـ٠ ودعاه احد الطلبة الى منزله القريب من باب سيدى

---

(1) احمد بن محمد الميدانى : المتوفى سنة 518 هـ ـ 1124 م . من مؤلفاته « مجمع الامثال »

(2) الزهرة الاحد 21 جمادى الاولى سنة 1331 الموافق 27 افريل 1913 .

(3) الشيخ خليل الخالدى المتوفى سنة 1360 هـ ـ 1941 م . رحالة مـن فقهاء الحنفيـة من مؤلفاته « الاختيارات الخالدية » و « حدود اصول الفقه » .

عبد الله (1) واطلع عنده على كتاب المدارك (2) قال وقد ذكرت اسمه في رحلتي . فذكرته اني ذلك التلميذ الذى كان قد دعاه واراه كتاب المدارك فاستأنف التحية والترحاب .

عزمت على مبارحة الاستانة الى الحاضرة فتوجهت لوداع الاستاذ الشيخ سيدى اسماعيل صحبة خالنا الشيخ ومما جرى فى المجلس ذكر الخضر عليه السلام فنقل حضرة الشيخ سيدى محمد المكى ابن عزوز عن الامام النووى ان اكثر العلماء والمحدثين يقولون انه حى فقلت لعل مستندهم فى هذا طريق غيبى لانى اعهد للحافظ السيوطى فيما نقل انه سئل البخارى عن الخضر : هل هو حى ؟ ، فقال : كيف يكون ذلك ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيتم ليلتكم هذه الخ الحديث ، فقال : بل من طريق النقل وروى اثرا عن سيدنا عمر ابن عبد العزيز فى ذلك (3) .

وجرت المناسبة خالنا الاستاذ الى ان قال يعجبنى من انصاف الشيخ ابن حجر انه يقول فى شرح كثير من الاحاديث الصريحة فى الحكم بخلاف مذهبه وهذا ومن هنا انفتحت المحاضرة فى الاجتهاد والتقليد ولفضيلة الاستاذ الشيخ سيدى محمد المكى ابن عزوز تأليف فى مواضيع متعددة اطلعنى على بعضها ومن انفسها رسالة فى العمل بالحديث وانه حجة فى تقرير الاحكام .

بارحت الاستانة يوم السبت 6 ذى الحجة (4) وامتطيت باخرة فرنسوية الى بلد مرسيليا وصاحبنا فى السفر الشيخ السيد عز الدين احد علماء طرابلس وكان قد استولى القضاء فى بعض نواحيها وله كلف بالشعر الرقيق واقتبس فى محفوظاته قسطا وافرا منه وانشدنى جملة من اشعار تونسية اخذها عن الشيخ محمد الحشائشى التونسى (5) رحمه الله .

---

(1) كانت عائلة الشيخ محمد الخضر حسين تسكن بحى « رحبة الغنم » الذى يسمى حاليا « بطحاء الزعيم » .

(2) كتاب المدارك للقاضى عياض .

(3) الخليفة المتوفى سنة 101 هـ / 720 م .

(4) يوم السبت 7 ذى الحجة سنة 1330 الموافق 16 نوفمبر 1912 م .

(5) محمد بن عثمان الحشائشى المتوفى سنة 1330 هـ 1912 م . كان المشرف على خزائن الكتب بجامع الزيتونة من مؤلفاته « رحلة » و « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » .

ولما لقيت الرجل على جـانب من الادب كنت اغتنم الفرصة لمطارحته بانشـاد الشعر او انشائه وكان يحافظ على ما نطارحه به ويقيده فى ورقة ٠

ولما اشرفنا على بلد ازمير وواجهتنا بمنظرها الهلالى انشأت له :

لأزميـر شكـل كالهـلال مقـوس
ولكن له فى منتهى البحر ألوان (I)
واحسبه الشكل الذى اختطف النهى
لقوم فقـالوا فى الكـواكب سكـان

اقامت الباخرة بازمير ليلة وصبيحتها وكنت برزت قريبا من العشاء على سطح الباخرة وذلك الشيخ يؤانسنى فانكشف لنا منار على الرصيف يتضح ضياؤه مرة ويتوارى اخرى فانشأت :

كـان منـارا يهتـدى بضيـائـه
ومنظره المحمـر يبـدو ويختفى (2)
حشى تقذف الاشواق فيـه بجذوة
وآونـة يرجـو الـوصـال فتنطفـى

قام هذا الشيخ مرة يصلى فوقف بعض النوتية يعبث بتقليده فأكمل صلاته بمنتهى اعتدال وطمأنينة ، وبعد ان خرج من حرم العبادة التفت الى وقال وهو مستريح الخاطر : لا يعبأ بهذا الصنيع يشير الى انه من لعب الصبيان :

اذا لم يكـن مـر السنيـن مترجمـا
على الفضل في الانسان سميته طفلا (3)

(I) البحـر : الطويـل .
(2) البحـر : الطويـل .
(3) لبحـر : الطويـل .

بلغنا الى نابلى مســاء يوم الجمعة (I) وحين ارسل الليل سجاقه رأيت بهــا منارا يتجلى مشرقا فى دائرة متسعة ثم يتضاءل الى ان يصير فى صغر الكواكب فانشأت فيه :

تخال ســراجــا كالغــزالــة ينجــلى
ويلمع فى لون السها حين يقلص (2)
اقيــم مثــالا فــى العيــان لقــولهــم
على وصــف ايمــانى يزيــد وينقص

اقلعت الباخرة الى مرسيليا فوصلتها صباح يوم الاحد (3) فتبوأنا بها منزلا ثم تجولنا بمناهجها الفسيحة ما بين مبانيها الشاهقة وامتطينا عربة كهربائية سارت بنا فى بعض اطراف المدينة ودواخلها مقدار ساعة وشهدنا فى هــذه المدينة حركة منتشرة وعملا متواصلا ·

ركبنا الباخرة قرطاج ، وعندما اتينا على سمت بلد المرسى وانكشف من مبانيها وبساتينها ما عظم بتشوقى الى طلعة صاحبى الشيخ سيــدى محمــد الطاهر ابن عــاشور وتضاعف عندى تذكــار عهده الــوثيق انشــأت منــاجيا لفضيلته :

قلبــى يحييــك اذ هبــت سفينتنــا
تجاه مطلعك المحروس يــا علــم (4)
تحية ابرق الشــوق الشديــد بهــا
فى سلك ود باقصى الروح ينتظــم

(I) يوم الجمعة I3 ذى الحجة سنة I330 هـ الموافق 22 نوفمبر I9I2 م .
(2) البحــر : الطويــل .
(3) يوم الاحد I5 ذى الحجة الموافق 24 نوفمبر .
(4) البحر : البسيط .

انسحبت الباخرة الى حلق الوادي ، وبعد مجاوزتها الى الرصيف واخذها في التأهب لالقاء مراسيها انشأت بيتين خاتما بهما المطاف وهما :

اری سفـری شعـرا ولكـن بيـوته
مفصلة فی غیر بحر وفی بحـر (I)
ومقطـع عـودی مـن بـدائعـه الا
تری عجزا قـد رد فيـه على صـدری

تمت الرحلة بتحرير صاحبها محمد الخضر بن الحسين .

(I) البحر : الطويـل .

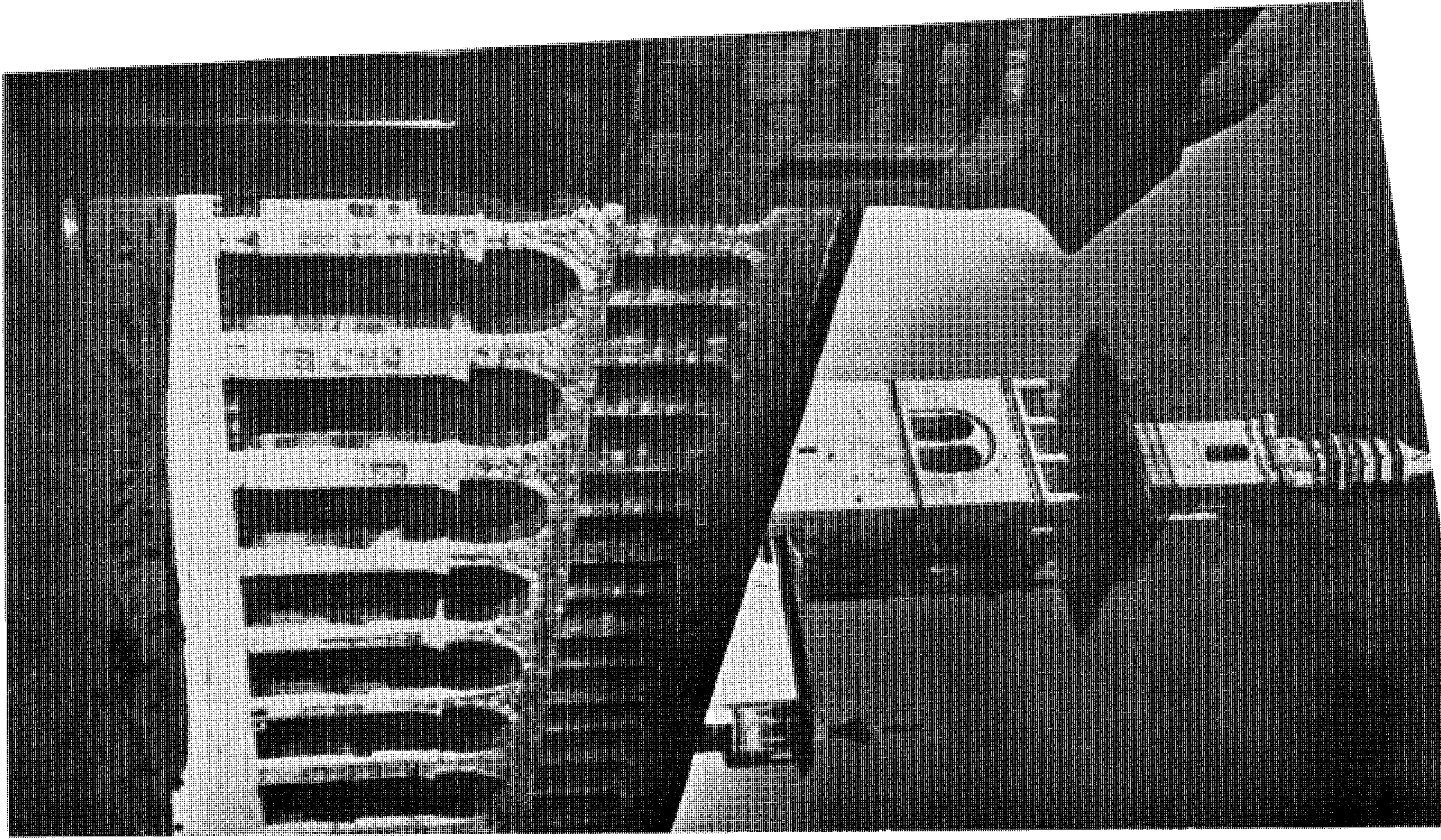

جامع الأزهر الذى تولى الشيخ محمد الخضر حسين رئاسته

حديث عن رحلتي الى دمشق

لرئيس تحرير هذه المجلة (1)

سافرت من القاهرة فى الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الاحد 25 ربيع الآخر سنة 1356 هـ. الموافق 4 يوليو سنة 1937 م. ووصلت الى حيفا فى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الاثنين وامتطيت سيارة الى دمشق ، فدخلتها فى اوائل الساعة الثالثة بعد الظهر ، واستقبلنا شقيقنا الاستاذ السيد زين العابدين (2) والاستاذ الشيخ بهجة البيطار (3) فى جماعة من اهل العلم والفضل قرب الصالحية (4) ، وسرنا الى منزل شقيقنا بحى الميدان (5) وما نفضنا غبار السفر حتى اخذ اهل العلم والادب وكرام القوم يتفضلون بالتحية والمؤانسة واخص بالذكر منهم الاستاذ الشيخ محمد كامل

(1) مجلة الهداية الاسلامية ، وهى لسان جمعية تحمل نفس الاسم يرأسها الشيخ محمد الخضر حسين ، نشر هذا الجزء الاول من الحديث فى الجزء الخامس من المجلد العاشر ، الصادر فى شهر ذى القعدة سنة 1356 هـ / جانفى 1938 – ص 257 .

(2) زين العابدين بن الحسين احد اخوة الشيخ محمد الخضر الثلاثة وهو من العلماء فى الدين واللغة يقيم فى دمشق منذ سنة 1911 م ويلقى الان دروسا بالجامع الاموى له عدة كتب منها : « المعجم المدرسى » « دروس الوعظ والارشاد » .

(3) عالم سورى شهير عضو بالمجمع العلمى بدمشق وبالمجمع اللغوى بالقاهرة . تربطه بالشيخ محمد الخضر صلات متينة نلاحظ آثارها فى كثير من المناسبات .

(4) اسم حى بدمشق .

(5) اسم حى بدمشق تسكن به عائلة الشيخ زين العابدين بن الحسين وهو من الاحياء القديمة ذات قيمة تاريخية وعلمية .

القصاب (I) ، والامير سعيد حفيد الامير عبد القادر الجزائرى (2) والاساتذة الشيخ محمد العطار ، والشيخ محمود ياسين (3) ، والشيخ حسن الميدانى ، والشيخ عبد الوهاب الطنطاوى ، والشيخ عبد القادر الطنطاوى ، والشيخ محمد الكافى ، والشيخ محمد هاشم الخطيب ، والشيخ عبد الرحمان الخطيب ، والشيخ الشريف الخطيب ، والشيخ جميل الشطي مفتى الحنابلية ، والشيخ الحلوانى شيخ القراء ، والشيخ أبو الخير الميدانى ، والشيخ ياسين الفراء ، والشيخ حسن الشطى ، والشيخ محمد احمد دهمان ، والشيخ على ظبيان ، والشيخ عبد الجليل الدرة ، والشيخ محمد سعيد النعسانى مفتى حماة ، والسيد الشريف النص ، والسيد عارف الدوجى ، والسيد توفيق البزرة ، والسيد عبد الحكيم الطرابلسى ، والسيد أحمد قشلان ، والشيخ حامد التقى ، والشيخ قاسم القاسمى ، والشيخ صلاح الزعيم ، والاساتذة : خليل مردم بك (4) ، ورشيد بك بقدونس ، وعمر بك فرحات ، والدكتور سعيد الاسيوطى ، والدكتور عزت شموط ، والاستاذ عبد القادر بن المبارك (5) والاستاذ عبد القادر المغربى (6) والاستاذ بدر الدين الصفدى ، والاستاذ سليم الجندى ٠

ومن افاضل علماء العراق الاستاذ الشيخ طه الراوى (7) وكيل المعارف ببغداد ، والاستاذ الشيخ بهجة الاثرى مفتش الاوقاف بها ٠

(I) من العلماء البارزين ومن زعماء الحركة الاستقلالية ايام الاحتلالين التركى والفرنسى فى سوريا . وكان رئيس « جمعية العلماء » بدمشق الف كتاب « النقد والبيان » فى الفقه صحبة الشهيد محمد عز الدين القاسم . توفى سنة 1373 هـ ـ 1954 م ٠

(2) عالم مجاهد جزائرى ، توفى بدمشق سنة 1300 هـ ـ 1883 م . قاتل الفرنسيين بالجزائر من مؤلفاته « المواقف في التصوف » و « ذكرى العاقل » .

(3) عالم سورى توفى سنة 1356 هـ ـ 1938 . نعاه الشيخ محمد الخضر حسين فى مجلة الهداية الاسلامية . كان رئيس جمعية الهداية بدمشق .

(4) الامين العام للمجمع العلمى بدمشق كانت تربطه بالشيخ محمد الخضر صلات متينة خاصة (انظر : خواطر الحياة ديوان الشيخ الخضر ـ قصيدة الرتيمة ص I2I) .

(5) الجزائرى الدمشقى . المتوفى سنة 1364 هـ ـ 1945 . كان غزير العلم فى اللغة من اعضاء المجمع العلمى بدمشق من كتبه « شرح المقصورة الدريدية » .

(6) عضو بالمجمع العلمى بدمشق وبالمجمع اللغوى بالقاهرة .

(7) اديب وباحث عراقى توفى سنة 1365 هـ ـ 1946 م . عضو بالمجمع العلمى بدمشق من مؤلفاته « ابو العلاء المعرى ببغداد » و « تاريخ تفسير القرآن » .

وقد تلقينا ايناس هؤلاء السادة وما تفضلوا به من الزيارات كما تلقينا اقبال فضلاء حي الميدان واحتفائهم البالغ بالشكر الصادر من صميم الفؤاد • واقام طائفة من اهل العلم والادب ورجال النهضة السورية مآدب وحفلات شاى لقدومنا ، وحضر هذه المجامع كثير من كرام القوم وعلمائهم وادبائهم ، واخص بالذكر من هؤلاء الذين قابلونا بهذا الاحتفاء معالى وزير المعارف والعدلية الدكتور عبد الرحمان بك الكيالى ، وسعادة الامير سعيد حفيد الامير عبد القادر الجزائرى ، وحضرة المهندس الكبير الدكتور عبد الوهاب المالكى (I) ، وحضرة الاستاذ الكبير جودت الهاشمى استاذ الرياضيات فى تجهيز دمشق ، وحضرات اصحاب الفضيلة الاساتذة : الشيخ كامل القصاب ، والشيخ محمود ياسين ، والشيخ بهجت البيطار ، والشيخ حسن الميدانى ، والاستاذ عز الدين التنوخى ، وحضرة الوجيه السيد محمد بك العابد ، ونجليه الاديبين : السيد راتب ، والسيد رياض ، والاستاذ السيد المكى ابن العلامة السيد محمد بن جعفر الكتاني (6) ، وحضرات اعضاء جمعية التمدن الاسلامى ، والاساتذة : جميل افندى مراد ، وعبد الحميد افندى مراد ، وعبد الحميد افندى حبش ، وصبحى افندى البوشى ، وحسن افندى التريكى ، والسيد عبد الرزاق الملقى •

ودعانا الى « الهامة » (3) احدى مصايف دمشق : فضيلة الاستاذ الشيخ محمود ياسين ، والسيد محمد كامل القصاب ، ودعانا الى « دمر » سعادة الامير سعيد الجزائرى ، ودعانا الى منتزهاتها السيد صادق المحمودى مدير مدرسة المأمون ، ودعانا الى المزه السيد عدنان رابح •

وممن اجتمعنا به فى المأدبة التى اقامها الاستاذ القصاب حضرة مدير اوقاف دمشق أبى نصر اليافى بك • وفى المأدبة التى اقامها الاستاذ البيطار :

(I) عائلة المالكى من اشهر عائلات دمشق المعروفة بالعلم والنضال السياسى لفائدة الوطن . من ابنائها عدنان المالكى الشهيد الذى يوجد له تمثال فى مدخل دمشق .

(2) الفاسى ، المتوفى سنة 1345 هـ ــ 1927 م . مؤرخ ومحدث من كتبه « نظر المتناثر فى الحديث المتواتر » « سلوة الانفاس فى تراجم علماء فاس »

(3) الاماكن الثلاثة « دمر » و « الهامة » و « المزة » مناطق سياحية جميلة توجد قرب دمشق تغني بروعتها الطبيعية الجذابة كثير من شعراء الشام وفنانيها .

حضرة مدير الاوقاف العامة حسن بك الحكيم ، وتوفيق بك حيدر ، وممن اجتمعنا به فى حفلة الشاى التى اقامها الدكتور المالكى حضرة الزعيم نصوحى بك البخارى ، والنائب المحترم أبى الهدى بك الحسيبى ، والنائب المحترم منير بك العجلانى ، وممن اجتمعنا به فى حفلة الشاى التى اقامها الاستاذ الهاشمى الدكتور جميل صليبا (1) مفتش المدارس الثانوية ، والاستاذ السيد توفيق الجابرى مدير التعليم الابتدائى فى دمشق ، والدكتور صبحى أبى غنيمة ، والاستاذ السيد كامل الهرباوى مفتش المعارف وممن اجتمعنا به فى المأدبة التى أقامها الامير سعيد بدمر : حضرة صاحب السماحة السيد محيى الدين ابن أخى المجاهد الكبير عبد القادر ، وهو من سماحة الاخلاق وطيب المذاكرة بمكانة سامية .

بعض ما كتبته الصحف عن هذه المجامع

كتبت صحف دمشق عن بعض هذه المجامع ، وننقل هنا ما كتبته جريدة « الانشاء » فى وصف حفلة الدكتور المالكى اذ قالت :

« كانت الحفلة التى اقامها المهندس الكبير الصديق السيد عبد الوهاب المالكى على شرف العلامة الشيخ محمد الخضر التونسى حفلة أنيقة جمعت نخبة ممتازة من النواب ورجال العلم والادب وتلاميذ الاستاذ الخضر وقد دعى الحاضرون الى مائدة شائقة ثم القى الدكتور المالكى كلمة جميلة سننشرها غدا ، عدد فيها مآثر الاستاذ المحتفى به وفضله على كثير من رجالات دمشق وشبابها فقد امضى فى دمشق اعواما طويلة ، ودرس علوم الدين والعربية فى المدرسة السلطانية (2) ثم سافر الى مصر ، فعرف القوم فضله ، وقام

---

(1) استاذ فى التربية وعلم النفس بالجامعة السورية ، له عدة مؤلفات ومترجمات فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية .

(2) بدأ التدريس فى هذه المدرسة (اشهر مدارس دمشق) سنة 1913 م .

بتدريس العلوم الدينية فى الازهر ، وانتخب عضوا فى المجمع اللغوى الملكى (I) ثم القى الاستاذ عز الدين التنوخى قصيدة نظمها الاستاذ الخضر فى مدح دمشق والحنين اليها فاستحسنت جدا ، وتكلم الاستاذ بهجت البيطار عضو المجمع العلمى العربى فقال : انه اراد ان يفاضل بين علم المحتفى به واخلاقه فما استطاع الى ذلك سبيلا ، لان علمه وخلقه كلاهما عظيم ، وبدرجة واحدة • وتمنى ان تؤسس الجامعة السورية كرسيا لعلوم الدين وتعهد به الى الاستاذ الخضر ثم تكلم الاستاذ سعدى ياسين فعرض لعناية العرب قديما بالعلم ورفعهم اقدار العلماء والمبالغة فى تكريمهم وكانت الكلمة الاخيرة للاستاذ الخضر فشكر لصاحب الدعوة لطفه ، ثم تكلم عن حياته التى قضى شطرا منها فى تونس وشطرا منها فى دمشق وشطرا فى مصر وها هو يعود الى دمشق التى احبها كثيرا ، لانه وجد فيها هناء العيش ، وبعد ان مضى المحتلفون ساعة فى احاديث ادبية تاريخية جميلة ودعوا صاحب الدعوة شاكرين له كرمه واريحيته » •

الكلمة التى القيتها فى منزل الدكتور المالكى :

سادتى الاجلاء :

اشكر لحضراتكم وحضرة صاحب الدعوة الدكتور الكبير عبد الوهاب المالكى بك على هذا الاحتفاء البالغ صادرا من صميم الفؤاد ، وقد اثنى حضرة الدكتور وحضرات اخوانه الخطباء على ثناء لا استحقه ، وعلى اى حال كنت لا يسعنى الا ان اقابله بشكر جزيل لانه صادر عن عاطفة ادبية نبيلة ، واذا دل هذا الثناء على شىء فانما يدل على ان المودة الخالصة تجعل السنها فى نظر صاحبها قمرا ، بل تريه الذرة درة ، وتخيل اليه فيما لا طعم له ولا رائحة انه لذيذ الطعم ذكى الرائحة واذا ارتحت لهذا الاحتفال ، فلأنه مظهر عاطفة مودة كانت قد ربطت

(I) سنة 1934 م اى منذ تاسيس المجمع اللغوى .

بينى وبين حضرة صاحب الدعوة وبعض حضرات المحتفلين منذ عهد بعيد ، وان هـــذا الاحتفـاء قد دل على تلك المـودة بعبارات جديـدة لا انهـا بليت فجددها لان المودة القائمة على الفضيلة لا يمسها بلى حتى تحتاج الى تجديد ·

قلت هذا وما زلت اذكر ايـام كان الدكتـور المـالكى تلميـذا بالمـدرسة السلطانية ، وكنت ارى منه الجد فى طلب العلم والشجاعة الادبيـة المكسـوة بالحياء والادب الرفيع وكنت اشعر منه باجلال ممزوج بصدق الود ، حتى اذا مر على خاطرى ذكريات ايام الدراسة بالمدرسة السلطانية وأنا بمصر ، وجـدت صورة ذلك التلميذ « عبد الوهاب المالكى » فى اول ما يخطر فى نفسى ·

سـادتى :

كنت نشأت نشأتى العلمية فى تونس ، ووجدت امامى طائفة غير قليلة من اهل العلم الصحيح والبصائر النيرة ، وكان هناك غافلون عن بعض ما يقتضيه الحال من اصلاح فقمت بجانب من الدعوة الى ما اراه خيرا للامة الاسلامية ولا اكتمكم انى كنت اشعر بمناوأة من جانب اولئك الغافلين ·

وانتقلت الى دمشق (1) ، وعهد الى بالتدريس فى بعض مدارسها ، واقبلت على التدريس فى بعض مساجدها (2) ، وكتبت مقالات كثيرة فى صحفهـا ، واقمت على هذه السيرة نحو من سبع سنين ، وكانت الصلة بينى وبين علمائها وادبائها وفضلائها صافية محكمة ·

ثم رحلت الى القاهرة (3) ، فلقيت من كبار علمائها ، وصفوة ادبائها ورجال نهضتها ورؤساء دولتها احتفاء وتكرمة ، غير ان مدينة كمدينة القاهرة لا تخلو من نفر ينتمون الى العلـم او الادب يبالـون ان يجحـدوا ويدعـون الى هـذا

---

(1) شهر ديسمبر سنة 1912 .

(2) من هذه المساجد : الجامع الاموى .

(3) سنة 1920 واستقر بها الى اخر ايام حياته .

الجحود ، فكنت فيمن ينبه لهذه الحقائق ويشير الى أن تلك الدعوة غير رابحة ، ولا اكتمكم ايضا انى لاقيت قسطا من مناواة اولئك الجاحدين (1) .

هذه الاوطان الثلاثة التى قضيت بها عمرا غير قصير ، واذا كان فضل العلماء المحققين والادباء المستقيمين والرؤساء الراشدين قد غطى فى تونس ومصر على ما اشرت اليه من مناواة بعض الغافلين او الجاحدين حتى انسانيها ولم تبلغ ان يكون لها فى حياتى الادبية اثر فان الاعوام التى قضيتها بين اهل دمشق لم اشعر فيها على ما اذكر الا برقة العطف ، وحسن اللقاء اينما كنت ، فاذا حننت الى دمشق فانما احن الى الخلق الكريم والادب الاخاذ بالالباب وقد شهد لها بهذه المزايا كثير من نزلائها العلماء والادباء من قبلى والسلام عليكم ورحمة الله .

المحاضرة بالمجمع

اقترح على بعض اهل العلم من اعضاء المجمع العلمى (2) القاء محاضرة فى بهو المحاضرات بالمجمع فأجبت الطلب واخترت ان يكون موضوع المحاضرة (اثر الرحلة فى الحياة العلمية والادبية) وقد نشرت فى مجلة « المجمع العلمى » ، ثم فى الجزء الثانى من المجلد العاشر من « الهداية » (3) وحضرها جمع كبير من العلماء والادباء والفضلاء ، نخص بالذكر منهم معالى وزير المعارف الدكتور عبد الرحمان بك الكيالى ، وحضرة مدير العدلية العام الاستاذ النكدى بك ، والاستاذ الشيخ عبد القادر المغربى .

(1) من ابرز العلماء المناوئين للشيخ محمد الخضر بمصر الشيخ رشيد رضا (المتوفى سنة 1935 م) صاحب مجلة المنار وقد تعرضنا الى ذلك بشىء من التفصيل عند الحديث عن حياة الشيخ محمد الخضر بمصر .

(2) المجمع العلمى بدمشق تأسس سنة 1919 م وكان الشيخ محمد الخضر من اعضائه .

(3) مجلة الهداية الاسلامية ـ نشرت المحاضرة فى الجزء المذكور ص : 65 .

القــاء درس بالجــامــع الامــوى

اقترح على بعض طلاب العلوم الدينية القاء درس بالجـامع الامـوى فأجبت طلبهم ، وكان موضوع الدرس تفسير قوله تعالى : (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا ، وان الذين لا يؤمنون بالآخرة أعددنا لهم عذابا أليما) وسننشر ملخص هذا الدرس فيما بعد ان شاء الله ٠

القاء درس حديث بجامع باب المصلى

اقترح على بعض اهل الفضل القاء درس وعظ للجمهور ، واختاروا ان يكون فى جامع باب المصلى فأجبت طلبهم وكان موضوع الدرس حديث مـالك فى الموطأ « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله » وكنت ارى بعض اهل العلم فى المجلس يكتب ما اقوله فى شرح هذا الحديث ٠

بعد انتهاء الدرس ، القى الاستاذ الشيخ بهجة البيطار خطبة دعا فيها اهل العلم الى الاتحاد والتعاون على نشر العلم والارشاد ٠

الحــالــة الــدينيــة بــدمشــق (1)

فى دمشق علماء اجلاء فى الدين والعربية يدرسون فى مساجد متفرقة وفى بعض مدارس الحكومة والمدارس الاهلية ولو كان للحكومات الســابقة عنــاية بالعلوم الدينية والعربية لأنشأت فى دمشق معهدا كبيرا يشبه الازهر او جامع

(1) مجلة الهداية الاسلامية المجلد العاشر الجزء السادس شهر ذو الحجة سنة 1356 هـ فيفرى 1938 م . ص : 360 .

الزيتونة ينفع الناس ويأتي بثمار أكثر مما يأتي به التدريس المفرق في المساجد والجاري على غير نظام ٠

ولو عزمت حكومة دمشق على انشاء معهد ديني عربي كبير لوجدت في علماء دمشق الكفاية ، ووجدت في اوقافها متى نظمت القدرة على الانفاق عليها بسخاء ٠

وقد سرني اني وجدت من مدير الاوقاف العام حسن بك الحكيم ومدير اوقاف دمشق أبي نصر اليافي بك ، عزما على تنظيم شؤون التعليم الديني ، والنهوض الى مكانة تليق بسمعة دمشق في القديم والحديث ، وكلا المديرين فيما فهمته من محاورات دارت بيننا وبينهما في هذا الشأن يعلم يقينا ان الشعوب الاسلامية لا ترقى الرقي الذي تملك به حريتها وسيادتها الا ان يكون للعلوم الاسلامية فيها المكانة الاولى ٠

ويعزز ما ينويه مدير الاوقاف من النهوض بالعلوم الاسلامية ان العلماء ايام كنت هناك قد يعقدون اجتماعات للنظر في وجوه ترقية التعليم الديني وفي تأليف جمعية تعمل لاعلاء شأن الدين والذود عن كرامة اهل العلم ٠

اما التعليم الديني في مدارس الحكومة فان الجمعيات الاسلامية مثل جمعية الهداية الاسلامية وجمعية التمدن الاسلامي ما زالت تجاهد في هذا السبيل ، والذي وقع ايام كنت هناك ان وزير المعارف الدكتور عبد الرحمان بك الكيالي ألف لجنة من بعض مدرسي المعارف واعضاء الجمعيات الاسلامية ، مثل الاستاذ الشيخ محمود ياسين ، والاستاذ الشيخ بهجة البيطار ، والاستاذ الشيخ عبد القادر بن المبارك لوضع منهج للتعليم الديني في مدارس الحكومة ، ونرجو ان تكون اللجنة قد توفقت في وضع هذا المنهج وان وزارة المعارف قد تلقته بما يدل على اخلاصها في تأليف اللجنة ، فتقوم على تنفيذه وتجعل علوم الدين من العلوم التي ينبني عليها نجاح الطالب ورسوبه في الامتحان ٠

واذكر ان فضيلة الاستاذ الشيخ طاهر الكيالي من افاضل علماء حلب وهو من اجل من لقيت في الشام استقامة على الدين قد كتب مذكرة لمعالي وزير المعارف

الذى هو من آل الكيالى يذكر فيها بما للدين من فضل فى رقى النشء وسعادة الأمة ، ويطلب منه العناية بالتعليم الدينى فى المدارس وجعله علما اساسيا فى الامتحان يرتبط به نجاح الطالب وسقوطه .

الجمعيات الاسلامية فى دمشق

انشئت منذ سنين جمعية الهداية الاسلامية ، وحضرات قراء المجلة يعرفون كثيرا من اعمال هذه الجمعية ما ننشره لها فى هذه المجلة (1) من بيانات تذيعها ارشادا للامة او استنكارا او احتجاجا على بعض ما يصدر من حكومة دمشق من تصرفات تخالف الدين ، والحق ان هذه الجمعية تعد فى مقدمة الجمعيات التى تصدع بالحق فى شجاعة ، من حضرات أعضائها الاستاذ الشيخ محمود ياسين والاستاذ السيد الشريف النص والاستاذ السيد عارف الدوجى .

وانشئت منذ سنين ايضا جمعية «التمدن الاسلامى» وحضرات أعضاء جمعيتنا يطلعون على مجلتها « التمدن الاسلامى » ويقرأون ما ينشر فى هذه المجلة من المباحث الدينية والاجتماعية والتاريخية المفيدة ، ومن حضرات اعضائها القائمين بشؤونها الاستاذ الشيخ حسن الشطى ، والاستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان نزيل مصر اليوم ، والاستاذ الشيخ بهجة البيطار ، والاستاذ الشيخ على ظبيان ، والاستاذ أحمد العظمة ولهذه الجمعية ايضا فضل كبير فى تقويم سياسة الحكومة متى انحرفت عن سبيل الحق .

وانشئت منذ سنين « الجمعية الغراء » وفضل هذه الجمعية فى مدارس انشأتها لتعليم الدين والعربية ، وقد وقع بينها وبين ادارة الاوقاف فى العهد الاخير اتفاق على منهج للتعليم يأتى ان شاء الله بفوائد كبيرة ، وقد رأينا

---

(1) كانت مجلة « الهداية الاسلامية » تنشر كثيرا من الاخبار عن نشاط جمعية الهداية بدمشق كما كانت تنشر مقالات وابحاث الشيخ محمود ياسين رئيس هذه الجمعية ولعدد من اعضائها .

من مدير الاوقاف العام حسن بك الحكيم ، ومدير اوقاف دمشق أبى نصر اليافى بك عناية باصلاح شؤون الاوقاف ، وعزما على النهوض بالتعليم الدينى على وجه صحيح فنرجو لهما من الله التوفيق ·

ومما اعجبت به فى دمشق جماعة من طلاب العلم يتلقون العلم عن فضيلة الاستاذ الشيخ حسن الميدانى بمدرسة جامع منجلا ، ويهتدون بهديه ، والاستاذ عالم مستنير الفكر ، مستقيم على الآداب السامية فصيح اللسان وكثيرا ما دارت بيننا وبينه مذاكرات فى مسائل دينية وعربية فنلقى منه ما ينبغى ان يتحلى به أهل العلم من جودة النظر وحسن الاناة والتواضع والانصاف ·

وتم تأليف جمعية العلماء التى تركتها عندما غادرت دمشق بصدد التأليف ورئيس هذه الجمعية حضرة صاحب الفضيلة الزعيم المخلص الاستاذ الشيخ محمد كامل القصاب ، واخذت هذه الجمعية تعمل للغرض الذى انشئت من اجله وهو الذود عن حمى الشريعة والعمل للمحافظة على كرامة العلم ورفعة مكانة اهله ، وسننشر لها فى الجزء التالى ردا على مديرية الاوقاف بدمشق ·

والخلاصة ان فى دمشق جمعيات اسلامية يقوم بها رجال يجمعون الى الغيرة شجاعة ادبية ، ونرجو ان تقدر حكومة دمشق قدرهم ، وتفتح صدرها لما يقدمونه لها من نصائح وتتلقى هذه النصائح بالقبول والتشجيع فان هذه الجمعيات هى التى تعبر عن آراء الأمة تعبيرا صادقا وانما تنجح الحكومات وتقوم على قاعدة العدل متى اقامت لآراء الأمة وزنا ، ولم تقصر نظرها على ما تملك من قوة ·

وأضيف الى هذا ان فى دمشق قاضيا عادلا غيورا على دينه ، هو الشيخ عبد المحسن الاسطوانى ووجود مثل هذا القاضى الفاضل فى مقدمة رجال الدين مما يزيدهم قوة على تأدية الامانة التى وضعها الله فى اعناقهم ، من حراسة الشريعة ، والذب عن حماها بالسنة لا تعرف الملق ، وقلوب لا تستهويها زهرة الحياة الدنيا ·

ومن لقيتهم على جانب عظيم من الاهتمام بالحالة الدينية في الشرق وتتبع ما يظهر في مصر وغيرها من الآراء الدينية حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ جميل الشطي مفتي الحنابلة ، ولهذا المفتي الفاضل مواقف محمودة تشهد بانه قائم على تاريخ علماء الاسلام الذين لا يرون الوظيفة الا وسيلة لخدمة الشريعة ، ولا ينبغي ان تكون كمامة على فم العالم تمنعه من ان يصدع بالحق ، او تفعل به ما تفعل أم الخبائث ، فتهبط به الى ان يقول غير الحق (1) .

– يتبع –

(1) لم ينه الشيخ محمد الخضر نشر بقية « الرحلة » .

المراجع والمصادر

المراجع

I ـ باللغة العربية :

أ ـ الكتب :

ـ الشيخ على عبد الرازق : الاسلام وأصول الحكم ـ القاهرة سنة 1925 م.

ـ الدكتور طه حسين : فى الادب الجاهلى ـ القاهرة سنة 1927 م.

ـ محمد الطاهر ابن عاشور : نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم ـ تونس سنة 1927 م.

ـ زين العابدين السنوسى : الادب التونسى فى القرن الرابع عشر ـ تونس سنة 1928 م.

ـ الشيخ رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ـ القاهرة سنة 1933 م.

ـ الشيخ رشيد رضا : المنار والازهر ـ القاهرة سنة 1934 م.

ـ علال الفاسى : الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى ـ مراكش سنة 1948 .

ـ محمد عبد المنعم خفاجى : الازهر فى ألف عام ـ القاهرة سنة 1954 م.

ـ محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الازهر ـ القاهرة سنة 1958 م.

ـ أحمد بن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان (ج 2 و 6) ـ تونس سنة 1963 م.

ـ محمد مهدى علام : مجمع للغة العربية فى ثلاثين عاما (1932 ـ 1962) ـ (ج 2 ، المجمعيون ، اعداد : محمد عبد الله وضاحى عبد الباقى) ـ القاهرة سنة 1964 م.

- محمد الطاهر ابن عاشور : أليس الصبح بقريب - تونس سنة 1967 م .
- الدكتور الحبيب الجنحانى : محمد باش حامبة - تونس سنة 1968 م.
- حسين المغربى : محيى الدين القليبى - تونس سنة 1968 م .
- الدكتور محمد كامل الفقى : الازهر وأثره فى النهضة الادبية الحديثة - القاهرة سنة 1968 م.
- محمد الفاضل ابن عاشور : تراجم الاعلام - تونس سنة 1970 م.
- محمد أحمد الغمراوى : كتاب النقد التحليلى لكتاب فى الادب الجاهلى - بيروت سنة 1970 م.
- محمد الفاضل ابن عاشور : الحركة الادبية والفكرية فى تونس - تونس سنة 1972 م.
- الشيخ محمد السنوسى : الرحلة الحجازية (مخطوط) دار الكتب الوطنية رقم 3346 .
- الشيخ ابراهيم خريف : المنهج السديد فى التعريف بقطر الجريد (مخطوط) مكتبة السيد البشير خريف .

ب - المجلات :

- « السعادة العظمى » - تونس سنة 1904 م.
- « البدر » - تونس سنة 1920 م.
- « الفجر » - تونس سنة 1922 م.
- « مجمع اللغة العربية » - دمشق
- « الهداية الاسلامية » - القاهرة سنة 1929 م.
- « نور الاسلام » - القاهرة سنة 1930 م.
- « لواء الاسلام » - القاهرة - أجزاء سنة 1958 م.
- محلة « مجمع اللغة العربية » - القاهرة .
- « الازهر » - القاهرة - أجزاء سنة 1958 م .
- « حوليات الجامعة التونسية » - اعداد : 3 - 4 - 5 - 6 .

ج - الجـــرائـــد :

- « الحاضرة » - أكتوبر سنة 1903 م .
- « الزهرة » - أكتوبر سنة 1912 - مارس ، أفريل سنة 1913م.
- « المشير » - فيفرى سنة 1958 م.
- « العمل » - الملحق الثقافى - فيفرى سنة 1969 م.

المصادر

- محمد الخضر حسين : الحريـة فـى الاسـلام - تونس سنة 1909 م.
- محمد الخضر حسين : نقض كتاب الاسلام وأصول الحكـم - القاهرة سنة 1926 م.
- محمد الخضر حسين : نقض كتاب فى الشعر الجاهلى - القاهرة سنة 1927 م.
- محمد الخضر حسين : الدعـوة الى الاصـلاح - القاهرة سنة 1928 م.
- محمد الخضر حسين : علماء الاسلام فى الانـدلس - القاهرة سنة 1928 م.
- محمد الخضر حسين : القياس فى اللغة العـربية - القاهرة سنة 1935 م.
- محمد الخضر حسين : ديوان « خواطـر الحيـاة » - القاهرة سنة 1953 م.
- محمد الخضر حسين : دراسات فى العربية وتاريخها - دمشق سنة 1961 م.
- محمد الخضر حسين : رسائل الاصلاح - دمشق سنة 1971 م.
- محمد الخضر حسين : الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمـان ومكان - دمشق سنة 1971 م.

- محمد الخضر حسين : بلاغة القرآن ـ دمشق سنة 1971 م.
- محمد الخضر حسين : تونس وجامع الزيتونة ـ دمشق سنة 7971 م.
- محمد الخضر حسين : الخيال فى الشعر العربى ـ دمشق سنة 1972 م.
- محمد الخضر حسين : محمد رسول الله وخاتم النبيين ـ دمشق سنة 1972 م.

---

2 ـ باللغة الفرنسية :

- G. et Paul — Souvenirs d'Algérie et de Tunisie Paris - 1904
- H. Laoust — Le Califat dans la doctrine de Rachid Ridha - Beyrouth - 1938
- S. Zmerli — Les successeurs - Tunis 1967

* * *

Revues

G. Zawadowski — Index des journaux indigènes de Tunisie - 1937

A. Demerseman — Soixante ans de pensée tunisienne à travers les revues de langue arabe IBLA - 2° trim - 1953

فهرس الأعلام (1)

ـ أ ـ

ـ الآبى (منصور) ـ 272 ·
ـ إبراهيم بن أسعد المدنى ـ 325 ·
ـ إبراهيم الجبالى ـ 106 ·
ـ إبراهيم حمروش ـ 113 ·
ـ إبراهيم خريف ـ 23 ·
ـ إبراهيم (عليه السلام) ـ 178 ·
ـ إبراهيم السلمى ـ 240 ·
ـ إبراهيم صمادح ـ 258 ·
ـ إبراهيم ظافر ـ 64 ـ 322 ·
ـ إبراهيم مصطفى ـ 97 ـ 146 ـ 217 ·
ـ الأبو صيرى ـ 254 ·
ـ ابن الأثير ـ 185 ـ 212 ·
ـ أحمد أمين الشنقيطى ـ 61 ـ 259 ·
ـ أحمد باى (الشيخ) ـ 313 ـ 324 ·
ـ أحمد البوعونى ـ 240 ·
ـ أحمد تيمور ـ 21 ـ 22 ـ 87 ـ 101 ـ 130 ـ 200 ·
ـ أحمد بن الحبيبات ـ 238 ·
ـ أحمد بن حسين الكافى ـ 24 ·
ـ أحمد بن أبى الضياف ـ 24 ·
ـ أحمد العظمة ـ 340 ·
ـ أحمد قشلان ـ 332 ·
ـ أحمد كرد على ـ 288 ·
ـ أحمد بن كمال الغزى ـ 306 ـ 310 ·
ـ أحمد بن محمد شكرى ـ 311 ·
ـ أحمد بن مراد ـ 242 ـ 245 ·
ـ أحمد بن ناجى ـ 237 ·
ـ أحمد بن يوسف الكتانى ـ 309 ·
ـ أديب (نقيب الأشراف) ـ 274 ـ 283 ·
ـ أرسطو ـ 158 ـ 254 ·
ـ الأزهرى (أبو منصور) ـ 249 ·
ـ إبن إسحاق ـ 180 ـ 248 ·
ـ أبو إسحاق الشاطبى ـ 259 ـ 268 ـ 283 ·
ـ أسد بن الفرات ـ 149 ·
ـ إسماعيل بن إبراهيم (عليهما

---

(1) ـ لم أراع فى ترتيب الاعلام (الـ) ، ولا (الكنية) ، ولا (إبن) ·
ـ لا يشمل الفهرس الاعلام الموجودة بالحواشى ·

السلام) ــ 177 ــ 178 ٠
ــ إسماعيل الصفائحى ــ 64 ــ 74 ــ 81 ــ 82 ــ 225 ــ 314 ــ 317 ــ 325 ــ 326 ٠
ــ الأشرف (الملك) ــ 277 ــ 289 ٠
ــ أشهب ــ 247 ٠
ــ الأعشى ــ 177 ٠
ــ أليفى (؟ الشيخ) ــ 315 ٠
ــ إمام الحرمين (النيسابورى) ــ 252 ــ 278 ٠
ــ إمرؤ القيس ــ 177 ــ 181 ٠
ــ أمية بن أبى الصلت ــ 177 ٠
ــ ابن الأنبارى ــ 292 ٠

ــ ب ــ

ــ با يزيد (السلطان) ــ 312 ٠
ــ البخارى (صاحب الصحيح) ــ 241 ــ 281 ــ 326 ٠
ــ بدر الدين الصفدى ــ 332 ٠
ــ البرادعى ــ 279 ٠
ــ بروكلمان ــ 80 ٠
ــ البشير صفر ــ 52 ــ 56 ــ 58 ــ 219 ٠
ــ البقاعى ــ 277 ٠
ــ أبو بكر الصديق ــ 168 ــ 172 ــ 173 ــ 284 ٠
ــ أبو بكر الطرطوشى ــ 234 ــ 292 ــ 293 ٠
ــ أبو بكر بن العربى ــ 234 ــ 247 ــ 248 ــ 259 ــ 268 ــ 279 ــ 289 ــ 290 ٠
ــ بلحسن النجار ــ 60 ــ 140 ــ 220 ٠
ــ بهجة الأثرى ــ 332 ٠
ــ بهجة البيطار ــ 116 ــ 118 ــ 189 ــ 331 ــ 333 ــ 335 ــ 338 ــ 339 ــ 340 ٠
ــ بو قندورة (المشيخ ؟) ــ 241 ــ 246 ٠
ــ البيضاوى (القاضى) ــ 36 ــ 260 ــ 262 ــ 266 ٠
ــ البيهقى (أحمد) ــ 250 ٠

ــ ت ــ

ــ تاج الدين السبكى ــ 277 ٠
ــ تقى الدين بن صلاح ــ 277 ٠
ــ أبو تمام ــ 306 ٠
ــ توفيق البزرة ــ 332 ٠
ــ توفيق الجابرى ــ 334 ٠
ــ توفيق حيدر ــ 334 ٠
ــ ابن تيمية ــ 169 ــ 265 ٠

ــ ج ــ

ــ الجبلى (الشيخ) ــ 316 ٠
ــ جرجى زيدان ــ 295 ٠
ــ جرير ــ 166 ٠
ــ ابن جماعة ــ 265 ٠
ــ جمال باشا ــ 70 ــ 71 ــ 79 ٠
ــ جمال الدين الأفغانى ــ 50 ٠
ــ ابن حميع ــ 292 ٠
ــ جميل الشطى ــ 332 ــ 340 ٠
ــ جميل صليبا ــ 334 ٠
ــ جميل مراد ــ 333 ٠
ــ ابن جنى ــ 190 ــ 217 ــ 319 ــ 320 ٠

ـ الجنيد (أبو القاسم) ـ 268 .
ـ ابن الجهم ـ 317 .
ـ جودت الهاشمي ـ 333 ـ 334 .
ـ جيب (هملتون) ـ 113 .

ـ ح ـ

ـ ابن الحاجب ـ 264 ـ 265 ـ 278 ـ 313 .
ـ الحاكم ـ 250 ـ 317 .
ـ الحاكم بأمر الله ـ 282 .
ـ حامد التقى ـ 332 .
ـ أبو حامد الغزالي ـ 176 ـ 279 ـ 313 ـ 320 .
ـ الحبيب بورقيبة ـ 120 ـ 121 ـ 129 ـ 226 .
ـ الحبيب بن الشيخ ـ 324 .
ـ ابن حجر ـ 284 ـ 320 ـ 326 .
ـ ابن حزم ـ 321 .
ـ حسام الدين القدسي ـ 144 .
ـ حسام الدين الموذني ـ 320 .
ـ حسان بن النعمان ـ 149 .
ـ حسن الأسطواني ـ 274 .
ـ حسن الباقوري ـ 123 .
ـ حسن التريكي ـ 333 .
ـ حسن حسني عبد الوهاب ـ 80 ـ 113 .
ـ حسن الحكيم ـ 334 ـ 339 ـ 341 .
ـ حسن الشطي ـ 332 ـ 340 .
ـ حسن ظافر ـ 64 ـ 72 ـ 322 ـ 324 .
ـ حسن بن عياد ـ 254 .
ـ حسن فوري ـ 317 .
ـ حسن الميداني ـ 332 ـ 333 ـ 341 .
ـ أبو الحسن النجار ـ 48 .
ـ حسين باي ـ 51 .
ـ الحسين بن على الشريف ـ 29 .
ـ الحسين بن على بن أبي طالب ـ 256 .
ـ حسين بن منصور ـ 106 .
ـ الحلواني ـ 332 .
ـ حماد الراوية ـ 181 .
ـ حمدان بن على الجزائري ـ 76 .
ـ حمدان بن الونيسي ـ 238 .
ـ حمودة الريكلي ـ 302 .
ـ أبو حنيفة ـ 246 ـ 249 ـ 269 ـ 279 .
ـ الحوراني ـ 307 .
ـ أبو حيان ـ 319 .

ـ خ ـ

ـ خالد بن سنان ـ 283 .
ـ خالد بن عيسى البلوى ـ 273 .
ـ الخضر (عليه السلام) ـ 21 ـ 272 ـ 326 .
ـ ابن الخطيب ـ 262 .
ـ ابن خلدون ـ 75 ـ 149 ـ 165 ـ 166 ـ 170 ـ 176 ـ 317 .
ـ خلف الأحمر ـ 181 .
ـ ابن خلكان ـ 289 .
ـ الخليل بن أحمد الفراهيدى ـ 62 ـ 294 ـ 295 .
ـ خليل ثابت ـ 21 .
ـ خليل الخالدى ـ 325 .
ـ خليل مردم ـ 83 ـ 116 ـ 332 .

ـ خير الدين باشا (أحمد) ـ 25 ـ 50 .
ـ خير الدين الزركلي ـ 293 .
ـ أبو الخير (المفتي) ـ 283 .
ـ أبو الخير الميداني ـ 332 .

ـ د ـ

ـ الدماميني ـ 264 .
ـ ديكارت ـ 176 ـ 179 ـ 180 .

ـ ذ ـ

ذو اليدين ـ 237 .

ـ ر ـ

ـ راتب بن محمد العابد ـ 333 .
ـ الرازي (فخر الدين) ـ 267 ـ 291 ـ 318 .
ـ راغب باشا ـ 313 ـ 314 .
ـ راغب بن مصطفى التميمي ـ 303 ـ 306 .
ـ رشيد بقدونس ـ 332 .
ـ رشيد الرافعي ـ 281 .
ـ رشيد رضا (محمد) ـ 53 ـ 69 ـ 91 ـ 103 ـ 106 ـ 107 ـ 108 ـ 109 ـ 110 ـ 111 ـ 112 ـ 166 ـ 219 ـ 220 ـ 221 .
ـ رضا (مفتي الاي) ـ 274 ـ 282 .
ـ رياض بن محمد العابد ـ 333 .

ـ ز ـ

ـ الزركشي ـ 268 .
ـ زكي الدين التميمي ـ 306 .
ـ الزمخشري ـ 262 ـ 263 .
ـ الزنتاتي ـ 258 ـ 270 .
ـ زين العابدين بن الحسين ـ 29 ـ 60 ـ 62 ـ 113 ـ 137 ـ 289 ـ 331 .

ـ س ـ

ـ سالم بوحاجب ـ 34 ـ 35 ـ 37 ـ 38 ـ 52 ـ 54 ـ 58 ـ 138 ـ 208 ـ 219 ـ 220 .
ـ سالم بن عثمان ـ 311 .
ـ ابن السبكي ـ 308 ـ 317 .
ـ سعدى ياسين ـ 335 .
ـ أبو السعود بن أسعد المدني ـ 325 .
ـ سعيد الأسيوطي ـ 332 .
ـ سعيد أعرابي ـ 285 .
ـ سعيد الجزائري ـ 62 ـ 116 ـ 274 ـ 275 ـ 283 ـ 332 ـ 333 ـ 334
ـ سعيد الرشاش ـ 285 .
ـ سعيد الزواوي ـ 291 .
ـ السفاح (أبو العباس) ـ 323 .
ـ أبو سفيان (ابن أمية) ـ 192 .
ـ سفيان الثوري ـ 246 .
ـ السقا (الشيخ) ـ 257 .
ـ سلطان شاه ـ 320 .
ـ سليم الجزائري ـ 301 .
ـ سليم الجندي ـ 332 .
ـ ابن سناء الملك ـ 287 .
ـ السنوسي ـ 241 .
ـ سيبويه ـ 269 .
ـ سيف الدين القاضي ـ 247 .
ـ ابن سيناء ـ 320 .

ـ السيوطي (جلال الدين) ـ 292 ـ 317 ـ 326 .

ـ ش ـ

ـ الشاذلي النيفر ـ 128 .
ـ الشافعي (الامام) ـ 269 .
ـ شبل بن العلا ـ 250 .
ـ الشريف بن حمودة ـ 256 ـ 270 ـ 271 .
ـ الشريف الخطيب ـ 332 .
ـ الشريف الرضي ـ 270 .
ـ الشريف النص ـ 332 ـ 340 .
ـ شفيق المؤيد ـ 63 ـ 65 ـ 300 ـ
ـ شكري العسلي ـ 297 .
ـ الشهاب الخفاجي ـ 243 ـ 263 .

ـ ص ـ

ـ الصاحب بن عباد ـ 258 .
ـ الصادق المحمودي التونسي ـ 298 ـ 333 .
ـ صادق الميداني ـ 287 .
ـ صالح الشريف ـ 74 ـ 76 ـ 81 ـ 82 ـ 225 .
ـ صبحي البوسي ـ 333 .
ـ صبحي الحسيبي ـ 286 .
ـ صبحي العطار ـ 303 .
ـ صبحي أبو غنيمة ـ 334 .
ـ صلاح الدين الصفدي ـ 257 .
ـ صلاح الزعيم ـ 332 .

ـ ط ـ

ـ الطاهر الجزائري ـ 297 .
ـ الطاهر الحداد ـ 147 ـ 148 .
ـ الطاهر الكيالي ـ 339 .
ـ الطاهر محمد التونسي ـ 89 .
ـ الطاهر النيفر ـ 47 ـ 48 .
ـ الطبراني ـ 250 .
ـ طرفة بن العبد 181 .
ـ طه حسين ـ 21 ـ 94 ـ 95 ـ 96 ـ 97 ـ 108 ـ 133 ـ 146 ـ 147 ـ 156 ـ 163 ـ 174 ـ 175 ـ 176 ـ 177 ـ 178 ـ 180 ـ 181 ـ 182 ـ 209 ـ 218 .
ـ طه الراوي ـ 116 ـ 332 .

ـ ظ ـ

ـ الظاهر (الملك) ـ 276 .

ـ ع ـ

ـ ابن العابدين ـ 274 .
ـ عارف الدوجي ـ 332 ـ 340 .
ـ عارف الشهابي ـ 285 .
ـ عارف منير ـ 274 .
ـ أبو العباس الجدلي ـ 281 .
ـ أبو العباس الدرجيني ـ 26 .
ـ عباس محمود العقاد ـ 21 .
ـ أبو العباس المرسي ـ 254 .
ـ عبد الباقي الزرقاني ـ 36 .
ـ عبد الباقي (؟ المفتي المالكي) ـ 288 .
ـ ابن عبد البر ـ 321 .
ـ عبد الجليل الدرة ـ 332 .
ـ عبد الجليل الزاوش ـ 56 .
ـ عبد الحفيظ اللموشي ـ 27 .
ـ عبد الحكيم الطرابلسي ـ 332 .
ـ عبد الحليم بن سماية ـ 241 ـ

242 ـ 243 ـ 246 ·
ـ عبد الحليم النجار ـ 99 ·
ـ عبد الحميد حبش ـ 333 ·
ـ عبد الحميد مذكور ـ 100 ·
ـ عبد الحميد مراد ـ 333 ·
ـ عبد الحميد (السلطان) ـ 314 ·
ـ عبد الرحمان الثعالبي ـ 241 ·
ـ عبد الرحمان الخطيب ـ 332 ·
ـ عبد الرحمان بن سلام ـ 278 ـ 321 ·
ـ عبد الرحمان الصنادلي ـ 52 ·
ـ عبد الرحمان عزام ـ 101 ـ 120 ·
ـ عبد الرحمان عليش ـ 260 ·
ـ عبد الرحمان قراعة ـ 101 ـ 109 ـ 174 ·
ـ عبد الرحمان القصار ـ 286 ·
ـ عبد الرحمان الكيالي ـ 118 ـ 333 ـ 337 ـ 339 ·
ـ عبد الرحمان الناصر ـ 152 ·
ـ عبد الرزاق الملقي ـ 333 ·
ـ عبد السلام العيادي ـ 89 ·
ـ عبد العزيز الثعالبي ـ 56 ـ 228 ·
ـ عبد العزيز جاويش ـ 64 ـ 317 ·
ـ عبد العزيز فهمي ـ 92 ·
ـ عبد العزيز قاسم (المغربي) ـ 89 ·
ـ عبد العزيز محمد ـ 101 ـ 104 ـ 105 ·
ـ عبد الغني العروسي ـ 301 ·
ـ عبد الفتاح المكاوي ـ 185 ـ 255 ·
ـ عبد القادر باشا ـ 290 ·
ـ عبد القادر الجزائري ـ 116 ـ 276 ـ 289 ـ 291 ·
ـ عبد القادر الخطيب ـ 281 ـ 283 ·
ـ عبد القادر بن الشيخ زاده ـ 272 ·
ـ عبد القادر الطنطاوي ـ 332 ·
ـ عبد القادر بن مبارك ـ 332 ـ 339 ·
ـ عبد القادر المجاوي ـ 45 ـ 243 ·
ـ عبد القادر المغربي ـ 113 ـ 116 ـ 191 ·
ـ عبد القاهر الجرجاني ـ 154 ـ 185 ـ 212 ·
ـ عبد الكريم الخطابي ـ 121 ·
ـ عبد اللطيف الخربوتي ـ 322 ·
ـ عبد الله السمنطي المالطي ـ 252 ·
ـ عبد الله بن عبد القادر الجزائري ـ 274 ـ 298 ·
ـ عبد الله الكافي ـ 89 ·
ـ أبو عبد الله محمد البكي ـ 313 ·
ـ أبو عبد الله المنتصر ـ 309 ·
ـ أبو عبد الله الهواري الأندلسي ـ 294 ـ 295 ·
ـ عبد المجيد سليم ـ 112 ·
ـ عبد المحسن الأسطواني ـ 341 ·
ـ عبد المعطي السقا ـ 259 ـ 260 ·
ـ عبد النبي (؟) ـ 278 ·
ـ عبد الوهاب طنطاوي ـ 332 ·
ـ عبد الوهاب المالكي ـ 19 ـ 333 ـ 334 ـ 335 ـ 336 ·
ـ عبد الوهاب النجار ـ 100 ·
ـ عثمان الحيرصي ـ 273 ·
ـ عدنان رابح ـ 333 ·
ـ العرباض بن سارية ـ 282 ·

261 ـ 267 ـ 268 ـ 270 ـ 309 ـ
ـ ابن عرفة (الورغمى) ـ 258 ـ 315 ـ 320 ٠
ـ عزت شموط ـ 332 ٠
ـ عز الدين التنوخى ـ 333 ـ 335 ٠
ـ عز الدين بن عبد السلام ـ 259 ـ 321 ٠
ـ بنت عزوز (والدة الشيخ م. خ. حسين) ـ 80 ٠
ـ ابن عساكر ـ 309 ٠
ـ ابن عصفور ـ 309 ٠
ـ عضد الدين الايجى ـ 36 ٠
ـ عطاء الكسم ـ 274 ـ 289 ـ 294٠
ـ ابن عطية ـ 262 ٠
ـ عكرمة بن عبد الله ـ 259 ٠
ـ أبو العلاء المعرى ـ 293 ـ 294 ٠
ـ علقمة ـ 181 ٠
ـ على باشا (الأمير) ـ 290 ـ 302٠
ـ على باشا باى ـ 51 ٠
ـ على باش حامبة ـ 55 ـ 57 ـ 58 ٠ 72 ـ 74 ـ 76 ـ 81 ـ 224 ـ 225٠
ـ على بوشوشة ـ 52 ٠
ـ على بن الحاج موسى ـ 241 ٠
ـ على بن الحداد ـ 240 ـ 241 ـ 248 ٠
ـ على رضا التونسى ـ 21 ـ 81 ـ 136 ـ 137 ـ 141 ـ 144 ـ 145 ـ 186 ـ 190 ـ 192 ٠
ـ على رضا (الشيخ) ـ 311 ٠
ـ أبو علي السنى ـ 26 ٠
ـ على بن صالح ـ 306 ٠
ـ على بن أبى طالب ـ 284 ٠
ـ على ظبيان ـ 332 ـ 340 ٠
ـ على عبد الرازق ـ 91 ـ 92 ـ 95 ـ 97 ـ 108 ـ 133 ـ 155 ـ 156 ـ 163 ـ 164 ـ 165 ـ 166 ـ 167 ـ 168 ـ 169 ـ 170 ـ 171 ـ 172 ـ 173 ـ 209 ٠
ـ على بن عمر ـ 22 ٠
ـ على بن غداهم ـ 24 ٠
ـ على قارى ـ 320 ٠
ـ على محفوظ ـ 100 ٠
ـ على النيفر ـ 128 ٠
ـ على الوردانى ـ 213 ٠
ـ عماد الدين الكاشى ـ 320 ٠
ـ عمر بن الخطاب ـ 169 ـ 238 ـ 263 ـ 283 ـ 309 ٠
ـ عمر بن الشيخ ـ 34 ـ 35 ـ 36 ـ 38 ـ 208 ٠
ـ عمر فرحات ـ 332 ٠
ـ عمر بن عبد العزيز ـ 166 ـ 326٠
ـ عمرو بن العلاء ـ 177 ـ 178 ٠
ـ عمرو بن كلثوم ـ 177 ـ 181 ـ 186 ٠
ـ عياض (القاضى) ـ 253 ـ 315٠
ـ عيسى (عليه السلام) ـ 317 ٠

ـ ف ـ

ـ فؤاد الأول (ملك مصر) ـ 90 ـ 94 ـ 97 ـ 98 ـ 113 ـ 123 ـ 164 ٠
ـ ابن الفارض ـ 313 ٠
ـ ابن الفرج الجوزى ـ 259 ٠
ـ فكرى ياسين ـ 100 ٠

ـ الفنارى ـ 321 ـ 323 .
ـ فيشر (المستشرق) ـ 113 .
ـ فيصل بن حسين ـ 79 ـ 81 .

- ق -

ـ القادر بالله ـ 270 .
ـ أبو القاسم بن رمضان المالطى ـ 252 .
ـ أبو القاسم الشابى ـ 189 .
ـ ابن القاسم (عبد الرحمان) ـ 247 .
ـ قاسم القاسمى ـ 332 .
ـ أبو القاسم محمد كرو ـ 81 .
ـ القرافى (شهاب الدين) ـ 279 ـ 283 ـ 290 ـ 315 .
ـ القصار ـ 60 .

- ك -

ـ كارلو نالينو (المستشرق) ـ 113 .
ـ كامل الهرباوى ـ 334 .
ـ إبن كمال باشا ـ 246 .
ـ كمال الدين المغربى ـ 307 .

- م -

ـ المازرى (الامام) ـ 278 ـ 315.
ـ ماسيكو ـ 56 .
ـ ماسينيون (المستشرق) ـ 80 ـ 113 .
ـ مالك بن أنس ـ 249 ـ 250 ـ 269 ـ 338 .
ـ ابن مالك ـ 244 .
ـ المبرد ـ 212 .
ـ المتنبى (أبو الطيب) ـ 39 ـ 282 ـ 306 .
ـ مجد الدين (الفيروزابادى) ـ 319 .
ـ محب الدين الخطيب ـ 132 ـ 196 .
ـ محمد أحمد بوراس ـ 323 .
ـ محمد أحمد دهمان ـ 332 ـ 340.
ـ محمد الأحمد الظواهرى ـ 104 ـ 107 ـ 111 ـ 112 ـ 221 .
ـ محمد أسعد برادة ـ 101 .
ـ محمد ابن الأغلب ـ 252 .
ـ محمد باش حامبة ـ 76 ـ 81 ـ 82 ـ 225 .
ـ محمد بخيت ـ 101 .
ـ محمد بلخوجة ـ 213 .
ـ محمد بلكبباش ـ 316 .
ـ محمد بيرم الخامس ـ 50 .
ـ محمد بيزار الجزائرى ـ 76 .
ـ محمد التهامى نصر ـ 89 .
ـ محمد توفيق باشا ـ 113 .
ـ محمد الجنيدى بن الحسين ـ 29.
ـ محمد بن حزم ـ 159 ـ 160 .
ـ محمد بن الحسن الشيبانى ـ 247.
ـ محمد الحشائشى التونسى ـ 326.
ـ محمد بن خالد الجندى ـ 317 .
ـ محمد الخضرى ـ 96 .
ـ محمد أبو الخير بن عابدين ـ 274 .
ـ محمد الرزقى الجزائرى ـ 89 .
ـ محمد رضوان ـ 48 .

ـ محمد سعيد النعساني ـ 332 .
ـ محمد السنـوسـي ـ 50 ـ 51 ـ 52 .
ـ محمد الشريف ـ 244 .
ـ محمد بن شطة الجزائري ـ 285 .
ـ محمد بن أبـي الشنـب ـ 45 ـ 80 ـ 242 .
ـ محمد الشيبي التونسي ـ 76 .
ـ محمد بن الشيـخ بن يـوسـف الأمير ـ 325 .
ـ محمد الصادق باي ـ 24 .
ـ محمد الصادق الجبالي ـ 303 .
ـ محمد الصادق النيفر ـ 48 .
ـ محمد الصالح بن الشايب ـ 235 .
ـ محمد الصالح الشواشي ـ 257 ـ 270 .
ـ محمد صبحي العطار ـ 300 .
ـ محمد الطاهر ابن عاشور ـ 43 ـ 44 ـ 46 ـ 48 ـ 82 ـ 102 ـ 128 ـ 140 ـ 151 ـ 164 ـ 197 ـ 211 ـ 220 ـ 223 ـ 271 ـ 328 .
ـ محمد العابد ـ 333 .
ـ محمد عابدين ـ 297 .
ـ محمد عبان القيرواني ـ 258 .
ـ محمد بن عبد الرحمان الأزهري ـ 23 ـ 243 .
ـ محمد عبد السلام القباني ـ 100 .
ـ محمد عبد المطلب ـ 100 .
ـ محمد عبد المنعم خفاجي ـ 22 .
ـ محمد عبـده ـ 35 ـ 36 ـ 43 ـ 50 ـ 51 ـ 52 ـ 53 ـ 69 ـ 110 ـ 111 ـ 219 ـ 221 .
ـ محمد عبد الوهاب المحامي ـ 89 .
ـ محمد العربي بن قشوط ـ 236 .
ـ محمد عرفة ـ 97 .
ـ محمد العـروسي بن الحسيـن ـ 29 ـ 60 ـ 183 ـ 294 .
ـ محمد العزيز بو عتـور ـ 138 ـ 149 ـ 220 .
ـ محمد العطار ـ 332 .
ـ محمد علي النجار ـ 196 .
ـ محمد بن عيسى الجزائري ـ 243 .
ـ محمد الفاضل ابن عاشور ـ 53 ـ 86 ـ 96 ـ 213 .
ـ محمد فريد وجدي ـ 96 ـ 107 .
ـ محمد الفاضل بن عطية ـ 250 .
ـ محمد بن القاسم بن يسار ـ 159 .
ـ محمد القديدي القيرواني ـ 256 ـ 273 .
ـ محمد القروي (الأميـر الاي) ـ 52 .
ـ محمد الكافي ـ 332 .
ـ محمد كامـل القصـاب ـ 116 ـ 332 ـ 333 ـ 341 .
ـ محمد كرد علي ـ 80 .
ـ محمد لطفي جمعة ـ 96 .
ـ محمد مزيان التلمساني ـ 76 .
ـ محمد بن مصطفى خوجة ـ 245 ـ 246 ـ 247 .
ـ محمد المكـي بن الحسيـن ـ 29 ـ 60 ـ 102 ـ 285 .
ـ محمد المكي ابـن عـزوز ـ 22 ـ 25 ـ 27 ـ 28 ـ 33 ـ 36 ـ 39 ـ 60 ـ 63 ـ 72 ـ 200 ـ 208 ـ 305 ـ 312 ـ 326 .

ـ محمد النجار ـ 34 ـ 36 ـ 37 ـ 38 ـ 54 ـ 58 ـ 140 ـ 208 ـ 219 .
ـ محمد النخلي ـ 48 ـ 140 ـ 215 .
ـ محمد نور ـ 95 .
ـ محمد النيفر ـ 102 .
ـ محمد هاشم الخطيب ـ 332 .
ـ محمود الجزائري ـ 274 .
ـ محمود حافظ ـ 98 .
ـ محمود درغوث ـ 311 .
ـ محمود بن رشيد التونسي ـ 257 .
ـ محمود الشنقيطي ـ 315 .
ـ محمود بن كامل المغربي ـ 307 .
ـ محمود ياسين ـ 116 ـ 332 ـ 333 ـ 339 ـ 340 ـ .
ـ محيي الدين الجزائري ـ 334 .
ـ محي الدين بن عربي ـ 275 ـ 276 ـ 313 .
ـ محي الدين القضماني ـ 285 .
ـ محي الدين القليبي ـ 120 ـ 228 .
ـ المختار بن الشيخ ـ 324 .
ـ المختار بوهاشم التونسي ـ 273 .
ـ مرغليوث (مستشرق) ـ 176 ـ 177 ـ 178 .
ـ المروزي ـ 281 .
ـ المستنصر بالله ـ 281 .
ـ مسعود بن علي ـ 237 .
ـ مسعود المحيرصي ـ 273 .
ـ مسلم بن الوليد ـ 306 .
ـ مصطفى بن الأكحل ـ 246 .
ـ مصطفى بدر زيد ـ 100 ـ 102 .
ـ مصطفى راغب ـ 311 .
ـ مصطفى الشهابي ـ 285 .
ـ مصطفى بن الطالب ـ 248 ـ 249 .
ـ مصطفى طنطاوي ـ 274 ـ 279 .
ـ مصطفى ابن عزوز ـ 22 ـ 23 ـ 24 ـ 39 ـ 208 .
ـ مصطفى كمال (أتاتورك) ـ 89 ـ 93 ـ 199 .
ـ مصطفى المراغي ـ 99 ـ 100 ـ 104 ـ 106 ـ 107 ـ 108 ـ 109 ـ 110 ـ 111 ـ 220 ـ 221 .
ـ مصطفى نجا ـ 301 .
ـ مطرف بن عبد الله ـ 239 .
ـ معاوية بن أبي سفيان ـ 180 .
ـ معاوية (الشيخ) ـ 278 .
ـ معروف الرصافي ـ 63 ـ 300 ـ 301 ـ 318 ـ 322 .
ـ المعز الفاطمي ـ 166 .
ـ المقريزي ـ 254 .
ـ المكي بن محمد الكتاني ـ 333 .
ـ منذر بن سعيد البلوطي ـ 152 ـ 159 .
ـ منصور فهمي ـ 113 .
ـ منير العجلاني ـ 334 .
ـ المهدي ـ 317 .
ـ المهلهل ـ 181 .
ـ موسى البديري ـ 273 .
ـ موسى (عليه السلام) ـ 265 ـ 272 ـ 316 .
ـ الميداني ـ 325 .

ـ ن ـ

ـ الناصر باي ـ 51 .

ـ ناصر الدين الترمذى ـ 320 .
ـ ناظم باشا ـ 285 .
ـ أبو نصر اليافى ـ 333 ـ 339 ـ 341 .
ـ نصوجى البخارى ـ 334 .
ـ نصوحى العظم ـ 303 .
ـ أبو نعيم الأصبهانى ـ 308 .
ـ النكدى ـ 337 .
ـ النووى ـ 277 ـ 326 .

ـ هـ ـ

ـ هارون الرشيد ـ 71 .
ـ ابن هانىء ـ 166 .
ـ أبو الهدى الحسيبى ـ 334 .
ـ أبو هريرة (الصحابى) ـ 250 . 309
ـ ابن هشام ـ 189 ـ 263 ـ 269 .

ـ و ـ

ـ ورقة بن نوفل ـ 138 .
ـ أبو الوليد الباجى ـ 293 .
ـ ولى الدين بن والى ـ 311 .

ـ ى ـ

ـ ياسين الفراء ـ 332 .
ـ يحيى بن بريد ـ 250 .
ـ يحيى القلعى ـ 289 .
ـ يحيى المكتبى ـ 274 .
ـ أبو يزيد البسطامى ـ 313 .
ـ يوسف الدجوى ـ 101 ـ 106 ـ 111 ـ 221 .
ـ يوسف بن سماية ـ 248 .
ـ يوسف بن عبد المؤمن ـ 323 .
ـ يوسف العظمة ـ 81 .
ـ يوسف النبهانى ـ 62 ـ 274 .
ـ أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) ـ 247 .
ـ يونس بن عبد الأعلى بن حيان ـ 317 .

الفهرس العام

العنوان	الصفحة
ـ تقديم	7
ـ الى القارىء	9
ـ مقدمة	11
ـ الرموز	15
القسم الأول	
* * *	
حياته	
ـ تمهيد :	18
◆ **الباب الأول :** حياته بالبلاد التونسية	20
ـ **الفصل الأول :** حياته بنفطة	21
ـ اسمه	21
ـ ولادته	21
ـ نسبه	22
ـ خاله	25
ـ تربيته وتعلمه	26
ـ انتقاله الى تونس	28
ـ **الفصل الثاني :** حياته بتونس	29
ـ جامع الزيتونة في ذلك العهد	29
ـ محمد الخضر حسين وجامع الزيتونة	31
ـ شيوخه	33
ـ تخرجه من الزيتونة	38
ـ مجلة « السعادة العظمى »	39
ـ الرحلة الجزائرية الأولى	40
ـ رحلته الثانية الى الجزائر	44

- تولى خطة القضاء ببنزرت 46
- التدريس بجامع الزيتونة 47
- بين تيـارين : 50
- تيار الاصلاح الديني والاجتماعي 50
- تيار الاصلاح السياسي 55
- رحلته الى الشرق 60
- إنتقاله الى الشرق 65

◆ **الباب الثاني** : حياته بالبلاد السورية 67

- **الفصل الأول** : حياته بدمشق 69
- دخوله السجن 70
- **الفصل الثاني** : حياته بالاستانة وبرلين 72
- دخوله المجمع العلمي 80
- سفـره الى مصر 80

◆ **الباب الثالث** : حياته بمصر 85

- **الفصل الأول** : حياته قبل بلوغه مشيخة الازهر 87
- اهتمامه بالمغاربة 88
- موقفه من الخلافة الاسلامية 89
- خلافه مع طه حسين 94
- تأسيس « جمعية الهداية الاسلامية » 98
- مجلة « الهداية الاسلامية » 102
- التدريس بجامع الازهر 103
- مجلة « نور الاسلام » 104
- خصومته مع الشيخ رشيد رضا 107
- دخوله المجمع اللغوى 113
- رحلته الى دمشق 115
- اهتمامه بالمغرب العربي 119
- دخوله هيئة كبار العلمـــاء 122

- **الفصل الثاني** : مشيخة الازهر 123

- الثورة المصرية 123
- تقلده مشيخة الازهر 123

- وفاة زوجته 125
- استقالته من الازهر 126

- **الفصل الثالث : حياته بعد الازهر** 126

- اعانـة التونسيين 127
- وفاته 129

القسم الثاني

* * *

آثاره

- تمهيـد : 132

◆ **الباب الأول : مقالاته ومحاضراته** 136

- **الفصل الأول : مقالاته** 137

- مجلة « السعادة العظمى » 137
- رسائل الاصلاح 141
- بلاغـة القرآن 145
- تونس وجامع الزيتونة 148

- **الفصل الثاني : محاضراته** 150

- الحرية فى الاسلام 151
- حياة اللغة العربية 153
- العظمة 155
- الخطابة عند العرب 157
- علماء الاسلام فى الاندلس 158

◆ **الباب الثاني : مؤلفاته** 162

- **الفصل الأول : كتابا النقض** 163

- نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم 163
- نقض كتاب فى الشعر الجاهلى 174

- **الفصل الثاني : الرسائل والبحوث** 182

- الدعوة الى الاصلاح 183

- الخيال فى الشعر العربى 185
- القياس فى اللغة العربية 189
- محمد رسول الله وخاتم النبيين 191

◆ **الباب الثالث :** شعره 194

- ديوان « خواطر الحياة » 195

القسم الثالث

* * *

شخصيته الثقافية

- تمهيد 206
- **الفصل الأول :** الرجل العالم 208
- **الفصل الثاني :** الأديب واللغوى 212
- **الفصل الثالث :** المصلح 219
- **الفصل الرابع :** السياسى 224
- **الخاتمة** 230

الملحق

- تمهيد 232
- الرحلة الجزائرية 233
- خلاصة الرحلة الشرقية 251
- حديث عن رحلتى الى دمشق 331
- المراجع 343
- فهرس الاعلام 349
- الفهرس العام 360

انتهى طبع هذا الكتاب
بالشركة التونسية لفنون الرسم
20 نهج المنجي سليم - تونس
- 1974 -